شفيق الغبرا

حياة غير آمنة

جيل الأحلام والإخفاقات

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN 978-1-85516-670-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١ ٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١ ٠
e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

الإهداء

للذين حفروا في ذاكرتي قصةً تستحق
أن تُروى، لأجيال حالمة بالتغيير.

المحتويات

مقدّمة

انتظرت ٣٠ عاماً لأكتب عن تجربتي مع الثورة والمقاومة من أجل القضية الفلسطينية. لقد اكتنزت طيلة العقود الثلاثة الماضية آلام ذلك الزمن وآفاقه. أجد نفسي أحيي تلك المرحلة ١٩٧٥-١٩٨١ والسنوات التي مهدت لها، في كلمات توقظ ذاكرتها في ضميري وتساعدني على علاج جراحها. لقد بدأت هذه الحكاية معي ومع جيلي بعد حرب ١٩٦٧. فقد سعينا كشباب عربي يرتبط بالهوية العربية والفلسطينية للرد على الهزيمة التي حلّت بالعالمَ العربي ونتج عنها تدهور الأمل بتحرير فلسطين، إضافة الى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية وسيناء المصرية والجولان السوري. لقد بحث جيلي عن طريق لإنضاج القدرة على استعادة الأرض والحقوق الفلسطينية وتحقيق النهضة، وإن أمكن عن أشكال من الوحدة العربية، من خلال بناء قاعدة آمنة نستند إليها في تحرير الأرض واستعادتها. تحوّل هذا إلى حلمي الشخصي وحلم جيل عربي شاب ولد معظمه في أواخر أربعينيات القرن العشرين وأوائل الخمسينيات منه وفتح عينيه على الدنيا بعد حرب ١٩٦٧.

تساءلت مع نفسي عن اللحظة التي صاغتني وصاغت جيلي وجعلتني شخصياً على ما أنا عليه في جانب أساسي من حياتي: إنها حرب ١٩٦٧ التي أيقظت فينا عملاقاً مكبوتاً يبحث عن تحرّر وإعادة اعتبار لما حصل في نكبة ١٩٤٨ عند قيام إسرائيل.

لهذا بالتحديد جذبت جيلي حركة فتح التي تأسّست بقيادة ياسر عرفات ومجموعة من إخوانه عام ١٩٦٥. فهي التي صنعت معركة الكرامة الكبيرة عام

١٩٦٨، التي عُدّت أول مواجهة ناجحة بين العرب وإسرائيل بعد هزيمة حرب ١٩٦٧ وبداية الطريق لبناء قاعدة تلتزم التحرير استناداً إلى الشعب، وهي التي قلبت شعار القوميين العرب والناصريين من «الوحدة طريق فلسطين» إلى «فلسطين طريق الوحدة». لقد تبلورت تجربة قطاع مهم من هذا الجيل من الفدائيين الأوائل المكونة من خلفيات وديانات ومذاهب ووطنيات عربية مختلفة في صفوف حركة فتح الفلسطينية.

خضت أولى تجاربي في العمل الطلابي السياسي مع حركة فتح في عدة عواصم ودول. البداية كانت في المدرسة في الفصل الدراسي العاشر في الكويت عام ١٩٦٨ في التنظيم الطلابي لحركة فتح، ثم في لبنان إبان دراستي في السنتين الأخيرتين من الثانوية، ثم في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧١ حتى ١٩٧٥ أثناء الدراسة الجامعية. ولكن مع تخرّجي من جامعة جورج تاون الأميركية عام ١٩٧٥، كنت قد بلغت الحادية والعشرين من العمر، وعلى مدى ست سنوات متتالية بعدها، ستتحول تلك التجارب إلى التزام شامل بالكفاح المسلح والقتال انطلاقاً من جنوب لبنان. فالجنوب في ذلك الوقت تحوّل إلى الجبهة الوحيدة الباقية والمفتوحة بين العرب وإسرائيل.

من أجل مشروع الأرض والتغيير بمعناه العربي الاوسع ومشروع الرد على هزيمة ١٩٦٧ انضوى مئات الشبان والشابات من ذوي الميول الوطنية اليسارية، القادمين من التنظيم الطلابي لحركة فتح وقطاعات أخرى وتيارات حزبية عربية شبابية، تحت لواء ما سُمّي بداية «السرية الطلابية» والذي تحول في ما بعد الى اسم «كتيبة الجرمق» المقاتلة ضمن حركة فتح. لقد جمعت «السرية الطلابية» (كتيبة الجرمق) بين أعضائها مزيجاً من الشباب العرب من فلسطينيين ولبنانيين وعراقيين ويمنيين، ومن مذاهب وديانات مختلفة، من سنّة وشيعة ودروز وموارنة، ومسلمين ومسيحيين. بل إن عدد اللبنانيين في الفصيل فاق عدد الفلسطينيين، إذ نجحت «السرية الطلابية» في استقطاب كل من امتلك حسّاً مجدّداً وأراد التغيير، وكل من أحبطته ممارسات الفصائل الأخرى والقيادات والأحزاب التقليدية والوطنية...

اشتهرت «السرية الطلابية»، ثم «كتيبة الجرمق» في ما بعد - التابعة لحركة

فتح - رغم معارضتها المعروفة للحرب الأهلية اللبنانية بحكم تركيزها على فلسطين، بجرأتها في الجزء الأول من الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥-١٩٧٦، كما تميزت بعدم طائفيتها أثناء الحرب الأهلية، ورفضها للتطهير الديني بين الفرقاء وأحياناً انسجامها مع خط حركة فتح العام، وأحياناً أخرى تقديمها لرؤى وأفكار وممارسات إصلاحية لم تكن متوافقة مع الممارسات العامة السائدة في فتح أو في الوسط المقاوم. ثم أصبحت «السرية الطلابية/ كتيبة الجرمق» من أكثر الأطراف العسكرية احترافاً وقدرة في مواجهة إسرائيل الساعية إلى التوسع عبر بناء القطاع الأمني في الجنوب اللبناني ١٩٧٦-١٩٨٢.

* * *

على مرّ أيام هذه التجربة الشاقة، غيّب الموت المئات منا، فقدنا أعز أصدقائنا، ولكننا اعتبرنا ذلك جزءاً من ضريبة تحقيق عالمنا. سقط الموت علينا في البداية في أواسط السبعينيات مثل حبيبات المطر الخفيف، فتقبّلناه وحسبنا أن الضريبة لن تتجاوز هذه البدايات. ولكن الموت سرعان ما تحوّل الى زخات من المطر الغزير. مع انتشار حالة الموت، لم نعد نشعر بشيء، إلا بضرورة الاستمرار من أجل من سقطوا ولحماية فكرتهم ومبادئهم والدفاع عن القواعد التي بنيناها في جنوب لبنان من أجل تحرير الأرض.

قد تكون تجربتي الذاتية قصة تحوّل من البراءة إلى الراديكالية، ومن الراديكالية إلى التساؤل. فحالي حال الكثيرين من الشبان العرب ممن تحوّلوا نحو طريق العنف المسلح في سبيل القضية الفلسطينية قبل أن يكتشفوا ضرورة وجود طرق أخرى إلى جانب الثورة والعنف أو بمعزل عنهما. وربما تكون سيرتي الذاتية هذه هي قصة جيل كامل لم تفسده حياة العنف، ولم تحبطه حالة الدمار التي أحاطت بالحياة في تلك الأيام الغابرة، بل جعلته أكثر إصراراً على الاستمرار نحو آفاق مختلفة وأحياناً تبدو متناقضة.

بموت معظم صانعي هذه القصة الحقيقيين واختفائهم ساد السكون. ولكنه سكون يعكس مخاضاً جديداً، على يد جيل جديد، هو الآخر قد يصيب ويخطئ.

لقد كتبت هذا الكتاب وفي ذهني مقاومون ومجدّدون ينبتون في قلب الصراع العربي الإسرائيلي وفي العالم العربي وعلى تخومه، ويسعون إلى التعامل مع الأسئلة نفسها والقضايا والمشكلات التي سعى جيلي إلى التعامل معها.

وحين كنت أضع اللمسات الأخيرة لهذا الكتاب ما قبل النشر، بدأت ثورات الشباب في العديد من الدول العربية. بدأت مع ثورة الشباب في تونس نهاية العام ٢٠١٠ واستمرت مع شباب مصر في ثورة ٢٥ يناير والبحرين واليمن وليبيا وسوريا وتواصل انتشارها في دول أخرى وأنا أكتب هذه السطور الأخيرة. غلب على هذه الثورات الشبابية منحى سلميّ، وتميّزت بوسائل جديدة اعتمدت على ثورة تكنولوجيا المعلومات وما أنتجته من أساليب للتواصل الشبابي كـ«الفايسبوك» و«التويتر» و«اليوتيوب» و«المدونات الشبابية عبر الانترنت»، واتسم خطابها بالعصرية والتوجهات الديموقراطية المدنية و الإنسانية رغم الخبرة السياسية المتواضعة التي توفرت لهم. كم شعرت بأن هذا الجيل يخاطب جيلنا، بطرق جديدة ووسائل مختلفة وزمن جديد.

إلى هؤلاء المقاومين الجدد، وإلى الشبان والشابات الذين يبحثون عن طريق جديد، أكتب هذا الكتاب، آملاً أن يكون المستقبل بالنسبة إليهم أفضل مما كان الماضي بالنسبة إلينا. فقد يجدون في تجربتنا ما يغني رؤاهم، وفي ظروفنا ما يعمّق فهمهم، وفي أخطائنا ما يساعدهم على حماية قضيتهم. وإن لم يجدوا فيها شيئاً، فأنا أكتبها لذكرى أصدقائي الذين سقطوا على درب التجربة، والذين علّموني ما لم أكن أعلم. وأكتبها أيضاً لذكرى رفاقي وزملائي المناضلين والمناضلات الذين عاشوا التجربة وانطلقوا بعدها الى آفاق أخرى في الحياة. أكتب باحترام كبير للتجربة، ولكل من أسهم فيها، ولكل من قدّم لإنضاجها وضحّى تحت لوائها.

ومن خلال الكتابة الشاقة بدأت أفهم تلك المحطات الصعبة التي مررت بها ومرّ بها «جهاد»، ذلك الاسم الذي حملته وأنا أخطّ هذه التجربة في إطار التوق إلى التغيير والتفاؤل المنتشر بين أبناء جيلي. بدأت أرى كيف انغمست في تجربة التغيير العربية من خلال القضية الفلسطينية. من خلال سردي اكتشفت عالماً تركته ورائي منذ عقود. أعدت اكتشاف صديقي في نفسي «جهاد»، فقد ظننت أن ذلك العالم قد

اندثر مع موت أصدقائي وفقدان زملائي وتفكك تلك المرحلة ودمار «القاعدة الآمنة» التي حاولنا بناءها، لكنني اكتشفت أنه حيّ في أعماقي. فهذه الكتابة هي الأكثر صعوبة بين كل ما كتبت منذ أن تعلمت الكتابة، لأنها أحيت في روحي عالماً حسبت أنني لن أغادره حياً، وإذا بي أجد «جهاد» حيّاً يعيش في أعماقي وذكرياتي ومخاوفي.

* * *

ماذا نمتلك غير اللغة لاستعادة الأرواح التي غادرتنا شابة حالمة تُختصر حياتها في نعي يستمر لدقائق، وملصق على جدران الأزقة الفقيرة في أزقة المخيّمات، وشوارع بيروت وصيدا والجنوب، وأماكن ودروب أخرى في العالم العربي. ملصق لشهيد سرعان ما يختفي من كثرة الملصقات التي وضعت قربه وفوقه، وعليها صور لشهداء جدد يسقطون كل يوم.

من أنا

ليس سهلاً أن يشعر الإنسان في العالم العربي بأنه فلسطيني أو من جذور فلسطينية أو أن أجداده ووالديه ولدوا في فلسطين المنكوبة وأنهم تشرّدوا جرّاء قيام إسرائيل والحرب الإسرائيلية العربية الأولى عام ١٩٤٨. فهو شعور وُلد من رحم تجربة مأساوية.

وعلى الرغم من أنني أصبحت مواطناً كويتياً، وذلك بسبب مجيء والدي الطبيب الشاب إلى الكويت وإسهامه في مسيرتها الطبية في مرحلة حساسة في أوائل الخمسينيات، لم يكن من السهل التخلّي عن فلسطين، سياسياً وثقافياً وإنسانياً بوصفها قضية حقوق وصراع حضاري ووجودي. فما حصل في فلسطين مع الشعب الفلسطيني، وما حصل في العالم العربي جرّاء الصراع العربي الإسرائيلي، لم يفرض الالتزام بالقضية الفلسطينية على العرب ذوي الجذور الفلسطينية مثلي فحسب، بل فرضه على معظم العرب والمسلمين وعلى أصحاب الضمائر الإنسانية في العالم. إن الانسلاخ عن هذه القضية ليس خياراً، حتى لو أردنا ذلك. حتى لو حاولنا واختبأنا في أقاصي الأرض، لأنه من دون حل صائب لفلسطين والفلسطينيين

أساسه العدالة والحقوق، ستبقى مسألة فلسطين تقلق العالم وتقلق إقليمنا من خلال تحوّلها إلى مصدر صراع وغضب دائمين.

كيف بدأت فكرة كتابة هذه السيرة؟

بدأت كتابة هذه التجربة عندما اقترحت عليّ أستاذة الأدب الإنكليزي في جامعة تكساس في أوستن «بي جاي فيرنيا» لأول مرة عام ١٩٩٣، أن أكتب سيرتي الذاتية بتركيز خاص على مرحلة الطفولة. أرادت «بي جاي» أن تجمع تجارب طفولة عدد من الشخصيات العربية. لقد تعرّفت إلى «بي جي» عندما كنت أدرس وزوجتي تغريد القدسي في جامعة تكساس أثناء الإعداد لأطروحة الدكتوراه في الثمانينيات.

ضحكت كثيراً لطلب «بي جي فيرنيا» غير العادي. وبأسلوبها المحبّب، نجحت في إقناعي بالكتابة عن سنواتي الأولى. وسأكتشف بعد أن كتبت هذا الجزء من حياتي الذي سلّمته إلى «فيرنيا» ونشرته في كتاب من إعدادها، أن هناك تكملة لكل ذلك، ووجدت نفسي أستمر بالكتابة متحدثاً في فصول أخرى عن تجربتي في الحركات الفلسطينية، وتحديداً حركة فتح، وهي في قمة عطائها. ولكنني أبقيت هذا الجزء الكبير الذي كتبته عام ١٩٩٤ محفوظاً[١].

إن صديقي عماد عمر الناشط الحقوقي في الأردن، الذي تعرّفت إليه في الكويت قبل حرب ١٩٩٠، والذي صاغ الكثير من تجربته في أجواء القضية الفلسطينية وحقوق الإنسان، ظل يلحّ عليّ في كل لقاء على ضرورة الكتابة. علم عماد بالكثير من تفاصيل تجربتي، وظل يردّد: «في تجربتكم دروس كثيرة لجيلنا». فعماد، نظراً إلى فارق السن بيننا، لم يتح له التعرّض للتجربة التي تعرّض لها جيلي.

ولكنّ قائد «السرية الطلابية» و«كتيبة الجرمق» معين الطاهر، الذي خضت معه هذه التجربة من أبوابها الأصعب، فاجأني في ربيع ٢٠٠٨: «آن الأوان لنكتب

(١) Remembering Childhood in the Middle East: Memoirs from a Century of Change (Paperback) Elizabeth Warnock Fernea (Editor), University of Texas Press, 2002.

التجربة ولنتحدث عنها كما وقعت بموضوعية». فقد تأثر معين بما كتبه فتحي البس، المكافح أيضاً في صفوف «السرية الطلابية» في مراحلها الأولى وفي زمن التنظيم الطلابي لفتح في الجامعة الأميركية في بيروت، في كتابه القيّم «انثيال الذاكرة» عام ٢٠٠٨. أن نكتب الآن أو ننتظر، تحوّل إلى محطّ حديث طويل مع معين. في نهاية الحديث وعدته بأن أكتب التجربة كما عشتها وشعرت بها. لكني لم أكن أعرف أن الكتابة واستذكار التجربة، بما في ذلك خوض حوارات مع رفاقي القدامى، سيتطلّبان جهداً كبيراً ووقتاً، ويأخذانني في زيارات إلى دول عدة، منها الإمارات والأردن وبيروت وجنوب لبنان، حيث الرفاق القدامى من الأحياء ممن خاضوا هذه التجربة وتعرّضوا لمنعطفاتها.

تحدثت طويلاً مع زوجتي تغريد، فهي معي في جانب أساسي من هذه التجربة منذ زواجنا عام ١٩٧٧، فلا بد من أن أحصل على موافقتها للتحدث عمّا لا نتحدث عنه، للتعبير عن التجربة التي عاشت بين الجدران ثلاثين عاماً. لقد انتقلت تغريد إلى بيروت من الكويت بعد زواجنا لتعيش واقعاً صعباً أيضاً: شهداء يسقطون كل يوم، رجال يختفون في أعماق البحار وخلف الحدود، وزوج لا تعرف في كل مرة تلقاه إن كانت ستراه مرة ثانية.

شكر وتقدير

أود أن أشكر كل من قرأ مسوّدة هذه التجربة في مراحلها المختلفة وبداياتها وأسهم في إثارة الأسئلة ونقد النص وإبداء الملاحظات، والأهم تشجيعي على الاستمرار وإنجاز هذا الكتاب، وهم: معين الطاهر قائد «السرية الطلابية وكتيبة الجرمق»، وعماد عمر الناشط الحقوقي، والدكتورة عفاف البطاينة الكاتبة والأديبة العربية، وحازم صاغية المفكر العربي والكاتب في الحياة، وسحر بعاصيري المفكرة والكاتبة في النهار، وآمنة القرى التي شاركت في التجربة منذ بداياتها وفقدت اثنين من إخوانها في مراحلها الأولى، وربحي وخالد من قادة السرية الطلابية وصانعي تجربتها، وبهية التي أدّت دوراً متميزاً وقيادياً طيلة تلك التجربة، طالبتا الدراسات العليا في جامعة الكويت: سارة المطيري ومشاعل الصباح اللتان قرأتا النص من وجهة نظر بعيدة عن التجربة. كذلك أقدّر قيام كل من ربحي ورياض (وهما من صانعي تلك التجربة وقادتها) بمرافقتي إلى جنوب لبنان وبنت جبيل ومارون الراس في أكثر من زيارة لاستذكار تلك المرحلة وما وقع فيها، وأشكر لهما ملاحظاتهما القيّمة.

التقدير لزوجتي تغريد على حواراتها القيّمة وملاحظاتها على النص والتجربة. وأشكر والدي ووالدتي على كل شيء. لقد قرأ والدي النص وتعرّف إلى ثنايا هذه التجربة وأبعادها قبل وفاته بشهور. قال لي قبل وفاته بأيام: «تعرّفت إلى أمور لم أكن أعرفها عنك وعن هذه التجربة».

هذا الكتاب هو سيرتي الذاتية كما عايشتها شخصياً مع رفاق وإخوان وأخوات ذكرت العديد منهم في سياق ما تتطلبه السيرة الذاتية من صدق وموضوعية. ولكن

كان هنالك المئات ممن كانوا يناضلون معنا في السرية الطلابية وفي الجرمق وفي مواقع أخرى في لبنان، وفي فلسطين، وفي دول عربية وأجنبية أخرى. كانوا منتشرين بحسب ظروفهم، أو ما تتطلبه مهامهم. لم آتِ على ذكر هؤلاء لأنه لم يكن بالإمكان معرفتهم جميعهم، ومع ذلك كانوا في وجداني دائماً وأنا أكتب هذه السيرة لأنهم كانوا جزءاً عضوياً لا يتجزأ من هذه التجربة النبيلة رغم ما حوته من أخطاء وعثرات تحدث لأي تجربة.

لذا أنتهز هذه الفرصة لأحيّيهم رغم عدم معرفتي بهم جميعاً، ولكني أعرف أنهم كانوا هناك، في صميم هذه التجربة التي حملت اسم «السرية الطلابية» والتي تحولت إلى ما صار «كتيبة الجرمق». كما أحيّي كل من ذكرت في سيرتي الذاتية هذه ولم تسنح لي الظروف لمقابلتهم وتالياً لم أتمكن من استعادة بعض من أجزاء هذه التجربة معهم، إما لأنهم استشهدوا، أو لأنني لم أتمكن من الوصول إليهم بسبب عوائق عديدة منها جهلي بأماكن إقامتهم.

وأود أن أذكر هنا أن هذا الكتاب هو مجرد سيرة ذاتية كتبتها كما عرفتها وعايشتها. لذا، أيّ نقص في الجوانب التي تتعلق بتجربة «السرية الطلابية» و«كتيبة الجرمق» سيكون من منطلق أنها سيرتي أنا في هذه التجربة، ولن ينتقص هذا النقص من تجارب كل من ساهم فيها، بل آمل أن تكون سيرتي هذه دافعاً قوياً لسرد تجارب وسير ذاتية أخرى عاشها غيري من المناضلين والمناضلات، أو ربما تدفع باتجاه جمع ما أمكن من هذه السير في كتاب يشكل مقدمة لمراجعة أشمل وأكبر لهذه التجربة الفريدة .

وبطبيعة الحال، أود أن أشير إلى أن أي خطأ قد يرد في هذا الكتاب هو مسؤوليتي الكاملة، لا يتحمّلها أيّ من أصدقائي أو ممن قدّموا لي النصائح أو ممن أعطوني من وقتهم وجهدهم.

شفيق ناظم الغبرا

٢٠١١/٨/٣١

الفصل الأول

بداية مثقلة بأعباء السياسة ١٩٥٣-١٩٦٧

كانت طفولتي مزيجاً من السعادة والعبء. ففي نواحٍ عدة، من المربك أن يكون الإنسان طفلاً في العالم العربي، على الأقل بالنسبة إلى الجيل الذي أنتمي إليه والذي ولد بعد النكبة مباشرة. فأن أولد في كنف أسرة فلسطينية، يعني أن تنمو في مخيلتي الحاجة إلى العودة إلى منزل لم أره من قبل، ووطن أخذه «غرباء» قدموا من كل مكان في العالم. ومنذ أن فتحت عينيّ على الدنيا، تعلمت الدرس الذي يتناقله كلّ من وُلد في ظل التجربة الفلسطينية: إن النسيان خدمة كبيرة لمن هجّروا عائلتي وأقربائي وأخذوا حقوقهم، إذ أصبحت الذاكرة بالنسبة إلينا وسيلة عائلاتنا ومجتمعنا المقتلع لإبقاء حقوقنا التاريخية عند نقطة الالتقاء بين الوطن والأرض. في فلسطين وقع ظلم كبير، تناقلته الأجيال وما زالت، ولهذا أعرف جيداً أن المسألة الفلسطينية لن تموت.

أسرتي

وُلدت في كنف عائلة فلسطينية في مدينة الكويت عام ١٩٥٣، وتحديداً في آخر يوم من شهر أغسطس. حينها كانت الكويت محمية بريطانية، إذ لم تكن دولة مستقلة، وكانت المدينة صغيرة بحجمها.

والدي ناظم، الطبيب الشاب المولود في حيفا والمتخرّج من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤٦، قبل العمل في الكويت عام ١٩٥٢. لقد ذهب والدي كالعديد من الفلسطينيين المتعلمين إلى الكويت سعياً إلى تأمين عمل في مجاله

كطبيب، لكنه ينتظر أن تتغيّر الظروف وتسمح له بالعودة إلى فلسطين وحيفا بعد تحريرها، لهذا كان ذلك بالنسبة له عملاً مؤقتاً لن يدوم طويلاً. لقد عمل والدي في دول عربية عدة بعد النكبة التي وقعت عام ١٩٤٨، بدأها طبيباً متطوّعاً في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان، ثم في العراق والمملكة العربية السعودية.

تعرّضت أسرة والدي ناظم، وهي أسرة امتهنت التجارة، لمعاناة هائلة خلال حرب ١٩٤٨. فقد خسر جدي شفيق تجارته ومنزله في مدينة حيفا، فيما لجأ أفراد عائلته كافة إلى مصر. من هنا، كان لزاماً على والدي الطبيب الشاب، الذي لم يبلغ ٢٥ عاماً حين وقوع النكبة، أن يتحمّل الأعباء لأفراد الأسرة المكوّنة من والده ووالدته وشقيقاته الثلاث الشابات، اللواتي كنّ ما يزلن عازبات.

من حسن الحظ أن والدي امتهن الطب ولم يأخذ بالخيار الذي وضعه جدي شفيق أمامه بعد تخرّجه من الثانوية عام ١٩٤٠ حين قال له: «يا ابني لديك الخيار في أن أعطيك مبلغاً من المال فتبدأ به تجارة إلى جانب تجارتي أو أن أرسلك إلى الجامعة الأميركية لتكون طبيباً».

اختار والدي، بإصرار، أن يدرس الطب، وأصرّت والدته أمينة على أن يكون طبيباً «تشهد له الدنيا» كما كانت تؤكد. لقد أحدث هذا الخيار فارقاً جذرياً في مستقبله.

أما جدي لوالدي، الذي أحمل اسمه شفيق، فلم يكتب له أن يعيش طويلاً، حيث عانى بعد عام ١٩٤٨من الضيق النفسي والمعنوي والخسارة الشاملة إلى حين وافته المنية عام ١٩٥٠ متأثراً بإصابته بمرض السرطان. في تلك الأثناء، لم يتمكن والدي، الذي يعمل في العراق، من الذهاب إلى القاهرة لرؤية والده قبل وفاته، وذلك بسبب رفض السفارة المصرية في بغداد منحه تأشيرة دخول إلى أراضيها.

بقيت هذه التجربة حسرة لدى والدي: عدم مقدرته على توديع والده عندما سقط طريح الفراش في أيامه الأخيرة. ستبقى مأساة غياب الحقوق الأساسية في التنقل والحياة الكريمة والتواصل هي ذاتها للكثير من الفلسطينيين من حملة الوثائق، وهي ذاتها أيضاً للكثير من العرب في أقطار العرب المختلفة.

تعود أسرة والدي إلى دمشق حيث عائلة الغبرا عائلة تجارية قديمة. ففي زمن الدولة العثمانية، تنقلت العائلة بين حيفا ودمشق للتجارة، ويُحكى أن جذورها قبل ذلك تعود لمدينة غزة في فلسطين، في ظل ما عرف ببلاد الشام. لكنّ جدي شفيق الذي نشأ في فلسطين في أوائل القرن العشرين قرر أن يبقى فيها عند سقوط الدولة العثمانية عام ١٩١٨ وبروز واقع سياسي جديد في كل من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

في ظل تلك الأوضاع سجّل كل فرد من كل أسرة في بلاد الشام ارتباطه وتبعيته، إن كانت لبنانية أو سورية أو فلسطينية أو أردنية. وهكذا، فالأخ الأكبر لجدي عاد ليكون سورياً، أما جدي فأصبح فلسطينياً، وهناك من عائلة الغبرا من أصبح لبنانياً أو أردنياً.

لقد نشأ والدي فلسطينياً عربياً، لكنه واجه الصراع مع الصهيونية والهجرات اليهودية الكثيفة تحت الانتداب والاستعمار البريطاني الذي احتل فلسطين مع سقوط الدولة العثمانية عام ١٩١٨. أثناء الحرب في حيفا واحتلال القوات اليهودية أجزاءً من فلسطين عام ١٩٤٨، أنقذ والدي أرواحاً عربية وغير عربية، يهودية وبريطانية عديدة.

سألته في أحد أيام طفولتي كيف فعلت ذلك فقال: «يمارس الطبيب دوره الإنساني تحت كل الظروف. في حيفا عشنا في مدينة مختلطة بين يهود وعرب، مسيحيين ومسلمين. لن أسأل هل الجريح الذي أمامي عربي أم يهودي أم مهاجر يهودي أتى إلى فلسطين كما حصل مع مئات الألوف من اليهود، في النهاية الطب مهنة إنسانية».

وماذا عن خروجك من مدينتك حيفا؟ يجيب «حين يئست من الوضع، وبعد سقوط مدينة حيفا بأيدي القوات المسلحة الصهيونية، قررت المغادرة بعدما أخرجت أخواتي ووالدي قبل ذلك بشهور، إذ سقطت حيفا مع الهجوم الصهيوني الكبير الذي بدأ في نيسان/ أبريل ١٩٤٨ قبل بدء الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ وقبل إعلان بن غوريون دولة إسرائيل منتصف أيّار/ مايو ١٩٤٨. لكنّ مغادرتي المؤقتة أصبحت دائمة».

ثم أردف والدي د. ناظم: «من خلال الأونروا في لبنان بدأت أعالج اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا في حاجة إلى أدوية كثيرة. وقد عصر قلبي أن سكان الجنوب في ذلك الوقت في كلّ من بنت جبيل وعيناتا ومارون الراس وغيرها من قرى الحدود لم يكونوا في وضع أفضل. بدأت أعالج الكثير من الجنوبيين لأكتشف محدودية الدواء ومحدودية الحلول. هذه أول صدمة لي مع واقع صعب».

أما والدتي، نهلة صدقي عبد السلام الطبري، فهي من مدينة طبريا التاريخية ومن عائلة فلسطينية لها جذور تاريخية في تلك المدينة. فوالدها كان أحد كبار وجهاء المدينة وقائداً سياسياً فلسطينياً في قيادة المقاومة التي عرفت باسم «اللجنة العربية العليا» برئاسة الحاج أمين الحسيني. فصدقي سليل عائلة فلسطينية امتلكت نفوذاً سياسياً وأراضي شاسعة في المدينة وفي منطقة الجليل في شمال فلسطين، ما حوّلها إلى إحدى أغنى عائلات شمال فلسطين[١].

لقد انتهت بالنسبة إلى والدتي حياة الطفولة عندما فرضت عليها الحرب أن تترك مدرستها الداخلية في مدرسة الفريندز (الإرسالية التابعة للكويكرز) في رام الله، لتنضم إلى أسرتها حينما اشتد القتال عام ١٩٤٨.

ظلت والدتي نهلة تكرر القصة كلما تذكرت تلك الفترة الحرجة من حياتها في أبريل/ نيسان ١٩٤٨:

«عشنا تحت القصف أياماً متتالية، نشاهد من منزلنا جنود الهاغانا الصهاينة يحيطون بطبريا. لم تكن لدينا دفاعات حقيقية، إذ اضطر والدي إلى المغادرة خوفاً من إعدامه مع سقوط المدينة. كنت حينها في الخامسة عشرة من عمري بينما أشعر بأن أبواب الحياة تغلق عليّ. بعد موجة من القصف، جاءت سيارات بريطانية للتموين وساعدت أمي وأخواتي وبعض أقربائي على المغادرة سراً. تركنا على أمل العودة بعد القتال. نظرت إلى الخلف من فتحة في سيارة التموين، فشاهدت منزلنا

---

(١) مصطفى العباسي، «عائلة الطبري وقيادتها للمجتمع العربي في مدينة طبرية منذ أواخر العهد العثماني حتى أيام الانتداب»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٦٤، خريف ٢٠٠٥، ص ٧٩-٩٤.

يصغر شيئاً فشيئاً إلى أن اختفى. معه اختفت طفولتي وذكرياتي».

أثناء تلك المعارك الفاصلة الأولى، استشهد المناضل عبد القادر الحسيني قائد المقاومة الفلسطينية. مع هذه المرحلة الأولى التي بدأت في أوائل نيسان/أبريل ١٩٤٨ واستمرت حتى إعلان قيام إسرائيل وبدء الحرب العربية الإسرائيلية الأولى في الخامس عشر من أيار/مايو ١٩٤٨، سقطت أجزاء رئيسية من فلسطين، منها عكا وطبريا ويافا وحيفا وعشرات القرى الفلسطينية وسط مجازر حصدت المدنيين الفلسطينيين في كافة أنحاء فلسطين[١].

وفي عائلة والدتي قصة حزينة لقريبها خير الطبري (ابن خالها) الذي سقط شهيداً في نهاية حرب ١٩٤٨ عن عمر ٢٥ عاماً. خير كان مقاتلاً شرساً من أسرة الطبري، قاد عمليات عسكرية وغارات كبيرة في مواجهة القوات الصهيونية. والده كان الشيخ طاهر الطبري مفتي طبريا والمناطق المحيطة بها. ولكن والده ووالدته انتقلا أثناء الحرب إلى الناصرة القريبة حيث يعيش أقرباؤهم من آل الفاهوم وحيث لم تصل القوات اليهودية في المرحلة الأولى من القتال. فالناصرة من المدن والبلدات القليلة في فلسطين التي لم تستطع القوات الإسرائيلية تهجير أهلها، وذلك لفوات الفرصة ودخول مراقبين دوليين إلى تلك المنطقة. لكن عند حصار القوات الإسرائيلية للمنزل في الناصرة بعد سقوط معظم فلسطين، وأمام طلب والديه أن يسلم نفسه، أطلق خير النار على رأسه منتحراً.

لقد قلبت النكبة، كما يصفها الفلسطينيون والعرب، كل شيء، إذ لجأ جدي صدقي إلى سوريا القريبة جغرافياً من مدينته طبريا، بينما لجأ أقرباؤه وإخوة زوجته من الأسرة نفسها إلى دول مختلفة مثل لبنان والأردن بينما بقيت أقلية صغيرة في المناطق التي وقعت تحت سلطة إسرائيل. هكذا تشتتت العائلة التي كوّنت مصدر قوته وزعامته، وفقدت الأرض والوطن والقدرات.

---

(١) عن تلك المرحلة الأولى انظر الشرح المتميّز لكيفية إخراج الفلسطينيين من بلادهم للكاتب الإسرائيلي بيني موريس. Benny Morris, *The birth of the Palestinian refugee problem, 1947-1949*, New York:USA, Cambridge University press. 1987.

في اليوم التالي لوصوله إلى دمشق، استقبله الرئيس السوري القومي التوجّه شكري القوتلي، عارضاً عليه منزلاً وخدمات.

لكنّ جدي ردّ على دعوة صديقه شكري: «لا يا شكري، سأستقبلك في بيتي في طبريا قريباً وسأذبح لك الخراف احتفالاً بعودتنا».

عاش جدي لأمي صدقي في دمشق بعد أن فقد أرضه وماله وخيراته ووطنه في فلسطين، محاولاً في الوقت نفسه الاهتمام بأسرة مكوّنة من خمس بنات (أمي واحدة منهن) وثلاثة أولاد، فضلاً عن عمّته ووالدته ونسيبته التي لم تكن متزوجة. لهذا عمل مديراً مع وكالة غوث اللاجئين في سوريا في منطقة الجولان، ومدخله إلى ذلك شهادته الجامعية التي أخذها من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٢٧ والتي اكتشف قيمتها الأهم في ذلك الوضع.

إلا أنه لا يمكن مقارنة حياته بعد النكبة بتلك الحياة التي عاشها في طبريا بفلسطين، فقد كان قائداً لبلده، وابن أحد كبار مشايخ فلسطين: عبد السلام الطبري الذي توفي في فترة مبكرة وترك لابنه ثروة طائلة.

لكن السنوات الأولى من النكبة لم تكن إلا تأكيداً لخطورة ما حصل في فلسطين وإمكان تحوّل اللجوء المؤقت إلى لجوء دائم. فقد تدفق بعد عام ١٩٤٨ إلى مدينة طبريا وبقية مدن فلسطين، وبطبيعة الحال إلى منازل وأراضي جدي ووالدتي وأخوالي الشاسعة في طبريا، عشرات الألوف من المهاجرين اليهود من أنحاء الدنيا، استوطنوا طبريا وحوّلوا منزله الأهم إلى مركز للشرطة.

ثم قامت إسرائيل بنسف وتفجير وإزالة ٤٠٠ قرية فلسطينية بعد نهاية حرب ١٩٤٨، وصادرت رسمياً كل الأراضي التي تعود ملكيتها إلى الفلسطينيين العرب، بما فيها أملاك جدي لأمي وجدّي لأبي وأراضيهم وعقاراتهم ومنازلهم، باسم قانون أملاك الغائب(١). لقد طبّقت إسرائيل هذه القوانين، وهي قوانين مصادرة شاملة،

---

(١) انظر الكتاب المتميّز لجيل من المؤرخين الإسرائيليين الجدد: Tom Segev, 1949: The first Israelis. New York: USA, Free ~Press 1986. انظر الترجمة العربية: توم سيغف، ١٩٤٩ الإسرائيليون الأوائل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت: ١٩٨٦.

على كل من أصبح لاجئاً بدءاً من عام ١٩٤٨. بمعنى آخر، لم يبع الشعب الفلسطيني أرضه. والمعروف، وفق إحصاءات الأمم المتحدة، أن اليهود امتلكوا مع قيام إسرائيل ما لا يزيد على ٦٪ من أملاك فلسطين، وأنه مع نهاية حرب ١٩٤٨ أخذوا بالقوة والعنف ٧٧٪ من أرض فلسطين وهجّروا معظم العرب الذين امتلكوها.

حين لفظ جدي صدقي أنفاسه الأخيرة في الكويت عام ١٩٩٤ كانت فلسطين على لسانه ممزوجة بالحسرة. على مدى السنوات، في كل يوم، كان يلبس بدلته الأنيقة ويحافظ على قصة شعره التي تميّزه منذ عرفته، ويجلس في صالونه الصغير في الكويت مستقبلاً بعض أقربائه وأصدقائه. وعندما يسير تنتصب قامته بطريقة فريدة تعكس حياته القديمة التي امتلأت بالفروسية وركوب الخيل. وعندما كان يزوره أحد يعرفه منذ ذلك الزمن أشعر بتلك الطاقة التي تبرز منه ومنهم.

ولا أنسى يوم حدثني عن زيارته الوحيدة لفلسطين في أواخر السبعينيات، فقد حصل على إذن مع جدتي صبحية الطبري لزيارة ابنتهما وداد وزوجها هاني عرفات في مدينة نابلس المحتلة في الضفة الغربية. وفي نابلس عرضت عليه ابنته أن يزور لأول مرة أرضه ومدينته طبريا، وأن يمضي يوماً في الناصرة مع شقيق زوجته القاضي الشيخ طاهر الطبري مفتي طبريا قبل سقوط فلسطين، الذي فقد ابنه خير عام ١٩٤٨، والذي لم ير أخته (جدتي) منذ ذلك الزمن في عام ١٩٤٨ حيث أصبحت الناصرة جزءاً من دولة إسرائيل.

عندما وصل جدي إلى مدينة طبريا، إذا بعدد من كبار السنّ من اليهود العرب وغير العرب يتعرفون إليه بالرغم من ابيضاض شعره، فأتوا ليتحدثوا إليه وهو يقف أمام منازله وأراضيه الشاسعة التي سلبت منه: «لماذا تركتم يا صدقي، ليتكم بقيتم معنا». فأجابهم: «لم تتركوا لنا مجالاً للبقاء. ولماذا لم تتركونا نعود بعد القتال؟ لماذا صادرتم أراضينا ومنازلنا وهي أمامي الآن؟».

ورغم حدة الحديث، كانت بينه وبين هؤلاء الذين هرعوا للقائه لغة تواصل، كلاهما يقدّر الآخر، بل إن جدي لم يحمّل هؤلاء اليهود من جيرانه القدامى مسؤولية ما حصل. فالكثير من اليهود، وخاصة الذين كانوا في فلسطين أو وفدوا اليها قبل القرن العشرين، كانوا أصدقاء للعرب إلى أن وقعت التوترات وفصلت الحركة

الصهيونية نهائياً بين العرب واليهود وصولاً إلى نكبة ١٩٤٨ ونشوء دولة إسرائيل.

ظل يردّد أمامي: «ليتنا نجحنا في قبول حلول وسط ونحن في موقف أفضل، لكنا حققنا نتائج أفضل لقضيتنا. الله يسامح الحاج أمين الحسيني ويسامح الزعماء العرب في ذلك الزمن، أخطأوا التقدير في الكثير من الأمور، حسبوا أننا سننتصر فهُزمنا وحسبوا أننا سننجح ففشلنا في الحفاظ على بلدنا... يا خسارة فلسطين، ضيّعونا معهم».

لقد نشأت في هذه الأسرة محمّلاً بعبء الخسارة على الصعيدين الشخصي والوطني، حيث تكوّن المجتمع الفلسطيني الذي بدأ يتكوّن في الكويت في ذلك الزمن من الأقرباء والأصدقاء والمعارف الذين عانوا من التجارب نفسها.

حتى عندما يحين وقت نومي، فالحكايات التي كانت ترويها لي والدتي نهلة مرتبطة ببحيرة طبريا. من هنا أصبحت فلسطين بالنسبة إليّ واقعاً حياً في خيالي ولاوعيي.

لقد ملأت السياسة حيّزاً كبيراً من طفولتي. لقد وقعت حرب ١٩٥٦ بين مصر وإسرائيل وفرنسا وبريطانيا وأنا لا أزال في الثالثة من عمري. أتذكر خيال المذياع الموجود في المنزل في الكويت، بينما يساورني القلق المبهم خوفاً على مصير جدتي وعماتي اللاتي كنّ يقمن في القاهرة في ذلك الوقت. على هذا الأساس، تطوّرت لديّ مشاعر من التعلق بشخص جمال عبد الناصر، إذ كان اسمه يتردّد دائماً في أحاديث الأسرة طيلة الخمسينيات.

وفي الخامسة أو السادسة من عمري، راودني حلم ظل يتكرّر لسنوات طويلة. فقد حلمت بتأليف مجموعة من الفدائيين لتحرير مدينة حيفا من الإسرائيليين. حلمت بأنني في المرفأ الواقع على البحر المتوسط كما وصفه لي والدي على شكل ضفدع بشري إلى جانب مجموعة مقاتلة، مدجّجين بالأسلحة، ونحن متردّدون في دخول المدينة خوفاً من أن نلحق الضرر بمنازلنا.

طفولة في الكويت

بدأت الكويت في حقبة الخمسينيات بتنفيذ برنامجها التنموي لتخضير الصحراء

وتمدينها. خلال السنوات الأولى من طفولتي، لم يكن في الكويت سوى القليل من المنازل المزوّدة بمكيّفات للهواء. أما الشبكة الكهربائية، فقد توسّعت في الكويت ببطء لتشمل الجميع، فيما الحصول على مياه الشرب لم يكن ممكناً إلا عبر النقل بواسطة البحر من البصرة.

انتشرت في كويت الخمسينيات الأسواق القديمة والتقليدية، أغلبها بدا لغزاً بالنسبة إليّ في سن الرابعة والخامسة. فلا مراكز ومجاميع للتسوّق، أو أجهزة تلفزة أو حدائق عامة، ولا حتى مسارح أو سينما، بينما اللعب اقتصر على الفناء الخلفي للبيت، أو خلال زيارة لأحد الجيران، ومعظمهم من العائلات الطبية من فلسطينيين أو مصريين أو سوريين ولبنانيين. لم يكن هناك في ذلك الوقت أطباء كويتيون سوى د. أحمد الخطيب أحد مؤسّسي حركة القوميين العرب. فقد اعتمدت الكويت في البداية على أطباء بريطانيين قبل أن تبدأ بالاعتماد على الأطباء العرب مع نشوء الحس القومي الاستقلالي عن بريطانيا.

في الرابعة من عمري عام ١٩٥٧، أخذني والداي إلى مدرسة تديرها صديقة مقرّبة من العائلة، وكان الهدف أن نمضي بعض الوقت أنا وابنها في ساحة المدرسة الواقعة وسط المدينة داخل سور الكويت. في اليوم الأول، لاحظت وجود ثغرة في الجدار، فأردت أن أخرج لأرى ماذا يوجد في الجهة المقابلة.

وجدت نفسي وسط الحشود أسير على الطريق الرئيسي في الكويت إلى جانب الشاطئ قرب قصر الأمير، حيث أهم الأسواق القديمة في الكويت. كانت تلك المرة الأولى التي أسير فيها وحدي في حياتي القصيرة بلا والدي أو والدتي. واصلت السير بينما أشاهد الناس أكبر مني يمرون بجانبي، أرى البحر إلى يساري، والأبنية الصغيرة المتلاصقة إلى يميني. وبعد سير بدا لي طويلاً، بدأت أشعر بالقلق ثم بالخوف. ظللت أسير وأنا أبكي إلى أن اقتربت مني إحدى النساء من أهل الكويت في السوق وسألتني عن اسمي، فقلت لها من أنا. وتمكنت تلك السيدة من تسليمي إلى أسرتي. بعد تلك الحادثة لم أعد إلى المدرسة، لكنّ اكتشاف المجهول وتجربة ما هو وراء الحائط سيلازمانني في المستقبل.

سحر لندن واكتشاف العروبة ١٩٥٨-١٩٦٠

في أوائل ١٩٥٨ تلقى والدي منحة من حكومة الكويت أهّلته للتخصّص في القلب ونيل عضوية الأكاديمية الملكية للأطباء المتخصّصين في القلب في إنكلترا. لذلك، رافقت والديّ إلى بريطانيا، فيما بقي شقيقي يوسف الأصغر مني مع جدتي وعمتي في القاهرة لكي تتوليا رعايته. في لندن تعلمت اللغة الإنكليزية، حيث أصبحت لغتي الأساسية إلى حدّ كبير، مقابل خسارتي الكثير من المفردات العربية، وذلك على الرغم من محاولات أمي الحثيثة لإبقاء اللغة العربية حيّة في داخلي.

هذه الفترة في لندن فتحت أوسع الآفاق أمام طفولتي لجهة التسلية والترفيه، ولا سيما بوجود الحدائق العامة والملاعب المفتوحة والمسرح الخاص بالأطفال، والموسيقى والرياضة، والأنشطة، والتمثيل، والسينما. كذلك ابتاع لي أبي درّاجة صغيرة لأقودها على مقربة من المنزل. لقد تمتعت طيلة سنتين ونصف سنة، حيث أمضيت الوقت في اللعب وتكوين أصدقاء جدد من الفتيان والفتيات من سنّي ممن كانوا يقطنون في الحي، فضلاً عن أني تلقيت قدراً كبيراً من الاهتمام من عائلتي.

في أحد الأيام من عام ١٩٥٨ في لندن أخذني والدي معه إلى أحد المحال التجارية، حيث رأيت ما بدا للوهلة الأولى كأنها طاولات تحوي خزانة، على إحدى جهاتها صور مشرقة يغطيها الزجاج. لم يكن لديّ في البدء أي فكرة عمّا يكون هذا الشيء. أتى والدي بهذا الشيء الجديد إلى المنزل، وجلست أنتظر لأرى ماذا سيخرج منه. تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها جهاز التلفاز، يا لها من مفاجأة كبيرة.

مع مرور الشهور، كنت أشاهد التلفاز بدهشة ومتعة، حيث أتابع «بوباي»، «واغون ترين» (قطار المقصورة)، و«ويليام تل»، و«روبن هود». لقد أحببت حينها كل البرامج الدرامية، وأصبحت كالصنم أمام الجهاز من شدة الإعجاب عند رؤية ألفيس بريسلي وكليف ريتشارد وهما يغنيان ويرقصان.

في لندن، منذ ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ بدوت مدركاً فعلاً لأحاسيسي العربية. فأن يكون الإنسان عربياً في بريطانيا في زمن الصراع العربي البريطاني تجربة غير سهلة

على الإطلاق. ومجرد أنني عربي من العالم العربي أو من فلسطين التي احتلتها إسرائيل يمثل في حدّ ذاته مدعاة لموقف من الآخرين. من أين أنت؟ أقول لهم «من فلسطين». ثم يسألون: «أين هي فلسطين؟» فأقول: «أنا عربي، وفلسطين أرضنا قبل أن تتحول إلى إسرائيل بسبب بريطانيا واستعمارها لفلسطين».

إن الإجابة عن أي سؤال يتعلق بمن أكون كفيلة بخلق عداوات وصراعات مع آخرين بريطانيين، أو مع طلبة يهود سمعوا أموراً أخرى عن العرب وفلسطين وحرب ١٩٤٨ من عائلاتهم. أن تكون من دولة ليست دولة ومن بلد لم يعد قائماً وتنتمي لشعب مشرّد، في ظل دعاية عالمية تغيّر التاريخ والحقائق وتخفي الكثير، ليس سهلاً على الكبار فكيف يكون على طفل يعرّف عن نفسه بعفوية ولا يستطيع أن يرشد أحداً إلى خريطة تقول بوجود فلسطين. فكل خرائط الدنيا تحوّلت إلى إسرائيل بعد قيامها عام ١٩٤٨ باستثناء الخرائط العربية.

في إحدى المرات سألني طالب من أين أنت وكنت قد تجاوزت السادسة من عمري: قلت «أنا عربي من فلسطين»، وإذا به يقول لي: «أريد أن أقول لك شيئاً بصوت خافت». فقرّبت أذني منه: فما كان منه إلا أن بصق في أذني كل اللعاب الذي جمعه لي. قفزت من مكاني مصدوماً وذهبت لأغتسل بكل المياه التي أستطيع أن أصبّها في أذني فوراً، من دون أن أستطيع استيعاب ما حصل في تلك اللحظة، ولماذا فعل هذا الولد ما فعل؟

لقد وجدت نفسي أنجرّ إلى التقاتل والاختلاف مع بقية الأولاد منذ سن السادسة والسابعة. ورغم أن تصريحاتي حضّت بقية التلاميذ، ولا سيما اليهود منهم، على اختبار عضلاتهم في مواجهتي، لم أكن محبّاً للقتال بطبعي. لهذا السبب كرهت المدرسة بسبب اضطراري إلى خوض قتال كل يوم أو أسبوع. وعندما كان يضربني الطلبة الآخرون كنت ألجأ إلى شتم بريطانيا العظمى ولندن وإسرائيل، ثم أردف قائلاً: «لو كان في حوزتي قنبلة ذرية، لرميتها أولاً على بريطانيا». اضطر والداي إلى تغيير المدرسة بينما فُصِلتُ من أخرى.

خلال تلك الفترة، شعرت والدتي بأنها عاجزة عن فعل أي شيء لإصلاح الأمور، ما حدا بوالديّ إلى التوقف عن التحدث في السياسة أمامي واعتماد إيصال

رسائل مختلفة تسعى إلى نزع الأحاديث السياسية مني، لكنّ الأوان كان قد فات، فقد واصلت خلق صخب في المدرسة الثالثة.

في بداية السنة الثانية من حياتنا في بريطانيا، عدت إلى المنزل قادماً من المدرسة وقميصي ملطّخ بدمائي، حيث دخلت في معركة مع ثلاثة أولاد في ذلك اليوم، وقد ضربوني بشدة لأنني لم أتوقف عن الكلام. لكنّ والدي توصل إلى حل بسيط. فعندما كان هو نفسه فتى صغيراً في حيفا في فلسطين، اضطر إلى تعويض صغر حجمه بتعلّم الملاكمة، فكل من اختبره خلال مراهقته في حيفا اكتشف القوة التي تختبئ خلف مظهره. لذلك، بدأ يعلمني الملاكمة. وخلال مدة قصيرة، تضاءل عدد الأولاد الذين اختاروا التقاتل معي. لقد أصبحت قادراً على الدفاع عن نفسي باقتدار.

سنوات لندن كانت مميزة، ولاحظت كم يشقى والدي وينكبّ على الدراسة لساعات طويلة خلال الليل وفي العطل الأسبوعية. والدتي تقول لي دائماً يجب أن تحصل على شهادة كالتي حصل عليها في نهاية تخصّصه في القلب.

القاهره ١٩٦٠

في طريق عودتنا إلى الكويت، وقد تجاوزت السابعة من عمري، مررنا بالقاهرة لجلب شقيقي يوسف الذي لم أره منذ تركناه هناك. وبالرغم من لغتي العربية الركيكة، وعدم إتقانه اللغة الإنجليزية، استطعنا التواصل.

تلقيت تشجيعاً في القاهرة للعب مع أخي يوسف أمام المبنى الذين تقطن فيه جدتي وعمتي العزباء هيام. فهناك العشرات من الأولاد الذين يلعبون أمام المبنى، وجميعهم من المصريين، وقد اضطررت في وقت ما إلى التحدث بعربيتي الضعيفة مع أحدهم.

فجأة وجدته يصرخ أمام عشرات الأولاد: «إنه إنكليزي. . إنه إنكليزي»، محذراً بقية الأولاد من وجود «مندس». تقدّم مني بعض الأولاد وسألوني «هل أنت إنكليزي؟». وبدوا كأنهم يتحققون من هويتي قبل أن يقرروا كيف سيتعاملون معي. في تلك اللحظة صرخ آخر «إنه إنكليزي، لا تلعبوا معه». مرّت هذه اللحظة ببطء

شديد، قبل أن أقول بصوت خافت «أنا عربي، أنا عربي»، لكن يبدو أنه كان قد فات الأوان، إذ بدأ الاولاد يردّدون «إنكليزي! إنكليزي! إنكليزي!» بصوت جماعي وعلى شكل تظاهرة.

صُدم أخي يوسف بما حصل، فصرخ باللهجة المصرية بأنني أخوه وأنني عربي مثله، وأنني عدت الآن من إنكلترا. وفيما كان أخي يلقي خطابه في حشد الأولاد، فقدت شجاعتي، فرميت الدراجة التي كنت أقودها، وركضت عائداً إلى شقة جدتي وعمتي.

لقد اكتشفت في هذه الحادثة ألماً من نوع آخر: أن يساء الظن بي وأن يفكر العرب بأنني غير عربي، وأن أُتهم بأنني مختلف عمّا أنا عليه. واكتشفت أن المشكلة عندما تقع في مجتمعنا سرعان ما تتحول إلى مشكلة جماعية يشارك فيها الجمهور. لم أكن أواجه ولداً أو ثلاثة أولاد كما حصل في بريطانيا، بل ثلاثين ولداً. هكذا اكتشفت أول مرة أنني عربي في الغرب وأنني قد أبدو غير عربي في الشرق. صُدمت في الحالتين ولكن مع الزمن سأجد أنني الاثنان معاً، وأن جانباً من الغرب قد صاغني وأثّر في عقليتي، وأن الكثير من الشرق جزء لا ينفصل عن تجربتي وإنسانيتي.

في الكويت المتجدّدة ١٩٦٠

بعد تلك الحادثة، قررت ألاّ أنطق باللغة الإنجليزية، وقررت في الوقت نفسه أن أتقن العربية خير إتقان. وعندما عدنا إلى الكويت، رجاني والداي أن أتحدث بالإنكليزية، وتحديداً لكي أنال إعجاب الأصدقاء والأقارب، وإذا بي أقف أمامهما صامتاً، فيما القليل من الكلام الذي سيصدر مني اقتصر على اللغة العربية.

فور عودتي إلى الكويت، دُهشت لمدى التغيير الذي شهدته خلال السنوات القليلة التي أمضيتها بعيداً عنها. فقد شيّدت مبانٍ وشوارع جديدة، واختفت معظم المساحة الصحراوية القريبة من منزلنا. وترافق ذلك مع إنشاء الكويت محطة التلفزيون الخاصة بها. وبدأت الحدائق العامة والنوادي تنمو في حجمها، ووجدت نفسي غير مشتاق إلى سحر لندن، إذ إن بعض هذا السحر قد بدأ يظهر في الكويت.

في عطلة نهاية الأسبوع، كثيراً ما نزور صديق والدي الشيخ صباح السالم الصباح الذي ترأس في خمسينيات القرن العشرين دائرة الشرطة، ثم بعد ذلك الصحة والخارجية، قبل أن يصبح في ما بعد ولياً للعهد عام ١٩٦٢، ثم أميراً للكويت في ١٩٦٥. فوالدي أصبح صديقاً مقرّباً من الشيخ صباح السالم، فضلاً عن كونه طبيبه وطبيب أسرته.

وقد تميّز الشيخ صباح بشخصية متواضعة ومحاورة. أذكر أن المرتين الوحيدتين اللتين ذهبت فيهما إلى صيد الأسماك في حياتي كانتا خلال مرافقتي لوالدي والأمير على يخته. وعندما كنت أقول شيئاً خلال محادثة ما، كان الشيخ صباح يسألني فوراً «ولمَ هكذا؟»، حيث إنه يريد معرفة كيفية ردّي على تحدّيه. وهذا يعني أنه كان عليّ بدوري أن أنتبه إلى الكلمات التي تصدر مني في حضوره.

خلال تلك السنوات بدأت الكويت عملية «تكويت» المناصب الرفيعة والقيادية، وبدأت طريقها نحو الاستقلال والتساؤل عن الذين قدّموا خدمات متميّزة للبلاد، بينما كان ينمو جيل جديد من الكويتيين ينهل علماً وثقافة. في هذا السياق، في عام ١٩٦١، مُنح والدي الجنسية الكويتية، بناءً على توصية من الشيخ صباح السالم الصباح. فهناك قانون في الكويت يسمح بمنح الجنسية لمن يقدّم خدمات جليلة للبلاد.

بالنسبة إليّ، شعرت بالارتباك الناتج من هذا التحول. فأنا لم أبلغ الثامنة عندما وقع هذا التحوّل، فأن أكون فلسطينياً حتى عمر الثامنة وأمتلك قضية عليّ أن أمثّلها وأسعى إليها، ثم أصبح مواطناً جديداً في البلد الذي وُلدت وتربّيت فيه، أمر محيّر لطفل في عمري. ماذا سيحصل لحلم تحرير فلسطين؟ وكيف أكون كويتياً وفلسطينياً وعربياً في الوقت نفسه؟ من أنا؟ لقد احتجت إلى بناء توافق بين «فلسطينيّتي» وجنسيّتي المكتسبة وطفولتي، وهو أمر لن يكون سهلاً، نظراً إلى عمق الجرح الناتج من النكبة.

في أحد الأيام جاء الشيخ صباح السالم إلى منزلنا وبحضور والدي أبلغني أنني أصبحت مواطناً كويتياً، لكني أمام الشيخ أصررت على أنني فلسطيني وأحمل قضية ألتزم بها. استغرقت مناقشتنا بضع دقائق.

ردّ قائلاً: «هذا حقك، لك الحق في أن تشعر كما تريد، لا تناقض بين أن تكون كويتياً وأن تكون عربياً وفلسطينياً، فأنا أشعر بالارتباط الذي تشعر به تجاه ما حصل في فلسطين». شعرت بسكينة وارتياح.

المدرسة في الكويت: ١٩٦٠-١٩٦٢

التحقت في الكويت بمدرسة المأمون الحكومية (١٩٦٠-١٩٦٢) في الصفين الثاني والثالث الابتدائي، وكان معظم الأساتذة في تلك المدرسة من الفلسطينيين، فيما التلاميذ خليط من الكويتيين والعرب الآخرين. في تلك الفترة استُخدم العقاب البدني معظم الأحيان مع الطلاب (قبل أن يُمنع لاحقاً)، فقد ساد الاعتقاد بأنه أفضل وسيلة لفرض النظام.

أذكر أنه بعد وصولي إلى المدرسة بأيام، فُرض العقاب على طالب كويتي اسمه حيدر، بضربه بعصا كبيرة على بطن قدمه (فلقة) وهو ممدّد على الطاولة في الفصل. صرخ الفتى طالباً الرحمة، لكن الأستاذ فاروق الطويل القامة أصرّ على العقاب حتى النهاية. شارك عدد من الطلبة في الإمساك بحيدر ليتلقى الفلقة، وعندما طلب مني المشاركة تمنعت.

لم يكن أمر كهذا ليقع في المدارس البريطانية التي ذهبت إليها. لم يكن الأساتذة يحملون العصيّ معهم أينما ذهبوا كأنهم في ساحة قتال. لكني في كل مرة تعرّضت فيها لهذا النوع من العقاب كنت أفتح يديّ بصمت من دون أن أُظهر أي إشارة إلى الألم، لأُقنع الأستاذ بأن هذا الضرب لا يفيد. في هذه الأثناء ساور القلق والديّ حيال لغتي الإنكليزية، فظنّا أن إرسالي إلى مدرسة داخلية سيساعدني على استعادة الإنكليزية وتعلّم الاستقلالية.

لقد آمن الأساتذة من أمثال فاروق، أكانوا فلسطينيين أم مصريين أم عرباً في ذلك الزمن، بقضية فلسطين وبفكرة الوحدة، إذ حرصوا على القيام بواجبهم التعليمي ليقينهم بأن نقل المعرفة إلى جيلنا هو مفتاح الوحدة والاستقلال والتحرير العربي. تألموا كثيراً لفشلنا، وفرحوا أشد الفرح لنجاحنا، إذ رأوا فينا من سيجسّد لهم حلمهم العربي.

المدرسة الداخلية: برمانا، لبنان ١٩٦٢-١٩٦٥

أرسلني والداي في سبتمبر ١٩٦٢ إلى مدرسة برمانا الثانوية (برمانا هاي سكول) في لبنان، وهي مدرسة داخلية بإدارة إنكليزية تابعة لطائفة الكويكرز المسيحية. والكويكرز فئة من المسيحيين عرفت باسم «الأصدقاء»، تأسست في بريطانيا في القرن السابع عشر وركزت على نشر رسالة السلام والتعليم.

إن إرسال الأولاد والشباب في الأعمار الفتية إلى المدارس الداخلية في لبنان تحول إلى ميزة. فرحلاتي بالطائرة إلى الكويت خلال عطلتي عيدي الميلاد والفصح مليئة بالطلاب.

تحمّل مسؤولية المنامة والإشراف على الطلبة في المدرسة للقسم الابتدائي كلّ من السيد والسيدة كامل، وقد تمكن هذان الزوجان والمدرّسان اللبنانيان من خلق جو عائلي. وفي كل صباح، كان علينا أن نتقدم من السيد والسيدة كامل لكي نريهما أظافرنا المشذبة ومناديلنا قبل مغادرة المنامة، وكانا بدورهما يتفقدان المنامة بهدف التحقق من أن أسرّتنا حسنة الترتيب وأن خزائن ثيابنا منظمة.

في برمانا تعلمت الاستقلالية والنضوج، ولكنني تعلمت دروساً ستلازمني بقية حياتي. أحد هذه الدروس عن علاقات القوة بين الناس. فمعنا في المدرسة طلاب يأتون للدراسة في النهار من قرى مجاورة لبرمانا، من أهمّها قريتا رومية وجورة البلوط القريبتان من برمانا. لم يكن أبناء تلك القرى يتمتعون بالمزايا التي يتمتع بها الأولاد في المدرسة الداخلية القادمون من عائلات تجارية ومتعلمة من كافة الدول العربية. فملابس هؤلاء الطلبة القرويين بسيطة ومرقّعة، حديثهم بسيط، لا يختلطون بنا كثيراً لشعورهم بوجود حاجز، لكنهم الأوائل في الفصول.

في المقابل، كان الكثير من أولاد المدرسة الداخلية يتعاملون مع أبناء رومية والقرى الأخرى قرب برمانا من الدارسين معنا في النهار بفوقية ويهزأون بلهجتهم القروية ولباسهم الذي لا يتغيّر من شتاء إلى آخر. تميّز طلاب القرى المجاورة بأنهم مسالمون للغاية.

أثناء رحلة للمدرسة في الأحراج والغابات حول برمانا - علماً بأن برمانا تتكون بمعظمها من أحراج في ذلك الزمن قبل أن يمتد البناء إليها - استخدم أحد الأولاد

لغة السخرية من أحد الطلاب، وهو من أبناء قرية رومية، فأخذ يناديه بأسماء غريبة ويسخر منه بينما المسيرة مستمرة.

ردّ ذلك الطفل القروي (فشكله هزيل وبدنه يبدو شديد الضعف) بقوة وتحدّ شديدين على تهكّم الطالب. بطبيعة الحال لم يتقبل الطالب من القسم الداخلي الردّ وعدّه وقاحة كبيرة من ابن القرية، فتحرك في اتجاهه وأمسك به من رقبته.

فما كان من الشاب القروي، بسرعة البرق، إلا أن أطاح «ابن الذوات» بثانية. فقام الولد متفاجئاً وسط انضمام طلبة آخرين من فريق الداخلي إليه. وإذا بثلاثة من القرويين الطلاب يحملون أحجاراً ضربوها بقوة، كأنها طلقات نارية صاروخية، قرب الشبان الآخرين، ثم حملوا غيرها قائلين ««يا أولاد الكلب نحنا برات المدرسة، ما حدا حيأشعنا في الحرش، حتسير عظامكم ببيروت». تراجع الجميع، وأكملنا المسيرة بصمت غريب.

في هذه الحادثة رأيت وجهاً آخر من وجوه الحياة لم أتوقّع وجوده، تعلمت منه درساً: أن من يبدو أنه مستضعف مسالم هو ليس كذلك إذا ما أُهين ولا سيما حين يشعر بإمكان نجاحه في الدفاع عن كرامته. تعلمت ألا أستهين بإنسان مهما كانت منزلته.

تميّزت برمانا بكونها جامعة مصغّرة للدول العربية، فالطلبة من كل مكان من العالم العربي. أحد هؤلاء الطلبة هو علي صباح السالم، وهو ابن الشيخ صباح السالم. ونظراً إلى كونه أكبر مني سناً، فقد عهد إليه والدي برعايتي والسؤال عني. كان الشيخ علي هادئاً في كل المواقف، يتصرّف بحكمة ويقدّم لي نصحاً يسمح لي بالانصراف شاعراً بدفء دعمه لي. (توفي الشيخ علي وهو شاب أثناء توليه موقع وزير الدفاع في الكويت).

وبما أن برمانا مدرسة مسيحية لم يكن غريباً أن نقرأ فقرات من الإنجيل كل صباح في لقاء المدرسة الشامل. لم نكن نفهم ما نقرأ وما نرتّل، كذلك فإن المدرسة أخذتنا إلى الكنيسة في بعض أيام الآحاد. أما نحن وبقية الطلبة المسلمين فلم يثر الأمر مشكلة لدينا. لم نر في ذلك إهانة أو تناقضاً. فلا تناقض بين أن تكون عربياً أو أن تكون مسلماً وأن تدخل كنيسة في بلد عربي هو لبنان وتقرأ من

الإنجيل، في زمن لم ير الخلافات بين الناس على أسس دينية ومذهبية، ولم يكن المسلم يشعر بأنه أفضل من المسيحي أو أقل قيمة.

في برمانا تفوّقت في اللغة العربية، إذ فاجأني أستاذ اللغة العربية إبراهيم في الصف الرابع الابتدائي بأنني الأول في اللغة العربية وأهداني كتاباً قصصياً هو عملياً أول كتاب في اللغة العربية أقرأه، ترقّيت في الإنكليزية إلى صف أعلى، لكنني لم أهتم بمواضيع أخرى على الإطلاق. لقد أردت اللعب وقضاء الوقت مع أصدقائي، والتفاعل مع سحر الطبيعة.

ولم تكن حالتي الصحية في سن التاسعة هي الأخرى إيجابية، فقد وقعت طريح الفراش لفترات طويلة، وخاصة في السنة الأولى، جرّاء تغيّر الطعام والجو وضعف المناعة. فالبرد في شتاء برمانا قارس، وخاصة في غياب أي تدفئة في أماكن الدراسة أو المنامة في ذلك الوقت. وقد أثّر هذا على لياقتي البدنية لسنوات عدة. لكنّ إصراري على المشاركة في سباق طويل فاجأ المدرسة، وسط تشجيع من مدرّسين ومدرّسات على رأسهم الآنسة بتروني التي تبنّتني في المرض وفي الرياضة. قبل السباق جاءتني بقطع من شجرة البلوط. زارتني في المستشفى وأفهمتني كم هي قوية تلك الشجرة. بتروني صنعت من أجزاء تثمر على الشجرة أشكالاً مختلفة، قدّمتها لي لألعب بها. حتى الآن كلما رأيت شجرة البلوط تذكرتها.

سأركض حتى النهاية، بينما تحبس المدرسة أنفاسها خوفاً مما قد يقع نتيجة ركضي، رغم معارضة النيرس (حنينة) نظراً إلى وضعي الصحي. سأكون قبل الأخير بواحد، لكنني سألقى كل التشجيع الذي سيغيّر نظرتي إلى الرياضة إلى الأبد. أما الآنسة بتروني، فستقع ضحية مرض السرطان وتموت في ريعان شبابها.

لقد ورّطني عدم اهتمامي بالمدرسة في نزاع مع المديرة المسؤولة السيدة كاتبة. فعندما كانت تقع حركة غير عادية على شكل نزاع ما أو يقع طلبة في مأزق داخل المدرسة، تذكر اسمي متوقعة أن أكون معهم. تأتي إليّ فتقول: «سيد غبرا شو عامل اليوم، في شكوى عليك».

لقد أصبحت في نظرها المشاكس الأول في الصفين الرابع والخامس الابتدائي.

هذا الأمر حدا بوالديّ لإعادتي إلى الكويت بعد ثلاث سنوات في برمانا في عام ١٩٦٥ . عدت مرة ثانية إلى أسرتي التي انضمت إليها أيضاً أختي المولودة الجديدة سحر أثناء غيابي.

العودة إلى الكويت ١٩٦٥

في سن الثانية عشرة عدت إلى الكويت وأُدخلت إلى مدرسة الشامية المتوسطة في الصف السابع (الثالث المتوسط). ظنّ الأولاد في الكويت أنني «طري العود»، فلهجتي العربية «ملبننة» جداً، ما أضفى عليها نبرة أكثر نعومة مقارنة باللهجة الكويتية المحلية المتأثرة بالصحراء. لكن بما أني لم أكن طرياً كما هو كلامي أو مظهري الخارجي، فقد أدّى بي الأمر إلى التشابك بالأيدي مع الكثير من الأولاد، وقد أثبتّ أنني «صلب العود» مع مرور الوقت مما أنتج صداقات واحتراماً متبادلاً.

في إحدى المرات، حاول الولد الأكبر والأطول والأكثر جموحاً في المدرسة أن يتناول كرسياً أقف عليه لأشاهد مباراة في كرة القدم، فأخذ الكرسي بالقوة، ما حدا بي إلى توجيه لكمة إلى وجهه بكل ما أوتيت من قوة. ما حصل مثّل بالنسبة إليه أسوأ إهانة يتعرّض لها، حيث إني أصغر منه سناً (١٢ عاماً)، بينما عمره لا يقل عن ١٨، ولا يزال في المدرسة المتوسطة لأنه يرسب باستمرار. فهذا الطالب تعرّض بالضرب للأساتذة والتلاميذ على السواء. فالجميع، بمن فيهم المدير القدير معاوية القاضي، تجنّبوا مواجهته وسعوا إلى استيعابه.

في ذلك اليوم العصيب، لولا أولئك الطلبة من أقربائه الذين صدّوه، محاولين تهدئته، لمزقني إرباً حيث جرح عدة أفراد من دون أن ينجح في إيذائي. وقد مرّت تلك الحادثة دون أن أشتكي إلى أحد أو حتى أعلم والدي بما حصل. رأيت أنني قادر على التعامل وحدي مع الأمر.

في هذا الوقت اشتركنا في نادٍ (لعائلات الأطباء)، حيث نذهب إلى منطقة الصليبخات (كانت الصليبخات قرية طبية تسكنها عائلات الأطباء) للسباحة، ومشاهدة الأفلام، ولعب كرة القدم والسلة وكرة الطاولة، من بين أنشطة أخرى.

وقد أنشئ نادٍ ثان أفضل منه بالنسبة إلينا يتضمّن منشآت أكثر تطوراً وحداثة مع

عضوية مقتصرة على فئات معينة، وهو نادي «الغزال» الشهير، وعضويته اقتصرت على عائلات رجال الأعمال من الكويت وغيرهم من المهنيين المتخصّصين من الفلسطينيين والعرب والأجانب. للنادي قاعدة عضوية من الأجانب، وامتلك النادي واجهة جميلة على الشاطئ، وزقاقاً للعب البولينغ، ومسرحاً، ومطعماً، وألعاباً مائية، وألعاب البينغو، والحفلات الراقصة كل أسبوع للشباب والشابات وللعائلات. وكنا نذهب إلى ذلك النادي يومياً أيام العطل والإجازات، ونتردّد إليه أسبوعياً في بقية أوقات السنة.

عليّ أن أُقرّ بأن الأوقات التي خصّصتها للدراسة قليلة وقد نجحت في تجاوز الدرجات المطلوبة في كل المواد والانتقال إلى الصف الثامن. في ذلك الوقت، أصبحت قارئاً نهماً لسلسلة قصص سوبرمان والرجل الوطواط وميكي ماوس، إذ كنت أبتاعها بالمجلدات السميكة، رغم أن والدي لم تعجبه، حيث أمضي ساعات طويلة في قراءتها. وقد تكون تلك القصص المبسّطة قد ساعدتني على التمتّع بالقراءة عندما أصبحت راشداً.

لحظة جيلي المصيرية: حرب ١٩٦٧

مثّلت حرب عام يونيو ١٩٦٧ الحدث البارز الذي غيّر مسار حياتي وحياة العديد من أبناء جيلي من العرب. في تلك الأيام كنت أُسرع من المدرسة إلى المنزل لأستمع إلى المذياع، إذ لم تتوقف المحطات الإذاعية العربية عن بثّ الأناشيد العسكرية. المذيع من صوت العرب من القاهرة يعلن على مدار الساعة عدد الطائرات الإسرائيلية التي يُفترض أن تكون القوات العربية قد أسقطتها، وهي بالمئات.

أثناء الحرب وُلدت أخت جديدة لي، فتحيّرنا في اسمها: هل نطلق عليها اسم حربية أم انتصار أم حرة أم عائدة تيمّناً بالعودة؟ لكن الأمر استقرّ على تسميتها: لبنى.

تمحورت معظم أحاديثنا مع الأساتذة، في تلك الأيام الستة التي هزّت العالم العربي والتي بدأت في الخامس من حزيران ١٩٦٧، حول عودة الفلسطينيين إلى

ديارهم. في المنزل، أتذكر أبي يعلّق على تلك الأنباء بقوله إنه «بناءً على ما يرد في التقارير الإذاعية، فإن الطائرات الإسرائيلية قد أفنيت»، لكنه يعود ويقول: «قد مررنا بتوقعات كهذه في زمن النكبة عام ١٩٤٨، حيث الإعلانات العربية عن النصر بينما الواقع سار في اتجاه آخر».

خلال أيامٍ انتهى كل شيء، وبانت الحقيقة المتمثلة بخسارة مطلقة للجيوش العربية في مصر وسوريا والأردن. أول من أذاع نبأ سقوط الأراضي العربية والفلسطينية في الضفة والقدس وغزة، إضافة إلى سيناء والجولان، إذاعة «بي بي سي» البريطانية، بينما الإذاعات العربية تقول شيئاً مختلفاً. ومع ذلك السقوط بدأت كارثة لاجئين جدد وبؤس جديد يشمل جيلاً آخر من الفلسطينيين. لقد قرّر الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة البقاء في الأرض، ولكنّ مئتي ألف لاجئ فلسطيني شرّدوا عبر نهر الأردن إلى الضفة الشرقية. أحدث الأمر صدمة للجميع، بمن فيهم والدي وعائلتي. لم يكن أحد يتوقع مثل تلك الهزيمة الساحقة.

لقد انتظرت مع والدي وبقية أفراد العائلة بفارغ الصبر سماع خطاب عبد الناصر بعد الهزيمة، الذي أذاعته بالكامل إذاعة صوت العرب من القاهرة. لقد استقال عبد الناصر في الخطاب، ثم انتشرت في مصر فوراً التظاهرات المطالبة بعودته. إلا أني أذكر أن أبي شعر في حينه بأن على أولئك الذين ارتكبوا الأخطاء أن يتنحّوا عن الحكم في جميع دول المواجهة.

سأكتشف مع الوقت أن تلك اللحظة التاريخية التي اسمها حرب ١٩٦٧ ستصوغ جيلي العربي في كل مكان كما لم تصغه أي حادثة أخرى. وستفرض علينا تلك الحادثة أن نكون مختلفين، أن نكبر بسرعة، أن نتحوّل نحو مراهقة مليئة بالسياسة والفكر، فنحمل عبء تحرير فلسطين التي سقطت عام ١٩٤٨، وعبء تحرير الأراضي المحتلة التي سقطت عام ١٩٦٧. سنعرف مع الوقت أن الكثير ممّا سنقوم به سيكون رداً على تلك الهزيمة ونقداً لمن سبّبوها من القادة العرب واقتناعاً منّا بأننا سنغسل عار الهزيمة وسنخلق واقعاً عربياً موحّداً وقوياً. ستكون حرب ١٩٦٧ بداية بروز جيل جديد يشعر بالمسؤولية تجاه فلسطين، ويكون امتداداً لصراعات وحروب جديدة في سماء العالم العربي. ستعرف لحظة ١٩٦٧ «من نحن».

الفصل الثاني

العمل الطلابي: من الكويت إلى بيروت

عند انتقالي إلى المدرسة الثانوية أو الصف التاسع في خريف عام ١٩٦٧، في سن الرابعة عشرة، كرّست السنة الدراسية كاملة لكي أصبح مراهقاً. والمقصود بالمراهقة كل ما يأتي معها من الالتفاف على قوانين المنزل والمدرسة وما يصاحبه من استعداد للمشاكسة مع الأساتذة عناداً، ومع الأولاد الآخرين عراكاً، إضافة إلى الاهتمام بالجنس الآخر. من حسن حظي أنني نشأت في زمن توافر فيه الكثير من الانفتاح في الكويت وفي منطقتنا العربية. فالاختلاط وثقافة الاختلاط بين الجنسين أمران عاديان لدى الكثير من العائلات والنوادي الرياضية، كذلك فإن الفنادق في ذلك الزمن المنفتح كانت تأتي بالفرق وتقيم حفلات راقصة جميلة تسمح للكبار والصغار بالتمتع في أجواء عائلية.

اعتاد أبناء جيلي على الحرية وتحدّينا أي محاولات للحد منها في الوقت نفسه. فتلك الأجواء كانت الأفضل للشعور بالحرية، وللتعرف إلى الفتيات سواء بالحديث والنقاش أو ببناء علاقات ود وزمالة وحب. هكذا، وجرّاء تلك الأجواء، تحوّلت نظرتنا إلى المرأة والزمالة والصداقة والحب والحفلات والسباحة وغير ذلك، إلى منطلق للمساواة معها وتقديرها لا إلى منطلق استغلال الفرص والتنفيس عن كبت وحرمان.

لكنّ اللحظة المحورية في حياتي المدرسية جاءت مع تسلّمي شهادة العلامات لمنتصف السنة في الصف التاسع (الأول الثانوي)، التي حصلت فيها على درجتي «أف» في مادتين. أعلن والدي إثرها سلسلة من القوانين الجديدة: لا حفلات بعد

اليوم، ولا مشاهدة أفلام في السينما، ولا ذهاب إلى النوادي إلى حين تسلّم شهادة العلامات المقبلة.

ابتعدت عن كل الأنشطة التي أقوم بها مع أصدقائي وصديقاتي لفترة أربعة أشهر، وتحسّنت درجاتي، فأعاد والدي الامتيازات التي سبق له أن سلبني إياها فوراً.

الارتباط بالحركة الفلسطينية

شهدت حياتي تغيّراً كبيراً في خريف ١٩٦٨. ففي «ثانوية الدعية» في الكويت، حيث أصبحت في الفصل العاشر (الثاني الثانوي)، أصبح اسمها الآن «البشر الرومي»، التقيت مجموعة من الطلبة الفلسطينيين الناشطين في السياسة، منهم مازن ع. وبديع وعبد الخالق. دار بيننا نقاش عن الفدائيين في الأردن، وعن معركة الكرامة التي وقعت في شهر مارس من ذلك العام، والتي نجح خلالها الفدائيون، بقيادة فتح وياسر عرفات (أبو عمار)، في تحقيق انتصار وصمود كبيرين في مواجهة الجيش الإسرائيلي.

خاطبني مازن ع. قائلاً: «لم أعرف أنك يا شفيق مهتم بهذه الأمور. كنت أخالك مهتماً فقط بالصديقات والغيتار والبيتلز والموسيقى والحفلات». ضحكت وأجبته: «كل ما ذكرته أعتزّ به، لكنني مهتم بقضية فلسطين أيضاً. لكنني لا أعرف كيف أشارك وبأي طريقة؟».

بعد ثلاثة أيام جاءتني دعوة للقاء خارج المدرسة مع الأستاذ حسني زعرب، وهو مدرّس أول للغة العربية في مدرسة «الدعية» ويعمل مع حركة فتح في الكويت. ذهبنا إلى منزله أنا وبديع ومازن ع. وعبد الخالق. هذا اللقاء السري الذي لم أعلم والديّ بشأنه أصبح بمثابة الاجتماع السياسي الأول لي.

في ذلك اللقاء استمعت إلى مازن ع. يتحدث عن الأهداف والمستقبل. تميّز هذا الشاب بحديثه السلس وسعة اطلاعه، وهو أكبر منا بسنوات. عرفنا أنه تتلمذ على يد صلاح خلف «أبو إياد» (الذي أصبح الرجل الثالث في حركة فتح في ما بعد)، وخالد الحسن «أبو السعيد»، القائد الفلسطيني الذي أتى إلى الكويت في

الخمسينيات وشارك أبو إياد وأبو جهاد وعرفات في تأسيس فتح. لقد طلب منا مازن ع. أن نقسم على المحافظة على سرية المناقشات، وعلى خدمة القضية، فشعرنا حينها بأن الواجب يدعونا.

إن أهم ما أخذته من ذلك الاجتماع الأول أن حامل القضية يجب أن يكون مقنعاً، وهذا يتطلب ثقافة ومعرفة بالتاريخ والواقع. وقد أصرّ مازن ع. وأستاذ اللغة العربية حسني على ضرورة أن نصبح مثالاً للطلبة الآخرين.

هكذا أوصياني قائلين: «يا شفيق، لا مزيد من القتال مع الفتيان الآخرين، فهذا يجلب سمعة سيّئة لأبناء فتح. لا سباقات للسيارات بعد اليوم، فهذه ليست الطريق إلى تحرير فلسطين». ثم أردفا قائلين بهدوء وحذر: «يا شباب، عليكم أيضاً قصّ شعوركم وتقليل الحفلات (قلت لنفسي الحمد لله لم يقولا إلغاؤها)».

لم يكن سراً أنني من بين أصدقائي الثلاثة كنت الأكثر إقبالاً على الحياة والحفلات والسيارات والعراك وصداقات الجنس الآخر. لقد أثّر مازن ع. في كل واحد منا نحن الثلاثة، لكنّ الثمن الشخصي الذي أراد منا قبوله كمراهقين لم نتجاوز الخامسة عشرة من العمر كان باهظاً، إلا أننا كنا مستعدين لدفعه.

فجأة لم يعد أصدقاء المراهقة يلهمونني كما كان الأمر في السابق، بل ابتعدت عن معظمهم، ووجدت نفسي منكباً على القراءة، فضلاً عن تنمية مهاراتي في الكتابة. وقد تمثّلت مهمتي الأولى بإعداد صحيفة حائط تتحدث عن فلسطين مع مازن وبديع وعبد الخالق، في ثانوية «الدعية». وفي زياراتي إلى نادي «الغزال»، كنت أتوجّه إلى أفراد يفوقونني سناً بهدف مناقشة أفكارهم. لاحظ الجميع التغيّر الذي طرأ عليّ، فسألوني:

«ماذا حصل لك يا شفيق، أنت الآن شخص مختلف عن الذي عرفناه منذ أسابيع».

أحبّ والداي هذا التغيير إلى حدّ ما، إلا أنهما قلقا في الوقت نفسه، إذ رأيا أن مثل هذا الأمر ربما يفوق قدرة فتى في الخامسة عشرة على تحمّله.

هذه الأنشطة مهّدت الطريق أمام أول كلمة ألقيها، وذلك في ربيع عام ١٩٦٩، أمام جمهور من البالغين خلال وليمة نظمتها الجمعية الطبية الكويتية التي رأسها

والدي. وعندما وقفت أمام الشيخ سعد (وزير الداخلية والدفاع) وأعضاء الجمعية الطبية ووالدي ووالدتي، من بين بقية الحضور، شعرت بقوة غريبة في داخلي دفعتني إلى التحدث بعفوية إلى حدّ أنني قلت للشيخ السعد إن ما تبرّع به في الإمكان أن يتضاعف. هنا تدخل أحمد عبد العال الإعلامي ومقدّم نشرة الأخبار اليومية في الكويت وعرّيف الحفل ليشكر الشيخ سعد على مبادرته القيّمة وعلى محاولتي. لقد اكتشفت في تلك الأمسية أن في إمكاني أن أصبح متحدثاً في خدمة ما أؤمن به.

في ربيع عام ١٩٦٩، أبلغني الأستاذ محمود (مسؤول المختبرات في الثانوية) الذي أصبح صلة الوصل بيننا وبين حركة فتح، أنني سألتقي أحد المسؤولين البارزين في حركة فتح خلال زيارة سيقوم بها للكويت. ذهبنا أنا ومازن وبديع وعبد الخالق إلى أحد المنازل، حيث استقبلنا القائد الفلسطيني أبو إياد.

خلال اللقاء أُخذنا بسحر الوجود مع ثائر عربي، مع رجل شجاع نذر حياته لفلسطين. أوجز لنا أبو إياد طبيعة الصراع مع إسرائيل، وأهمية الكفاح المسلح وسيلةً للمقاومة في الأرض المحتلة وفي فلسطين. قال إن فتح ترفض اختطاف الطائرات، وتعتبره عملاً إرهابياً لا كفاحياً، عكس مجموعات فلسطينية أخرى مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المنبثقة عن حركة القوميين العرب.

تحدث معنا أبو إياد عن تحرير فلسطين ومبدأ الدولة الفلسطينية الديموقراطية أساساً للحل النهائي للمسألة الفلسطينية واليهودية. استخدم أبو إياد مصطلحات وعبارات سياسية عدة، منها «البورجوازية»، و«البروليتاريا»، و«الطبقة الوسطى»، و«الفلاحون»، و«القوميون العرب»، و«عدم التدخل في شؤون الدول العربية»، إلا أنني لم أفهم تلك المصطلحات يومها.

فور انتهاء اللقاء، عدت إلى المنزل وأخبرت والدي بما حصل، وسألته عن معاني الكلمات التي استخدمها أبو إياد، إلا أنه لم يكن يريدني أن أتورّط أكثر من ذلك، وطلب مني نسيان ما سمعته. فبالنسبة إلى عالمنا العربي، العمل السياسي يعني مواجهة المؤامرات واضطهاد أفراد العائلات. لذلك أراد والدي أن يبعدني عن هذه الأجواء، لكنه احترم خياري.

العودة إلى برمانا: الإثارة والتمرّد ١٩٦٩-١٩٧١

في صيف ١٩٦٩، اقتربت من سن السادسة عشرة، فقرر والداي إرسالي وشقيقي يوسف إلى المدرسة الصيفية في برمانا. في مدرسة برمانا الوطنية المحاذية لثانوية برمانا العالية تمتعت بامتيازات جديدة. صار بإمكاني الذهاب مع أصدقائي وزميلاتي في المدرسة إلى بيروت لحضور عروض مسرحية وتناول العشاء. تعاملت مع حريتي الجديدة بمسؤولية كبيرة حرصاً مني على عدم خسارتها من خلال تدمير الثقة التي منحتني إياها عائلتي. والأجمل أنني لم أشعر بصعوبة التعامل مع أبناء جيلي من اللبنانيين. ربما يعود ذلك إلى تمضيتي سنوات عدة من طفولتي قبل ذلك في برمانا.

حفل ذلك الصيف بالقراءة والحفلات والسباحة. لقد عنى هذا الكثير لي ولأخي يوسف الذي يصغرني بعامين، والذي بدأ يشعر بالضجر من اهتماماتي السياسية. بدأت أبحث عن طريق للبقاء لإطالة التجربة، فقررت أن أطلب من مدير المدرسة ومالكها السيد أنطوان توما أن يُقنع والديّ بلزوم بقائنا للسنة الدراسية التالية. وانتهى الأمر باقتناعهما، وخاصة مع وجود أقرباء لي (خالتي وزوجها وعائلتها) في بيروت.

كان لبنان في ستينيات القرن العشرين يحتوي على كل شيء. إنه المكان الذي امتزجت فيه الحياة الفكرية بالثقافة والسياسة والموسيقى والفن. في ذلك الوقت تأثر لبنان بالتمرّد الطلابي الفرنسي الشهير الذي انطلق من باريس عام ١٩٦٨ وعمّ دولاً عديدة في العالم. وتحول لبنان في ذلك الوقت إلى مركز للقضية الفلسطينية، وإلى مركز للحداثة العربية: الإيمان بالحرية، السعي إلى المساواة، أهمية العدالة، والتعلم من الغرب كما من الشرق.

اعتمد الأساتذة في المدرسة على الكثير من النقاشات والأنشطة في تفاعلهم اليومي مع الطلبة والطالبات. فالأستاذ الدكتور ميشال عاصي، وهو أستاذ الأدب العربي في الجامعة اللبنانية وصاحب الميول الاشتراكية اليسارية، ترك أكبر الأثر فينا، إذ درَّس عاصي مادة الأدب العربي للصفوف العليا في برمانا إلى جانب تدريسه في الجامعة اللبنانية.

وعاصي هو الأكثر تمتعاً بالروح القيادية من الأساتذة الذين صادفتهم في حياتي. ففي أداء مهنته التعليمية، مزج الأدب بالسياسة، أما كتبه فقد أثارت فينا الأسئلة والتفاعلات. لقد جمعت صفوف عاصي بين المعلومات الغنية والفكاهة والأداء المسرحي والسخرية وروح النكتة التي يشتهر بها أبناء مدينة زحلة. أما نحن الطلبة، فنتابع كل ما يكتبه عاصي ونقرأ مقابلاته بشغف باحثين عن معرفة جديدة تعيننا على نضوج معارفنا. تأثرنا بكتبه **الفنّ والأدب**، **دراسات منهجيّة في النّقد** (١٩٧٠)، **الشّعر والبيئة في الأندلس** (١٩٧٠).

في ربيع ١٩٧١ جاء ميشال عاصي إلى الفصل منزعجاً. فكي يأتي من بيروت إلى برمانا لتدريس مادة الأدب العربي لا بد أن يمر عبر طريق قريب من مخيّم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين الواقع قرب طريق المنصورية الرئيسي. لكن ذلك اليوم عندما وصل عبّر عن ضيقه من الاشتباكات التي بدأتها قوات للجيش اللبناني وأطراف يمينية مع مخيّم تل الزعتر، حيث هناك قوات للمقاومة. نظر عاصي المعروف عنه دعمه للمقاومة إلى الفصل وهو خليط من مسيحيين ومسلمين ودروز وعرب، وقال: «هذا سيؤدي إلى كارثة لكل لبنان. هؤلاء الذين يقاتلون المقاومة في لبنان لا يرون أبعد من أنوفهم».

في ما بعد، ترأس عاصي الجامعة اللبنانية لسنوات في أواخر الثمانينيات حتى عام ١٩٩١، قبل أن توافيه المنية بعد صراع مع مرض السرطان. لقد أسهم عاصي في اقتناعي بقيم المساواة بين النساء والرجال وبأهمية الحقوق الأساسية لكل إنسان وضرورة إنصاف الضعفاء والتركيز على الحريات. كان عاصي ملهماً.

في اللغة الإنكليزية، شرح الأستاذ طنوس طعمة شكسبير وكذلك الشعر وتاريخ الأدب كما لم يفعل أحد (توفي منذ سنوات في حادث سير) . وقد أخذنا لحضور مسرحيات ماكبث ويوليوس قيصر وروميو وجولييت. بدوره الأستاذ فوزي شلق والأستاذ عدنان ونوس أثريانا بتعليمهما الأدب العربي للصف الحادي عشر والفصول الأخرى في الثانوية. كنت أستشيرهما كل أسبوع في ما يجب قراءته، وأقدّم لهما كتاباتي وأتلقى منهما تعليقات وملاحظات. تميّز شلق بفكره الفلسفي، فهو مفكر مستقل ينتقد كل الأفكار والآراء، مما سمح لنا بتعلّم النقد وتقبّل الفكر

الآخر. كل أستاذ حمل فكراً في المدرسة وحمل فلسفة. كل أستاذ أعطى تفسيراً للكون على حدود الإيمان أحياناً والإلحاد أحياناً أخرى. كانت مدرسة حقيقية وسوق عكاظ للأفكار وللارتقاء. معظم الأساتذة تفاعلوا معنا يومياً وقت الفطور والغداء والعشاء وفي الفرص وفي عطلات نهاية الأسبوع.

أما ونوس، الذي لم تكن غرفته بعيدة عن غرفتي، فقد كان يقرأ كل رسائلي الغرامية (إذ عشت في ذلك الزمن قصة حب استمرت سنوات عدة) وساعدني على تحسين الأسلوب وتحقيق اللغة لتكون على مستوى اللغة التي تستخدمها صديقتي في الكويت ذات القدرات الثقافية العالية، ما أضاف تحدياً إضافياً إلى ثقافتي في بداياتها. وهكذا كنت أعيد كتابة الرسالة الواحدة عدة مرات قبل أن يعطيني ونوس الإذن لإرسالها بالبريد إلى الكويت. بطبيعة الحال لم أُعلم صديقتي بهذه الصلة مع ونوس، فإذا بها تقول لي: «تحسّن أسلوبك في الكتابة»، فأبتسم وأقول: «لقد فجّرت طاقتي الإبداعية دون أن أدري».

بعد شهور قال لي أستاذ ونوس: «يا شفيق، أنت تتطوّر بسرعة، ولكنك تقترب من السادسة عشرة وهذه فرصتك الأهم في حياتك لبلورة قدراتك الكتابية، بل لن تتوافر لك فرصة شبيهة بهذه في أي مرحلة مقبلة في حياتك. كتابة الرسائل لا تكفي، عليك أن تكتب في أمور أخرى. عليك أن تقرأ أكثر في الأدب لكي تغني أسلوبك. القراءة الكثيفة هي المدخل للأسلوب الجيد».

في إحدى المرات نظّمت المدرسة رحلة ميدانية، زرنا خلالها الأديب الكبير ميخائيل نعيمة وتعرّفنا إليه وتحدثنا معه وأخذنا توقيعه. ففتح لنا هذا بداية اهتمام بكتابات نعيمة ثم بكتابات جبران.

* * *

لقد ساعدنا الأساتذة في برمانا على تطوير فكر خاص بنا. فخلال الاستراحات بين ساعات الدراسة، كنا نتجمّع حولهم ونناقش المقال اليومي في جريدة النهار الذي كان يكتبه غسان تويني أو ميشال أبو جودة. نتطرق إلى المسائل الفلسفية، كالحياة أو الموت أو الوجود أو الإيمان أو الله أو العنف. كنا نناقش بكل حرية

واحترام، ونتطرق إلى الحديث عن المقاومة الفلسطينية والعنف واليسار والاشتراكية والثورة. وكل نقاش مهما بدا غريباً كان يبدو طبيعياً في برمانا. تعلّمنا أنه ليس هناك سؤال خاطئ، ولا نقاش خاطئ، بل كل الخطأ في إبقاء الأفكار في القلوب وعدم الإفصاح عنها، فهي تصحّح وتفيد وتتطوّر وتثرى من خلال النقاش المفتوح.

عندما وقعت المناوشات في الأردن بين الفدائيين والجيش الأردني، احتدّ النقاش بيني وبين عبد الإله العواملة، وهو شاب يمثل فكراً أردنياً وطنياً واضحاً. فأنا وعبد الإله (توفي منذ سنوات قليلة) صديقان، وغرفتانا في المدرسة الداخلية متقابلتان، لكننا نختلف على كل شيء في كل الأوقات. فهو أردني حتى النخاع وأنا ناقد للسياسات الأردنية تجاه القضية الفلسطينية حتى النخاع. ولتستوعب خلافنا هذا، دعتنا المدرسة إلى مناظرة مشتركة حضرتها كل المدرسة (مئات الطلبة والطالبات من كل الفصول). تلك هي أول مناظرة أخوضها. خرجنا صديقين من المناظرة وأكثر تفهّماً أحدنا للآخر.

* * *

وفي يوم آخر، دعتني المدرسة إلى إلقاء محاضرة شاملة عن القضية الفلسطينية، وأن أردّ على الأسئلة. كانت تلك أول محاضرة فكرية وسياسية ألقيها.

وإن سألت نفسي: ما هو دور المدرسة؟ فسأجيب: إنه تحديداً ما قامت به تلك المدرسة من خلال مساعدتي كطالب على اكتشاف نفسي والتعرّف إلى مواهبي وإيماني بنفسي وحقوقي. بل جاءت لنا المدرسة بمدرسة متخصصة بالرقص لتعطينا دروساً على مدار الأسبوع، كما شجعتنا على الرياضة كل يوم وأقامت لنا أجمل الحفلات الموسيقية. المدرسة ليست محفوظات، بل حياة ومناخ وحرية فكرية وتساؤل وتجارب وتعلّم لأصول التعامل بين الشاب والشابة وبين الأستاذ والطالب وبين الأفكار المختلفة وبين العلم والتطبيق.

وفي الفصل الحادي عشر (سنة ما قبل التخرّج)، حصل تلاسن كبير ورمي صحون على الأرض أثناء تناول العشاء بين بعض طلاب الفصل الثاني عشر والطاهي المسؤول في المدرسة. وقد سبّب التلاسن عدم طهو الطعام بنحو وافٍ. إزاء هذا الحادث، طرد السيد توما، مدير المدرسة ومالكها، أربعة طلاب من القسم

الداخلي، فألّفنا لجنة لإقناعه بالتراجع عن قراره. وقد أوكلت إليّ مهمة تمثيل المجموعة.

خلال اللقاء الطويل مع المدير، دافع السيد توما عن قراره بطرد الطلاب الأربعة. لكنني استخدمت كل المهارات التي اكتسبتها من اللقاءات والنقاشات السياسية مع بقية الطلاب والأساتذة بهدف تغيير قراره.

بعد ساعة ونصف من المناقشات، قال المدير: «يا إبني روح اعمول محامي، رح تعمل كثير منيح وما حدا راح يوقف بوجهك. أنا موافق على إعادة الطلاب. لازم يعتذروا من الطاهي، خلّيهم يمرّوا عليّ في البيت».

جنوب لبنان والتفاعل مع اليسار اللبناني

لقد نشأت في برمانا صداقة متميزة بيني وبين مارون، الطالب في الفصل الثاني عشر. مارون لبناني مسيحي من مدينة صور الجنوبية. وصور في ذلك الوقت معقل للمعارضة اللبنانية، ومركز للطلاب اليساريين والثوريين والقوميين. كان مارون يسارياً وعضواً في منظمة الاشتراكيين اللبنانيين شبه السرية من اليسار الجديد بقيادة محسن إبراهيم وفواز طرابلسي.

جاء مارون للدراسة في برمانا لأن والديه رغبا في إبعاده عن السياسة في صور الجنوبية، حيث تلاحقه الشرطة السرية والاستخبارات (المكتب الثاني اللبناني) دائماً، وتعتقله لفترات وتحقق معه وذلك للاشتباه في ضلوعه في أعمال المعارضة والتظاهرات ووضع الملصقات والدعوة إلى الإضراب. لدى مارون كل مواصفات المفكّر والمنظّر المثقف والقارئ العميق، لكنه في الوقت نفسه هادئ الطباع إلى درجة كبيرة ولديه مسحة عالية من الخجل الممزوج بذكاء غير عادي.

بعد أسابيع من التعارف والصداقة، عرض مارون أن يأخذني معه في عطلة نهاية الأسبوع إلى منزله في صور. كان الأمر بمثابة حلم يتحقق خلال خريف عام ١٩٦٩. غادرت مع مارون إلى جنوب لبنان، وتعرّفت إلى والديه، ونزلت في منزلهم في صور القديمة وسط البلدة القديمة في حارة المسيحيين. لقد شعرت بأن التاريخ يمرّ أمامي هناك، فهذه منطقة عمرها آلاف السنين. وفي صور التقيت

بأصدقاء مارون، ومنهم عازار العضو النشط في منظمة الاشتراكيين اللبنانيين والمفكر هاني مهندس.

لم تكن هناك تيارات دينية في ذلك الوقت، فالجميع يتحدّثون عن القضايا المعاصرة من وجهة نظر زمنية ويومية، فليس بين هؤلاء الفتيات والفتيان، أكانوا مسلمين أم مسيحيين، في صور، خلاف على كيفية الصلاة والوضوء والحج والعمرة والحجاب والسفور ومن يسلّم على من وكيف ومتى، ولم يكن هناك خلاف على الدين. فكل فرد حرّ في أموره الدينية.

عالم هؤلاء الشبان والشابات هو إنصاف العمال والفقراء والفلاحين في المجتمع ورفض سيطرة الطبقات المتنفذة والفاسدة على السلطات السياسية. لقد ركزوا على الحريات الأساسية والحقوق الإنسانية، والمساواة بين الرجال والنساء، والبطالة والتعليم والعمل والإنتاج والاقتصاد والمقاومة والقضية الفلسطينية ودور الجيل الجديد في صياغة المستقبل. الشبان والشابات الذين التقيتهم في صور من اليساريين آمنوا بالعالمية والانفتاح على الثقافات الأخرى والشعوب. كان الآخر بالنسبة إليهم يعني الاستعداد للتعلم وللتعايش. كذلك فإنهم تقبّلوا فكرة المراجعة الذاتية والنقد الذاتي.

الأهم لهذه المجموعات الشبابية اليسارية المؤمنة بالتغيير هو النفَس القومي في دعم المقاومة الفلسطينية في وجه إسرائيل وفي وجه محاولات الدولة في لبنان الحدّ من أنشطة المقاومة خوفاً من ردود الفعل الإسرائيلية. لهذا أنشأت منظمة الاشتراكيين اللبنانيين لجاناً شعبية في الجنوب لدعم المقاومة الفلسطينية، وقد تحوّل مارون إلى أحد العناصر النشطة في هذه اللجان.

إن السير في أزقة صور الضيقة وشوارعها الصغيرة الواقعة على البحر المتوسط من أجمل التجارب. الهدوء الكبير يعم الشاطئ، وأصوات الشبان الذي يتجادلون طوال المساء في إحدى ليالي خريف ١٩٦٩ بينما يسيرون في شوارع المدينة يحملها النسيم إلى كل مكان. ويجلس الشبان مساءً في بعض المقاهي الصغيرة بحثاً عن أكلة سمك شعبية، يحملون كتباً وأعداداً من مجلات فكرية ويسارية مثل «الحرية» الناطقة باسم منظمة الاشتراكيين اللبنانيين و«الهدف» الناطقة باسم الجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين التي يرأس تحريرها الأديب والقصصي والمكافح غسان كنفاني (ستغتاله إسرائيل عام ١٩٧٢). أما في النهار، فتعجّ صور بالأصوات والمارة والزوار والمطاعم والحلويات والسيارات والحياة.

* * *

كان أول لقاء لي مع نتائج النكبة عند زيارتي إلى مخيّم البرج الشمالي للاجئين الفلسطينيين القريب من صور. صدمتني مشاهداتي للمخيّم وأزقته ومنازله والمجاري التي تسيل من المنازل في حفر مكشوفة عبر أزقة المخيم المكتظة بالأطفال. تأثرت بما رأيت، وتعمّق فهمي لمعنى النكبة ومعنى العودة.

لقد أدار الفدائيون في ذلك الوقت المخيّمات، ولا سيما فدائيّو فتح وجيش التحرير الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير. فمنذ شهر أبريل ١٩٦٩، على أثر مواجهة مسلحة ودامية بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة اللبنانية، باتت المخيمات بإدارة منظمة التحرير الفلسطينية.

منذ عام ١٩٤٨ عاشت المخيمات الفلسطينية تحت حكم الدولة اللبنانية، وخاصة جهاز الأمن المعروف بالمكتب الثاني. وقد مارس هذا الجهاز الأمني الكثير من الانتهاكات ضد حقوق الإنسان في المخيّم، من الضرب العلني إلى الإهانة والتحكم بحياة الناس. كذلك مُنع الفلسطينيون من العمل في معظم المهن والوظائف في لبنان، ما يعني اضطرارهم إلى العمل سراً بلا عقود مع مقاولين لبنانيين. سبّب هذا ألماً كبيراً لهم وزرع بذور ثورتهم واستقبالهم للفدائيين ومنظمة التحرير الفلسطينية. ولهذا سيستميت الفلسطينيون في منع عودة الدولة إلى مخيماتهم.

اختبرت في المخيمات للمرة الأولى مقاربتي للسلاح. إن الوقوف ساعات في الليل لحراسة موقع عنى نوعاً من التحرر الإنساني، وفهمت معنى أن أكون مكافحاً بدلاً من العربي الذي رأيته عبر وسائل الإعلام وأنا صبي عام ١٩٦٧ راكضاً من أجل حياته في الصحراء.

تلك الزيارة والزيارات اللاحقة ربطت توجّهاتي السياسية بالواقع وطبعت في فكري معاناة لن يكون التعامل معها ممكناً إلا من خلال إنهاء حالة اللجوء والقهر.

من مخيّم البرج الشمالي سأقسم على العودة لنصرة اللاجئين وتحقيق حلم العودة. ستغيّر تلك الزيارات مجرى حياتي.

بيروت ١٩٧١

خلال السنتين التاليتين، ضعفت العلاقة بيني وبين حركة فتح إلا من علاقة فكرية مع شاب يكبرني بعدة سنوات ويعمل نادلاً في مطعم وبار «الألبينو» الواقع مباشرة فوق المدرسة. أحمد من فتح، ورغم عمله البسيط، كان يمتلك طاقة كبيرة على العمل السياسي والنقاش والتنظيم. وجدت في العلاقة معه إغناءً لمعارفي ونقاشاتي، إذ يفاجئني كل مرة ألتقيه بقراءاته الجديدة. هكذا أصبح لفنجان القهوة مع أحمد معنى سياسي ومجال لتبادل آراء.

لكنني وجدت نفسي في سنوات برمانا منجذباً على الدوام مع صديقي مارون إلى صور والمخيّمات في عطلات نهاية الأسبوع، نذهب معاً إلى محاضرات في بيروت يتحدّث فيها فواز طرابلسي عن رحلته الشهيرة إلى ثورة ظفار في عمان ونقرأ معاً مجلة «الحرية» الناطقة الرسمية باسم الاشتراكيين اللبنانيين.

في تلك المراحل سمعت أول مرة عن أحمد الربعي، الشاب الكويتي الذي انضم للفدائيين في الأردن ثم قاتل في ظفار من أجل التغيير في عُمان، ثم أُسر وسُلّم إلى الكويت حيث كان مطلوباً في قضية تفجير احتجاجاً على وقوع تزوير في الانتخابات عام ١٩٦٧. وأذكر حضور تجمّع كبير تبنّى قضيته ومسألة الإفراج عنه عندما أسر في عُمان.

في وسط بيروت، وفي منطقة ساحة الشهداء المكتظة، كانت هناك مكتبة صغيرة يملكها ويديرها أحد الشيوعيين المخضرمين. من هناك ابتعت الكثير من الكتب التي ساعدتني على قراءة الأدب الماركسي، من الناحيتين الفلسفية والتنظيمية. فمعرفة الماركسية فيها الكثير من الإغناء لمن يفكر في صنع ثورة وانتفاضة وتحرير أرض، والتخلص من هزيمة واحتلال، والعمل على تغيير المجتمع ونصرة الضعفاء والمهمّشين. وأصبحت من الزبائن الدائمين لكل المكتبات المعروفة قرب الجامعة الأميركية في بيروت. نشأت صداقة مع أحد أمناء المكتبات

(فرحان)، ما دفعه ليناقشني في الكتب التي أقرأها في كل زيارة لمكتبته. وهذا ممّا أسهم في إغناء معارفي النقدية.

أوّل كتاب قرأته في ذلك الوقت هو كتاب نوال السعداوي الأول عن المرأة، الذي ينتقد التمييز ضدها، ثم كتاب صادق جلال العظم **نقد الفكر الديني**، ثم كتابه **الحب العذري** وكتابه **النقد الذاتي بعد الهزيمة**، وكتاب بول باران **الفكر الاشتراكي**. قرأنا بإسهاب لماركس ولينين وأنجلز وهيغل في الدياكتيك، وبول سارتر في الوجودية. بدأت أرى أن الأدب العالمي هو أدبنا والفكر العالمي هو الآخر ملك لنا وتطوير لنا، وأن ما كتب عبر التاريخ هو الآخر ملك لنا.

وقد يتساءل القارئ: أين هي القراءات الإسلامية؟ لم يكن هناك أساساً تيار إسلامي عريض في العالم العربي يدعو إلى دمج الدين بالسياسة أو يطرح الحل الإسلامي لكل مشكلة، الإسلام بالنسبة لنا كان دين هداية وحضارة. لم تكن الشريعة أو تطبيق الحدود الإسلامية تجاه السرقة وتجاه الاختلاط بين الرجال والنساء وتجاه لباس المرأة وغيرها أموراً مطروحة للتطبيق أو تعتبر جوهر الإسلام في أغلبية الدول العربية. لهذا آمن جيلي بفصل الدين عن السياسة وإبقاء الدين أمراً شخصياً إيمانياً بين الأفراد وفي المجتمع.

في بداية ربيع ١٩٧٠ قال لي مارون: «سأعرّفك إلى شاب مؤثر في اللجان الشعبية الداعمة للمقاومة والتابعة للاشتراكيين اللبنانيين». الهدف من اللقاء أن يضمّني إلى «مجموعة نقاش» تجتمع كل أسبوع لمناقشة الكتب الثورية وأحوال القضية الفلسطينية ووضع لبنان.

في تجمّع للطلاب والطالبات في ساحة الشهداء، وقف شاب لا يبلغ من العمر أكثر من ١٧ عاماً يتحدث بصوت جهوري وعالٍ يمكن سماعه عن بعد مئتي متر. اقتربت أنا ومارون وإذا «بالشاب القيادي» يؤنّب أحد الشبان، ثم يؤنّب تلك الشابة على التأخير عن موعد اجتماع، ثم يوزّع مهمات بدت مبهمة لي، وبدا «معجوقاً» بالعديد من القضايا في اللحظة نفسها.

اقتربنا، فسلّم مارون عليه وعرّفه إليّ، ولكنه لم يُعرنا أيّ انتباه، وأكمل محاضرته لعدد من الشبان، مهدّداً بفصلهم إن تأخروا مرة ثانية، وأن العمل «بهذه

الطريقة مش مقبول وما بيصير». وقال لنا بلا أدنى تردّد: «مشغول بعدين نتحدث». قال لي مارون هذه طبيعته، لازم نتحمّل حتى نحظى بما نريد، فهو القائد الطلابي هنا ولا نستطيع تجاوزه. لحقناه بين الطلبة والطالبات، وهو يتحرك من هنا إلى هناك ليقنع هذا بإضراب وذاك بتظاهرة، وتلك بالانضمام.

في النهاية قال القائد الطلابي الذي لم يكن أكبر منا سناً: «شو بدكم، ما معي وقت، بسرعة لو سمحتم». قال مارون «نريد أن نضمّ شفيق، وهو قادم من الكويت ويدرس في برمانا، إلى خلية نقاش ثقافي». نظر إليّ ثم نظر إلى مارون وقال له: «ما بينفع». فما كان مني إلا أن غرقت في الضحك من الموقف. بعد قليل قال: «أوكي رح أعمل استثناء وأضمّه، بس يا مارون ما تجيبلي غيرو (مع ابتسامة)». كان هذا لقائي الأول مع هذا الشاب، الذي سيتحول إلى صداقة طويلة على مرّ السنوات.

لكنّ هذا الشاب، مثل الكثير من الشبان والشابات في هذه الأجواء السياسية، يواجه مأزقاً كل يوم مع أسرته التي تنتمي إلى أسرة معروفة وصاحبة نفوذ في لبنان لا تقبل أن يكون ابنها من عتاة المعارضين واليساريين. فوالده يقول له «ما هذه الصداقات التي تحيط بك، كلها عمال وفلاحون وفاشلون وساقطون وضد الدولة التي تشكل عائلتنا أحد أركانها».

لهذا، وليريهم صديقي شيئا آخر، وجد ضالته في دعوتي ليفاجئ أهله بأن لديه أصدقاء من عائلات «نخبوية» (إن صح التعبير) من الكويت. هكذا، كلما توترت العلاقات دعاني إلى الغداء في منزله. يقولان له: «هكذا يجب أن يكون أصدقاؤك، مش مثل الفاشلين اللي إنت لاممهم حواليك». طبعاً اتفقت مع صديقي على ألا نتحدث في السياسة والاشتراكية والمقاومة إلا في حدود معقولة أثناء ذلك الغداء، الذي تكرّر مرات عدة.

في منطقة البرج (مكانها السوليدير اليوم) وسط بيروت، في ذلك الزمن الخاص، وُجد عالم متكامل. ففي تلك المنطقة الشعبية أفضل فلافل في العالم، وتتعالى أصوات سائقي سيارات التاكسي، كلٌّ يصرخ بنغمة ثاقبة للأذن بأعلى صوته باسم المنطقة التي يريد أن يقلّ الناس إليها. إلى يمينها سوق لبائعات الهوى يمتد

إلى منطقة كاملة، يكتب اسم كل بائعة هوى على لافتة أمام مسكنها، وكانت لديها رخصة مزاولة ولديها أطبّاء من الحكومة، حيث يعتبر البغاء في هذا السوق مهنة رسمية للترفيه.

في تلك المنطقة أسواق شعبية ممتدة، ودور سينما شعبية، وأصوات وأبواق سيارات، وسيدات يلبسن أقصر الملابس وأكثرها جمالاً، إلى جانب رجال من الريف المحافظ. في ذلك الزمن لا يحتك أحد بأحد ولا يضايق أحد أحداً. يتبادل الناس النظرات، وأحياناً تسمع تعليقات تجاه النساء، ولكنها تعليقات تعكس خفة دم اللبنانيين ولا تعكس روحاً سلبية مؤذية تجاه الآخرين. في بيروت ١٩٧٠ تلاقت الحضارات وعكست حيوية المكان والزمان.

أثناء وجودي في برمانا وقعت أحداث أيلول في الأردن ١٩٧٠. فقد وصلت الأمور بين المقاومة الفلسطينية هناك والدولة والحكومة الأردنيّتين إلى طريق مسدود. انفجر كل شيء، وبدأت الحرب الأهلية التي أسهمت في نهاية الأمر في إغلاق الجبهة الأردنية وتحويل العمل الفدائي بالكامل نحو لبنان.

لم أقدّر كم سيكون أثر تلك الأحداث عليّ شخصياً وعلى جيلي. لم نستطع القيام بأكثر من التجمّع، والتحدث، نحتجّ ونعبّر عن رأينا في المدرسة وخارجها. وسيلتنا الوحيدة للتواصل راديو المقاومة الناطق باسم العمل الفدائي. دار في خلدي أن أذهب إلى الأردن مع آلاف المتطوعين الذين اصطفوا في دول الخليج وفي لبنان وغيره. لكنني لم أكن في سن تسمح لي بقرار كهذا.

إن أثر أيلول على أبناء جيلي كان كبيراً، فقد دفع بعضهم إلى التطرف وصولاً إلى الانضمام إلى منظمة أيلول الأسود التي ستولد من رحم الاقتتال الذي وقع في الأردن. لكن تلك الأحداث دفعت قطاعاً آخر من جيلي، ومنهم أنا، إلى التمسك بالمقاومة، واعتبار الدفاع عنها في آخر قلاعها (لبنان) مسألة مركزية.

في الفترة نفسها، أي في أواخر أيلول ١٩٧٠، مات الرئيس جمال عبد الناصر. ستعمّ التظاهرات لبنان حزناً على وفاته، وسيشعر العالم العربي بأنه فقد البوصلة والقيادة التي آمن بها. مررت بالمكتبة وإذا بصاحبها اليساري الذي ظننت أنه قطع الصلة بالناصرية يبكي بحرقة كبيرة. كان عبد الناصر في نظر العرب فوق

التاريخ وفوق النقد. بموته أسدلت الستارة على مرحلة قومية طويلة بدأت عام ١٩٥٢ وحملت كل أخطائها وآمالها. لكن هذا كله سيكون إيذاناً بتحوّل لبنان إلى مركز للعمل الفدائي الوحيد، وسيعني أيضاً أن فئات لبنانية ستتلقّف فكرة إنهاء العمل الفدائي في لبنان أسوة بما حصل في الأردن.

* * *

في المدرسة أنشأت مجموعة منا روابط فكرية مع شبان وشابات من سكان برمانا ومن الحزب القومي السوري في ضهور الشوير. جعلتنا هذه الروابط في صراع مع طلاب آخرين في الجناح اليميني المتمثّل في حزبي الكتائب، الذي يتزعمه آل الجميّل، والوطنيين الأحرار الذي يرأسه كميل شمعون. بعض الطلاب من تلك المجموعات اليمينية بدأوا يحملون السلاح ويتدرّبون عليه انطلاقاً من مبدأ رفض المقاومة الفلسطينية ووجودها في لبنان.

لقد رأى اليمين أن وجود المقاومة في لبنان يقوّي اليسار والمسلمين، ويضرّ الفئة الحاكمة، لهذا رفضها. أما أصدقائي في صور وفي بيروت وفي ضهور الشوير المسيحية القريبة من برمانا، فقد رأوا أن المقاومة الفلسطينية هي ضمانتهم الوحيدة لحماية حقوقهم ومستقبلهم.

بدأ لبنان يعيش بدايات انفجار كأنه على فوهة بركان مع بداية السبعينيات. الاعتداءات الإسرائيلية تحصل في الجنوب باستمرار، فيما الطلاب في بيروت يتظاهرون يومياً احتجاجاً على تلك الاعتداءات وللمطالبة بحقوقهم في جامعات ومدارس أفضل. بدأت تظهر إشارات تدلّ على بذور صراع أهليّ.

وقد دأبت في تلك الفترة وأنا لا أزال في آخر عام في ثانوية برمانا، على زيارة الجامعة الأميركية في بيروت. وأوّل زيارة إلى الجامعة كانت لرؤية صديقي سعيد الحسن، ابن القائد الفلسطيني خالد الحسن، الذي تميّز بطروحات وسطية مرنة ذات نفس إسلامي هادئ. سعيد يمثّل رؤية للأمور فيها بعض النفحات الإسلامية والفتحاوية في الوقت نفسه، الحوار معه أشبه بحوار اليمين واليسار.

لكنّ سعيد تميّز بأنه ابن لعائلة سياسية مناضلة بامتياز. ففضلاً عن أبيه خالد الحسن الذي نسّق معظم أبعاد العلاقة بين المقاومة ودول الخليج، فإن عمه أبو

أيمن (علي الحسن)، برز كأحد قياديي فتح في الكويت، فالاستماع إلى أبو أيمن وتحاليله يتحوّل إلى استماع موسيقي من شدّة ترابطه وطبيعة تفاعلاته. أما عمّه الآخر هاني الحسن، فهو من قياديي فتح الرئيسيين وعضو اللجنة المركزية. لسعيد عمّ واحد خرج عن السرب (بلال الحسن) لأنه أحد أهم قياديي الجبهة الشعبية الديموقراطية برئاسة نايف حواتمة.

في أحد الأيام سألت علي الحسن ما الذي جعلك وجعلكم جميعاً في أسرة الحسن مثقفين إلى هذه الدرجة؟ ردّ عليّ رداً يصعب نسيانه:

«عندما كنت صغيراً في مدينة حيفا قبل النكبة، أصيب والدي بالعمى. لم يعد يستطيع أن يقرأ. فتناوبت وإخوتي على قراءة الكتب والصحف والدراسات والأخبار لوالدي بصوت عال. . . مع الوقت وجدت نفسي أنجذب إلى ما أقرأ ووجدت لغتي تتطوّر».

أخذني سعيد إلى السبيكرز كورنرز (زاوية المتحدثين) وهو أقرب ما يكون إلى هايد بارك في الجامعة الأميركية. هناك شاهدت الشبان في الجامعة يخطبون في هذه الزاوية: محمد الدجاني رئيس مجلس الإدارة من فتح، محمد مطر هو الآخر من فتح وترأس مجلس الطلبة في مرحلة أخرى، وزاهي وادي ويوسف وريما وفتحي البس وهاني. فالطلاب والطالبات يقولون كل ما يريدون في تلك الزاوية كما يحلو لهم، وسط حضور حاشد للطلبة والطالبات. في السبيكرز كورنرز يتحدث الطلبة عن القضية الفلسطينية، ويتحدثون عن حقوق الطلاب في الجامعة، والهجمات الإسرائيلية، كذلك ينتقدون الأوضاع العربية. لقد عبّر هذا الجيل عن نفسه من أوسع الأبواب، إذ كسر الحظر على الكلام الشائع في العالم العربي، وأعلن الموقف تلو الموقف.

لم تكن الظروف العربية مؤاتية لهذا الجيل. لكنه جيل جريء فكّر لنفسه وبذل جهداً كبيراً كما سنرى في ثنايا هذا الكتاب. وهؤلاء الطلاب في الجامعة الأميركية سيتعرّضون للمضايقات العديدة لدى عودتهم إلى أوطانهم، وستوقفهم الأجهزة وستحقق معهم في ما قالوه في الجامعة، فتحجز جوازات سفرهم وتضطر عائلاتهم إلى التحدث مع كبار المسؤولين لاعتبار الأمر طيشاً شبابياً لا أكثر.

أما شارع الحمراء الذي يقع قرب الجامعة الأميركية وكلية بيروت للبنات (أصبحت الجامعة الأميركية اللبنانية) فهو المكان الذي تجتمع فيه الثقافة العربية برمّتها. إنه شارع المؤتمرات، واللقاءات والفكر والنقاش والحوار بشأن الوضع العربي والقضية الفلسطينية والعالم، وهو أيضاً شارع اللاجئين السياسيين الهاربين من أحكام الإعدام من دول عربية شتى، وشارع الرؤساء والوزراء السابقين من العراق وسوريا ودول عربية أخرى، وهو أيضاً شارع الجمال والأزياء، وهو شارع الرأسمالية في زمن الاشتراكية العربية. شارع الحمراء امتلأ بفنادق مثل فندق ستراند الشهير، وبأفضل المقاهي ودور السينما وأجمل الأذواق.

أثناء تناول الغداء مع مارون في أحد مطاعم شارع الحمراء قبل تخرّجي من الثانوية في ربيع ١٩٧١، إذا بأستاذي في المدرسة الابتدائية في الكويت فاروق أمامي. لقد تقدّم فاروق في السن، واعتلى قامته الطويلة (قارب المترين) بعض الشيب، لكنّ التصميم الذي لمحته في شخصيته وأنا طفل، بقي ملازماً له، فهو يتحدث بروح الأستاذ وببعض الحسم.

سألنا عن رأينا في الأوضاع، فتحدثنا بانفتاح. لكنه تحدث معنا من جانبه بانفتاح من نوع آخر: فقد نسف كل ما قلناه طارحا طرحاً إسلامياً من جوانب عديدة. لم تعجبه الحركات اليسارية القائمة، وتنبأ بفشل كل محاولات تحرير بلده فلسطين. تنبأ بنشوء شيء آخر في الشرق يحمل فكراً إسلامياً. ناقشناه بقوة، فانتقد صادق جلال العظم والهجمة على الإسلام وتمسّك بمقولة جديدة عليّ: «إن تحرير فلسطين لن يكون ممكناً إلا من خلال العودة إلى الإسلام».

خرجت من ذلك اللقاء متسائلاً: هل يكون ما قاله الأستاذ فاروق، الذي أُجلّه وأحترمه كثيراً منذ سنوات الطفولة، ممكناً؟ تلك هي بدايات التيار الإسلامي في أولى إرهاصاته الإقليمية المحدودة، وهذا هو أوّل تعرّض جاد لي مع موضوعاته من خارج الإطار الذي تمثّله المنظمات اليسارية اللبنانية وفتح أو المنظمات الفلسطينية. ففاروق قريب كما فهمت من حزب التحرير الذي تأسّس في القدس مطلع عام ١٩٥٣م على يد القاضي تقي الدين النبهاني.

قبل تخرّجي من الثانوية في ربيع ١٩٧١، واجهت موقفاً صعباً، إذ عمّت

الإضرابات مدارس لبنان، ودعونا إلى الإضراب في برمانا. لكنّ موعد الإضراب تزامن مع الامتحانات النهائية قبل التخرّج. قلت لنفسي كيف أضرب الآن، وفي وقت الامتحان؟ وإذا بزميلتي اليسارية في الفصل عايدة تقول لي: «موقفي مثل موقفك. إذا أضربت فلن أحضر الامتحان». قلت لها: «ستفصلين وأنت في آخر سنة، سيكون الثمن كبيراً».

فكّرت ملياً ناظراً إلى زميلتي عايدة وبقية المجموعة وقلت: «سأحضر الامتحانات ولن أضرب، يجب أن نتخرّج ونذهب إلى مكان آخر». ثم أضفت مازحاً: «لنعلن الإضراب بعد الامتحانات بساعة». دخل معظمنا إلى قاعة الامتحانات ودخلت أيضاً عايدة. أما الأقلية التي استمرت بالإضراب فواجهت صيفاً صعباً انتهى بتقديم أسرهم عشرات الالتماسات للسماح لهم بإعادة الامتحان، بل إن بعضهم أعاد السنة كلها في مدرسة أخرى بسبب إضراب الأيام الأخيرة.

في الفترة الممتدة من خريف عام ١٩٦٩ حتى صيف عام ١٩٧١ حين تخرّجت من الثانوية، عشت تجربة لبنان وتداخلاته مع كل العوالم. فما رأيته وعاصرته في لبنان يمثّل كوناً في حدّ ذاته. ففيه عايشت القوميين العرب والفلسطينيين، وشاهدت عمل الجناحين اليميني واليساري، الحكومة والمعارضة، المثالية والثورة. إن أولئك الذين عرفوا لبنان في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، يلتقون ضمن رابط وتجربة مشتركة. فلبنان حينذاك واقع وسراب في الوقت نفسه. فهو بلد حر وفي الوقت نفسه مركز لكل صراعات العالم العربي وقضاياه. إنه مكان للفكر ومكان للتنفيس عن مشكلات العالم العربي وأجهزة استخباراته واستيعاب صدماته وهروب معارضيه ومحاولاته للإبداع والحضور.

بعد تخرّجي في حزيران ١٩٧١ ودّعت زملائي وزميلاتي في المدرسة ورفاقي في مدينتي صور وبيروت. غادرت أوّلاً إلى الكويت لرؤية عائلتي، ومن ثم سافرت إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستي الجامعية.

الفصل الثالث

في الولايات المتحدة: الجامعة والسياسة ١٩٧١

وصلت إلى الولايات المتحدة يوم بلوغي الثامنة عشرة من العمر، وذلك في اليوم الأخير من شهر أغسطس/آب ١٩٧١. كنت وحدي في رحلة طويلة هي بداية اكتشاف الولايات المتحدة، تلك القارة التي لم تطأها قدمي في السابق. لم يكن في كلية لينكولن، التي تقع في ولاية إلينوي وتبعد ساعتين عن مدينة شيكاغو، من العرب سوى طالبين عربيين من فلسطين: فواز ورائد، اللذين تجمعني بهما صداقة قديمة. كلية لينكولن كلية جامعية للسنتين الجامعيتين الأولى والثانية. لهذا سأبقى فيها عاماً واحداً قبل الانتقال إلى جامعة جورج تاون.

في اليوم الأول في كلية لينكولن وقعت لي حادثة طريفة. فأنا لم أكن أعرف على سبيل المثال أن نسبة كبيرة من أبناء الكلية وبناتها هم من يهود المنطقة المحيطة بشيكاغو. وكنت قد تربّيت سياسياً على أن اليهود شيء والصهيونية التي احتلت فلسطين شيء آخر، وأنه لا يمكن اعتبار كل يهودي صهيونياً متهماً باحتلال فلسطين. ولكني لم أعرف، من جهة أخرى، أن إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت تمثّل لليهود رمزاً لوجودهم ولتاريخهم المثقل بالاضطهاد. ولكن بالنسبة إليّ كعربي جذور عائلته من فلسطين، فإن إسرائيل قامت على اغتصاب بلاد أجدادي وسبّبت لأسرتي التهجير عام ١٩٤٨. وهذا يكفي ليكون موقفي من الصهيونية سلبياً إلى أبعد الحدود.

عندما انتقلت إلى غرفتي في اليوم الأول، وجدت أن لي شريكاً أميركياً في الغرفة. وكبقية الأميركيين الذين سأتعرّف إليهم لاحقاً، فهو لطيف ويحبّ أن يعرف

المزيد عندما يلتقي شخصاً من العالم الواسع. سألني عن بلدي فقلت له «إنني من الكويت».

لم يكن قد سمع بشيء له علاقة بالكويت، بل حسب أن كل من يأتي من تلك البلاد إما أن يكون من إسرائيل وإما من الأردن وإما أنه يعيش مع الجمال في الصحراء.

حفّزني في البداية عدم معرفته بشيء له علاقة بعالم العرب على التحدث معه عن منطقتنا: «أسرتي أتت من فلسطين إلى الكويت بعد قيام إسرائيل». باختصار، منذ اللقاء الأول أكدت له «أن إسرائيل قامت على حساب فلسطين وأنها أخذت مساكن العرب الفلسطينيين وأراضيهم وأننا سنعود ونحرّرها كاملة».

لقد صعقته منذ اللقاء الأول. ربما سعيت من هذا النقاش لامتحان قدراتي اللغوية، لكنني اندفعت بقوة كأنني وجدت ضالتي في إقناع أحد في الولايات المتحدة بالحق العربي والفلسطيني.

قال لي: «نحن في فيتنام ضد الشيوعية»، فقلت له: «أنتم هناك حباً بالنفوذ والهيمنة». انتهى النقاش وأكد لي أنه سعيد بوجود طالب أجنبي في غرفته وذلك ليريه جانباً مخفياً عنه.

منذ الوهلة الأولى شعرت بأنني أمام شاب لم ينشأ النشأة التي نشأت عليها، ولم يتعرّض للهزائم المتتالية التي تعرّضت لها دولنا وبلادنا. يأتي هذا الشاب من عائلة متعلمة كعائلتي، فوالده رجل أعمال ووالدي طبيب، ولكن العالم الذي يفصلنا بدا كبيراً في الدقائق التي تعرّف فيها أحدنا إلى الآخر. فأنا أحمل هموماً ليس من الطبيعي أن يحملها شاب في عمري، وهو في المقابل يعيش عمره بكل ما للكلمة من معنى. أنا أعدّ السياسة جوهراً وهو يعدّها ترفاً وتصويتاً في انتخابات مرة كل عدة سنوات. هو يريد النجاح، وتحقيق درجات عالية تأخذه إلى جامعة قوية ووظيفة متميزة وحياة جميلة ومنزل فاخر في الضواحي، وأنا أنطلق من مجتمع قديم مليء بتجارب الحرب والتشرد والبحث عن الحقوق والانتقام ممن احتلوا فلسطين وشردوا شعبها.

لم أعرف أنني أخفت هذا الشاب بحديثي عن فلسطين. بل زاده خوفاً أنني

أحضرت معي من لبنان والكويت الملصقات الملوّنة لفدائيين فلسطينيين وعرب، ولمقاتلين يحملون الأسلحة ويتدرّبون عليها بهدف العودة إلى فلسطين، وقد وضعت صوراً لمخيّمات فلسطينية فقيرة ولقرى لبنانية جنوبية دمّرها القصف الإسرائيلي. فبدلاً من تعليق صورة لـبريجيت باردو أو راكيل والش ومارلين مونرو أو إلفيس بريسلي، علّقت صور الفدائيين واللاجئين. وعندما جاء هذا الشاب ليلاً إلى الغرفة ورأى ما رأى أصابه الرعب ولم يعد للمبيت في الغرفة.

نادتني مسؤولة الشؤون الطلابية في الكلية، وقالت لي: «لقد أخفت هذا الشاب، فما القصة. إنه مقتنع بأنك ستؤذيه حينما تعرف أنه يهودي». وقبل أن أبدأ بالحديث رداً على الاتهام سألتني بلطف: «ما هو موقفك من اليهود؟». قلت لها: «لست ضد اليهود على الإطلاق». ثم أردفت قائلة: «لقد قدّم طلباً لنقله إلى مبنى آخر، فهو لا يريد أن يراك على الإطلاق».

قلت لها: «بلّغيه أنني عبّرت عن رأيي فقط، وأنني لا أكنّ أيّ كراهية له على الإطلاق».

هذا هو الدرس الأول في الولايات المتحدة. لقد تحدثت إلى هذا الشاب من منطلق عدالة القضية الفلسطينية وصحّتها من دون التفات إلى أصول الحوار وآدابه. تحدثت بطريقة لا تراعي منطلقاته وحدود معرفته وتجربته.

اللغة وطروحات ثورية

العام الذي أمضيته في لنكولن كان غنياً. ورغم معقولية لغتي، احتاجت إلى الكثير من الممارسة والكتابة. وقد وفّرت لي الكلية أستاذاً وأستاذة يعملان معي مرّتين في الأسبوع طوال فترة ما بعد الظهر، وذلك بعد الانتهاء من الحصص الرسمية في العلوم السياسية والأحياء والاقتصاد والفن.

اكتشف المدرّسان بسرعة رغبتي في النقاش السياسي معهما. لهذا، مع نهاية كل درس، كان لا بد لكلّ منهما من فتح نقاش في شأن من شؤون السياسة. فالسيد «أندرسون» والسيدة «مورياريتي» وجدا في تشغيل أسطواناتي الثورية مكسباً لأنه يقدّم لهما ما لا يسمعانه في نشرات الأخبار. حدثتهما عن السياسة الأميركية

الخاطئة وعن فلسطين وإسرائيل والمقاومة والاشتراكية. كنت أقول لهما: «ستُهزمون في فيتنام لأن قضيتكم هناك ليست عادلة».

والأهم في علاقتي بكلّ من «أندرسون» و«مورياريتي» أنهما اكتشفا أن السياسة وسيلة تساعدني على إتقان اللغة الإنكليزية. فكثرة النقاش فرضت عليّ أن أتعلم مفردات سياسية واجتماعية جديدة، وأن أتعمّق في اللغة أكثر من المتوقع.

لكن هذين المدرّسين في لينكولن لم يقولا لي لماذا أتيت إلى هنا أو عد إلى بلادك ما دمت لا تحب سياسة بلدنا؟ لم يقولا لي لماذا لا تذهب إلى الاتحاد السوفياتي ما دمت معجباً بنموذجه؟

لم أتوقع أن أجد أن الليبرالية الأميركية التي تؤمن بحرية الاعتقاد والتفكير والاختلاف مع السلطات هي أكثر من شعار.

زميلي الأفريقي الأميركي

جاء إلى الغرفة شريك جديد اسمه كين. وكين أميركي أسود من المؤمنين بحقوق السود، يكبرني بعامين، وسبق له أن قاتل في فيتنام وجرح. وفي الوقت نفسه هو أحد العناصر الأولى من الأفواج السمراء التي تدرس في هذه الكلية. عن طريقه سأرى جانباً آخر من الولايات المتحدة.

في الشهر الثاني قال لي كين: «سآخذك إلى منزلي، حيث سترى أسرتي». ذهبت مع كين إلى إحدى ضواحي شيكاغو المكتظة بالسكان، التي لا يقطنها سوى الملوّنين السمر. في تلك الزيارة الأولى اكتشفت كم أنا أبيض اللون وسط ذلك السواد، وفي الليل بينما ننتقل من نادٍ ليلي إلى آخر كانت تلاحقني الأعين في ذلك الحيّ الذي تسوده الجريمة والعصابات الليلية وتجارة المخدّرات، إذ سادت هذه الحالة مناطق السود الفقيرة (الغيتو) المحيطة بمدينة شيكاغو في أوائل سبعينيات القرن العشرين.

وبينما أتجوّل في ليلة السبت مع كين وإخوته وصديقاتهم، شهدت عراكاً عند باب أحد النوادي الليلية. جاء أكثر من شاب يريدون التأكد من الشخص الأبيض الملامح الذي يرافق كين، فربما يكون من أجهزة الدولة، وخاصة أنه لم تكن الدولة

وأجهزتها تتجرّأ على دخول هذه المناطق الخطرة، فأجواء الصراع العرقي والعنف التي سادت أواخر الستينيات ما زالت حاضرة. وحالما يعرفون أنني لست أميركياً أبيض وأنني من العالم العربي وأن كين لم يكسر قانون الحي بإدخال شخص غير مرغوب فيه يبتسمون ويرحّبون بي.

منزل كين صغير يعيش فيه والداه وعشرة إخوة وأخوات. وبين الحين والآخر يطلّ عليك ضيف مستعجل للانتقال من غرفة إلى أخرى «فأر صغير».

عرّفني كين إلى جميع الطلبة والطالبات الملوّنين في كلية لينكولن. وأصبح من الطبيعي أن نخرج معاً لتناول العشاء في عطلة نهاية الأسبوع. والملوّنون الأميركيون مثلنا نحن العرب، فعندما يتجمعون تتعدّد مظاهر الصوت العالي والضحكات الأعلى. دخل أحد الشبان إلى أحد المحال التجارية ليشتري لنفسه شيئاً، وإذا بصاحبة المحل تقف بتوتر وارتباك ولم تشعر بالراحة إلا بعد مغادرته المحل. لينكولن المحافظة لم تعتد رؤية ملوّنين في وسطها.

لقد تعلمت من كين والشبان والشابات الملوّنين في لينكولن الكثير عن الأميركيين من أصل أفريقي. تعرّفت إلى كتبهم وأدبهم. وسيأخذ الأمر وقتاً طويلاً منذ عام ١٩٧١ لتتغير النظرة البيضاء إلى الأميركيين السود. ففي شيكاغو، رأيت وجهاً قبيحاً لأميركا، ولكن من شيكاغو سيتغيّر ذلك التاريخ بعد عقود طويلة.

دروس المجتمع الأميركي

في بدايات تعرّفي إلى الولايات الأميركية، فوجئت بمدى طموح الأميركيين للنجاح الفردي والشخصي المالي والمهني. لقد بدأت أكتشف كم يختزن المجتمع الأميركي من قوة أساسها بناء شخصية الفرد وتمكينه وعدم قمعه وجعله مستعداً لأن يكون نجماً في المجال الذي يختاره. الأميركيون يحبّون النجاح للآخرين من أبناء وبنات مجتمعهم، كما يحبونه لأنفسهم، وهم شديدو الشغف بكل ما يضيف إليهم تجربة وعمقاً.

في لينكولن، كان بيننا أعداد لا بأس بها في الفصول والأنشطة من الطلبة المقعدين، وطالبات لا يستطعن السير أو الرؤية أو السمع. فوجئت حينها بمدى

ثقتهم بأنفسهم. فهم مثلنا يقدمون الأوراق والأبحاث، ولم تكن هناك استثناءات. الاحترام هو سيد الموقف، والتمكين هو أساس السلوك. تساءلت: كيف ينجح هذا المجتمع الرأسمالي الذي أنتقده ليل نهار في زرع هذه الأخلاق وهذا السلوك الإنساني؟ سؤال حيّرني عن النظام الأميركي.

إحدى الأسر في كلية لينكولن تبنّتني من خلال الكلية، وستدعوني كل أسبوعين لزيارتها. أم وأب، وابنتهما وابنهما اللذان هم من مثل عمري تقريباً. في عيد الشكر الأميركي، أذهب معهم وألتقي أسرهم التي تسعى هي الأخرى للتعرف إلى هذا القادم الجديد. دعوني إلى كنيستهم يوم الأحد، فذهبت محترماً بيتاً من بيوت الله ومحترماً الدعوة.

ومع الوقت بدأت أُعجب بروابطهم الروحية التي حسبت أنها غير موجودة في مجتمع رأسمالي مادي التوجه، وبدأت أكتشف مدى احترامهم للآخرين وللاختلاف في ما بينهم. أكثر ما شدّني مرونتهم في فهمهم للتقاليد العائلية، فكل شيء مرتبط بالحرية وبالحق في أن يتصرّف كل فرد وفق رؤيته للأمور ووفق تحمّله المسؤولية في قراراته. لا فرق بين فتاة وشاب، فهم يخططون لمستقبلهم بحرية.

توافر للطلبة في الكلية سكن منفصل عن الطالبات. ولكنّ الزيارات كانت مسموحة بينهما في كل الأوقات. أحياناً أعود إلى الغرفة فأجد كين منهمكاً مع صديقته السمراء الجميلة «بي – جي»، فأعتذر لهما، وأعود ليلاً لأجدهما في سبات عميق. فآخذ حاجتي من الغرفة وأعود إلى المكتبة متحمّلاً ضريبة الصداقة. لكن كين سيعاملني بالمثل في ظروف مماثلة في المستقبل.

توافرت الماريجوانا (نوع من أنواع المخدرات) علناً في كل مكان في الكلية وفي الكثير من الأجواء الجامعية في الولايات المتحدة، وذلك قبل أن تأتي مرحلة بعدها بسنوات فتخفف من كل هذا. تعوّدنا أن نحترم كل الطلبة والطالبات كما هم من دون أحكام مسبقة، رغم هول الصدمة في البداية.

وقد تعايش حولنا عدد من الطلبة من المثليين. ربما في البداية صُعقت لهذه العلنية في التعبير عن هذه الميول بين بعض الشبان، لكن مع الوقت تبيّن أنهم لا يضايقون أحداً وأنهم في الكثير من الأحيان من أكثر الطلبة تفوّقاً واحتراماً للآخرين.

هكذا تعلمت أن أحترم كل من هو أمامي لإنسانيته وكيفية تعامله معي لا لشكله أو لميوله الجنسية أو لأفكاره.

وجدت أن الأميركيين عندما يقبلون على شيء لا يخجلون منه، ويعدّون هذا الوضوح جزءاً من خيارهم وحقهم الإنساني. فمن أضرّ فقد أضر نفسه ومن نفع فقد نفع نفسه، ولا يحق لأحد أن يتدخل في خيارات أحد آخر في شكل اللباس وطريقة الخيارات والحياة.

وبينما فكرت في البداية في أنّ هذا يسهم في تفكيك المجموع، بدأت أعي مع الوقت أن الإنسان السعيد أقدر على العمل مع الآخرين والتضامن مع الجماعة، وأن المجتمعات المفككة هي تلك التي تكثر فيها الحدود والموانع والتعدي على حقوق الآخرين وتقلّ فيها السعادة.

فوجئت على سبيل المثال ببساطة الأميركيين في الملبس والتعامل المنفتح بين الأستاذ والطالب وبين الطالب والطالبة في تقبّل النقد والتقويم.

في البداية قلت لنفسي: إنهم لا يحترمون بعضهم بعضاً، ثم تبيّن لي في ما بعد أن هذه الحرية في التعامل هي أساس الاحترام. الطلبة يجلسون كما يريدون في الفصل، يلبسون كما يريدون، طولاً وقصراً وبحسب حرارة الجو، نظرات الطلبة والطالبات بعضهم إلى بعض لا تقوم على حسية جسدية أو كبت كما هو الأمر في معظم مجتمعاتنا، إذ يتعاملون في ما بينهم كعقل وشخصية وقلما يختزل الآخر بجسد وساق.

قلّما ينادي الطلبة أياً من الأساتذة بالدكتور بل باسمه الأول، وقلّما يعرّف أحد الأساتذة نفسه بالدكتور. الصفة الإنسانية هي السبّاقة. هناك أنسنة وتعامل مع روح الأفراد واحتياجاتهم.

في إجازة عيد الميلاد عام ١٩٧١ دعتني مدرّسة الأدب الإنكليزي إلى قضاء الإجازة معها في منزلها بعد أن أغلق سكن الطلبة والطالبات طوال مدة الإجازة. تعيش مدرّستي وحدها قرب الكلية، ولديها كلب صغير الحجم. وقد اشترطت عليّ أن آخذ كلبها في مسيرة يومية عدة مرات، وأن أغسل صحني بعد الأكل وأرتّب سريري وأطفئ الإضاءة عند خروجي من الغرفة، وأن أعود إلى المنزل قبل العاشرة

مساءً. بطبيعة الحال في ليلة الميلاد التقيت عائلتها، إذ لديها أبناء كبار وأسرة ممتدّة. ولكن أهم ما حصل لي في هذه الإجازة: قرأت كتباً جديدة، وتحدثت إليها لساعات طويلة في عشرات القضايا، وهذا بطبيعة الحال طوّر قدراتي الفكرية واللغوية.

ولكن في غمرة الحديث الطويل سألتني هل صحيح أن صديقك الآخر العربي فواز هنا هو ابن لشيخ عربي ومن أسرة حاكمة وأنه أمير ابن أمير؟

يا إلهي، ماذا أقول لها فصديقنا فواز الذي جاء إلى الكلية قبلي بعام هو أول عربي يدخل إلى هذه الكلية، فادعى أنه أمير ابن أمير. فمصروفه كبير نسبة إلى مصروف الأميركيين الذين يعملون ويدرسون في الوقت نفسه، وملابسه كثيرة، فهي أضعاف ما يملكه عشرة من طلبة الكلية، وبالتالي استطاع أن يدّعي ما يريد، بل ينادونه الأمير Fred وذلك تخفيفاً لاسم فواز. وعندما أتينا إلى الكلية أنا ورائد، قال لنا فواز أريدكم أن تعلموا أنني هنا شيخ من شيوخ العرب وأمير من أمراء العرب فلا تكذّبوني.

تحوّل هذا الأمر إلى نكتة بيننا. قلنا له أنا ورائد إذاً سنتحدّاك أمام أصدقائنا وصديقاتنا الأميركيين لنريهم كيف نثور على السلطة؟ ضحكنا كثيراً، ونحن نعرف أن صديقنا نموذج متطوّر لـ«الفهلوة» العربية، وهو صاحب نكتة من الطراز الأول.

قلت للمدرّسة: «الشيخ هو من يحقّق أعلى العلامات في الجامعة وأفضل تقدّم في لينكولن. ألست شيخاً بالنسبة إليك؟».

ضحكت المدرّسة: «الآن فهمت».

أما صديقي الثاني رائد فهو يكبرني بحوالى عامين أو ثلاثة. فقد أرسله والداه إلى لينكولن بعد أن تأخر تخرّجه في الجامعة بسبب انهماكه في العمل السياسي والطلابي في الجامعة الأميركية ثم في جامعة هايكازيان في بيروت. ستكون هذه مشكلة لمئات الطلبة ممن سيجرفهم العمل السياسي والنقابي بعيداً عن الدراسة.

عشت تناقضاً غريباً في الولايات المتحدة، إذ كنت أعيش فيها بجسدي وبجزء من عقلي وعاطفتي، بينما نصفي الآخر في الشرق حيث القضية الفلسطينية وجنوب لبنان، وهذا جعل تجربتي الأميركية أكثر صعوبة. لقد عشت في عالمين متكاملين

من دون أن أنجح في قطع العلاقة مع أحدهما، إذ يبدأ يومي بالاستماع إلى نشرة الأخبار وبقراءة الصحف. وبطبيعة الحال، الأخبار التي تهمّني، يحدث معظمها في العالم العربي.

وعند الحاجة إلى سماع الموسيقى، فالطرب الذي يحرّكنا يختلف عن الطرب العربي الذي يحرّك معظم الناس. فقد يكون طربي كطرب جيلي من أغنيات الشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم من مصر. فالشيخ إمام وأحمد نجم بشّرا بعالم جديد. في هذا غنّى الشيخ إمام لجيل سعى للمساواة. غنّى لجيل أُعجب بفييتنام وأحبّ تشي غيفارا وأراد نهضة مصر والعرب. في هذا العمر بدت أم كلثوم غريبة عنّا وعبد الحليم حافظ من عالم لا نعرفه. أما فيروز فكنّا ننجذب إلى أغانيها السياسية والإنسانية، ولم نكن نعترف بأغنية سوى الأغنية السياسية التي مثّلها الشيخ إمام، وفي مرحلة لاحقة مارسيل خليفة من لبنان والأغاني التي تبرز شعر محمود درويش ونزار قباني ومن سار على هدى هذه المدرسة. وقد أثار خيالنا أيضاً شعر محمود درويش بأبعاده الإنسانية، وشعر نزار قباني وأدب غسان كنفاني.

حياة جديدة في جامعة جورج تاون

سمح معدلي ورسائل التزكية من لينكولن بتقديم أوراقي في جامعة جورج تاون الواقعة في العاصمة الأميركية. كان الشيخ سالم الصباح سفير الكويت في العاصمة الأميركية (هو ابن أمير الكويت الشيخ صباح السالم) قد هيّأ لي موعداً مع د. إبراهيم عويس أستاذ الاقتصاد ومع عميد الكلية. انتهى الأمر إلى قبولي في جورج تاون في قسم الحكومة والعلوم السياسية.

تقع الجامعة التي وصلت إليها في أغسطس/آب ١٩٧١، على مرتفع جميل في العاصمة الأميركية، وهي مكوّنة من سلسلة من المباني الأثرية الواقعة وسط جورج تاون الجميلة. وفي يومي السبت والأحد تتحول منطقة جورج تاون إلى «مستعمرة» طلابية تمتلئ بهجةً وفرحاً. كل شيء في جورج تاون مختلف: الكثير من الفرق تعزف في الهواء الطلق في نهاية الأسبوع، عشرات المحاضرين القادمين من العالم ومن مناطق مختلفة للتحدث إلى الطلبة.

جورج تاون جامعة مسيحية كاثوليكية غير ربحية يديرها ويملكها رجال دين من اليسوعيين (الجزويتس) الكاثوليك الذين تميّزوا تاريخياً بتركيزهم على التعليم. وللجزويتس اقتناعاتهم الخاصة، فهم مثلاً لا يتزوجون ويمارسون تنسّكاً خاصاً وخدمة للمجتمع والتعليم مدى الحياة، لكنهم لا يفرضون تصوراتهم في التعليم «الديني» على الآخرين، وفي هذا يختلفون كل الاختلاف عن الأصولية المسيحية.

في اليوم الأول لي في جورج تاون استأجرت شقة. وبما أنني لا أعرف المدينة، وجدت نفسي في بناية في أحد أشد أحياء المدينة خطراً، اكتشفت أن سيارات الشرطة تدور في الليل، وتطلق صفاراتها وأضواءها فتضاء المنطقة كأننا في النهار، وعرفت أن السرقة والعصابات أمر طبيعي.

واشنطن في ذلك الزمن من أكثر مناطق الولايات المتحدة تعرّضاً للجريمة. فحوالى ٨٠٪ من سكانها من الملوّنين الذين ساد صفوفهم الغضب والاحتجاج. كانت هناك مناطق كاملة في العاصمة الأميركية لا تدخلها الشرطة ولا تخضع لقانون. لقد تغيّر كل هذا في واشنطن في تسعينيات القرن الماضي بسبب إصلاحات كبيرة في المدينة، لكنّ الوضع بدا بائساً في سبعينيات القرن العشرين خاصة حيث وجدت نفسي في الأيام الأولى أواجه مخاطر لم أتوقعها. تركت الشقة وذهبت إلى سكن الطلبة في الجامعة.

شاركني في الغرفة أميركي أبيض من أسرة مهاجرة من بولندا اسمه ستيف. مثّل ستيف بالنسبة إليّ الطموح الأميركي والحلم الأميركي بالنجاح وبذل الجهد.

ستيف يدرس لساعات طويلة، يقرأ أمهات الكتب الفلسفية والروائية، ويتعمّق في فهم الموسيقى وقصص حياة الموسيقيين. لكن ستيف ناقم على الشيوعية كما أنا ناقم على الصهيونية والإمبريالية. وبينما أنا مستعد للانضواء تحت راية عمل جماعي وتضحية بالذات من أجل مواجهة الصهيونية، لم يكن ستيف ليؤمن بطريقة كهذه. فهو حريص على استقلاليته الفكرية والشخصية بهدف النجاح في الحياة. ستيف مكافح، فهو يعمل إضافة إلى دراسته لكي يحصل على مصروفه، ولا يمتلك إلا بنطالين وبدلة واحدة وربطة عنق يلبسها عند الضرورة. والده توفي وهو صغير، وأمه التي تعمل بكدّ في وظيفة متواضعة هي التي ربّته وتكبّدت العناء في سبيل ذلك.

اختلفنا أنا وستيف على كل فكرة سياسية، فهو ضد إرهاب الفلسطينيين الذي ينتشر ضد أهداف إسرائيلية في مطارات العالم ودول أوروبا، بينما أقول له إن ظروف الشرق وهزيمة العرب أمام إسرائيل وتوسّعها ولّدا هذا الإرهاب. رأى ستيف في آرائي اليسارية والاشتراكية تحديداً كل ما سبّب له تعاسته وفرض على أهله الهجرة من بلاده بولندا وتحويلها إلى الحكم الشيوعي. ولكنني رأيت في السياسة الأميركية التي أحبّها ستيف ما دعم إسرائيل وسبّب نكبة أسرتي وأقربائي والشعب الفلسطيني والعربي. وكثيراً ما جلسنا في الكافيتيريا مع طلبة وطالبات من فصولنا الدراسية ليشهدوا نقاشي مع ستيف الذي أصبح ملتقى للآراء بين أقطاب الحرب الباردة في الكافيتيريا.

في الفصل الأول في جورج تاون وأثناء دراستي الاقتصاد مع د. إبراهيم عويس، طلب منّا كجزء من متطلبات المادة تقديم تقرير أمام الطلبة والطالبات. وحينما جاء دوري، لم أكن قد استعددت جيداً، وتبيّن مدى عدم استعدادي. فتوقفت بعد خمس دقائق من الحديث وقلت: «لم أستعد جيداً، وأعرف الآن سبب الخلل. أريد فرصة أخرى». في الأسبوع التالي قدّمت تقريري بمهارة. فقال لي الأستاذ عويس: «كأن الذي كان أمامي في الأسبوع الماضي هو شخص آخر».

هذا الدرس لازمني مدى الحياة: فمنذ ذلك التاريخ لم أتحدث أمام أحد أو فريق أو جماعة من دون أن أكون قد عملت ما يلزم للاستعداد. وستكون لي مع د. عويس صداقة تمتد إلى يومنا هذا.

إميل سحلية: ضرير لكنه يرى أكثر ممّا نرى

في جورج تاون جاء إميل سحلية، وهو شاب عربي من الضفة الغربية، بهدف دراسة الدكتوراه في العلوم السياسية. فقد إميل نظره عندما بلغ الخامسة عشرة وتخرّج في إحدى مدارس رام الله بالضفة الغربية المحتلة قبل أن يلتحق بالجامعة الأميركية في بيروت. ولكنّ إميل الضرير لم يكن يبدو ضريراً، ففي هندامه وملامحه الوسيمة وسيره بلا عصا في معظم الوقت ما يعكس ثقة كبيرة تؤكد إصراره على التغلب على إعاقته.

في فترة قياسية جمعتنا الصداقة، وخاصة أنه سكن في الدورم. أدخل إلى غرفته فأجد عشرات الأشرطة، كأنني في استوديو إذاعي. باب غرفته في سكن الطلبة مليء بأسماء الفتيات والشبان المتطوعين لقراءة المقررات وتسجيلها له في غرفته. لم يكن أساتذته يلتمسون له الأعذار، بل يفرضون عليه الواجبات نفسها ويتوقعون منه الأفضل. تفوّق إميل، ولكنّ الأسئلة بقيت في عقلي: لو كان إميل في جامعة عربية، فهل كان ليجد هذا التعاون وهذه المحبة والدفء من كل الجامعة؟

مرّت الأيام وتخرّج إميل حاملاً شهادة الدكتوراه، وذهب إلى الضفة الغربية المحتلة ليكون مدرّساً في جامعة بيرزيت. وقف عند نقطة التفتيش الإسرائيلية على جسر بين الأردن وفلسطين، وصودرت كل أشرطته وتسجيلاته التي تساوي مكتبته وكل ما قرأ خلال سنوات الدكتوراه. أكمل إميل مشوار الإرادة، ولكنه انتقل إلى الولايات المتحدة للتدريس في جامعة شمال تكساس.

دروس الدين

فرضت جورج تاون على كل طالب أن يأخذ مادتين أو أكثر من مواد الدين شرطاً للتخرّج. ولكنهم لم يشترطوا علينا أن تكون المواد عن المسيحية. لهذا قررت أن آخذ مادة عن المسيحية لأدعم معلوماتي عن الديانات الأخرى، ثم مادة عن البوذية والهندوسية، ثم مادة عن اليهودية مع الحاخام هارولد وايت.

إن التعليم في جورج تاون علمانيّ وعلميّ بمعنى المعاصرة والانطلاق من كل ما هو مرتبط بالتجربة والبرهان والاجتهاد العقلي. والتعليم في جورج تاون يفصل بين المعتقدات الدينية الإيمانية (من هنا علمانيته) من جهة، والحياة في الجامعة والمناهج الدراسية من جهة أخرى. وهو يعني أيضاً عدم إجبار الطلبة والطالبات على اعتناق وتبنّي معتقد أو دين.

علّمتني مادة الحاخام وايت الكثير عن اليهودية، وقد أحدثت في فصله جدلاً دائماً. وايت رجل دين يهودي، وهو يؤمن بإسرائيل وأنا أؤمن بفلسطين. ولكنّ وايت ليبرالي في أفكاره، يؤمن بالرأي والرأي الآخر.

تميزت الكتابات اليهودية التي عرضها علينا للقراءة لمفكرين مثل آحاد آهام ذي الفكر الإنساني الذي كان يعارض طرد العرب والفلسطينيين من بلادهم بعمقها الإنساني، كما أن «حنه أرندت» (الفيلسوفة اليهودية المعروفة) عزّزت في طرحها الفكر الديموقراطي الإنساني الرافض للطغيان. سيكون وايت بعد تخرّجي بسنوات طوال أول حاخام يهودي يعيّن في جامعة كاثوليكية في الولايات المتحدة مسؤولاً عن الصلوات اليهودية في الجامعة.

فوجئت عند دراسة اليهودية والمسيحية في جورج تاون، وخاصة في صف الحاخام وايت، بتلك العلاقة الغريبة بين الله والإنسان. فهي دائماً متغيّرة ولم تكن ثابتة قط. ففي البداية نظر الإنسان إلى الله في إطار علاقة العبد مع السيد في ظل مجتمع سادته العبودية. فالله هو الآمر الناهي الذي يعاقب بحزم وشدة، والإنسان هو الذي يطبق التعاليم انطلاقاً من الخوف. ولكن مع مرور التاريخ ومع عصر التنوير والاختراعات وعصر الثقة بالعقل الإنساني والتحرر من الخوف وزوال المجتمع العبودي والإقطاعي ونشوء الرأسمالية الفردية، ازداد الإنسان نضجاً ومقدرة على إعادة تفسير النص بما يتلاءم مع العقل البشري والاكتشافات الجديدة.

لقد وجدت في الكتابات الدينية لمؤمنين كبار من المسيحيين واليهود ما يدعو إلى حق الإنسان في التشكّك، وحقه في المشاكسة، وأن هذا جزء من إيمان الإنسان. فأنت تتمرد وتتساءل مع من تحب أكثر مما تفعل ذلك مع من لا تحب. فهناك علاقة غريبة بين المحبة والخوف. فقلما تحب بصدق من تخاف منهم، وكثيراً ما تحب من لا تخاف منهم بتلقائية وعفوية.

تساءلت: كيف يؤثر هذا على العلاقات في الأسرة. فإن كان التساؤل مسموحاً في العلاقة بين الإنسان وخالقه، أليس التساؤل أيضاً مسموحاً في العلاقة ضمن المجتمع وضمن الأسرة وبين الكبير والصغير وفوق كل شيء في السياسة والقوة والحكم؟ أليس كل هذا أحد أساسيات الحداثة والعقلانية والتقدم والديموقراطية؟

في سنوات جورج تاون لم أنقطع عن قراءة تاريخ العرب وواقعهم وثقافتهم كما قرأت كثيراً عن المجتمع الأميركي، وخاصة إيريك فروم وهربرت ماركوز، فهما من أهم ناقدي ذلك المجتمع. كنت أقرأ بنهم إلى درجة أن الكتاب لا يسقط من

يدي، فهو معي في كل مكان وفي كل انتظار. وقد لازمتني هذه العادة الخاصة بالقراءة إلى يومنا هذا.

جاء إلى واشنطن في أوائل السبعينيات طلاب وطالبات من الكويت، حيث تعرّفت إلى منصور، تحدثنا قليلاً، وإذا بنا نحمل الأفكار نفسها. ففي الكويت حركات سياسية قومية التوجه وعروبية العمق، والطلبة الكويتيون ناشطون، وخاصة أن الناشط السياسي الكويتي د. أحمد الخطيب هو أحد مؤسسي حركة القوميين العرب مع جورج حبش ووديع حداد. تعمّقت الصداقة مع منصور، تبادلنا الأفكار والخبرات.

المرأة والصداقة

في بداية دخولي إلى جورج تاون التقيت مجموعة من الطالبات اللواتي سمعنني أتحدث باللغة العربية مع إدموند غريب الطالب الذي يستعد لرسالة دكتوراه عن الأكراد في العراق. فجأة سمعت طالبة عبر الطاولة تناديني باللاتينية بتقليد للغة العربية. ضحكنا، وإذا بمجموعة من الطالبات اللاتينيات أعجبتهم لغتنا العربية وصوتنا العالي وأصوات ضحكاتنا، فبدأن يتحدثن معنا بمرح.

مع الأيام أصبحت مع إيلين ورفيقاتها أصدقاء، نتقابل في الكافيتيريا، نتحدث، نأكل معاً، ثم يذهب كلّ منا إلى موادّه الدراسية. إيلين كاتبة وشاعرة مرهفة، وهذا سمح بتفاعلنا وبنمو صداقة جميلة بيننا، وقد ظل هذا التفاعل قائماً على مدى سنوات عدة إلى أن غادرت جورج تاون، فسار كل منا في طريق.

أما صديقي إدمون غريب، عميد الطلبة العرب في الجامعة، فوجوده كان يغني نقاشاتنا إلى أن عرّفته إلى فتاة زميلة لنا وابنة أحد كبار أساتذة جامعة جونز هوبكنز د. عبد المجيد الخدوري. شيرين معنا في جورج تاون ودائمة الانضمام إلى مجموعتنا النقاشية في الكافيتيريا. ومنذ النظرة الأولى وقع إدمون في الحب. دفعه الأمر إلى إنجاز أطروحة الدكتوراه سريعاً. خلال مدة من الزمن عقد قرانه على شيرين.

حين جئت إلى جورج تاون تعرّفت في الأيام الأولى إلى فتاة تتميّز بجمال

الروح والمظهر قادمة من دولة خليجية. كانت تكبرني بعامين، وقد بدأت دراساتها العليا. هنادي نموذج للفتاة المحافظة القادمة من مجتمع محافظ. منذ البداية تفادت هنادي أن تكون حول طلبة وطالبات عرب وخليجيين. سألتها: «ما المشكلة في هذا؟»

قالت: «إنهم يظلمون الفتاة، والاحتكاك بهم سوف يؤذيني. فإن رأوني جالسة معك تحدثوا، وإن رأوني جالسة مع أستاذ أو في تجمّع أو مع صديق بدأوا بالنميمة التي تميّز مجتمعنا. إنهم يرون المرأة من خلال أمر واحد. لا يقدّرون صداقة أو زمالة أو أخوّة بين رجل وامرأة».

قلت لها: «ولكن ليس الجميع كذلك». فقالت: «ولكنني أخشى أن يصل إلى أهلي وإخوتي ما يؤثر في ثقتهم بي وما يضرّ بسمعتي».

مرّت الأيام وتعرّفت هنادي إلى شاب أميركي اسمه تيم، وقد تميّز تيم برقة ولطف كبيرين. لقد قدّر صداقته مع هنادي، وتعامل معها كما تريد، واحترم جميع تحفظاتها التي هي بعمق المحيطات، وحاول تعلم الكثير من الكلمات العربية. ولا أخفي أن هنادي امتلكت صفات في التعامل تتميّز بالرقي والسمو. أذكر كيف أحبها حباً كبيراً، وكيف عرّفتني إليه لأعطيها رأيي فيه. عرض عليها الزواج بعد مدة، وأخذ الأمر عاماً قبل أن ينجح في إمساك يدها وقول كلمة جميلة لها لا تعدّها هنادي تعدياً على خصوصيتها. وعندما قالت لي ما حصل ضحكت، بينما هنادي في قمة سعادتها الناتجة من تأكيدها لأنوثتها وثقتها بنفسها.

بدت لي هنادي مع الوقت أكثر تصالحاً مع نفسها واختفت تلك الحالة الخجولة التي لا تعرف كيف تتعامل مع البيئة المحيطة بها. بعد عام على تجربتها الأميركية بدأت استنتاجاتها تختلف: «الناس هنا مختلفون. إنهم بسطاء في أسلوبهم، ليسوا مثلنا مكبّلين. قرارهم اليومي في أيديهم ويتحمّلون مسؤولية أعمالهم ولا يتدخل أحدهم في شؤون الآخر. ومع ذلك فأخلاق الأميركيين عالية، يحترمون الخصوصية والمرأة والإنسان، ويقدّرون الغريب الزائر».

سكنّا جميعاً في العامين الأخيرين قبل تخرجي في المبنى الشهير نفسه «البين تاورز» التابع لجامعة جورج تاون. «البين تاورز» بيئة جميلة يسكن فيها الشبان

والشابات جنباً إلى جنب في المبنى والدور نفسه. وقد قرّرت هنادي في ما بعد أنها لن تستطيع أن تتزوّج تيم حتى لو أشهر إسلامه. أصرّت هنادي على موقفها.

لكن ما تعلمته هنادي من علاقتها بتيم تحوّل إلى جزء لا يتجزّأ منها ومن معرفتها بنفسها واستقرارها النفسي بشأن ما تريد. عادت إلى الشرق، إلى عالم الخليج، فهي من أسرة معروفة، اختفت آثارها كما اختفت آثار الكثير من صداقات الجامعة.

هشام شرابي وتعميق تجربتنا

هشام شرابي من كبار الأساتذة في جورج تاون في ذلك الوقت، مثّل كتابه **مقدّمات في دراسة المجتمع العربي**[1] نقطة فارقة في فهم العديد من المشكلات التي تعوق تقدّم المجتمع العربي وتعمّق خلافاته وتؤخر اقتصاده. ووفق شرابي، الأسرة العربية تتعامل منذ البداية بفارق كبير بين الفتاة والفتى، ما ينتج تشوّهاً كبيراً في علاقات الأسرة. في كتابه شرح طبيعة التركيبة الأسرية السلطوية الهرمية في الوسط العربي بكل تعبيراتها خاصة تلك التي تؤدي الى بيئة الاعتماد والخمول بين الشباب. وجدت نفسي أحضر كل مادة من المواد التي قدّمها في الجامعة عن تاريخ الفلسفة الأوروبية وعن عصور التنوير في الغرب.

سيكون معنا من خارج الجامعة في الفصل الرسام المعروف كمال بُلاطة. كمال فنان من القدس درس الفن في أوروبا. وبحسّه المرهف وثقافته الواسعة لا يقوى على سماع آراء ثابتة، بل يحب التساؤل، والمراجعة في كل شيء. لا مسلّمات، لا ثوابت، لا خطوط حمراء، لا عادات، لا تقاليد، النقاش معه يفتح الآفاق لكل أنواع المعرفة والتساؤل. ويرى كمال العالم بعيون شاعرية وثقافية وإنسانية. لهذا فالنقاش معه يستمر ساعات خارج الفصل. إنه من أكثر من التقيت بهم في تلك المرحلة تعمّقاً في الفلسفة، في فرويد، وفي التحليل النفسي والإنساني للظواهر،

---

(١) الكتاب ما زال يُطبع وتعاد طباعته، وهو في طبعته السادسة الآن: هشام شرابي، **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، الطبعة رقم ٦، دار نلسن (٠١/٠١/١٩٩٩).

ومن أكثرهم تتلمذاً على فكر أدونيس. بل تعرفت في البداية إلى أدونيس **والثابت والمتحوّل** من خلال كمال. كما تعلمت من كمال ذلك الحب الكامن للجديد وللمعرفة والتساؤل.

أما فواز تركي، المثقف الذي استقبلناه في جميع الندوات واللقاءات في بدايات السبعينيات، فهو متحدث مؤثر صاغته تجربة اللجوء الفلسطيني. كتب فواز كتاباً يعكس تجربته بوصفه لاجئاً بلا وطن(١). فواز سيفقد الكثير من صحته النفسية والروح التي تميّز بها على مرّ الزمن.

أبحاث ومفكرون والمسألة الفلسطينية

كنت أشعر بانتعاش كلما وجدت أميركياً يفهم القضية الفلسطينية انطلاقاً من لغة الأرقام ودقة التحليل. وإذا بمجلة على قدر كبير من القيمة بدأت تصدر في واشنطن. حملت مجلة ميريب MERIP نفساً ملتزماً بالقضية الفلسطينية ونفساً يسارياً ناقداً للولايات المتحدة في فيتنام وفي فلسطين وفي إيران. أسّسها جو ستورك، الذي سيتحول مع الزمن إلى داعية دائم لحقوق الإنسان في العالم. وينطبق الأمر نفسه على إصدارات مثل نشرة شؤون فلسطينية (Journal of Palestine Studies) التي موّلتها الكويت وأشرف على تحريرها د. هشام شرابي.

هذا النشاط الفكري ساعدنا على مخاطبة فئات مختلفة من المجتمع الأميركي في الكنائس وبعض اليهود الأميركيين الإنسانيين واليساريين. أصبح موقفنا يتطور لمصلحة لغة الأرقام ودقة التحليل. كذلك فإن منظمات أساسية مثل «منظمة الخرّيجين العرب الأميركيين» AAUG أسهمت في تعميق فهمنا. ففي قاعات تلك المنظمة استمعت لأول مرة إلى إدوارد سعيد وإقبال أحمد المفكر الباكستاني وإبراهيم أبو لغد. حتى منظمة ADC تكوّنت في ذلك الزمن وانتعشت تعبيراً عن حاجة العرب الأميركيين إلى الاعتراف بحقوقهم.

---

(١) *The Disinherited: Journal of a Palestinian Exile*, Turki, Fawaz Monthly Review Press, 1972.

صدام مع رابطة الدفاع اليهودية

مع أواخر ١٩٧٢ التقيت في بيروت مستشار عرفات وعميد الاقتصاد في الجامعة الأميركية في بيروت ومؤسس تنظيم فتح في الولايات المتحدة د. نبيل شعث. أوصاني نبيل بالتعرّف أساساً إلى حاتم الحسيني مسؤول المكتب الإعلامي لجامعة الدول العربية في العاصمة الأميركية وأحد قياديي فتح في الولايات المتحدة. د. حاتم الحسيني ينحدر من أسرة الحسيني التاريخية التي قادت من القدس المقاومة الفلسطينية طوال سنوات الانتداب البريطاني حتى حرب ١٩٤٨ وقيام إسرائيل.

خلال شهور أوكل إليّ حاتم الكثير من المهمات: الاتصال بالطلبة التحدث أمام تجمعات أميركية وكنائس في العاصمة الأميركية وخارجها، وتنظيم احتجاجات أمام السفارة الإسرائيلية مع كل اعتداء على لبنان ومع كل تعدّ على سكان الضفة الغربية وقطاع غزة.

وقد حفّزني أكثر على التجمع أمام السفارة الإسرائيلية كون السفير الإسرائيلي في العاصمة الأميركية هو إسحاق رابين الذي مثّل بالنسبة إلينا رمزاً من رموز نكبة ١٩٤٨، حيث عُرف عنه طرده التعسفي لسكان اللد والرملة بعد المجزرة التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية وأودت بحياة المئات من سكان المدينتين.

في إحدى التظاهرات في مارس ١٩٧٣ التي تحمّلت مسؤولية تنظيمها أمام البيت الأبيض احتجاجاً على مجيء رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير إلى العاصمة الأميركية، حشدت رابطة الدفاع اليهودية المتطرفة التي يقودها الحاخام مائير كاهانا، عدداً كبيراً من أنصارها لمواجهتنا وقمع تظاهرتنا السلمية (كاهانا حاخام شديد التعصب، وقد قُتل عام ١٩٩٠ على يد شاب عربي أثناء محاضرة له في الولايات المتحدة).

وقفت في طليعة التظاهرة العربية التي انضم إليها الكثير من الطلبة الإيرانيين والأميركيين اليساريين، بينما رابطة الدفاع بدأت تحتشد أمامنا. كنا نحو مئة وخمسين عربياً وعربية وأميركياً وإيرانياً، بينما عدد مجموعات الرابطة يزيد علينا بقليل. بعض أعضاء الرابطة أخذ لنا الصور لملاحقتنا، فصوّرناهم من جانبنا لإخافتهم.

عند انتهاء التظاهرة ألقيت كلمة وشكرت المشاركين. ولكنّ رابطة الدفاع اليهودية حاولت سدّ طريق الانسحاب علينا، فما كان منّا إلا أن بدأنا بإخراج المشاركات من بيننا واحدة واحدة استعداداً لما يبدو أنه مواجهة تتطلّب منّا موقفاً. أذكر عايدة ونهى وعدداً من طالبات الجامعة والطالبات الإيرانيات من أنصار مجاهدي خلق ممن أردن البقاء.

نسّقنا الصفوف، ووقفت في وسط الصف الأول ومعي أصدقائي جعفر الفلسطيني ويوسف الايراني، ومحمد اللبناني. من الجهة الأخرى، وقف رئيس تجمع رابطة الدفاع اليهودية أمامي وهو في مثل سنّي ولكنّ قسماته شديدة القسوة. لم أرد أن أبدأ، ساد الصفين - صفهم وصفنا - صمت غريب. كلّ منا وراءه مجموعته بينما المسافة بيننا سنتمترات.

نظر إليّ رئيس الرابطة نظرة يتطاير منها الشرر، أما أنا فمن الصعب أن أصطنع نظرة شرسة لا أمتلكها، ومع ذلك حاولت جهدي.

ثم، بلا مقدمات، وجّه شاب ضخم قوي البنية يقف إلى جانب رئيس المجموعة اليهودية لكمة قوية إلى وجهي وقعت عليّ كالمطرقة. استهدفني لمعرفته أنني الشخص المطلوب ضربه.

تمالكت نفسي. فكيف أسقط أرضاً أمام كل الذين يقفون أمامي من الرابطة اليهودية؟ لم أسقط أرضاً رغم ترنّحي من الضربة، إذ إنني معتاد هذا النمط من التقاتل. وبينما الشاب الضخم يسعى إلى توجيه اللكمة الثانية ويده في الهواء تتجه نحوي مثل القذيفة، والتي لو أصابتني لكسرت فكي وأفقدتني توازني بكل تأكيد، هجم ثلاثة من أصدقائي عليه. ورغم أنه كاد يتغلّب عليهم وحده، مع ذلك طُرح أرضاً وضُرب بشدة.

وبدأ الضرب. لم أكن أرى أمامي سوى ساحة حرب ولم أكن أفعل شيئاً سوى ضرب بعضهم والدفاع عن أصدقائي. ولكن هذا لم يستمر أكثر من دقيقتين، إذ سرعان ما تدخلت الشرطة بالهراوات ضاربةً الجميع، واعتقلت عدداً من الطرفين، على رأسهم ذلك الشاب من رابطة الدفاع اليهودية الذي بدأ المعركة. فقد شاهدته

الشرطة يبدأ بالمواجهة. انتهى كل شيء في مركز الشرطة ولكن بلا قضايا. فنحن امتلكنا إذناً بإجراء التظاهرة ولم نكسر أي قانون أميركي.

بعد الحادثة، وبينما عيني زرقاء منتفخة وفي مقر جامعة الدول العربية إذا بي أجد نفسي أمام د. إلياس شوفاني الأستاذ في جامعة ماريلاند. إلياس من مؤسسي فتح في الولايات المتحدة، ولكنّه تميّز بأمر مهم آخر لم أكن أعرف عنه الكثير: فهو من فلسطينيّي ١٩٤٨، أي من الفلسطينيين الذين بقوا في إسرائيل في زمن النكبة عندما اقتلعت إسرائيل معظم الفلسطينيين وهجرتهم. هذه الأقلية العربية/ الفلسطينية التي نجحت في البقاء في وطنها الأصلي لم تجد طريقة للبقاء على أرضها وحماية وجودها سوى حمل الأوراق الإسرائيلية، وبالتالي الجنسية الإسرائيلية.

غادر الياس وطنه في ستينيات القرن العشرين ليواصل الدراسة في أميركا. ولكنه في الولايات المتحدة انضم إلى حركة فتح بصفتها تعبيراً عن المقاومة ضد الدولة التي اعتدت على شعبه. ولكنّ إسرائيل اكتشفت علاقته بفتح، ما جعل عودته إلى وطنه مخاطرة كبيرة بما فيها السجن بتهمة الانضمام إلى منظمة إرهابية.

شوفاني يتقن العبرية كما يتقن العربية، وقد أغناني بالمعلومات والمعارف التي تنقص شاباً مثلي عن فلسطينيي ١٩٤٨. حدثني كيف تحولوا من أغلبية إلى أقلية بين يوم وليلة بفضل تهجير أقربائهم وأهلهم، ووضع من بقي منهم تحت الإقامة الجبرية حتى عام ١٩٦٦ وعن طبيعة التمييز الذي واجهوه منذ عام ١٩٤٨.

* * *

ترأس تنظيم فتح في الولايات المتحدة اللبناني طالب الدكتوراه رياض، ومعنا أيضاً في قيادة التنظيم عمرو من سوريا وهو أيضاً طالب دكتوراه في مدينة نيويورك، وحاتم الحسيني هو الأب الروحي للتنظيم، وهناك آخرون من الكويت والخليج ودول عربية عديدة. تميّزت فتح بأن أعضاءها القياديين مجموعة من المثقفين من فلسطين ولبنان وسوريا وليبيا والعراق والكويت ومن أديان وخلفيات مختلفة.

لقد أسّس تنظيم حركة فتح في الولايات المتحدة في النصف الثاني من الستينيات شبان قياديون في فتح مثل نبيل شعث الذي أنهى الدكتوراه من وارتون في

بنسلفانيا بحلول عام ١٩٦٧ مع شاب لبناني آخر هو د. حسن أثناء دراسته هناك. الانضمام إلى فتح في ذلك الزمن عنى الانضمام إلى جماعة تؤمن بقومية المعركة ولديها حس كبير بالتفاؤل بالمستقبل. وسط ذلك الجيل تبلور الاقتناع بأن فتح ستفعل أفضل مما فعلته الجيوش العربية مجتمعة، وأنها قادرة على قتال إسرائيل وتحرير الأرض.

في أوج نشاطي، جاءني اتصال من مكتب التحقيقات الفدرالي الأميركي (أف بي آي) إلى غرفتي في مبنى البين تاورز. «نريد أن نلتقي بك إذ لدينا بعض الأسئلة». فرددت بسرعة: «أنا طالب في الجامعة لا وقت لديّ، هل لديك استدعاء رسمي لي؟». قال: كلا. فأسرعت قائلاً: «عندما يكون لديك استدعاء رسمي سأتحدث إليك، لكني بالتأكيد لا أقوم بأي عمل غير قانوني».

جذبت انتباهي لطافة المتحدث وهدوؤه واحترامه لي أثناء المكالمة. وانتهى الأمر عند هذا الحد. ذكرت القصة لحاتم، فأكد لي أن هذا هو موقفنا في غياب استدعاء رسمي، وأنه إذا تطلب الأمر فهناك عشرات المحامين الأميركيين المستعدين للدفاع من دون مقابل عن حقوق الطلبة وعن حقهم في النشاط السياسي السلمي. ولكن في بعض الأحيان سأشعر بالملاحقة، وخاصة عندما أكون بصحبة حاتم. لن يتعدى الأمر مراقبة عادية من سيارة سوداء تقف بعيداً عنا.

في جامعة جورج واشنطن القريبة، ذهبت مع نافذ نزال الطالب في جورج تاون الذي يتخصّص في التاريخ مع هشام شرابي للاستماع إلى محاضرة يلقيها الجنرال الإسرائيلي موردخاي غور، الذي اقتحم القدس عام ١٩٦٧. في ذلك الوقت عيّن غور ملحقاً عسكرياً في السفارة الإسرائيلية في واشنطن، وإسرائيل تعيّن أفضل من عندها لتبوّء هذا المنصب. تحدث غور عن مخاوف إسرائيل من العرب والإرهاب الفلسطيني أمام مئات الطلبة والطالبات والأساتذة، ولكن نافذ تصدّى له وأحرجه.

علّق غور «من أين أنت». نافذ: «ماذا تقصد، أنت تعرف أنني من فلسطين؟ لقد طردتم مئات الألوف من العائلات، لقد شردتم شعباً بأكمله، وأنت شخصياً كنت أحد الذين أسهموا في طرد العرب من قراهم ومن مناطق لم تحدّدها الأمم المتحدة في التقسيم لدولتكم».

المنطق الصهيوني في ذلك الزمن عاش كذبة كبيرة، كأن فلسطين لم تكن مسكونة. الكذبة الكبيرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». والكذبة الثانية أنهم اشتروا فلسطين ودفعوا ثمنها كاملاً وأن الفلسطينيين باعوا أراضيهم لليهود. تحولت هذه المسألة في ذلك الزمن إلى معركة إعلامية. بل عندما سئلت غولدا مائير عام ١٩٧٢ عن الفلسطينيين قالت «لا يوجد فلسطينيون».

والغريب في القصة الإسرائيلية الفلسطينية، أنّ كلاً من موردخاي غور وإسحاق رابين سيعودان إلى إسرائيل. سيكون رابين منذ عام ١٩٧٤ رئيساً للوزراء خلفاً لغولدا مائير، بينما سيكون في العام نفسه موردخاي غور رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي. والأغرب أنهما سيجرّبان كل أنواع العنف ضد الفلسطينيين عاماً بعد عام، قبل أن يستنتج كل منهما أنه لا حلّ عسكرياً للقضية الفلسطينية. لكنّ مدارس جديدة ستبرز في إسرائيل تؤمن بالحلول العسكرية وتنفذها.

الفصل الرابع

طلبة مقاتلون في بيروت: ١٩٧٣

ستقع في مدينة ميونيخ في سبتمبر ١٩٧٢ عملية فدائية تستهدف الفريق الرياضي الإسرائيلي المشارك في الألعاب الأولمبية. وستُحدث تلك العملية دوياً كبيراً لأنها ستنقل عبر الأقمار الصناعية إلى كل مكان في العالم. وستقرر إسرائيل الانتقام للعملية في لبنان، لكنها ستخبّئ انتقامها الأكبر إلى مرحلة لاحقة. ففي الثالث عشر من أبريل-١٩٧٣ سيدخل إيهود باراك (الذي سيصبح رئيس وزراء إسرائيل عام ١٩٩٩) إلى بيروت قائداً لقوة إسرائيلية متخفية بهدف اغتيال ثلاثة من كبار قادة حركه فتح ومنظمة التحرير: أبو يوسف النجار المسؤول عن الفلسطينيين في لبنان، وكمال عدوان المسؤول عن ملف العمل الفدائي في الأراضي المحتلة، وكمال ناصر الشاعر المعروف وهو من مسيحيّي فلسطين والناطق الرسمي باسم منظمة التحرير الفلسطينية. لقد جمعت كمال ناصر ووالدي علاقة صداقة مستمرة تعود إلى زمالة الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت.

باغتيال القادة الثلاثة لمنظمة التحرير الفلسطينية عمّ الغضب لبنان والعالم العربي. ففي جنازتهم في بيروت خرج ما يزيد على نصف مليون مشيِّع. وقد انضمّت حشود ضخمة من طلبة وطالبات الجامعات إلى الجنازة التي تحوّلت إلى رسالة سياسية من المعارضة اللبنانية والمقاومة إلى النظام اللبناني. ولم تغب عن الجنازة وما تلاها الاتهامات الموجهة من المشيّعين إلى قوات الأمن اللبنانية بالتواطؤ في عملية الاغتيال. أدّى هذا الحدث إلى توتير الأجواء بين النظام اللبناني والمقاومة وأنصارها في لبنان.

في أيار مايو ١٩٧٣، عند خروجي من آخر امتحان في جورج تاون، دارت اشتباكات عنيفة في لبنان. حاول الجيش اللبناني اقتحام المخيّمات وإنهاء ظاهرة العمل الفدائي المنطلق من لبنان، فما كان من الحركات الطلابية اليسارية والوطنية اللبنانية والفلسطينية إلا أن دافعت عن المقاومة.

إن حمل طلبة الجامعات في بيروت السلاح في منطقة بيروت الغربية/ الفاكهاني للدفاع عن المخيمات الملاصقة لتلك المنطقة تحوّل إلى حدث مفصلي أثّر على جيل من الشبان والشابات. لذا ركبت الطائرة متوجّهاً إلى بيروت في اليوم التالي، حيث منع التجوّل والتوتر على أشده.

وقد وقعت معارك ١٩٧٣ في زمن الرئيس سليمان فرنجية. في تلك الأحداث، استقال رئيس الوزراء اللبناني صائب سلام احتجاجاً على ضرب الجيش اللبناني للفدائيين بإيعاز من الرئاسة اللبنانية. والجدير بالذكر أن سوريا في مواجهات أيار/ مايو ١٩٧٣ ساندت المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية من خلال إغلاق حدودها مع لبنان طيلة فترة المواجهة العسكرية والسياسية إلى أن وجدت الأزمة حلاً سياسياً لها.

إن من رأى المواقع العسكرية المحيطة بمنطقة الجامعة العربية (الطريق الجديدة) وقرب دوّار الكولا عند وصولي إلى بيروت في مايو ١٩٧٣ حيث متاريس ممتدّة يحرسها طلاب الجامعات، رأى عالماً مختلفاً وكأنه ربيع سلام لا يوم قتال. لم تتجاوز أعمار الطلبة والطالبات الذين انضممت إليهم التاسعة عشرة والعشرين من العمر، لبنانيون وفلسطينيون وعرب اعتمروا الكوفيات، ولبسوا بناطيل الجينز وحملوا أسلحة قدّمتها لهم المقاومة، وتحديداً حركة فتح.

وقد كان إلى جانب الشبان عدد من الشابات من الجامعات ممن اشتهرن بشجاعتهن في المواقع وفي الاشتباكات. لقد جلس الطلبة عند أطراف الشوارع والأزقة خلف تلك المتاريس لأيام طويلة دون اغتسال أو حتى خلع الحذاء الرياضي الذي ينتعلونه.

قاد تلك المنطقة العسكرية التي أطلق عليها اسم «منطقة الطلبة» أبو حسن قاسم (محمد بحيص) من قرية يطا المحتلة قرب الخليل. يصعب أن تعرف عندما ترى

أبو حسن قاسم أنه المسؤول العسكري للمنطقة، فهو يتفادى لفت النظر إليه في تحركاته.

في الليل يتحرك أبو حسن قاسم مع أبو عمر حنا المسؤول السياسي عن تلك المنطقة. أبو عمر حنا (د. حنا ميخائيل) فلسطيني مسيحي من رام الله المحتلة، درس الكيمياء في الولايات المتحدة في الستينيات عندما كانت تلك المدينة تحت الحكم الأردني، لكنه غيّر دراسته بسبب حرب ١٩٦٧ باتجاه الدراسات الإسلامية. أراد أبو عمر حنا أن يفهم تلك الأبعاد التاريخية والإنسانية التي أسهمت في ضعف العرب وتراجعهم. ونال الدكتوراه من جامعة هارفارد، ثم بدأ بالتدريس في جامعة واشنطن في سياتل. لكنّ بروز العمل الفدائي وشعوره بنداء الواجب لتحرير أرضه دفعاه إلى ترك تلك الحياة والالتحاق بالعمل الفدائي.

المفكر الكبير إدوارد سعيد تحدث عن ظاهرة حنا ميخائيل في مقدمة لكتاب من إصدار دار الطليعة حيث كتب:

«وأثار إعجابي زهده اللامتناهي في الملبس ونمط الحياة... ولم يقد سيارة قط، ولم يستخدم في سلوكه إلا أسلوب الحديث البسيط البعيد عن التكلّف تماماً. كان دائماً يحرص على الإنصات، وحده بين رفاقي الفلسطينيين كان عندما يسألني عن التطورات في الولايات المتحدة ينتظر فعلاً أن أجيب»[(١)].

ويقول سعيد: «سألت أبو عمر: هل تشعر بأي كره إزاءهم (أي الإسرائيليين)؟ لم أُصَب قط بمثل ذلك الذهول... عندما قال كلا، لا أعتقد أن في إمكاني ذلك. رأيت في لحظة واحدة أمرين: رقته في الجوهر كإنسان ومدى تفوّق حنكته السياسية عليّ».

كان لقائي بـ«أبوعمر» مدعاة لتعميق فكرة تلهب تفكيري كل يوم. فأنا منذ زياراتي الأولى إلى جنوب لبنان مع صديقي مارون أهيّئ نفسي للانضمام الى العمل الفدائي وعيش حياة زاهدة لأجل القيم التي أؤمن بها.

---

(١) حنا ميخائيل، **السياسة والوحي: الماوردي وما بعده**، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٧، الطبعة الأولى، ص ٨-١٩. تعريب: شكري رحيم، النسخة الإنكليزية: *Politics and Revelation: Mawardi & After*

في منطقة الجامعة العربية، أثناء الحراسة النهارية والليلية، التقيت عشرات الشبان والشابات من الطلبة الحالمين مثلي بتحرير الأرض وتغيير العالم العربي. عرفت إحدى الفتيات - في موقع تسلّمت الفتيات مسؤوليته الكاملة - بالقناص لمهارتها في القنص بواسطة السيمينوف (سلاح روسي). لقد حرس تلك المواقع عشرات الشبان والشابات من تنظيم فتح في الجامعات. مثّلت معارك دوار الكولا وكمائن تلك المنطقة قرب الملعب البلدي والجامعة العربية انطلاقة جديدة للحركة الطلابية الفلسطينية/ اللبنانية التي تؤمن بالقضية الفلسطينية ونهج المقاومة والتغيير والكفاح المسلح.

غازي الحسيني: تاريخ يقف أمامي

أثناء وجودي في بيروت، وفي منطقة متاريس الجامعة العربية/ الطريق الجديدة، تعرّفت إلى ابن القائد الكبير عبد القادر الحسيني الذي تحوّل في حرب ١٩٤٨ إلى أقدر القادة العسكريين العرب. لقد أحب جدي الشهيد عبد القادر وظل يردّد أمامي قصصاً عن لقاءاته به.

غازي ابن شهيد، وجدّه الشيخ موسى كاظم الحسيني قاد الحركة الوطنية الفلسطينية بامتياز منذ أن بدأ الاحتلال البريطاني لفلسطين عام ١٩١٨ حتى سقوطه متأثراً بإصابة أثناء قيادته تظاهرة في مواجهة بريطانيا في ثلاثينيات القرن العشرين. بل كان جده إحدى الشخصيات المؤثرة في الدولة العثمانية، وبعد استشهاده قاد قريبه الحاج أمين الحسيني الحركة الوطنية الفلسطينية حتى عام ١٩٤٨. وكما حال غازي، فعلي حسن سلامة المسؤول الأول لجهاز الأمن الفلسطيني أيضاً ابن شهيد، وسألتقي بكثيرين من أبناء الشهداء في بيروت، ما يعكس كيف تستمر قضية فلسطين.

لكنّ غازي رجل أمن في فتح يغلب الغموض والصمت على تحركاته وأحاديثه. لم أكن أميل إلى هذا النمط من العمل. بعد سنوات سيسطع نجم أخيه فيصل عبد القادر الحسيني الذي سيتحول إلى رمز للقضية الفلسطينية وللقدس، وصمودها تحديداً.

عرض للتعامل مع أيلول الأسود

أثناء استعدادي للعودة إلى واشنطن بعد بداية عودة الحياة إلى طبيعتها في بيروت، عرض عليّ أيمن الذي تعرفت إليه في متاريس بيروت أن ألتحق بمنظمة أيلول الأسود. فأيلول الأسود هي التي قامت بعملية ميونيخ والتي نتج عنها قيام إسرائيل باغتيال القادة الثلاثة. وأيلول الأسود استمرت في تلك المرحلة بالقيام بعشرات العمليات مثل اغتيال رئيس وزراء الأردن وصفي التل عام ١٩٧١ انطلاقاً من دوره في حوادث أيلول في الأردن. كذلك نفّذت عمليات ضد الاستخبارات الإسرائيلية في أوروبا.

وقد سرت شائعات حينها، وتبيّن بعد ذلك أنها صحيحة، أن علي حسن سلامة (أبو حسن سلامة) مسؤول أمن عرفات وأمن فتح، هو المؤثر الأساسي في أعمال أيلول الأسود. عُرف علي سلامة بالأمير الأحمر لدى الاستخبارات الإسرائيلية، وقد كُتب عنه الكثير نظراً إلى مهاراته في الاختفاء والتحرك في العالم بهويات مختلفة. وهو نفسه أيضاً الذي أحبّ بعد سنوات ملكة جمال الكون جورجينا رزق وتزوّجها في أواسط السبعينيات. وقد قتلت إسرائيل عدة أشخاص طيلة السبعينيات معتقدة أنهم علي سلامة.

فوجئت بالعرض، إذ لم أكن أبحث عن مغامرة سطحية كما حصل مع بعض الشبان من أبناء جيلي. فأنا أعرف أن من يمارس هذا النمط من العنف يمارسه فوق أراضي دول وشعوب أخرى لا في الأرض المحتلة أو على حدودها مما يؤذي أطرافاً ثالثة ورابعة ومدنيين لا علاقة لهم بالصراع.

لهذا اعتذرت بدبلوماسية من محدّثي وأعلمته «أنني أؤمن بالعمل السياسي الذي ينسجم وقوانين الجامعة التي أنتمي إليها والبلاد التي تستضيفني، لهذا أحرص عند القيام بتظاهرة سلمية في واشنطن على أن أحصل على تصريح رسمي بالتظاهر وإلا فإنني لا أقوم به».

إن أعمال أيلول الأسود أغرت الكثير من الشبان الذين ينحدرون من أسر طردتها إسرائيل إلى مخيّمات اللجوء في لبنان أو الأردن أو سوريا. ولكن أول من مارس الإرهاب في الشرق الأوسط في الأربعينيات من القرن العشرين هم أعضاء

المنظمات الصهيونية، الذين فجروا الفنادق والمواقع المدنية واغتالوا ممثلين لدول وسياسيين، ووصلت أعمالهم، إضافة إلى فلسطين، إلى القاهرة ودول عربية أخرى.

حرب ١٩٧٣ : نتائج وإفرازات

عدت الى الجامعة متابعاً دراستي. لكن في الخامس من أكتوبر ١٩٧٣ سيُفاجأ العالم بحرب تشنّها مصر وسوريا على إسرائيل لتحرير أراضي ١٩٦٧ المحتلة. ستكون تلك الحرب أكبر مفاجأة في السياسة الدولية منذ زمن طويل.

أذكر أستاذي في العلاقات الدولية في جامعة جورج تاون د. إللو Ello الذي أعلن بصوته الجهوري وجسده الضخم في الفصل، قبل الحرب بشهور: «الشرق الأوسط منطقة هادئة لسبب واحد، سيأخذ العرب عقوداً وعقوداً ليتعلموا كيف يحركون الدبابات وكيف ينتقلون من الجمال إلى الآلات. وبما أنهم لن يجيدوا ذلك، فالحرب غير ممكنة في تلك المنطقة وليست هناك أي مشكلة أمنية». وظل يردّد: «العرب لن ينجحوا في حرب، لذلك هُزموا عام ١٩٦٧».

كنت بطبيعة الحال محاور إللو الرئيسي في فصوله. إللو واضح في أفكاره، يقول رأيه بقوة تجعل أياً من الطلبة متردداً في التشكيك في صحة ما يقول. وفي اليوم الثاني للحرب دخلت فصل العلاقات الدولية ورفعت يدي.

قلت: «هل نستطيع أن نتحدث عمّا يدور في الشرق الأوسط؟».

قال: «نعم».

قلت : «ما رأيك؟».

قال: «لا أستطيع الحكم، يبدو أن هناك هزّة في إسرائيل، علينا الانتظار لنرى النتائج».

قلت: «هل تسمح لي برأيي؟».

قال: «تفضل».

قلت: «ألا تعتقد أن تحليلك عن العرب قد سقط الآن سقوطاً مدوّياً، وأن

العرب قادرون على استخدام الدبابات بدلاً من الجمال بأسرع مما توقعت؟ ألا تعتقد أنك ظلمت هذا الجزء من العالم باستخفافك به وأنك أعطيت النصيحة الخطأ للخارجية الأميركية وربما للإسرائيليين عندما لم تتوقع كل هذا؟».

نظر الأستاذ إللو بضيق وسط تمتمات من الطلبة والطالبات تعكس رهبة الموقف. قلت لنفسي قد يأكلني الآن بصوته الجهوري وجسمه الضخم.

قال يا سيد «الغابارا» محاولاً لفظ اسمي: «لديك نقطه مهمة، ولكن علينا انتظار النتائج. أفضّل أن نحكم بعد مرور بعض الوقت».

وفي الأيام الأولى من الحرب، أخبرني طالب أميركي في الفصل من العاملين في إحدى المؤسسات الأميركية الأمنية بأن «هناك بداية تحرك لمئات الطائرات الأميركية من قاعدة في فرجينيا قريبة من العاصمة». الطالب الأميركي أراد أن يخرج الخبر، ولم يكن يحبذ تورّط بلاده في هذه الحرب. فما كان مني إلا أن أبلغت صديقي إدمون غريب، الطالب في الدراسات العليا في الجامعة الذي عمل مراسلاً لإحدى الصحف العربية المؤثرة في بيروت. وبهذا أخذت الصحيفة التي يعمل فيها إدمون السبق الصحافي لأنها اول من كشف نبأ الإمدادات الأميركية إلى إسرائيل.

لقد أدّت حرب ١٩٧٣ إلى هزة فكرية للفكر الوطني واليساري العربي الذي كنا نؤمن به. فقد قامت منطلقاتنا على ضعف الأنظمة بسبب هزيمة ١٩٦٧، فخاضت بعض تلك الأنظمة حرباً تغيّر موازين القوى وتجدّد دورها. لم نكن نرى في الرئيس السادات قيمة وطنية إذا ما وضعناه إلى جانب الرئيس عبد الناصر، فإذا به يحقق نجاحاً صاعقاً. كنا نرى في المملكة العربية السعودية تبعية مستمرة للسياسة الأميركية، فإذا بالسعودية بقيادة الملك فيصل تقود حملة رفع أسعار النفط وإيقاف إمداداته عن الولايات المتحدة. لقد انقلبت الأنظمة من مصنّفة مستسلمة او رجعية وفق التقسيم الناصري القديم إلى وطنية، ومن خاضعة إلى مقاتلة.

بدأنا نتساءل في منظمة الطلبة العرب التي مثلت الحاضن لجميع الأنشطة العربية وتحوّلت إلى ملتقى للمنظمات الفلسطينية واليسارية العربية. بعضنا قال إن الحرب متفق عليها مع الغرب ومع أميركا، والبعض قال إنها حرب تحريك وتسوية لا تغيّر شيئاً من رؤيتنا للأنظمة، بينما أصرّ بعض آخر على أنها حرب وطنية مجيدة تستحق

أن تُحترم لما تمثل من إرادة شعبية وسياسية. بالنسبة إليّ عبّرت الحرب عن الإنجاز، إذ عزّزت الاقتناع بأن العرب قادرون على إنجاز شيء بعد كل ما وقع عام ١٩٦٧.

إن ما وقع بعد عام ١٩٧٣ مثّل «لحظة تفاؤل» بإمكان تحقيق عدالة وحل سياسي متوازن للقضية الفلسطينية، لكنّ تلك اللحظة لن تدوم وسيسير التاريخ في طريق التأزيم والحروب الإقليمية متواصلاً مع حروب الماضي.

معسكر مصياف ١٩٧٣ (سوريا)

انتظرت مجيء شهر ديسمبر ١٩٧٣ بفارغ الصبر، وذلك للذهاب إلى بيروت. وفي بيروت التقيت د. نبيل شعث الذي اصبح رئيساً لمركز التخطيط الفلسطيني. أما صديقي د. الياس شوفاني، الذي ترك الولايات المتحدة قبل ذلك بشهور، فقد انضم إلى مركز التخطيط الفلسطيني قبل أن يلتحق بعد ذلك بمركز الدراسات الفلسطينية. هذه المرة رتّبا لي المشاركة في دورة سياسية وعسكرية قيادية للطلبة الجامعيين من حركة فتح لمده ثمانية أيام في بلدة مصياف السورية.

سيشارك في الدورة ما يقارب مئتين من الطلبة والطالبات ممن قاتلوا وأسهموا في حراسة منطقة جامعة بيروت العربية إبان شهر مايو/ أيار ١٩٧٣. هذه القاعدة الطلابية المكوّنة من لبنانيين وفلسطينيين وعرب من جامعات لبنان، مالت إلى اليسار والمعارضة. سأكتشف أن المشاركين في ذلك المعسكر هم نخبة من الطلبة.

في المعسكر التدريبي تجسّدت كل الإشكالات. فقد انقسم المعسكر إلى خطين، أحدهما خط الأقلية والآخر خط الأغلبية الطلابية. الأقلية قالت بما بدأ رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات يقوله: هناك تسوية مقبلة بسبب نتائج حرب ١٩٧٣ وهذا سيدفع بإسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي المحتلة، وعلينا بالتالي أن نكون مهيّئين لإنشاء سلطة وطنية فلسطينية على أي قطعة أرض محتلة تنسحب منها إسرائيل.

وقد مثّل هذا الخط أساساً شاب لبناني شديد الذكاء والاعتدال في الطرح والفكر: أنيس النقاش. لم يتجاوز حينها أنيس النقاش (مازن) الحادية والعشرين من

عمره. وقد تميّز باعتداله الشديد وعقلانية طرحه الوطني إلى درجة أننا صنّفناه بـ«اليميني»، امتلك مازن في ذلك الوقت اقتناعاً كبيراً بحل الدولتين والمرحلية في العمل السياسي.

أما الخط المعارض فمثّلته الأغلبية الطلابية، وجسّده بمهارة فائقة عدد من قادة الحركة الطلابية في الجامعة الأميركية في بيروت والجامعة العربية واللبنانية واليسوعية من أمثال إدي، ومعين الطاهر، وسعد جرادات، وحسن صالح، وسعود المولى، وعلي أبو طوق، ومروان كيالي.

رأى تيار الأغلبية أن الانسحاب الذي تتحدث عنه القيادة الفلسطينية لن يكون ممكناً بلا اتفاقات سلام وبلا اعتراف بدولة إسرائيل والتخلي عن مشروع حق اللاجئين بالعودة. أعلن هذا التيار رفضه فكرة تسوية سلمية تسهم في إلغاء الحلم الفلسطيني بالعودة والدولة على كل الأرض.

في ذلك المعسكر تعرّفت إلى سحر وشيرين الناشطتين في الجامعة الأميركية في بيروت، وحضرت الدورة ريما من الناشطات المتميزات، كما تعرّفت إلى عشرات الشبان ممن ستجمعني بهم في المستقبل علاقة طويلة وسنوات عمل وكفاح.

سيكون ذلك المعسكر تأسيسياً في رسالة جيل وفي سعي الجيل الذي فتح أعينه على حرب ١٩٦٧ إلى طرح صوته وتصوراته في الصراع مع إسرائيل وفي المستقبل العربي. سيبرز من بين هذا الجيل فدائيون ملتزمون وقادة فكر، وسيفقد الكثير منهم حياتهم في درب العمل لأجل القضية الفلسطينية والعربية.

لقاء مع أبو عمار (ياسر عرفات)

في الليلة الختامية، إذا برئيس منظمة التحرير ورئيس حركة فتح ورئيس قوات العاصفة الجناح العسكري لفتح، ياسر عرفات، أمامنا. تجمعنا كلنا في خيمة كبيرة تتسع لنا في أجواء باردة بينما المطر ينهمر بغزارة على الخيمة والمعسكر. بدأ عرفات يتحدث بإسهاب بينما كنت أقف في أول الصف الأول أمامه. تحدث بإيجابية عن حرب ١٩٧٣، وتحدث عن انطلاقة حركة فتح وبدايات الكفاح المسلح

وكأنه في ختام مسيرته. ثم قال إنه يقبل بأي انسحاب إسرائيلي من أي قطعة أرض من فلسطين ليقيم عليها دولة فلسطينية.

ارتفعت الحرارة (رغم البرد) في الخيمة بين الطلبة واستمرت في الارتفاع عندما قال «أنا على استعداد لإرسال وحدات من جيش التحرير الفلسطيني لتسلّم مهماتها بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من الضفة الغربية وغزة». ثم أردف قائلاً «إني مستعد لإقامة دولة في أريحا، فكل قطعة أرض هي جزء من فلسطين ويجب تحمّل مسؤوليتها».

وقع الكلام علينا كالصاعقة. لقد حمل كل شاب وشابة في هذه الخيمة حلماً بالعودة إلى فلسطين التي تشرّد أهله وأسرته منها، ولكنّ عرفات بدأ يتحدث بواقعية تتناقض وذلك الحلم. لقد شعر أبو عمار من تمتمات الشبان ووجومهم ولغة أجسادهم بأنهم غير متقبّلين لما يقول.

رفعت يدي بقوة ناظراً بحدّة إلى ياسر عرفات. التقطت أنفاسي ووجهت حديثي إلى عرفات قائلاً:

«إن ما تقوله فيه تراجع عن الهدف الذي هو تحرير فلسطين. لن تسمح لك إسرائيل بإدخال قوات جيش التحرير الفلسطيني بلا اتفاق وبلا اعتراف وبلا حل تتنازل بموجبه عن بقية فلسطين وحقوق اللاجئين. أين شعار الدولة الديموقراطية في كل فلسطين؟ أين حرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد التي تكلمتم عنها وانضمّ كل منا إلى فتح من أجل تحقيقها؟ أين دماء الشهداء الذين سقطوا في كل المعارك؟».

ساد الصمت الخيمة، حتى الشبان الذين أكثروا الحديث عن رفض التسوية تفادوا مواجهة عرفات، أما أنا فقد تحرّر لساني من كل قيد وانطلق، ربما حصل هذا لأن وجودي مؤقت على هذه الساحة الصعبة.

ولكنّ تعليقي أشعل غضب عرفات. لقد فقد هدوءه واختفت ابتسامته، علا صوته تدريجاً ثم تحدث طويلاً موجّهاً الحديث إليّ مباشرة عن أنه لن يتنازل أو يستسلم، ولكنه يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرض ويحاول تحسين فرص القضية الفلسطينية.

ثم قال: «هناك تسوية مقبلة نتيجة حرب ١٩٧٣، لا يمكن أن تمر هذه التسوية ونحن ننظر إليها، هذه هي الطريقة الوحيدة لحماية حقوقنا ولمنع تكرار ما وقع لنا عام ١٩٤٨ عندما ضم الملك عبد الله الضفة الغربية والقدس الشرقية الى الأردن وعندما أصبحت غزة تحت الحكم المصري بعد أن احتلت إسرائيل ٧٧٪ من فلسطين. يجب أن نكون على الأرض لكي لا يقع شيء على حسابنا، يجب أن نشارك لنحسّن فرصنا».

ثم تحرك عرفات باتجاهي في حركة تصالحية ووضع يده في يدي وقال «سنضع أيادينا معاً لنصل إلى هدفنا النهائي بعد ذلك».

فرددت بسرعة قائلاً: «لكني مختلف معك في ما تقول ولديّ رأي آخر».

خرج عرفات غاضباً من اللقاء، قائلاً إنه سيحاسب شخصيّتين فلسطينيّتين معروفتين في الأوساط الفدائية وفي حركة فتح هما ناجي علوش ومنير شفيق، اللذان كانا في ذلك الوقت الرمز المؤثر بامتياز على التنظيم الطلابي لحركة فتح، واللذان قادا معظم عناصر التيار الطلابي نحو الفكر المعارض والنهج القومي الرافض لطروحات الدولتين في حركة فتح.

وبالفعل، طرحُ منير شفيق وناجي علوش وفكرهما القومي واليساري والثوري هما من المؤثرات الرئيسية في هذا التيار الطلابي في الساحة اللبنانية كما الفلسطينية. فمنير شفيق امتلك مقدرة هائلة قلّ نظيرها في الحركة الفلسطينية على التنظير الفكري وعلى الكتابة والتحليل والإقناع وتعمّق كثيراً في التجربة الصينية وموضوعاتها في محاولة للاستفادة من نقاط قوّتها، كذلك فإن ناجي علوش امتلك مقدرة عالية على التعبئة والتحريض وجمع المناصرين لأفكاره.

ويسجل لمنير شفيق، وهو من مواليد القدس عام ١٩٣٦، موقفه عندما كان عضواً في الحزب الشيوعي الأردني في خمسينيات القرن العشرين قبل انضمامه إلى فتح، إذ اعتُقل وهو شاب في أواخر الخمسينيات أثناء حكم الأردن للضفة الغربية والقدس (١٩٤٨-١٩٦٧) وحُكم عليه بالسجن ست سنوات بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي. وقد اشترطت الاستخبارات الأردنية لخروجه من السجن أن يدين الحزب الشيوعي علناً، لكنّ منير رغم اقتناعه بعد اعتقاله بخطأ سياسات الحزب

وطروحاته، رفض فكرة الإدانة وعدّها مهينة لحريته السياسية والفكرية، لهذا فضّل أن يكمل السنوات الست في السجن وأن ينسحب من الحزب الشيوعي بعد أن ينتهي من فترة السجن عام ١٩٦٥.

التقى كلّ من منير وناجي على قيادة تيار المعارضة في حركة فتح، ونجحا في إنشاء علاقات عميقة مع اليسار اللبناني كما مع اليسار العربي المعارض والساعي للتغيير والحريات، وتميّزا بالمقدرة على جذب الأنصار: كلّ على طريقته.

مؤتمر منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة

عدت إلى الولايات المتحدة متابعاً الدراسة، وإذا بحاتم الحسيني يكلفني بمهمات جديدة، حيث غادرنا معاً لحضور المؤتمر الذي تنظمه منظمة الطلبة العرب في ميتشيغان عام ١٩٧٤. ذهبنا معاً أنا وهو وجعفر وخالد عبدو (من شمال لبنان) وآخرون، في سيارتي الصفراء الفولكسفاغن.

المؤتمر كغيره من المؤتمرات عكس حدة الخلاف بين الطلبة، بعضهم مال إلى رفض مشروع الحل الوسط والدولة الفلسطينية التي قال بها عرفات، وقد قادت هذا التوجه الجبهة الشعبية وأحد أفضل المتحدثين باسمها الليبي محمود شمام (تميّز في ما بعد بعمله الصحافي) وباسل أبو عيد (وهو كويتي من أصل فلسطيني سيبقى مع الجبهة الشعبية في لبنان وسوريا لحين وفاته عام ٢٠٠٦)، بينما قاد التيار الوسطي الذي يقبل الحل والدولة الفلسطينية الجبهة الشعبية الديموقراطية بقيادة شاب من العراق يدرس الدكتوراه: سميع البنا. أما بالنسبة إليّ، فرغم موقفي السلبي من الفكرة حينها، وجدت أن الاختلاف على أمر غير مطروح في المدى المنظور سيخلق بيننا خلافاً على لا شيء.

طرح عليّ حاتم أن أترشح للجنة التنفيذية لمنظمة الطلبة العرب، وشجعني الشبان على ذلك، فاعتذرت لأن ذلك سيؤخر تخرّجي.

لم يكن أيّ من الطلبة الذين احتشدوا يفكر تفكيراً نقابياً من شاكلة الضغط على حكومته لزيادة راتب بعثته الدراسية وتمديد مدة دراسته، أو فصل الفتيات عن الفتيان في اللقاءات الطلابية. لم تكن صغائر الأمور تحرك هذا الجيل. في هذه

اللقاءات، تلاقت الأفكار أو اختلفت، انصبّ التفكير على الهمّ العربي العام: قضية فلسطين، حق العمل السياسي في الدول العربية لمساندة القضايا العربية، الحريات السياسية، الوجود العربي في الولايات المتحدة، العمل الإعلامي لمصلحة القضية الفلسطينية ومواجهة إسرائيل.

هؤلاء الطلبة والطالبات كانوا آخر القوميين من العرب في القرن العشرين. فالشعارات التي حملوها والمواقف التي اتخذوها، أكانوا أعضاءً في التنظيمات الفلسطينية أم في اليسار العربي على تنوّع طروحاته، دفعهتم إلى تبنّي حلم عربي واحد لا يفرّق بين عربي وآخر إلا بما يقدّم للمشروع العربي الأوسع.

لقاء عرفات في الأمم المتحدة ١٩٧٤

لم أكن أعرف أنني سألتقي عرفات مرة ثانية عام ١٩٧٤. ولكن هذه المرة سألقاه في مكان غير متوقع. فقد نظمت مع أصدقائي حملة كبيرة للذهاب إلى نيويورك والقيام بتظاهرة لمناسبة مجيئه لإلقاء كلمة في الأمم المتحدة. فهذه هي الزيارة الأولى لعرفات إلى الولايات المتحدة، وهو المصنّف أميركياً إرهابياً. وقد خرجت ضد عرفات وزيارته إلى مدينة نيويورك تظاهرة نظّمتها القوى المؤيدة لإسرائيل تجاوز عدد المشاركين فيها نصف مليون شخص.

وبرغم عدم اقتناعي بطروحات عرفات بشأن الدولة الفلسطينية، حتّم علينا خروج هذا العدد من الناس ضده لأسباب تتعلق بما يمثّله تجاه الحقوق الفلسطينية، أن نسعى للترحيب به في نيويورك. لقد عملت جميع الدول العربية بإصرار على جعل عرفات يلقي كلمته في مبنى الأمم المتحدة في قاعة الجمعية العامة. وقد تحدث الرئيس سليمان فرنجية، في لحظة تفاؤل لن تدوم، باسم العرب مرحّباً بعرفات.

إن أهم ما قاله عرفات في ختام ذلك الخطاب التاريخي الذي كتبه الشاعر محمود درويش والمفكر إدوارد سعيد، أنه جاء إلى الأمم المتحدة حاملاً غصن الزيتون في يد والبندقية في يد، مطالباً العالم بعدم إسقاط غصن الزيتون من يده.

إن بعض المرونة التي أبدتها منظمة التحرير وأبداها عرفات في ذلك الوقت بما

فيها إيقاف الأعمال العسكرية التي تصيب أطرافاً أخرى في أراضي دول أخرى غير فلسطين، أصبحت سبباً رئيسياً في حينه في كسب الأصدقاء والحصول على الكثير من الدعم الدولي في تلك المرحلة، بما فيها إدانة الأمم المتحدة للصهيونية والممارسات الإسرائيلية.

بعدما ألقى عرفات كلمته، ذهبت مع أصدقائي إلى حفل الاستقبال الخاص به. مددت يدي لمصافحة أبو عمار، لكنّ شعوراً غريباً سرى في ذهني وهو ينظر إليّ كأنه يقول لي إنه قد تذكّرني في مكان ما. لم يقل شيئاً، ولم أقل شيئاً، سوى السلام والترحيب المختصر.

في عام ١٩٧٤ تبنّى عرفات وتبنّت منظمة التحرير وبرلمانها في المنفى (المجلس الوطني) وحركة فتح برنامجاً مرحلياً وخطاً علنياً يدعو إلى الدولة الفلسطينية المستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة وعاصمتها القدس.

ولكن من جهة أخرى بدأ يتضح أن التسوية ليست مقبلة وذلك بسبب ضعف الحكومة الإسرائيلية وبداية ارتفاع شعبية اليمين الإسرائيلي إثر الهزة التي واجهتها إسرائيل في حرب ١٩٧٣. لقد سادت عام ١٩٧٤ سلسلة من العمليات الانتحارية الفلسطينية التي عبرت الحدود اللبنانية إلى فلسطين. وساد عام ١٩٧٤ استعداد أكبر من جانب إسرائيل لقصف المخيمات الفلسطينية لأول مرة بالطائرات الحربية. كذلك فإن الاستيطان في القدس ومحيطها أصبح أكثر كثافة، واستمرت حركة المستوطنين بمحاولة خلق وقائع تجعل الانسحاب من الضفة الغربية والقدس أقرب إلى المستحيل.

في عام ١٩٧٤ سيطر على القضية الفلسطينية استمرار اللهيب في الأراضي الفلسطينية في أعقاب انتخابات البلديات في الضفة الغربية المحتلة التي أتت إلى الواجهة بممثلين لخط منظمة التحرير الوطني.

استمرت المواجهات في عام ١٩٧٥ في جنوب لبنان، وخاصة معركة كفرشوبا على الحدود، بين الفدائيين والجيش الإسرائيلي، حين اشتبكت على فترات متتالية قوات فدائية مع الجيش الإسرائيلي في تلك القرية الحدودية والمرتفعة على سفوح جبل الشيخ.

لقد أكدت الأحداث أن غصن الزيتون الذي رفعه عرفات في الأمم المتحدة بدأ يهتز ويتوارى عن الأنظار، وأن مواجهات مقبلة مع إسرائيل ستمثّل امتحانات جديدة للكفاح المسلح.

لقد أدّى اهتزاز وضع حزب العمل إلى استقالة غولدا مائير، وسيأتي مكانها السفير الإسرائيلي في واشنطن إسحاق رابين رئيساً للوزراء ورئيساً للحزب عام ١٩٧٤ وسط خطاب أكثر تشدداً تجاه الحقوق الفلسطينية. أما موردخاي غور الذي تعرّفت إلى أفكاره في محاضرته في واشنطن، فقد ترك واشنطن وعاد إلى إسرائيل ليصبح رئيس الأركان الذي سيقود خطط إسرائيل العسكرية في جنوب لبنان لسنوات عدة مقبلة. من غرائب الصدف: سأعود عام ١٩٧٥ إلى لبنان وسأنضم إلى جهود المواجهة مع إسرائيل، وسأقع تحت قصف القوات العسكرية وضرباتها التي يقودها رابين ورئيس أركانه غور.

التخرّج ونهاية مرحلة

مع نهاية الفصل الدراسي الأول في فبراير/شباط ١٩٧٥، أنهيت متطلبات التخرّج من جورج تاون. لم أنتظر حفل التخرّج في يونيو ١٩٧٥، إذ اعتبرته حدثاً شكلياً من عالم مصطنع لا أسعى لأن أكون جزءاً منه. لقد رفضت العالم كما هو والحياة المرسومة لي اجتماعياً ومهنياً من قبل أسرتي والبيئة التي نشأت فيها.

مع نهاية دراستي، أصبحت أفكاري ومشاعري أكثر وضوحاً. لكنّ أفكاري في حاجة إلى تجربة تقرر مدى صحتها وتصوّب فرضياتها. لا بد لي إذاً من الممارسة. لقد استحقت الأفكار التي أحملها عن القضية الفلسطينية التضحية والجهد.

ولكنّ الأهم في ما وصلت إليه من قناعات هو إيماني بأهمية التفرغ للعمل الثوري. لهذا قررت قطع خطوطي مع الحياة الرغيدة والمدنية كما عرفتها طيلة حياتي. سيكون يوم غد مختلفاً عمّا عرفته في كلّ سنواتي السابقة.

ودّعت جورج تاون وأصدقائي وصديقاتي وأساتذتي، ولم أعلم سوى حاتم وجعفر بنيّتي، كتبت لي صديقتي إيلين قصيدة جميلة أهدتني إياها. ودّعتهم بلا التزام تجاه مراسلة أو تواصل. ذهبت مع الرياح إلى حيث لن يجدني أحد. بدأت

قطيعتي مع عالم عرفته، وبدأ دخولي في عالم يختلف كثيراً عن كل ما عرفته في حياتيَ القصيرة.

في الكويت أوضح لي والدي رأيه الذي استطعت أن أتنبّأ به: «سوف تذهب جهودك سدى يا شفيق. لقد سافرت وتعلّمت في أفضل المدارس والجامعات فكيف تذهب إلى المجهول؟». وتقول والدتي: «لماذا لا تترك الأمر بعض الوقت لترى إن كان هذا ما تريده؟».

في ظل تلك النقاشات الصعبة قلت لوالديّ: «لماذا يكون طبيعياً أن يترك أميركي متعلم ملتزم بالصهيونية مدينة بجمال نيويورك من أجل الهجرة إلى إسرائيل لمجرد أنه يهودي الديانة، وأنا الذي وُلد أبوه وأمه في فلسطين وأمثّل الجيل الأول من المولودين بعد نكبة عام ١٩٤٨ لا أستطيع أن أذهب من الكويت، وهي بلد عربي، إلى حدود فلسطين، وهي بلد عربي محتل لمواجهة هذا القادم من نيويورك؟».

فيقول والدي: «أفهم موقفك. لكنّ الطريق الذي تسعى إليه الآن لن يؤدي بك إلى الوصول إلى هدفك. أوضاع العرب ستشعرك بالخذلان والخيبة بعد فوات الأوان».

فأقول: «إذا لم أقم بهذا العمل فمن سيقوم به؟ ألم يكن كل قادة إسرائيل أمثال بن غوريون وأشكول ودايان ووايزمان وغولدا مائير متعلمين عندما بدأوا حركتهم الصهيونية وأسسوا منظمات سرية مسلحة وميليشيات ومارسوا العنف بلا حدود ضد العرب؟ هم كانوا متعلمين وامتهنوا السياسة والعنف لكي ينشئوا دولة تحمي اليهود كما أعلنوا، ونحن متعلمون ونعيش الظلم الذي فرضوه علينا أثناء سعيهم لاحتلال بلادنا. علينا القيام بدورنا والانخراط في قضايا بلادنا لحماية حقوقنا. من حقنا أن نبذل الجهد ونجرّب».

وعندما لاحظ والدي مدى صعوبة إقناعي، أخذني إلى صديقه أمير الكويت الشيخ صباح السالم الذي رحّب بي كما هو الأمر عندما آتي لزيارته مع الوالد. سألني عن أخباري في جلسة غداء استمرت طويلاً. وعندما أخبرته بقراري سألني عن أسبابه، فشرحتها.

ردّ سموّه: «يا شفيق هذا الدرب بهذه الطريقة لن يؤدي إلى الهدف الذي تريده. بإمكانك أن تخدم قضيتك من موقع آخر. ولأنك تهمّني لا أريدك أن تغامر بحياتك. أخشى أنك ستؤذي نفسك، لأن القضية الفلسطينية ليست مسألة سلاح وحرب فقط».

ستبقى كلمات الشيخ صباح وكلمات والدي معي سنوات طويلة، ولكنني سأسعى إلى أن أثبت العكس. ربما سأثبت العكس في الكثير من الأمور، وربما ستثبت الأيام صحة نظرتهما في أمور أخرى.

الفصل الخامس

في غابة البنادق في لبنان ١٩٧٥

سافرت إلى بيروت في أوائل مارس ١٩٧٥، حينها كنت قد بلغت الحادية والعشرين. وقد أضحى لبنان القاعدة التي يتوجّه إليها كل عربي يحلم بالمواجهة مع إسرائيل بعد انعدام إمكانيات الكفاح المسلح من الحدود العربية الأخرى. وعلى وجه الدقة أصبح لبنان المنطلق والقاعدة الوحيدة بعد مواجهات أيلول ١٩٧٠ في الأردن، وخاصة في صيف ١٩٧١ بعد معارك جرش وعجلون بين الجيش الأردني والقوات الفلسطينية بقيادة أبو علي إياد، الذي قتل في تلك المعارك وأطلق صرخته التي تناقلتها أجيال من المقاتلين: «نموت واقفين ولن نركع».

نزلت في منزل طالب فلسطيني يحمل فكراً ثورياً يسارياً اسمه شمس. سكن شمس في منطقة جامعة بيروت العربية التي تستضيف العصب الرئيسي والإداري والأمني لفتح ولمنظمة التحرير ولكل الفصائل الفلسطينية.

شمس شخصية طريفة، فقد أحبّ النقاش باستمرار وصادق المثقفين وحاورهم، وامتلأ منزله بمن يعملون في القطاع الطلابي التابع لفتح، لكنّ ثورية شمس امتلأت بالأسود والأبيض، بالخير والشر، بالقبيح والجميل. لم يكن في النقاش إلا مواقف حاسمة وواضحة.

ومن منزل شمس وحواراته المسائية، عدت والتقيت بقيادات عناصر العمل الطلابي الفلسطيني واللبناني في لبنان، ومنهم معين الطاهر وسعد جرادات من جامعة بيروت العربية، ومروان الكيالي الذي ترأس تنظيم فتح في الجامعة اللبنانية،

وسعود المولى وعلي أبو طوق من الجامعة اللبنانية، اللذان قادا تنظيم فتح في الثانويات.

كان سعود المولى، وعدة مجموعات لبنانية خارجة من رحم منظمة العمل الشيوعي من بينها شبان مثل رياض، ونظير الأوبري، وشبان ناشطون مثل ربحي وأدهم وأبو أحمد ورائد (عبد الحكيم عيسى) وآمنة القرى وأمل ورجاء بشارة وآخرون انشقوا عن منظمة العمل الشيوعي بهدف الالتزام بتيار الثورة الفلسطينية الرئيسي (حركة فتح) والانضمام إلى المجموعات الطلابية ذي البعد اليساري على الأخص[١].

إن هذا اليسار الطلابي الشبابي في حركة فتح هو يسار وطني ذو صبغة عربية، يؤمن بالوحدة العربية والتغيير الأوسع في العالم العربي، ويبحث عن تحرير الأرض الفلسطينية المحتلة. فإن كان اليمين في فتح يعني القيادة الرسمية لفتح والجيل الأكبر سناً، فاليسار في هذه الحالة هم الشباب. وإن كان اليمين يقول بحل الدولتين، فاليسار الشبابي هذا يقول بحل الدولة الواحدة في كل فلسطين. وإن كان اليمين يركز فقط على المسألة الوطنية، فاليسار يريد أن يتعامل مع الأبعاد الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية والعربية الأعمق. كذلك فإن اليسار يريد أن يتفاعل مع البيئة المحيطة به من لبنانيين وجنوبيين ومخيّمات، ويريد أن يتصدّى بقوة للتجاوزات السلوكية التي تصدر عن المقاومين في حق الناس. وإن اهتم اليمين بالثورات العالمية فإن هذا اليسار تعمّق أكثر في استلهام التجربة الصينية والفييتنامية، نظراً إلى أن هذه التجارب مثلت حروباً شعبية ناجحة.

قادت مبادئ هؤلاء الشبان في تلك المرحلة تساؤلات من شاكلة: ألم تؤدّ حرب كاسترو في الخمسينيات في كوبا، التي بدأت بعشرات المقاتلين وبضع بنادق قديمة إلى تغيير شامل؟ ألم تؤدّ مجموعات ماوتسي تونغ الصغيرة في قواعدها الآمنة

---

(١) سعود المولى، «من هو سعود المولى»، رسالة إلكترونية أرسلها الكاتب بتاريخ ٦/٧/٢٠٠٩. نشرت في النهار اللبنانية؛ «عن تجربة هذا الجيل»، سعود المولى، (المقال الثاني) ١٨/٦/٢٠٠٩.

إلى أكبر ثورة في تاريخ الصين، وحققت انتصارها عام ١٩٤٩؟ لماذا لا يكون هذا أيضاً ممكناً في بلادنا العربية انطلاقاً من قاعدة لبنان، فنكون صانعي هذا التغيير في فلسطين مع انعكاساته العربية؟

لقد آمن آلاف الشبان والشابات بضرورة مقاومة إسرائيل، بغض النظر عن ميزان القوى مع إسرائيل، وآمنوا في الوقت نفسه بضرورة تمكين القاعدة التي تنطلق منها المقاومة، وآمنوا بأن هذا سيؤثر على الوضع العربي ليتحول نحو القوة والمنعة وربما الثورة والحرية والوحدة. في فكرنا قناعة شاملة: «هناك ثمن يقدّمه الجيل الجديد، هذا الثمن في زمننا هو الاستعداد للموت من أجل أفكارنا وحقوقنا في فلسطين».

انطلق فكر فتح الذي آمنا به أيضاً من أن استمرار المعركة مع إسرائيل ضرورة. فردود إسرائيل على العمليات الفدائية ستؤدّي إلى إغضاب الشعوب العربية التي لن تقبل بضعف حكوماتها أمام إسرائيل، ما سيفتح المجال للخيار الشعبي في مواجهة إسرائيل.

تيارات وتوازنات

شاءت الصدف أن أصل إلى بيروت في أوائل آذار/ مارس ١٩٧٥. ومع وصولي وقعت حادثة اغتيال الزعيم اللبناني السني في صيدا معروف سعد أثناء قيادته تظاهرة للدفاع عن حقوق الصيادين اللبنانيين. فقد أطلق عليه الجيش النار وعلى التظاهرة مما أدّى إلى مقتله. امتلأ لبنان غضباً وامتلأت شوارع مناطق المسلمين تظاهرات وحرق إطارات وقطعاً للطرق. فالشارع المسلم والسنّي اعتبر قتل سعد عملاً مقصوداً من فئات في الجيش مرتبطة بالكتائب والأحرار ذوي الميول اليمينية والأجهزة الأمنية.

وفي الثالث عشر من نيسان/ أبريل ١٩٧٥، اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية، عندما مرّ باص مدنيّ محمّل بالفلسطينيين القادمين من تأبين مقاتلين سقطوا في القتال مع إسرائيل أمام مقر حزب الكتائب. فقد قتلت وجرحت حراسة المقرّ كل

من في الباص. انفجر لبنان، وإذا بمئات الضحايا يسقطون في بيروت ومناطق متفرقة من لبنان. فخلال ثلاثة أيام وقع مئة قتيل ومئات الجرحى.

في ٢٠ نيسان/إبريل اجتمعت القوى الوطنية بقيادة كمال جنبلاط وبقية الأحزاب الوطنية المكوّنة من الناصريين والأحزاب اليسارية والقومية، وطرحت برنامجاً وطنياً أساسه عزل الكتائب سياسياً وتجريدها من السلاح وذلك لأنها تجر لبنان للحرب الأهلية.

لكن الشعار لم يكن موفقاً، إذ فسّره الشارع المسيحي المحايد تجاه الكتائب بأنه موجّه ضد الموارنة بالتحديد، وقد وقعت تعديات طائفية ضد مناطق مسيحية آمنة أضافت مزيداً من الاحتقان. وهذا بدوره صبّ لمصلحة الكتائب وأضعف معارضيها المسيحيين في الشارع المسيحي. وقد وقعت أحداث طائفية ضد مسلمين زادت الاحتقان.

انفجر الصراع بين أحزاب الحركة الوطنية وقوى المقاومة الفلسطينية من جهة، والكتائب والأحرار والأحزاب المؤيّدة لهما، المعارضة أساساً للوجود الفلسطيني في لبنان. لقد خشيت الأحزاب اليمينية (الكتائب والأحرار) من تغيّر المعادلة اللبنانية وقيام المسلمين واليسار اللبناني باستخدام المقاومة لإحداث هذا التغيير.

هذه بداية تعرّفي على غابة البنادق في بيروت. فالحركة الفلسطينية مليئة بالتيارات على أنواعها، هناك في منطقة الجامعة العربية والطريق الجديدة والفاكهاني في بيروت، خلف مخيّمي صبرا وشاتيلا، مؤسسات تكاد تكون لدولة.

فخلية الحياة في تلك المنطقة امتلأت بآلاف الشبان والعاملين في أجهزة العمل الفدائي الفلسطيني، إذ فيها مكاتب متخصّصة في الإعلام، ومكاتب فتح التي تخصّصت في العمل داخل الأراضي المحتلة، ومكاتب للقضاء، وأخرى للأمن الداخلي والخارجي الفتحاوي، ومكاتب للطلبة وأنشطتهم، ومراكز للتخطيط وللبحث وللترجمة، وأخرى للشؤون الاقتصادية، وللصحف ومن أشهرها مجلة «فلسطين الثورة» الصادرة عن منظمة التحرير، وفيها أيضاً مكاتب للميليشيات وعشرات الأجهزة الأمنية.

وامتلأت المنطقة في الفاكهاني والطريق الجديدة حول الجامعة العربية أيضاً

بمكاتب للمنظمات الفلسطينية الأخرى، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين[١]، وللجبهة الشعبية علاقة قوية بالمعارضة في الكثير من الدول العربية، وخصوصاً في منطقة الخليج بما فيها تيار القوميين الكويتي بقيادة د. أحمد الخطيب.

أما الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين فكانت بقيادة نايف حواتمة الذي انشق عن الجبهة الشعبية وسار في طريق التحالف مع الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية[٢]. ووجدت في بيروت والجنوب أيضاً جبهة التحرير العربية، وهي منظمة فلسطينية متأثرة بالبعث في العراق وموجّهة من قبله. أما الصاعقة السورية فهي منظمة فلسطينية متأثرة بالبعث في سوريا وموجهة أيضاً من قبله. ولهذه المنظمة، كما هي حال جبهة التحرير العربية (المرتبطة بالعراق)، علاقة قوية بطبيعة الحال مع البعثيين في لبنان وفي الدول العربية. لم يكن لهاتين المنظمتين تأثير استراتيجي، ولكنهما تحوّلتا إلى جزء من توازنات حساسة على فتح وياسر عرفات التعامل معها بذكاء تفادياً للكثير من المشكلات مع كل من سوريا والعراق.

وهناك أيضاً منظمات صغيرة للغاية لا تتعدّى بضع مئات من الأفراد، مثل جبهة تحرير فلسطين التي يقودها أبو العباس، والجبهة الشعبية القيادة العامة - بقيادة أحمد جبريل المتأثر بالاتجاه البعثي السوري، إضافة إلى جبهة النضال الشعبي التي يقودها د. أبو غوشة. ومع ذلك مثّلت فتح العمود الفقري و٨٠٪ من الحالة الفلسطينية للعمل الفدائي.

ووُجدت في تلك المنطقة أحزاب الحركة الوطنية اللبنانية من حزبي البعث العراقي والسوري، والحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي، والقوميين السوريين والحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة كمال جنبلاط، والأحزاب الناصرية على ألوانها بقيادة إبراهيم قليلات وكمال شاتيلا، ومؤيّدي معروف سعد، وأحزاب لمعارضين عراقيين ولثوريين من إيران والبحرين، ومن تركيا وعُمان (ظفار) بل ومن

---

(١) بقيادة جورج حبش (أحد مؤسسي حركة القوميين العرب الذي أنشأ الجبهة الشعبية من أجل التحول إلى الممارسة المسلحة ضد إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧).

(٢) حواتمة من شرق الأردن، وخطّه السياسي قريب للغاية وشبه متّحد مع الخط السياسي لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان.

أميركا اللاتينية والعالم. كل المعارضات العربية، بما فيها المصرية، وجدت لها مكاناً في تلك المنطقة.

وعندما تسير في شوارع تلك المنطقة سترى جرحى يتعافون من جراحهم بسبب معارك مع إسرائيل، بينما يسير بعضهم على عكازات. سترى مناضلين قدامى مرّت عليهم السنوات الطوال وعلى وجوههم علامات بؤس لأنهم لم يصلوا إلى نتيجة في نضالهم أو علامات فخر تعكس زهواً كبيراً ببعض ما صنعوه من مواجهات مع إسرائيل. وستجد شباناً جدداً أتوا من الأراضي المحتلة والمخيّمات الفلسطينية المنتشرة في الأردن وسوريا ولبنان أو من الدول العربية ليتطوّعوا في العمل الفدائي لمحاربة إسرائيل. لقد بدت بيروت في ذلك الزمن كأنها مركز العالم.

وقد قام تنسيق بين المنظمات الفلسطينية والأحزاب اللبنانية وقيادة مشتركة مركزها بقيادة عرفات في شقّها الفلسطيني ومركزها الثاني في شقه اللبناني كمال جنبلاط، وهذا سيمهّد لإنشاء القوات المشتركة اللبنانية - الفلسطينية عندما تتعمّق حالة الصراع الأهلي في لبنان.

إن السلطة القائمة في الطريق الجديدة والفاكهاني والممتدة إلى جنوب لبنان أصبحت متنفساً لعالم عربي فقد الكثير من الحراك السياسي والفكري والإنساني. هناك عاش وحضر أدونيس المفكر العربي، ومظفر النواب الشاعر الثوري، ومحمود درويش الشاعر الفلسطيني، ونزار قباني وقبلهم غسان كنفاني الذي اغتيل عام ١٩٧٢ وعشرات الأدباء و المفكرين والكتاب الذين بدأوا فيها تجاربهم الإبداعية. كانت تلك بحق مدرسة الحرية الأهم في التفكير والتعبير في العالم العربي.

ولا يمكن عزل شارع الحمراء على الجهة الأخرى من بيروت الغربية عن هذا الوضع، إذ مثّل الشارع حتى لحظة اندلاع الحرب الأهلية العالم العربي كله. فيه اجتمع مثقّفو العرب، وحوله عاش الكثير من رؤساء الوزراء السابقين والمحكومين بالإعدام الهاربين من دول عربية شتى. وفي ذلك الشارع والمكان وصولاً إلى رأس بيروت وقع التعايش اللبناني المسيحي - الإسلامي، ووجدت عائلات مسلمة ومسيحية لبنانية لا تقبل بالطائفية وتميل إلى الثقافة والمثقفين وحتى تتزاوج في ما بينها. ليس غريباً أن بيروت المنفتحة هي نافذة فلسطين ومقاومتها على العالم. لن

يتوقع أحد أن هذا الشارع والتعايش المحيط به سيختفيان تحت ضربات العنف والحرب.

إن الانتقال من مكتب تابع لفتح إلى آخر في منطقة الطريق الجديدة (قرب مخيّمي صبرا وشاتيلا) من بيروت، بدا كأنه انتقال من تيار إلى آخر داخل فتح. وكقادم جديد عام ١٩٧٥ إلى هذه الأجواء، أصبحت محطّ تنافس بين تيارات عديدة في فتح سعت لاستقطابي إلى جانبها، على الأقل فكرياً. وهناك تيارات، وربما الأصح توجهات، لديها مراكز وقدرات مسلحة ولديها قيادات ورموز وكوادر تعمل في أجهزة حركة فتح وتحمل بطاقة حركة فتح وتتبع نظرياً القيادة نفسها.

وفي كل مكان أسمع قصة مختلفة عن التيار الآخر، وإذا بالمنافسة على أشدّها بين التيار الطلابي اليساري المؤيّد لفكر منير شفيق واليسار الرسمي المؤيّد لطروحات أبو صالح وأبو خالد العملة وأبو موسى. فالخلاف بين التيارين ضمن فتح مرتبط بنظرة كل تيار إلى الأوضاع الفلسطينية والعربية وأوضاع الحرب الأهلية على وجه التحديد، حيث مال التيار الشبابي الطلابي في فتح إلى عدم التورّط في الحرب الأهلية والبقاء خارج حلبتها نظراً إلى ما تمثّله من اقتتال. لقد نضج التيار الطلابي واتجه نحو الواقعية السياسية الممزوجة بإصرار كبير على ملاقاة إسرائيل في ساحة القتال، بينما التيار اليساري التقليدي في فتح مال أكثر إلى ضرورة دعم الحركة الوطنية وبرنامجها حتى لو عنى ذلك مواجهة مسلحة أهلية في لبنان.

وقد امتلك تيار الطلبة عدة أجهزة ومكاتب تعكس نشاطه في منطقة الجامعة العربية (الطريق الجديدة وحول منطقة الملعب البلدي قرب دوار الكولا). فهناك مثلاً مركز للاتحاد العام لطلبة فلسطين، وهناك مكاتب تابعة لأجهزة عرفت باسم: السادس، والثالث، والثاني والأول، نسبة إلى الطبقات التي وجدت فيها في أبنية مختلفة في تلك المنطقة. كل مكتب منها تخصّص في شأن من شؤون الأراضي المحتلة والعمل المسلح فيها أو العمل التنظيمي الطلابي ويقوده القياديون الناشطون في الحركة الطلابية المنبثقة من الجامعات في لبنان: من الجامعة العربية إلى الأميركية واللبنانية واليسوعية أو جامعات إقليمية أخرى.

هذا الاتجاه الطلابي نفسه سبق له أن قاد، قبل وصولي بعدة شهور، أكبر

إضراب طلابي في تاريخ الجامعة الأميركية في بيروت، حيث نتج منه فصل ١٠٤ طلاب وطالبات هم عماد تنظيم فتح وغيرهم في الجامعة. لهذا، مع وصولي تحوّل موضوع الطلبة المفصولين وأوضاعهم إلى قضية ساخنة.

استند التيار مع عام ١٩٧٥ إلى قاعدة طلابية واسعة. يمكن القول إن هذا التيار اليساري الطلابي ركّز على إمكان التحالف مع كل الأطراف، بما فيها الأنظمة المسمّاة رجعية أو عسكرية انقلابية من زاوية تكتيكية على الاقل، من أجل تحقيق تغيير في المعادلة العربية الإسرائيلية لمصلحة العرب. بدأ هذا التيار يفكر بعقلية براغماتية من أجل تحقيق مواجهة أنجح مع إسرائيل.

وأصبح هذا التيار أكثر قرباً في بعض الفترات من أبو جهاد القائد التاريخي الثاني بعد عرفات للحركة الوطنية الفلسطينية ولحركة فتح، وفي أحيان كثيرة تعمّقت علاقات التيار بتوازن بين عرفات وأبو جهاد، ولكنه ظل تياراً لديه الكثير من الاستقلالية والقدرة الذاتية ضمن حركة فتح.

وقد أدى الاختلاف على هذه الموضوعات العملية إلى انشقاق صغير في هذا التيار، إذ خرج ناجي علوش عن التيار انطلاقاً من تحفّظه على موضوع التضامن العربي وإمكان التحالف مع ما كان يعدّه أنظمة رجعية، بينما ظلت الأغلبية الطلابية مع الموقف الذي مثّله منير شفيق الأكثر براغماتية في طرحه والأكثر استعداداً لبناء تيار واسع مقاتل ضمن حركة فتح تكون مهمته ممارسة الكفاح المسلح ورفد حركة فتح بالقوة والروح القتالية والاصلاح، إذ انطلق التيار من أن الأولوية ليست للصراع مع الأنظمة بل للصراع مع إسرائيل، وأن التغيير في كل دولة عربية هو مهمة جماهير تلك الدولة.

الموت في سبيل القضية أصبح شعار الطلبة، وأقصد هنا الشهادة. ولهذا سوف يتحولون مع الوقت إلى ألدّ أعداء إسرائيل في المواجهات العسكرية في جنوب لبنان وفي أعمال المقاومة داخل الأراضي المحتلة في تلك المرحلة.

وبما أن الطلبة هم مجموعة من المثقفين، فمن الطبيعي أن تحرّكهم الأفكار والمبادئ. لهذا كان كتاب منير شفيق **الثورة الفلسطينية بين التناقض والممارسة** من

المؤثرات الفكرية على التيار، إذ رأى أن التناقض الرئيسي بالنسبة إلى العرب والفلسطينيين هو مع إسرائيل ويتلخص في إنجاز مهمات التحرر الوطني في فلسطين، بينما التناقضات الثانوية هي من شاكلة الصدامات الجانبية بين العرب، وتندرج فيها الاختلافات المذهبية والطائفية والقبلية بين أبناء الأمة بل والدولة الواحدة. وعندما يتحول (وفق منير شفيق) تناقض ثانوي إلى رئيسي، فإن ذلك يكون مؤقتاً كما سيقع في الحرب الأهلية اللبنانية، ويجب العمل بكل جهد من أجل عدم تحول التناقض الثانوي إلى رئيسي. ومع ذلك لم يخلُ فكر منير شفيق من اعتبار الأساس في مرحلة لاحقة هو التغير الأوسع في البلاد العربية وصولاً لتحرر شامل يمس كل الشعوب العربية.

وفي الوقت نفسه شكّل الفكر الماركسي من خلال تجربة الثورة والكفاح الصيني منبعاً للتشكيل الفكري لهذا التيار. فمنير شفيق وأخوه أبو خالد جورج من أوائل من تعمّقوا في فهم التجربة الصينية وبُعدها الشرقي الذي زاوج التقاليد القديمة للشعب الصيني مع الفكر الحديث ووسائله الكفاحية.

لم يؤيّد أنصار هذا التيار العمليات الانتحارية التي بدأت تسود الساحة الفلسطينية، والتي بدأت بعملية كبيرة نفذتها الجبهة الشعبية الديموقراطية عام ١٩٧٤، بل آمنوا بالعمل العسكري في مواجهة القدرات العسكرية الإسرائيلية والاستيطان في الضفة وحول القدس، وبضرورة تجنّب إيذاء المدنيين، حتى الإسرائيليين، قدر المستطاع، فاستهداف المدنيين يؤدي إلى شحن الطرف الآخر لضرب مدنيينا أيضاً بقسوة غير معهودة، كما يؤدي إلى شحن العالم ضد حقوقنا، ويسمح للعدو باستغلال الموقف لتنفيذ سياسات الطرد والاستيطان. كذلك فإن ضرب المدنيين يعزل الإسرائيليين ذوي النزعة الإنسانية والوسطية (استخدمنا في ذلك الوقت شعار: شق صفوف العدو) أينما كانوا ويحدّ من قدرتهم على التصدي لعنصرية الدولة.

ولكنّ منير شفيق فضل العمل الهادئ والإقناع والتفرغ للكتابة ومحاورة الآخرين في أطروحاته وجذب الأنصار للتيار الشبابي. لهذا كان من الطبيعي أن تبرز أدوار لأشخاص آخرين مثل سعد جرادات وحمدي وأبو حسن وعلي أبو طوق وأبو خالد

جورج وأم خالد ومعين الطاهر وأبو الراتب ومروان كيالي ومحمود العالول، إضافة إلى بروز مجموعات لبنانية قيادية تلتف حول التيار وتقوده مثل سمير الشيخ ونظير الأوبري وسعود المولى ورياض ورضوان وسامي في البقاع، ود. عصمت وأخيه داوود في شمال لبنان، وربيع في الجبل وأدهم وربحي ورمضان وحسام وآخرين في بيروت.

في ذلك الزمن المنفتح على الثقافات والحضارات وكل ما هو عقلاني وعلماني (والمقصود زمني وذو مرجعية عقلية) احتوى هذا التيار على من صاموا رمضان بحكم الخلفية الثقافية الإسلامية، واحتوى على من يصلّون خلف رجال دين إيماناً منهم بروحية الإسلام، واحتوى على ماركسيين وماويين شديدي الاقتناع بنظرياتهم، كما احتوى على مسيحيين ومسلمين شيعة وسنة ودروز.

وكما بدأ يتضّح لي أكثر فأكثر في تلك الأيام، فإن فتح لم تكن حزباً سياسياً مقفلاً كما هي النظرة من الخارج، بل هي حركة سياسية وجماهيرية عامة، فيها يمين ويسار ووسط، وفيها تيارات وطنية وقومية وأخرى يسارية وأخرى شيوعية وماوية ووطنية وبعضها أقلية صغيرة إسلامية النزعة. ونجد أن معظم هذه التيارات الفتحاوية تؤمن بتنوّع هذا التنظيم وتعبيره عن خصوصيات الوضع السياسي المقاوم لإسرائيل ومقدرته على الاحتفاظ بالإجماع على القضية الفلسطينية. والأهم أن فتح في ذلك الزمن امتلكت مشروعاً وطنياً جامعاً جوهره مقاومة إسرائيل وحماية روح الوجود العربي والدفاع عن الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.

جميع هذه الاتجاهات وجدت نفسها ممثلة بصورة أو بأخرى في هرم فتح القيادي وفي لجنتها المركزية وفي مجلسها الثوري، هكذا أصبح تيارنا الطلابي أقرب للتنظيم ضمن فتح. لم يمسك ياسر عرفات بكل خيوط فتح، وإن كان يمسك بأهم خيوطها ويمثل رمزها الأهم على الصعيد العام.

ففتح أساساً هي ردّ فعل على فشل التجربة الحزبية العربية الأولى في الخمسينيات، وتحولت بالتالي إلى تجربة قادرة على تصحيح نفسها والخروج من معارك كبرى بصورة أقوى، كما هو الأمر في الأعوام بين ١٩٦٥ حتى ١٩٨٢، بل

يمكن القول نسبياً إنها ستصمد في قيادة الوضع الفلسطيني حتى موت (أو اغتيال) رئيسها ومؤسّسها ياسر عرفات عام ٢٠٠٥.

لقد رأت جميع التيارات في قيادة عرفات إجماعاً لها، ولكنّ بعضها رأى ضرورة الإعداد لما بعد مرحلة عرفات بما في ذلك تنقيح التجربة الفتحاوية من أخطائها والإعداد الفكري والسياسي إن أمكن. لم يكن فكر الطلاب الطموح في أواسط السبعينيات بعيداً عن هذه الرؤية بما يعني الاستعداد لنضال طويل الأمد يمتد لسنوات تتجاوز أعمار القادة الأساسيين بمن فيهم ياسر عرفات.

في المقابل، عمّق عرفات علاقاته مع بعض التيارات ليضعف من يشعر بأنه يمثّل حالة خطر أكبر على قيادته. فهو قد أجاد لعبة التوازن بين تيارات مسلحة، فأيّ اقتتال داخلي ضمن حركة فتح سيعني تدمير الحركة الفلسطينية كلها. لهذا عمل أحياناً على إضعاف تيار الطلبة اليساري لشعوره بأنه قد ينتقص من قوته، إذ إن عرفات يتذكر أنه هو نفسه خرج من صفوف اتحاد طلبة فلسطين والعمل الطلابي.

وفي ظروف عديدة سيتضح أن نقاط قوة عرفات هي الأخرى تتحول إلى نقاط ضعف. مشكلة عرفات والكثير من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية هي أساساً في تقدير الموقف في ظل ظروف صعبة وقاهرة. فقد اعتقد عرفات قبل أحداث أيلول ١٩٧٠ بأن الثورة الفلسطينية في الأردن أكثر قوة ولكنها ضربت بسهولة، واعتقد بعد حرب ١٩٧٣ بأن حلاً سلمياً سيحصل، ولكنه لم يحصل، بل بدأت الحرب الأهلية اللبنانية، و اعتقد بأن إسرائيل لن تجرؤ على اجتياح مناطق محددة، فإذا بها تجتاح مناطق كاملة. لم تكن الحسابات السياسية الفلسطينية مدروسة تجاه الأعداء والأصدقاء، وهذا ما دفع الحركة الوطنية الفلسطينية إلى الوقوع في أخطاء حسابية رفعت ثمن صمودها وبقائها.

ومع ذلك، بكل وضوح، ظل عرفات بلا منازع رمز الوطنية الفلسطينية حتى لحظة رحيله. فبقدر ما ارتكب من أخطاء، حقّق للحركة الفلسطينية نجاحات في مرحلة تطويق وإبادة وملاحقة وتصفية أمام حركة صهيونية ساعية إلى تهويد الأرض وهزيمة العرب والفلسطينيين. لهذا يسجل لعرفات دوره في تثبيت الحقوق

الفلسطينية، ويسجّل له أيضاً مقدرته على «فلسطنة» الكثير من العرب وتعريب الكثير من الفلسطينيين في إطار هذا التوازن بين القضية العربية والقضية الفلسطينية. لكنّ الأهم هو أن تيار الشباب وتيار السرية الطلابية عاشا تجربة أكثر جذرية في بناء هذه المعادلة.

* * *

أذكر أننا سنقول في بداية مجيئي إلى بيروت عام ١٩٧٥: إن أهم ما ميّز القضية الفلسطينية أنها قضية عادلة. هذه العدالة هي الأساس الذي سمح للكثير من الأخطاء بأن تمر، وللكثير من سوء التقدير بأن يُغضّ النظر عنه، على الأقل من قبل أصدقاء ومحبّي القضية الفلسطينية في العالم وفي العالم العربي والإسلامي على وجه التحديد.

أراد عرفات أن يصل إلى دولة فلسطينية مستقلة، أصبح هذا هدفه. مثّل هذا الهدف المدماك الأساس للحركة الوطنية الفلسطينية بعد حرب ١٩٧٣. أما التيار الطلابي، فقد آمن بأن رفد حركة فتح يقوّي الحركة الفلسطينية وعدالة القضية الفلسطينية في مواجهة محاولات التصفية. اقتنع الطلاب بأن الحرب مع إسرائيل ستكون شرسة وطويلة، وأن الانسحاب الإسرائيلي لن يكون ممكناً في المدى المنظور وأن فكرة الدولة الفلسطينية في إطار التسوية غير ممكنة. لهذا تهيّأوا للحرب الطويلة ولم يغلبوا تناقضهم الثانوي حول التسوية مع القيادة الفلسطينية إلى تناقض رئيسي لمعرفتهم أن القادم هو المواجهة وليس التسوية.

بدايات السرية الطلابية ومؤسّسوها

في أيامي الأولى في بيروت، تعمّقت معرفتي باثنين من القياديين في ما كان يسمّى «القطاع الغربي» المسؤول عن المقاومة في الداخل تحت قيادة فتح. لكنهما في الوقت نفسه رمزان أساسيان للتيار الشبابي واليساري الطلابي والمجدّد في حركة فتح. الأول هو أبو حسن قاسم واسمه الحقيقي (محمد بحيص) وسبق أن التقيته أثناء قيادته العسكرية لمنطقة جامعة بيروت العربية، أثناء متاريس الطلاب عام ١٩٧٣. أبو حسن في أوائل الثلاثينيات من عمره، من قرية يطا قرب الخليل

المحتلة في الضفة الغربية، وهو الشخصية الثانية في ذلك التيار الذي طوّره الطلبة. قام أبو حسن بدور أساسي في النضال المسلح في الأراضي المحتلة منذ انضمامه للقطاع الغربي، لكنه أعطى من وقته للتيار الطلابي حيث بدأ نشاطه الأساسي في جامعة القاهرة في أواسط الستينيات.

امتلك أبو حسن قاسم ذو البنية المتوسطة، شخصية فريدة. تبدو ملامحه في أحيان كثيرة كبركان يكاد ينفجر، وله مزاج يخرج بقوة في مواقف حاسمة. لديه طاقة كبيرة تبدو محتبسة في جسده ووجهه، وحتى عندما يبتسم ويضحك .له ملامح صادقة وصلبة في آن معاً، لكنه لم يكن يجامل في الخطأ، وكان يمتلك قدرة كبيرة على نسج علاقات دائمة ودافئة مع الشبان جميعاً. أبو حسن قاسم قادر على اتخاذ القرار في أصعب المواقف والذهاب إلى أصعب الأماكن في ظل أسوأ الظروف.

عندما تعرّفت إليه لفت انتباهي أنه يفعل ما يقول، ويتذكر التزاماته ومواعيده بدقة، ويتقدم الجميع بفاعلية كبيرة. إن عمله في الأرض المحتلة يقوم أساساً على الدقة في كل شيء. أبو حسن قاسم رجل تنظيم ونظام، وهو قليل الحديث في النظريات ويرفض الادّعاء. ستكون طريقته في القيادة فريدة: يعمل من خلال النموذج بتفاؤل كبير، يناقش ويقنع، يهتم بكل الشبان. أما متعته ولسان حاله الدائم، فقهر الصعاب.

فإن احتاج الوضع إلى شقّ طريق عسكري بجرافة، قاد الجرافة بنفسه، وشقّ الطريق بنفسه وسط القصف، إلى أن يحقق هدفه. في إحدى المرات وقعت مشكلة مع تنظيم فلسطيني آخر أساء إلى أحد السكان في منطقة الفاكهاني، فذهب أبو حسن قاسم لعلاج الأمر، فاعتقله ذلك التنظيم من دون أن يعرف من هو وماذا يمثّل. لم يعرف أحد أين أبو حسن لعدة أيام، ولكنّ أبو حسن المعتقل لم يتوقف عن قذف من اعتقلوه وتحدّيهم بعناد إلى أن تيقّنوا من أنه سيكون من الخطر الاحتفاظ به، فأطلقوا سراحه.

عندما تلتقي أبو حسن قاسم، لا بد أن تلتقي شخصية أخرى أصبحت مع الوقت الرمز الثاني لهذا التيار في القطاع الغربي: حمدي، واسمه الحقيقي باسم

سلطان التميمي، وهو من الخليل المحتلة ومن مواليد ١٩٥٢ أي إن عمره في ذلك الوقت لم يتجاوز الثانية والعشرين. وحمدي كادر أساسي في فتح يعمل في مهمات تنظيم المقاومة في الأرض المحتلة وتنشيطها، وبين أبو حسن وحمدي توأمة روحية وتنظيمية قلّما وُجدت بين اثنين.

حمدي طاقة أخطبوطية، ينطق مئة كلمة في الثانية، وتتحرك عيناه ورجلاه وكل جسده وهو يعبّر عن نفسه. وإن ضحك حمدي امتدت ضحكته عالياً لتملأ غرف المنزل وشرفاته كلها.

وفي هدوئه، يمتلك نظرة نسر اختصاصه التحليق، يسكت قليلاً أثناء الحديث فتشعر بأنه حلّق في مكان بعيد، بينما يتوقف عن الاستماع قبل أن يعود إليك بفكرة وربما بشيء يضحكك بلا انقطاع. طويل، ممشوق، نحيل، يحرك معه كل من يحيط به. يتمتع حمدي بذكاء فطري وقدرة على الارتجال والحديث العفوي. في الإصابة لا تسمع له صوتاً، كما حصل معه بعد إصابات شبه قاتلة، في واحدة من مواجهات بيروت الغربية مع الكتائب والأحرار.

وفي أسوأ الظروف لا تغادر حمدي الحيلة والتفاؤل والمقدرة والنكتة. في إحدى المرات اعتقلته الاستخبارات السورية، فلم تترك وسيلة تحقيق وتعذيب إلا جرّبتها معه. ولكن الاستخبارات تركت حمدي في النهاية: إنه مثل أبو حسن قاسم محترف في التحمّل وعدم البوح بما يمتلك من فطرة وعلم كبيرين. ليس غريباً أنه أكثر من ضايق الإسرائيليين بخططه، على الإطلاق، وأنهم لاحقوه في كل مكان.

ولحمدي تاريخ في العمل الكفاحي الفلسطيني، إذ اعتقل في الأرض المحتلة في الخليل، متهماً بتنفيذ عملية عسكرية ضد إسرائيل. لم يكن حينها يتجاوز عمره ١٥ عاماً. وبرغم حدة التحقيق وظروف التعذيب، لم يقل حمدي كلمة عمّا قام به. خرج من السجن وهو يعلم أن إسرائيل ستكتشف ما قام به وستعيده إلى السجن، لهذا هرب سيراً على الأقدام إلى الأردن. منذ ذلك الوقت وحمدي يعمل مع المقاومة في الأردن قبل أن ينتقل إلى لبنان في القطاع الغربي التابع لحركة فتح، وهو القطاع المسؤول عن المقاومة في الأراضي المحتلة.

وحمدي قارئ نهم مثله في هذا مثل أبو حسن قاسم، كلاهما يحرص على تطوير نفسه. حمدي شخصية تنفيذية من الطراز الأول ويمتلك فطنة في اختراق دفاعات الطرف الآخر وتسجيل نقاط وتحقيق أهداف. فإن كان أبو حسن قلب الدفاع ويمتلك قدرات استراتيجية، فحمدي قلب الهجوم والمباغتة والإبداع والخفة في الحركة.

لم تكن الأراضي المحتلة في ذلك الوقت قادرة على بناء شبكات سياسية منظمة، فالعمليات العسكرية والتفجيرات تنتهي في كثير من الأحيان باعتقال المنفذين وسجنهم أو قتلهم. أما حمدي وأبو حسن فنظريتهما في العمل المقاوم تقول بإمكان بناء تنظيم في الداخل قادر على العمل باستقلالية، وقادر على الاختفاء والتواري بعد تنفيذ العمليات وسط المجتمع.

لقد حلم كلّ منهما في أواسط السبعينيات بحدث كبير في الضفة الغربية: انتفاضة كبيرة وجماعات مسلحة في الجبال وأخرى مختبئة في الأحياء المكتظة بالسكان. إن رؤية أبو حسن قاسم وحمدي التي شرحاها لي عام ١٩٧٥، هي الرؤية التي ستتحقق في أواخر الثمانينيات عبر الانتفاضة. بدا حديثهما لي في ذلك الوقت ضرباً من الخيال.

يتنقل كلّ من أبو حسن وحمدي بأوراق مزوّرة، بين الأردن وسوريا ولبنان ودول عربية أخرى، فهذه وسيلتهما للتواصل وبناء الخلايا في المناطق المحتلة. وقد خضع كلّ من عمل معهما للكثير من الانضباط والتوجيه السياسي والسرية، قلما يعرف أحد أين ينام حمدي وأبو حسن قاسم، فهما في حركة دائمة.

لكن ما يهمنا أن حمدي وأبو حسن، إضافة إلى عملهما في الأراضي المحتلة، كانا من الأساسيين في هذا التشكيل الجديد، ذي المنحى القتالي والمنحى اليساري الطلابي ضمن حركة فتح. عندما تحاورت طويلاً مع أبو حسن وحمدي، أصرّا على أهمية عدم انحراف البندقية المقاتلة عن قتال إسرائيل. فكلاهما عارض بشدة التورّط في حرب لبنان الأهلية، وكلاهما أراد إيجاد معادلة لحماية الأصدقاء والحلفاء من أهل لبنان.

لكنّ الحرب الأهلية، كما سيتضح في سياق هذا الكتاب، ستفرض نفسها مع

الوقت، وستجرّ كل من عارضها كأنها ممر إجباري، قبل أن ينجح العمل الفدائي الفلسطيني في الانسحاب منها لمواجهة إسرائيل في الجنوب.

سعد (عبد القادر جرادات)

عندما التقيت سعد (عبد القادر جرادات) في ذلك الربيع المتفجر في لبنان كان في أواخر العشرينات من عمره. سعد من قرية سعير المحتلة قرب الخليل في الضفة الغربية. لقائي الأول بسعد حصل في معسكر مصياف أثناء التدريب، وهو يمثّل شخصية أساسية في التيار الطلابي توازي قدراته قدرات كل من حمدي وأبو حسن.

لسعد بنية متوسطة ويغطي وجهه شارب صغير، قسمات وجهه صلبة وعيناه غائرتان. يتكلم سعد ببطء نسبة لحمدي، لكنه واضح في كل كلمة يقولها. مقتضب في كلامه وصانع أعمال وإنجازات. ويمتلك سعد شخصية فولاذية منضبطة وحاسمة لكنها هادئة ومتروية في الوقت نفسه. تبدو جدية سعد من مظهره العام.

عمل سعد في الأردن مدرساً، وأدّى دوراً قيادياً في تنظيم فتح. أكمل دراسته الجامعية في لبنان في جامعة بيروت العربية التي وصلها عام ١٩٧٣ بعد أن مارس نشاطاً مع فتح من سوريا. وقد فضّل أن يبقى في الجامعة ويؤخّر تخرّجه لمصلحة العمل السياسي الطلابي، وخاصة أنه نائب رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين على الصعيد العربي والعالمي. لكنه كان يمارس صلاحيات الرئيس نظراً لطبيعة التفاهم بينه وبين رئيس الاتحاد النعماني، الملقب بـ«العقيد». سيكون سعد أول قائد للسرية الطلابية، وهي التشكيل العسكري لهذا التيار الطلابي ولتنظيم فتح الطلابي، بل ستتناسب «السرية الطلابية» مع قدرات سعد وخبرته العسكرية.

تكررت اللقاءات بيني وبين سعد منذ أواسط عام ١٩٧٥. وهو الآخر مؤمن بضرورة إصلاح الحركة الفلسطينية على ألا تتحول معركة المعارضة في فتح إلى معركة تفتّت وانقسام، لهذا آمن بضرورة الاستبسال لتوجيه كل البنادق ضد إسرائيل لا ضد بعضنا البعض.

وفي أمسية طال فيها النقاش بيني وبينه قال: «الكثير من شبّاننا ضعفاء في القدرات القيادية، خجولون في التعبير عن أنفسهم. هناك نظام عام في بلادنا يرسّخ

الخنوع، وقلة العمل، وعدم تقدير الوقت والعمل الجماعي. هناك ذاتية وتضخيم للغرور السطحي، والتعالي على الآخرين والجهوية والعشائرية، وغيرها من الأمراض التي نعاني منها بسبب السيطرة الخارجية وبسبب طبيعة الأنظمة في بلادنا».

وأردف: «الحركة الصهيونية تبذل جهوداً كبيرة في تجهيز مقاتليها وقيادييها، وهي في كل الأحوال تجد كوادر وقادة جاهزين في الوقت نفسه، أما نحن فيجب أن نعاني ونتعب لنخلق قادة حقيقيين متفانين».

فأبادر سائلاً صديقي سعد: «لكن ما هو موقفك من الحرب الأهلية هنا؟».

فيردّ سعد على سؤالي:

«يجب دعم الحركة الوطنية اللبنانية يا أخي يا شفيق. لكنّ المساعدة يجب أن تكون بهدف إيقاف الحرب الأهلية لكي لا يتحول هذا الوضع إلى كارثة على الشعبين اللبناني والفلسطيني. يجب ألا نطبق شعار عزل حزب الكتائب وتجريده من السلاح، لأن المسيحيين يفسّرونه عزلاً لهم في المعادلة اللبنانية. لقد كنت في الحرب في الأردن وأعرف مخاطر الحروب الأهلية. يجب أن يكون هدفنا إيقاف هجوم الكتائب والأحرار واليمين على المسلمين والمقاومة من جهة، والاستعداد لحل وسط مع الكتائب والأحرار واليمين اللبناني من جهة أخرى. فالمعركة الأساسية ليست مع الكتائب بل مع إسرائيل».

ثم يكمل قائلاً: «تألّفت فتح والعمل الفدائي الفلسطيني من مسيحيين ومن مسلمين، من لبنانيين ومن فلسطينيين ومن عراقيين ومصريين ويمنيين وأردنيين وخليجيين وعرب، ومن دروز وسنّة وشيعة وموارنة وروم وأرمن، في إطار مشروع جامع مقاوم وإنساني في الوقت نفسه. اللاطائفية هي أساس فتح التي ننضوي تحت لوائها، وهي الأساس الأهم للحركة الطلابية الفتحاوية التي نمثلها».

تعاطف عرفات مع هذا التوجه السياسي المرن في التعاطي مع الحرب الأهلية اللبنانية أثناء سعيه إلى تسوية. وتشهد مراحل تلك الحرب الأساسية على رفض عرفات حجج الكثير من التيارات التي رأت أن الفرصة سانحة لهزيمة الكتائب وما كان يطلق عليه الخط الانعزالي. لكنّ تفاعلات الحرب ستخرج الأمور والأوضاع عن السيطرة.

علي أبو طوق

في تلك الفترة الأولى في النصف الثاني من أبريل، تعمّقت معرفتي بعلي أبو طوق في منزل شمس. يمتلك علي قسمات بريئة، ويبدو من شكله أنه لم يتجاوز الـ١٧ من العمر، وهو في الحقيقة في الثالثة والعشرين. وفي شخصية علي مسحة من الخجل. وفي معظم الوقت سيخفي علي قسمات وجهه الطفولي وراء لحية سوداء تعطيه بعض القساوة التي لا يستطيع تصنعها. فعلي أبو طوق لولب عمل، لا يثير وجوده ضغطاً على أحد. فهو خفيف الحركة، دون المتوسط بقليل في حجمه، صامت في أسلوبه وهدوء صوته في معظم الوقت.

في تلك الفترة قاد علي ومعه سعود المولى التنظيم الطلابي لفتح في المدارس الثانوية. كان ذلك التنظيم مكوّناً من المئات من اللبنانيين والفلسطينيين في طول لبنان وعرضه، وفي المخيمات وخارجها. ومن غرائب الصدف أنّ أنيس النقاش، الطالب الجامعي، هو الذي تحمّل مسؤولية التنظيم الطلابي لفتح في الثانويات تحديداً قبلهما، وعندما كنا في معسكر مصياف قبل أكثر من عام.

ولعلي أبو طوق قدرة كبيرة وخطيرة على تحريك عشرات الناس معه في كل عمل يريد إنجازه. إنه محبوب من كل الشبان والشابات، بل إن العمل مع علي والبقاء حوله مطلب كل الفتيات والشبان بلا استثناء. لا يمانع علي لو أعلن كلّ من حوله مسؤوليتهم الكاملة عن كل ما قام به، فهو في المقدمة أثناء العمل، وفي المؤخرة أثناء التحدث عن العمل بعد إنجازه. هذا النكران للذات وجدته على أعلى المستويات عند حمدي وأبو حسن وسعد، لكنه يصل إلى حدّ القداسة والتقديس عند علي أبو طوق. سيكون علي في يوم من الأيام أسطورة على كل لسان.

لو كان علي أبو طوق في ثورة أخرى، في ظل ظروف مختلفة، لكان في مكانة غيفارا وقدسيته. امتلك إشعاعاً فيه من الخلود وصفو النفس وجمالها، ما يصعب وصفه. فهو لا يغضب من أحد، ولا يحمل في صدره ضيقاً من أحد. كتب الروائي اللبناني الياس خوري رواية بعنوان «مملكة الغرباء» كان علي أبو طوق محورها، فخوري عرف علي في تلك الأزمان ولازم فعاليته وقدراته وأفرد له مكاناً في أكثر من رواية.

علي من مواليد عام ١٩٥٠ خارج فلسطين، هجّرت عائلته من حيفا في فلسطين، وقد درس في المدرسة نفسها مع صديق عمره معين الطاهر في إربد في الأردن قبل حرب ١٩٦٧، وتشارك معه الشقة نفسها أثناء الدراسة الجامعية في بيروت. انضم إلى فتح مع معين وهما في المدرسة الثانوية في الفترة نفسها بعد حرب ١٩٦٧، فقد آمنا بأن فتح قادرة على إحداث نقلة نوعية في العمل الميداني، لتحقيق تحرير الأرض. وانتقل كلاهما إلى لبنان للدراسة في الجامعة: علي في الجامعة اللبنانية ومعين الطاهر في جامعة بيروت العربية حيث يقود التنظيم الطلابي. يستمع علي أكثر مما يتحدث، وعندما يتحدث يسعى لتحقيق هدف أو دعوتك لتساعده في أمر يقوم به.

وفي تلك الشقة (شقة شمس) وجدت نفسي في بعض الأيام وحيداً أقرأ بعض الكتب، كان الباب يقرع بدل المرة خمس مرات وعشر مرات. وفي كل مرة أفتح الباب، أجد إحدى فتيات التنظيم أمامي. أرحّب بهن، لكنّ سؤالهن واحد: «علي موجود؟» لهذا عندما يأتي علي أقول له «يا علي لم تبق فتاة تعمل في التنظيم إلا سألت عنك». فيقفز شمس وطلاب آخرون مؤكدين ذلك بقوة. كان يبتسم بهدوء محتجّاً، ويهزّ رأسه ثم يذهب من دون تعليق.

شباب التيار والسرية المتدفق

لقد اجتمع هذا الكمّ من الشبان في التيار. لكنّ الشبان الأكبر سناً مثل أبو حسن قاسم (محمد بحيص) وسعد (عبد القادر جرادات) وأبو خالد جورج (جورج عسل) وفي الوقت نفسه منير شفيق، امتلكوا وعياً لأخطاء الحركة الوطنية الفلسطينية في الأردن. لهذا صمّموا في أعمالهم الجديدة على أن يتجاوزوا تلك الأخطاء، من خلال سياسة مختلفة تجاه التحالفات، وتجاه القوى الوطنية المحلية، وتجاه تفادي التورّط في الحرب الأهلية وتجاه احترام الناس ورغباتهم واحتياجاتهم. رأوا أن حركة فتح طاقة كبيرة توفّر موقعاً وفرصة للعمل السياسي والكفاحي. لهذا نقل هؤلاء لعلي ولحمدي ولمعين ولعشرات من الشبان الذين أسسوا السرية الطلابية في ما بعد تجاربهم بانفتاح كبير.

لكن في الوقت نفسه، هناك أغلبية ضمن التيار الطلابي رأت بوضوح أن القيادة التي يمثلها ياسر عرفات تمثّل حضوراً وطنياً كبيراً، ولكنها في الوقت نفسه تحمل قصوراً في التكتيك والتنظيم، وفي الإدارة والتربية السياسية، وأنها في هذا تخلق فوضى في العمل وقصوراً في الممارسة، وتضع شخصيات شديدة الذاتية غير منتجة في مواقع حساسة. لهذا انضم جزء كبير من الشبان إلى هذا التيار من منطلق أهمية تعويض هذا الخلل والسعي للإصلاح.

لقد استمر تعرّفي إلى الكثير من الشبان الحالمين بتحرير الأرض وإحقاق واقع عربي جديد من خلال التصدي لإسرائيل واحتلالها. أحد هؤلاء كان عادل عبد المهدي، واسمه الحركي أبو أمل من العراق. وهو الآخر مفكّر يساري متميّز، لديه أحلامه في التغيير العربي، من خلال نصرة القضية الفلسطينية. أبو أمل امتلك قدرات ثقافية متميزة، وقدرات على التحليل والتنظير. فمجرد الاستماع إليه، أفادنا وأغنى تجاربنا. لكنّ أبو أمل (عادل عبد المهدي) سيغادر، باحثاً عن حلم التغيير في العراق.

وتعرّفت إلى عشرات الشبان، منهم ربيع من جبل لبنان، ومصباح ونديم وعبدو ورضوان وسامي من البقاع من مؤسسي السرية (كان يغدق علينا سامي من العسل الذي ينتجه في مزرعته من حين لآخر). والتقيت أيضاً من المثقفين المؤثرين في التيار مثل ميشيل (أبو زياد) وأبو وسام وأم وسام. انضوى هذا الكم من الشبان والشابات من خلفيات مختلفة في مشروع اعتبروه مقدمة للتغيير العربي الأوسع، مدخلهم إلى هذا المشروع المواجهة مع العدو الاستيطاني الذي يحتل فلسطين ويحتل أراضي عربية.

والتقيت من خلال عدة لقاءات قيّمة بالقيادي في التيار أبو محمود (هلال رسلان). وأبو محمود شخصية سورية فريدة من جبل العرب (الدروز)، أدّت دوراً أساسياً في تأسيس تيارنا، وجلب قواعد لا بأس بها من مناطق الشوف وجبل لبنان وسوريا لدعم التيار. أبو محمود عمل في أوائل الستينيات محافظاً لمدينة حلب، وهو سفير سابق لسوريا في الصين. غادر سوريا إلى لبنان كما غادرها الكثير من السياسيين السوريين من كثرة الانقلابات فيها وخاصة بعد انقلاب حافظ الأسد عام

١٩٧٠، ولكن هلال رسلان هو الآخر مرّ بتجارب العرب، مرحلة وراء أخرى، ونضجت معها تجربته السياسية بمصاعبها وأخطائها. بحث رسلان عن حلمه في التغيير العربي الأوسع وفي بلده سوريا، فوجد في القضية الفلسطينية والسعي إلى نصرتها مدخلاً إلى الأمل.

سيصنع رسلان مع منير شفيق توأمة فكرية وإنسانية. وقد أنشأ هلال رسلان في الجبل في لبنان، في الوسط الدرزي، تجمعاً أطلق عليه اسم اللجان الوطنية، هدفه الأساسي دعم المقاومة. لكن الوقت لم يكن إلى جانبه، فقد أصيب بالسرطان. أذكر زيارته لفترات متقطعة، وأحاديثه الشجاعة عن الموت عام ١٩٧٦، ودرجة التقبّل والسلام التي ميّزت شخصيته الهادئة والسلسة. هو أول من عرفني إلى الشاي الأخضر الذي التزم شربه منذ عمله سفيراً لسوريا في الصين.

وفي هذه الفترة التقيت أيضاً الدكتور عصمت مراد المتخرّج الجديد والطبيب الآتي من فرنسا. د. عصمت أسّس الشبيبة الوطنية في الشمال، التي هي الأخرى مكوّنة من مجموعات طلابية ذات بعد يساري تؤمن بالتغيير، ستنضم هذه المجموعات في ما بعد، إلى الجهد التأسيسي للسرية الطلابية، أسوة بمجموعات أخرى هنا وهناك، وسيشكلون مع الوقت الأساس الجماعي للسرية الطلابية التي سيعرف اسمها أيضاً في مرحلة لاحقة «بكتيبة الجرمق» وذلك عندما ترابط الكتيبة على التلال المطلة على فلسطين المحتلة وتخوض معارك بطولية لسنوات طوال النصف الثاني للسبعينيات إلى أوائل الثمانينيات من القرن العشرين.

الفصل السادس

في فتح لاند ١٩٧٥

مع الأيام الأولى للحرب الأهلية بعد منتصف أبريل/ نيسان ١٩٧٥، اختلفت التوقعات بين التهدئة والاستمرار، وقد اتُّفق على وقف إطلاق النار أكثر من مرة بين الفرقاء. لكنّ القتال استمر وسط مزيد من التعبئة.

قلت لنفسي: «لم آت للمشاركة في حرب أهلية». بدأت أبحث عن مكان خارج هذه الأجواء يعكس ما جئت من أجله. فذهبت إلى صديقي د. نبيل شعث رئيس مركز التخطيط. قال: «يجب ألا ننجرّ إلى هذه الحرب وألا نفقد البوصلة في مواجهة إسرائيل».

سألته: «لكن ماذا أفعل في هذه الأوضاع، هل أنا في المكان الخطأ والزمن الخطأ؟».

ردّ عليّ: «لنناقش الأمر مع د. محجوب عمر. محجوب معنا في مركز التخطيط يقدّم مشورة متميزة خاصة لأبو عمار وأبو جهاد، ولكنه لا ينقطع عن الجنوب ويقضي أوقاتاً طويلة في مخيم تل الزعتر».

دخلنا على د. محجوب عمر (رؤوف نظمي ميخائيل عبد الملك) بينما تسمع أصوات الانفجارات في بيروت. محجوب طبيب لكنه في الوقت نفسه المناضل المعارض والشيوعي المصري الذي سجن لعشر سنوات في السجون المصرية، وتعرّض للتعذيب في زمن الناصرية في أواخر الخمسينيات.

محجوب من مواليد ثلاثينيات القرن العشرين. انضم إلى العمل الفدائي في إطار ردّ فعله على هزيمة ١٩٦٧ وإيمانه بأن مدخل التغيير السياسي في العالم

العربي وفي مصر مرتبط بالتصدي لإسرائيل واستكمال التحرّر الوطني. بدأ محجوب طبيباً مقاتلاً في فتح في قواعد العمل الفدائي في أغوار الأردن بعد حرب ١٩٦٧. أصرّ دائماً انطلاقاً من عروبته: «يجب التركيز على إبراز الوجه الفلسطيني للقضية، وإلا نجحت إسرائيل في قضم واحتلال كل ما يملكه الشعب الفلسطيني من أراض وحقوق»[١].

يمتلك محجوب تأثيراً على الكثير من قادة العمل الفدائي في فتح، ويؤمن بفرضية أن كل من هو وراء الحدود اللبنانية والأردنية والسورية في إسرائيل من الإسرائيليين اليهود هو عدوّ يمكن مهاجمته، لأنه اغتصب أرضاً ليست له. أصبحت أفكار محجوب عمر موضع انتقاد بين أوساط عديدة في اليسار الفلسطيني والعربي. فكيف نتعامل مع أجيال يهودية تتوالد على الأرض الفلسطينية انطلاقاً من أهمية التمييز بين الجيش الإسرائيلي والمواطن الإسرائيلي، وبين الإسرائيلي الذي يستوطن في أراضي ١٩٦٧ والإسرائيلي الذي يرفض هذا الاستيطان في تلك الأراضي؟

ومحجوب ضعيف البنية كما يبدو لمن يلاقيه أول مرة، لديه، كالكثير من المصريين، حسّ الفكاهة في كل جملة ينطق بها، وهو يسحر محدثه ويسحب منه المقدرة على مجادلته، وفوق كل هذا، يمتلك طاقة لا تنضب في الحديث التحليلي.

إنه من القلائل الذين في إمكانهم أن يقولوا أكثر الأفكار غرابة وجدية وربما بأكثر الطرق سلاسة ورشاقة مصحوبة بابتسامة لا تغادر روحه. بعد أن تركنا نبيل شعث وحدنا قال: «نحن يا شفيق في غابة بنادق (ويقصد الفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية)، ومع ذلك لم نتقاتل في ما بيننا. لهذا، فالحوار بيننا هو في كيفية إبقاء البندقية مصوّبة تجاه إسرائيل». ثم قدم لي كتابه **حوار في ظل البنادق**.

وأردف محجوب: «سآخذك إلى مكان في أقصى جنوب لبنان، على حدود فلسطين عند سفوح جبل الشيخ. سوف تخضع هناك لتدريب قاس، وستختبر صخب المواجهة مع إسرائيل».

ثم أردف قائلاً: «عليك أن تختار اسماً حركياً، وذلك لكي لا يعرف أحد

---

(١) انظر محجوب عمر، **كتابات** (الجزء الأول)، الدار العربية للعلوم، ط.٢ ٢٠٠٩، ص ١١٦.

اسمك الحقيقي، ولتستطيع المحافظة على هويتك الخاصة من الأجهزة الأمنية والجواسيس وغيرهم».

قلت له بينما عيناي تلمعان «متى نتحرك؟؟».

أردف محجوب: «غداً. كن هنا في الثامنة صباحاً، يلزمنا حوالى ساعتين ونصف للوصول إلى سفوح جبل الشيخ».

إلى الجنوب مع محجوب عمر

تحركنا في صباح اليوم التالي المصادف في أواخر شهر أبريل/نيسان ١٩٧٥، ركبنا السيارة في منطقة جامعة بيروت العربية، وانطلقنا. سألني محجوب: «هل اخترت اسماً حركياً؟» قلت «نعم لقد اخترت اسم جهاد».

أثناء الطريق إلى الجنوب، مررنا بمناطق مسيحية في بيروت (الأشرفية وسن الفيل)، ولكن محجوب عمر ضحك من كثرة ما نظر الناس إلينا. فالسيارة قديمة نسبياً، ومحجوب حنطي اللون مائل إلى السمرة، ما يجعله في أعين سكان المنطقة التي نمر بها غريباً. في تلك الفترة الأولى من الحرب الأهلية، بدأ سكان تلك المناطق يشعرون بالخوف والقلق من كل غريب في مناطقهم. أما محجوب فقد عبّر عن سعادته بهذه الغرابة، لأنه يحب الاختلاف والتحدي، وخاصة إذا برز جرّاء تعصّب لدى الآخرين.

إن مجرد مرورنا بتلك المنطقة قد يعرّضنا بسهولة لحادث أو توقيف أو اعتقال أو خطف. كان يوماً هادئاً، ولكنّ لبنان سيشهد أياماً عصيبة في المرحلة المقبلة، أسبوع قتال وأسبوع هدوء، يوم مجازر ويوم حزن.

اخترقت السيارة الجبال والسفوح، مروراً بذلك الجمال الطبيعي الذي يميّز لبنان من أقصاه إلى أقصاه، وعبرنا شرقاً إلى أن شاهدنا من سهل البقاع سفوح جبل الشيخ. إنه جبل شامخ تكسوه الثلوج ويطل علينا من كل مكان.

قال لي محجوب: «ستكون جزءاً من كتيبة نسور العرقوب المعروفة بتراثها القتالي وجرأتها. جبل الشيخ يطلّ على فلسطين وتحتل أجزاءً منه إسرائيل، وهو امتداد طبيعي لهضبة الجولان السورية».

بلعت ريقي، برغم اندفاعي، وأنا أفكر كيف ستكون الحياة هناك؟

قال محجوب: «العرقوب اسم لمنطقة في الجنوب اشتهرت بالمعارك بين الفدائيين وإسرائيل وتسمّيها إسرائيل «فتح لاند» (أرض فتح)، وهي المنطقة التي أقرّتها الدولة اللبنانية منطقة مفتوحة للعمل الفدائي في اتفاق القاهرة لعام ١٩٦٩. وقد حصل ذلك الاتفاق بعد مواجهات بين فتح والجيش اللبناني».

استمر محجوب بالكلام «نسور العرقوب كتيبة مقاتلة في قوات العاصفة التابعة لفتح، ولهذه الكتيبة دور في عشرات العمليات العسكرية ضد قوات إسرائيل، وهي أيضاً أدّت دوراً في حرب ١٩٧٣ إلى جانب الجيشين السوري والمصري، وتوفّر من مواقعها الحالية حماية لميمنة الجيش السوري. وللكتيبة فصيل مسلح دائم على الحدود مع فلسطين المحتلة في كفرحمام وكفرشوبا».

استمرت السيارة تعبر طرقاً متعرجة وصولاً إلى بلدة راشيا الوادي ذات الطابع الدرزي. تجاوزنا البلدة، لنجد أنفسنا في منطقة واسعة وأمامنا يقف بشموخ جبل الشيخ الكبير. بادرني محجوب قائلاً:

«ستتعرف الآن بعد أن نتجاوز هذه التعرجات الجبلية إلى قائد الكتيبة: نعيم» (عبد الحميد وشاح).

واستمر محجوب متحدثاً: «نعيم من خلفية بسيطة للغاية، عمل في طفولته راعياً للغنم في فلسطين، ولم يدخل مدرسة، لقد تخرّج نعيم من مدرسة الثورة الفلسطينية والنضال. وهو مع فتح منذ انطلاقتها عام ١٩٦٥ ويتمتع بشخصية متميزة، وهو مقاتل فذ، محبوب لدى كل الفدائيين لجرأته وعدله وأخلاقه العالية».

وتابع قائلاً: «ولهذا انتخبت قاعدة فتح نعيم عضواً للمجلس الثوري أثناء المؤتمر العام للحركة. هذا المجلس الثوري هو السلطة الثانية بعد اللجنة المركزية للحركة».

ثم أضاف محجوب: «وبالطبع لن تشعر يا جهاد (وهو الآن سوف يناديني دائماً بهذا الاسم) بأن نعيم لا يقرأ ولا يكتب إلا بحدود، وهو يتعب على نفسه لأنه يجعل أصدقاءه يقرأون له، ولأنه مستمع جيد. ونعيم من القلائل الذين يتحدثون مع أبو عمار بندية واضحة، فهو من القادة العسكريين في فتح الذين رفضوا حلّ

الدولتين وأصر على شعار الدولة الديموقراطية التي يتعايش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون في كل فلسطين. ورغم الاختلاف يحترم أبو عمار نعيم ويحبه كثيراً».

في نسور العرقوب

وصلنا إلى مركز قيادة الكتيبة. كان نعيم يقوم بجولة على القواعد الفدائية التابعة لكتيبته، والممتدة لعدة أميال. فهو يحب أن يقوم بجولته هذه سيراً على الأقدام في منطقة تمتد على الأراضي الوعرة والتلال عند سفوح جبل الشيخ. إنه يفضّل السير على قدميه على أن يقع ضحية غارة مفاجئة ومباغتة للطائرات الإسرائيلية.

ولكن ما فاجأني هو حشد الشبان والمقاتلين والضباط الذين رحّبوا بمحجوب وكأنه مقاتل في الكتيبة. حينها عرفت أن محجوب أمضى أكثر من عام في قواعد نسور العرقوب يسهم في برنامج إعادة تدريبها وتأهيلها بعد معارك طاحنة شاركت فيها الكتيبة في حرب ١٩٧٣. إن كتابه **حوار في ظل البنادق** جاء من هذه التجارب الغنية مع المقاتلين.

لم يمض على دخولنا مركز القيادة سوى عشر دقائق حتى دخل نعيم المقر. رجل متوسط القامة، ملامح وجهه قاسية للغاية، لفحتها حدة التعرض للشمس، ممزوجة بشخصية أبوية واضحة وملامح عربية ترتسم في كل تعابير وجهه. نعيم الذي جاء وحده بلا حراسات عابراً للمسافات بين التلال قوي البنية، في أوائل الأربعينات من عمره. وما إن بدأ بالحديث مرحّباً بنا بلطفه المتناهي، حتى ذابت سريعاً تلك القسوة التي تميّز وجهه.

قال له محجوب: «أتيت إليك بجهاد الذي تخرّج منذ أيام في الولايات المتحدة، ولا يريد البقاء في مكتب في بيروت أو حياة هانئة في مكان آخر». قال محجوب هذه الجملة مع ابتسامة تميزه فيها من الغمز أكثر من الابتسام، شعرت بأن محجوب لم يتوقع مني أن أنجح في اجتياز امتحان مصاعب هذه الحياة. وبالطبع سررت فهذه أول مرة أسمع أحداً يناديني باسمي الجديد «جهاد» وكأنني مستعجل للتخلص من شفيق لصالح جهاد.

***

قال نعيم مرحّباً: «سنعتني به. سألحقه بسرية متميزة في الكتيبة ولديها قائد له تاريخ طويل في العمل الفدائي».

ثم سأل نعيم: «كيف هو الوضع في بيروت؟».

محجوب: «يتحول من سيّئ إلى أسوأ، وشبح الطائفية يكاد يقضي على الكثير من المبادئ بين الوطنيين. يجب أن نصنع مواجهات جديدة مع إسرائيل ونجد معادلة لإيقاف القتال في بيروت».

محجوب: «كيف هو وضعكم هنا الآن؟».

نعيم: «ننتظر عملاً عسكرياً إسرائيلياً بعد أن وقعت عملية فلسطينية أمس قتل فيها عدد من الإسرائيليين، وهذا جعلنا ننتشر بعيداً عن مراكزنا الأساسية لتفادي غارات جوية إسرائيلية».

بدأ نعيم يتحدث بإعجاب كبير عن فييتنام وما يقع فيها من قتال ضد القوات الأميركية. فيقول: «شعب صغير بإمكانيات متواضعة وإرادة عالية ينتزع استقلاله من أعظم الدول وأقواها في التاريخ، ولكن ما ينقصنا هو هانوي تحمي ظهرنا وهذا غير متوافر إلى الآن».

غادر نعيم ومحجوب سيراً على الأقدام وتحدثا طويلاً، ثم أقلّت السيارة محجوب عائداً إلى بيروت.

وبينما أنتظر، وقبيل الغروب بدقائق، جاء جيب عسكري. خرج السائق من الجيب، وهو شاب في حوالى السابعة والعشرين من عمره، بشرته حمراء من كثرة تعرّضه للشمس، كأنه هندي أحمر، متوسط القامة ولكنه رياضي الهيئة وشديد الوسامة، كأنه خارج من أحد أفلام هوليوود. تقدم الشاب الفدائي وقال إنه أتى ليصطحبني إلى السرية التي حُدّدت لي. سار الجيب في منطقة وعرة جداً وعلى أطراف سفوح جبلية هي امتداد لجبل الشيخ. السائق الشاب جلس صامتاً ومستغرقاً بالتفكير، عدا كلمات قليلة من هنا أو من هناك.

وصلنا إلى منطقة فيها أشجار، أوقف السيارة عن بعد، وسرنا مسافة على الأقدام، وإذا ببضعة شبان مسلحين يقفون أمامنا. عند الاقتراب تبيّن أنهم قرب

خيمة، ولكنها مموّهة جيداً ومحفور لها حفرة عميقة تحت الأرض بحيث لا تبرز أعلى الأرض. دخلنا الخيمة ، ثم أتى إليّ ببعض الشاي. فقلت له:

«أين نحن؟».

قال: «هذه منطقة اليابسة على سفوح جبل الشيخ».

فسألته: «ما هو سبب هذا الاسم؟».

قال: «على الأغلب يا أخ جهاد لأنها يابسة تخلو من كل شيء. هذه المنطقة باردة في الشتاء وحارة في الصيف، في الصيف تتحول هذه المنطقة إلى وطن العقارب والأفاعي ومئات الألوف من الحشرات الطائرة».

ثم أخذني خارج الخيمة ونظر إلى أعلى وقال: «في الشتاء ستغطي الثلوج هذا الجبل كاملاً. لقد قضى مقاتلون من هذه السرية أثناء دوريات قاموا بها باتجاه المواقع الإسرائيلية في أعلى الجبل. فقد واجهتهم عاصفة، فضلوا الطريق واختبأوا طويلاً، وبعد أن غلب عليهم النعاس، تجمدوا من البرد وماتوا».

سألته: «ماذا تفعل هنا وما اسمك؟». فقال «أنا محمد علي (أبو يعقوب) وأعمل هنا في هذه السرية».

ثم أردف قائلاً: «على الأغلب أنت هنا لعدة أيام ثم تعود من حيث أتيت. فأنتم معشر المثقفين تمارسون السياحة الثورية ثم تختفون تاركين لأبناء الفقراء والريف مسؤولية التضحية والموت من أجل فلسطين».

هكذا بدأ الحوار مع هذا الشاب الذي يتميز بقدرة هائلة على الحديث الواضح الهادئ والبطيء.

بعد دقائق بدأ محمد علي يوزّع الدوريات الليلية ويحرّك الشبان باتجاهات مختلفة استعداداً لاحتمالات الليل. وقتها عرفت أن محمد علي أكثر من مجرد شخص يعمل في السرية ويسوق الجيب، إنه قائد السرية الذي تحدّث عنه نعيم.

* * *

في إحدى الليالي ونحن نحتسي الشاي سألني: «لماذا لا تبقى معنا في نسور العرقوب وتتفرغ للقتال؟ ألا ترى أن هذه القواعد المقاتلة بحاجة لمن هم بمعرفتك

وعلمك؟ كيف سننتصر إذا لم يحمل المثقفون والمتعلمون السلاح أسوة بأبناء الريف والأسر الفقيرة؟».

كانت تلك الكلمات كالموسيقى في أذني، وهي بداية قراري البقاء في قواعد المقاتلين.

على مدى أسبوع أخضعني محمد علي لبرنامج مكثّف في التدريب العسكري. واكتشفت بطبيعة الحال كم أن لياقتي محدودة لهذا النوع من الجهد، حيث فرض عليّ المسير في جبال وعرة ومناطق صعبة، كادت «روحي تطلع» أثناء هذا المسير. وقام محمد علي مع شبان من سريّته بوضع الكمائن والمصاعب على الطريق، لأكون تحت النيران.

مع الأسبوعين الأوّلين بدأت أكتشف حياة القواعد. كانت حياة في البر في خيام وكهوف أو حفر تحت الأرض. في الليل نقوم بحراسة المواقع وفي النهار ننتشر انتشاراً موسّعاً. أما الطعام، فعلى كل شاب في المجموعة أن يطبخ في أحد الأيام، إذ يبقى وحيداً مع زميل له في القاعدة المكونة من خيم مموّهة أو مغارة في جوف الأرض، بينما ينتشر البقية في محيط بعيد عنها وذلك لتفادي خسائر قد تقع جرّاء غارات الطائرات. وفي الحراسة الليلية يتناوب الجميع. وفي ليالي الاستنفار نسهر طيلة الليل وننام في النهار في نقاط بعيدة عن القاعدة، بينما الطعام يأتي على شكل تموين يحتوي على كل أنواع الفاكهة والخضر والمعلبات.

أفضل وجبات المقاتلين هي الإفطار الصباحي، إذ يحتوي على الفول والحمص والزعتر والبيض والجبنة والعسل والمربى والدبس والتين في موسم التين. وقد تعلمت أن أُعدّ إفطاراً غنياً. أما الشاي الأحمر والشديد الحلاوة الذي يختلف عن شاي سكان جنوب لبنان المتأثر بالشاي العراقي، فيسمّى ويسكي المقاتلين، لأنه يشبه الويسكي في لونه. الشاي هو الشيء المفضّل للجميع، نشربه في كل الأوقات، نهاراً وليلاً، وخاصة أثناء الحراسة الليلية وفي الشتاء القارس.

في قواعد نسور العرقوب لم يكن كل المقاتلين من فلسطين. الأغلبية من فلسطين بطبيعة الحال، فهم من المجتمع والفئة الأكثر تضرّراً جرّاء ما حصل عام

١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، وهم أكثر من عانى من اللجوء والتشرد والاحتلال وفقدان الأرض.

ولكنّ النضال الفلسطيني لم يكن حكراً على الفلسطينيين. فإسرائيل تحتل أراضي لدول عربية أخرى، وتهدّد شعوباً عربية عديدة. لقد ضمّت نسور العرقوب وقواعد الفدائيين شباناً عرباً من العراق، واليمن، وسوريا، ولبنان ودول عربية شتى.

من أشهر الفدائيين الذين مروا على لبنان قبل مجيئي بحوالى ثماني سنوات الشيخ فهد الأحمد الصباح. لقد كان الشيخ فهد الأحمد هنا في قواعد الفدائيين وقاد مجموعات في مواجهات مع إسرائيل، وأصيب في القتال إصابات بالغة عندما كان في قواعد الفدائيين في الأردن قبل عام ١٩٧٠، وشارك في الاشتباكات التي وقعت مع الجيش اللبناني لتثبيت العمل الفدائي في لبنان في مراحله الأولى. هذا النوع من الأشخاص الذي يترك وراءه حياة رغيدة وأسرة متنفذة وحاكمة في الكويت (هو ابن لأمير سابق، وأخ في ذلك الوقت لوليّ العهد ولوزير الخارجية) ليعيش حياة لصيقة ببسطاء الناس وطموحات الشعب، تركت أثرها علينا وعلى الكثيرين من المقاتلين. (سوف يسقط الشيخ فهد شهيداً عام ١٩٩٠ برصاص القوات العراقية التي حرّكها صدام حسين لاحتلال الكويت).

ولكن سيصدمني أمر آخر في قواعد نسور العرقوب مناقض لقيم التضحية. فهناك نمط آخر من قادة السرايا في الكتيبة يختلفون كل الاختلاف عن نعيم ومحمد علي. فظاهرة التكبّر والغرور صاحبت صعود نجم بعض المقاتلين الذين تقلّدوا رتباً عسكرية عالية بعد عمليات أو مواجهات ميدانية في السابق مع القوات الإسرائيلية، فأصبحوا مع الوقت أقل تواضعاً وأكثر حديثاً عن أمجادهم السابقة وأقل اتصالاً بالقواعد التي أفرزتهم. هذا النوع من القيادات يمضي نصف وقته حول القيادة في بيروت باحثاً عن امتيازات جديدة وانتقال إلى موقع أعلى.

وقد وضحت هذه الصورة لي عندما عاد قائد أساسي لإحدى سرايا كتيبة نسور العرقوب، بعد أن أمضى دورة لمدة ستة شهور في الاتحاد السوفياتي. قال لي محمد علي: «ألا تشعر بأن هذا الاستقبال الفاتر من المقاتلين لقائد سريّتهم الغائب

ستة شهور يعكس نظرتهم السلبية إلى تصرفاته وتطلعاته الشخصية وتكبّره عليهم وأحياناً إهانتهم؟». لقد كان فعلاً استقبالاً فاتراً، كأنهم يلتقون به لأول مرة.

في بيروت الغربية

بعد أسبوعين من التدرّب في قواعد نسور العرقوب، اتفقت مع محمد علي على الذهاب معاً لبضعة أيام إلى بيروت. فالمقاتل في الجنوب يمضي عشرين إلى ثلاثين يوماً ثم يغادر مدة أسبوع إلى عشرة أيام في إجازة. في بيروت ذهبنا إلى منزل الطلبة وأمضينا أياماً في ضيافة صديقنا شمس. بدأنا نلمس كل يوم كيف أدت حادثة عين الرمانة بواسطة حزب الكتائب إلى اشتعال لبنان تحت أقدام العمل الفدائي.

بذل محمد علي جهداً كبيراً لتعريفي إلى عشرات الشبان من العاملين في فتح في بيروت. وأثناء السير نتحدث ونناقش. أنا أعطيه مما تعلمته في الولايات المتحدة وهو يخبرني عن العمل الفدائي وما يشوبه من مشكلات ونواقص. محمد علي الإنسان يتميّز برقة كبيرة، عاش في ذلك الوقت قصة حب. عرّفني إلى حبيبته، فنشأت بيننا مودة وصداقة.

وعندما أسير مع محمد علي يتحدث عن فكره القومي وفكره اليساري بروح وطنية. أعجبتني في طرحه تلك الواقعية والإنسانية التي تفتقر إليها الحركات السياسية في بلادنا. وبينما نسير تتجه الأنظار إلينا.

فأقول لمحمد: «عليك أن تغيّر شكلك، قد نضع لك حجاباً. فكل فتاة في الشارع تنظر إليك يا محمد، فأنت تثير الفتنة هنا. لقد تفوّقت في مواصفات الرشاقة والجاذبية».

يلتفت يميناً بينما الأعين تطارده، ثم تزداد ابتسامته التي تأخذ وقتاً لترتسم ووقتاً لتختفي بينما نسير.

في أحد أيام تلك الزيارة، أخذ محمد علي مسؤوليات مؤقتة في بيروت قبل أن يعود إلى الجنوب. لم تبق فتاة في التنظيم لم تسع إلى إلقاء نظرة على محمد علي أثناء وجوده في أحد مواقع بيروت.

لقد أصبح خطر اقتحام الكتائب لمناطق الحركة الوطنية اللبنانية التي تقطنها

أغلبية من المسلمين هو الآخر حقيقياً. ففي أواخر أيار/مايو وبداية يونيو/حزيران ١٩٧٥ ارتفعت وتيرة القتال، وبدأ يمتد إلى مناطق جديدة. خطف بالجملة وتصفيات وقصف بالجملة بين المناطق، وكلما هدأت وُجدت مجموعة من الناس من إحدى الطوائف قتلى في أحد الشوارع، ما يعود ويفجّر الحرب.

قدّم رئيس الحكومة رشيد الصلح استقالته في أواسط شهر مايو/أيار بعد أن حمّل الكتائب مسؤولية مجزرة عين الرمانة. وجاء بعده رئيساً للوزراء رشيد كرامي الذي سيسعى جاهداً إلى إيقاف الحرب التي لن تتوقف. ولكنّ كرامي لن يؤلّف الحكومة قبل مرور شهر، أي حتى نهاية حزيران/يونيو، وسيدخل فيها كميل شمعون، رئيس حزب الوطنيين الأحرار، وزيراً للدفاع، في محاولة للإرضاء ونزع فتيل الحرب.

وفي بيروت بدأت تصدر عن مقاتلي الكتائب ممارسات فيها تجاوزات، من شاكلة قتل عشوائي على الهوية وقصف عشوائي لمناطق المسلمين. ولكن في المقابل، انتقام الحركة الوطنية اللبنانية لم يقل عنفاً وتجاوزاً بحق المدنيين المسيحيين. لقد انتشرت عادة القتل على الهوية بين كل الفرقاء، وأصبح المواطن في الصف المسيحي والمسلم هو الضحية الحقيقية لكل ما يجري.

بعد بضعة أيام من زيارتي لبيروت، ذهبت مع محمد علي إلى منطقة رأس النبع وسط بيروت الغربية المواجهة للأشرفية لنفهم الوضع هناك. وإذا بمروان كيالي مسؤول التنظيم الطلابي عن حركة فتح في الجامعة اللبنانية ونظير الأوبري من قادة التنظيم الطلابي لفتح، وكلاهما شابان في أوائل العشرينيات من عمرهما، يتحدثان مع أبو داوود الذي عيّنه ياسر عرفات لمساعدة الحركة الوطنية اللبنانية في بيروت الغربية (مصطلح سيشيع أثناء الحرب مقسّماً بيروت إلى غربية مع أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية وشرقية مع أغلبية مسيحية وأقلية مسلمة) مسؤولاً أول عن تلك المنطقة.

مروان الكيالي من أب فلسطيني من يافا وأم لبنانية، ولد عام ١٩٥١ في بيروت ومنغمس في العمل اللبناني المرتبط بالمسألة الفلسطينية. أما نظير فهو في الدرجة نفسها من الالتزام والجدية وفي العمر نفسه، ولكنه من قلب بيروت وانضم إلى فتح

على خلفية الانشقاق عن منظمة العمل الشيوعي. بدأ مروان حديثه بلكنته اللبنانية المميزة:

«المنطقة الغربية من بيروت المتاخمة للأشرفية في الشرقية بلا دفاعات وبلا أي أسلحة. إن أي تقدم لقوات الكتائب والأحرار سيكون كارثة علينا، لأن مجازر كبيرة ستحدث إذا وقع أي اختراق».

نظر كلاهما إلى أبو داوود بانتظار ردّ منه. فأبو داوود (محمد داوود عودة) قائد مخضرم قاد في السابق الميليشيات الشعبية الفلسطينية في عمّان (الأردن) في زمن الحرب الأهلية عام ١٩٧٠، وهو أحد قادة فتح ومنظمة أيلول الأسود تحديداً، وكاد يُعدم في الأردن بسبب محاولته مع مجموعات مسلحة أخذ أعضاء الحكومة الأردنية رهائن عام ١٩٧٣ على خلفية أحداث أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، إلا أن العملية كُشفت، وقد أطلق سراحه الملك حسين بعفو ملكي بعد اعتقاله، رغم الحكم عليه بالإعدام.

قال نظير لأبو داوود: «جئنا لك ببعض الخرائط لنوضح لك خطورة الموقف هنا. فالحركة الوطنية اللبنانية في بيروت الغربية لا تملك سلاحاً يذكر، وكل الأحزاب التقدمية اليسارية الوطنية من الشيوعي إلى منظمة العمل إلى البعث إلى الناصريين والقوميين السوريين مجتمعين لا يملكون عشرين بندقية، بينما الكتائب في الجهة المقابلة تمتلك جيشاً وميليشيا. لهذا، الأمل الآن هو في مقدرة الفلسطينيين على توفير الدعم لحماية بيروت الغربية».

مروان: «يا أخ أبو داوود أنا ضد هذه الحرب بقوة وضد التعرّض للمدنيين في كل المناطق، ولكن يجب أن يكون هناك دفاع حقيقي عن بيروت الغربية، فأهلنا يقطنون هنا ولا يمكن أن نقبل وقوع مجازر بينهم. الدفاع عن بيروت أساسي مرحلياً للاتفاق على حل سياسي يُنهي الأزمة والمظاهر المسلحة والقتال الراهن».

مع الحرب ضد الحرب

تركت محمد علي ونظير الأوبري ومروان كيالي مع أبو داوود، وقد انضم إليهم ناجي علوش المعارض في حركة فتح والمسؤول الآخر مع أبو داوود عن بيروت الغربية في تلك المرحلة. عدت إلى منطقة الطريق الجديدة. وبينما كنت

أسير في الشارع قرب جامعة بيروت العربية، إذا بي ألتقي صدفة بصديقي مارون زميلي في الدراسة أيام برمانا.

سألني مارون: «ما الذي تفعله هنا يا شفيق؟ كنت أعرف أنك ستنتهي في مكان ما في هذه الأوضاع!».

قلت: «أنا الآن في الجنوب، وأكتشف طريقي».

رد قائلاً: «إذاً سيرى واحدنا الآخر كثيراً هنا. لكن يا شفيق هناك أمر مهم يجب أن تعيه وتوصله إلى أصدقائك في الحركة الفلسطينية. نحن اللبنانيين دعمنا الحركة الفلسطينية كل هذه السنوات، وأنت شاهد على ذلك. الآن جاء دور الحركة الفلسطينية لتدعمنا في مواجهه الكتائب والأحرار».

ثم أضاف مارون: «يجب ألا نسمح للكتائب والأحرار والمارونية السياسية وقطاعات في الجيش اللبناني تؤيدهم، بأن يحققوا نصراً على الوطنيين اللبنانيين من كل الطوائف لأن ذلك سينهي التوازن في لبنان. وعلى الفلسطينيين، وخاصة أبو عمار، أن يأخذوا موقفاً واضحاً من هذه المسألة وإلا خانوا الدعم الذي قدّمته لهم الحركة الوطنية اللبنانية طوال هذه السنوات».

قلت له: «حيّرني كلامك، فأنا خائف من فكرة الحرب الأهلية في لبنان، وفي المقابل هناك فريق كبير من لبنان يحمّل المنظمات الفلسطينية مسؤولية عدم أخذ موقف معها. هذا أمر محيّر».

مارون: «على عرفات تحديداً بما يملك من قوة أن يأخذ موقفاً واضحاً في هذا الصراع. الأمر بيده ويجب ألا يتردد في دخول الحرب لمصلحة الحركة الوطنية اللبنانية».

تركت مارون وأنا في حيرة بشأن هذه الحرب، إذ من الطبيعي أن تجد مسيحيين لبنانيين في صفوف الحركة الوطنية اللبنانية والحركة الفلسطينية، انطلاقاً من رؤية وطنية وعربية غير طائفية. وأفهم جيداً أن المسيحيين في الحركة الوطنية اللبنانية يرفضون انزواء لبنان عن القضايا العربية ويعملون لمنع الكتائب من تحقيق انتصار، خوفاً من فاشية حزب الكتائب وسعيه الصريح لبناء دولة يسيطر عليها حزب واحد. فقد اختار الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهو حزب لبناني علماني له

جمهور مسيحي كبير، أن يقف مع كمال جنبلاط، رمز الحركة الوطنية اللبنانية ورئيسها وزعيم دروز لبنان أيضاً.

وقد انضم أيضاً إلى التحالف مع جنبلاط عدد من قادة الأحزاب اللبنانية، وأصبحوا من رموز الحركة الوطنية وقادتها، بينهم محسن إبراهيم، الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي، إلى جانب جورج حاوي، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، وإنعام رعد، رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

لكن من جهة أخرى، إن هجوم الأطراف الوطنية اللبنانية والإسلامية وسعيها لسحق حزبي الكتائب والأحرار هو الآخر مثّل استفزازاً، ما جعل أغلبية المسيحيين تتمسّك بهذين الحزبين. فقد انتشر الخوف في الوسط المسيحي من المسلمين والفلسطينيين، وانتشر الخوف في الوسط الإسلامي من المسيحيين. لقد دخل لبنان مرحلة التفتّت منذ البدايات الأولى للحرب الأهلية. ازداد المشهد العام في بيروت كآبة في شهر حزيران ١٩٧٥، ومال الوضع إلى مزيد من المواجهات والقتال وسط فشل الحكومة اللبنانية في تحقيق التهدئة. فالناس يُقتلون، بينما القصف بين المناطق لا يرحم أحداً.

أول جريح

أسمع قصفاً شديداً بينما أحتسي الشاي مع محمد علي في بيروت في شقة شمس. في الإذاعة اللبنانية اشتهر مذيع لبناني (شريف الأخوي)، عمل أساساً مذيعاً لنشرة الطرق على تلفزيون لبنان، وإذا به يتحول بين يوم وليلة إلى بطل وطني، لأنه نجح في تحويل وصفه لنشرة السير إلى نشرة للوضع الأمني تميّزت بمفردتين «سالكة وآمنة» لتصف الطرق التي يمكن الناس أن يسلكوها في التنقل ضمن بيروت وكل لبنان. فقد كانت الطرق تقطع فجأة إما بالقصف، أو بالقنص، أو بالحواجز «الطيارة» التي بدأت تخطف الناس أو تقتلهم تبعاً لهويتهم الطائفية.

وصل القصف إلى الطريق الجديدة حيث أجلس مع أصدقائي، ولكنه شمل الشياح، وهي منطقة شيعية مسلمة ومناطق أخرى. إلى الشياح أرسل أبو عمار منذ أسابيع أحد أهم ضباطه وأشجعهم «شاستري» ليضبط الوضع هناك كي لا يزداد

سوءاً. بدأ «شاستري» بتنظيم الدفاع عن الشياح المواجهة لمنطقة عين الرمانة حيث يسيطر حزبا الكتائب والأحرار على أحد خطوط التماس الساخنة التي اشتعلت مع بداية الحرب الأهلية.

في ذلك اليوم كانت مجموعات صغيرة تقاتل الكتائب على حدود المنطقتين. وأثناء القتال سقطت عدة قذائف مباشرة قرب عدد من المقاتلين الطلاب من الجامعات، فجرح عدد منهم، وسقط معهم طالب في الثانوية يعرفه محمد علي جيداً لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر وهو من بيروت ويدعى (أحمد). تحركت مع محمد علي إلى المستشفى، لأشاهد أول جريح في حياتي، جروحه بالغة ومعظمها في رجليه مصحوبة بكسور في العظم، كانت الدماء تغطي مناطق متفرقة من رأسه وجسمه. المنظر لأول وهلة مرعب. عندما ترى جريحاً لأول مرة في حرب تشعر بأن الموت أمامك.

وأحمد، مثل الكثير من الشبان في أجواء العمل الطلابي ممن كسروا حاجز الخوف، يبتسم ويؤكد أنه قادر على تحمّل الألم، فيقول لنا بهدوء رغم حدّة الألم: «بسيطة». والجريح في هذا النمط من العمل يمتلك معنويات أعلى من معنويات أصدقائه ومحبّيه وأقربائه، فهو بجرحه ومعنوياته يشجّع بقية المقاتلين على المضيّ بقتالهم. هذه التجربة لن أنساها في حياتي. لقد تعلمت درساً عن المناعة ضد الألم واحتمالات الموت من هذا الجريح.

سفوح جبل الشيخ ووقع الأيام

بين الواقع والحلم عدت إلى نسور العرقوب في الجنوب وقد قارب شهر حزيران على الانتصاف. فقد مضى الآن على الحرب الأهلية في لبنان شهران. في الجنوب قررت حركة فتح تحويل معسكراتها وقواتها العسكرية إلى مراكز تدريب للبنانيين وللحركة الوطنية اللبنانية. على مدى الأسابيع التالية جاء ألوف اللبنانيين إلى نسور العرقوب لحضور دورات تدريبية تستمر بين يوم وثلاثة أيام. خلال أسابيع، صرفت مئات الألوف من الطلقات على الرماية. لقد انغمس محمد علي في التدريب.

أمام كثرة الأعداد طلب مني نعيم أن أقوم بدور النقاش السياسي للمتدربين. وجدت نفسي أحاضر عن إسرائيل وفلسطين والمقاومة والعالم العربي والغرب والشرق والتحليل السياسي لما قد يقع. الحوارات والنقاشات تثير زوبعة من التفاعلات، وخاصة عندما تلامس الأخطاء التي ترتكبها المقاومة الفلسطينية أو الأخطاء التي تلازم بعض فصائل الحركة الوطنية اللبنانية. البعض كما هي العادة لا يحب أن يسمع نقداً والبعض يتقبّل.

لم أكن قد لمست وجود ظاهرة إسلامية في ذلك البحر القومي واليساري الذي ساد حقبة سبعينيات القرن العشرين. وعندما جاءت مجموعة لبنانية من شمال لبنان للتدرب في منطقة اليابسة، حيث أنا، وبدأت تطرح موضوعات إسلامية، توترت أجواء النقاش. وجدت نفسي أناقش المجموعة «الطرابلسية» ضد توظيف الدين في السياسة، وذلك احتراماً للدين ولمنع الجميع من استغلاله وتحويله إلى مجال منافسة سلبية.

ثم أردف أحدهم: «معركة فلسطين إسلامية».

ردّدت: «إنها معركة إنسانية ووطنية، معركة حقوق لكل فلسطيني وعربي بغض النظر إن كان مسلماً أو مسيحياً. ماذا عن القوميين السوريين وهو حزب قاعدته مسيحية؟ ماذا عن المسيحيين المقاتلين معنا الآن في هذه الخيمة؟ ماذا عن المطران كبوجي مطران القدس؟».

ثم أردفت: «ما يقع في لبنان ليس حرباً ضد المسيحيين، بل ضد سياسات محددة لحزبي الكتائب والأحرار في هذه المرحلة».

ستكون هذه الظواهر مقدِمات لنشوء دور التيارات الإسلامية في الساحة اللبنانية وأيضاً الفلسطينية.

حياة مع الأفاعي والعقارب

اعتدت تعايشاً قاسياً مع الطبيعة في ذلك الصيف. فالحمامات صارت في الهواء الطلق، في حفر نحفرها خلف الصخور الكبيرة، والنوم في كهف أو في خيمة صار المكان الطبيعي للنوم، أما الفراش فهو من الإسفنج العادي الذي نضعه على الأرض

حيث ننام. وعادة ما نكون خمسة أو ستة في الخيمة الواحدة، وحين ننام يكون سلاحنا إلى جانبنا.

وإن أراد أحدنا أن يغتسل، فهناك نقطة بعيدة بين الصخور تحولت إلى موقع للاغتسال. وبسرعة تعلمت أن أغتسل في الهواء الطلق في أصعب فترات الشتاء أو في الصيف. فبكمية قليلة من المياه لا تتجاوز الإبريق المتوسط الحجم، يمكن المرء أن يغتسل بالكامل من خلال «علم الاقتصاد بالمياه».

أسوأ ما واجهناه في منطقة اليابسة قرب بلدة راشيا الوادي، وخاصة في شهري تموز/يوليو وآب/أغسطس عام ١٩٧٥، لم يكن الطائرات الإسرائيلية، بل كثرة الأفاعي والعقارب. فالخيمة التي ننام فيها تستند في جزء منها إلى سلسلة من الأحجار الطبيعية وهي على شكل حائط صغير، ووراء كل حجر من الأحجار المتوسطة المكوّنة للسلسلة عقارب لا تعدّ ولا تحصى. إنها هناك بالعشرات عند كل سلسلة.

في الليل تتحرك العقارب لتخرج من مخابئها بحثاً عن الضوء الخافت في الخيمة أو قربها. في الليلة الواحدة نقتل أكثر من عقرب، وعند النوم يفتش كلّ منا فراشه بدقّة لكي لا ينام مع عقرب سام. في إحدى المرات وجدت العقرب في فراشي، وفي مرة أخرى وجدته قرب يدي. في البداية أرعبتني الفكرة برمّتها، ولكن بعد أسبوع أصبح الأمر عادياً بالنسبة إلي.

العقارب تعايشت معنا ولم تهاجمنا. والطريقة الوحيدة لتلدغك إحداها هي أن تسقط يدك صدفة في مكان تمر منه أو أن تكون في فراشك أو في جزمتك. ما عدا ذلك كان بيننا وبين العقارب تفاهم رعب. وقد عالجنا اللدغات بسرعة عبر فتح الجرح وإخراج الدماء مع عصارة السم قبل نقل الشاب بسرعة إلى أقرب وحدة طبية عسكرية.

أما الأفاعي، وما أكثرها في منطقة اليابسة وهي بالمئات في فترة الصيف، فهي تهاجم أحياناً عندما تبلغ الحرارة أعلى درجاتها جرّاء حدّة الشمس الحارقة عند الظهيرة. بعض هذه الأفاعي سام. ولكنها تتفادانا في معظم الأحيان. وقد تعلمت

كيف أصطادها بعصا طويلة لها رأس بفرعين. لهذا فالعصا معي باستمرار منذ أن علّمني الفدائيون اصطياد الأفاعي عندما تكون حولنا.

في إحدى الليالي هاجمت الخيمة أثناء نومي أفعى سوداء كبيرة، فقمنا نلاحقها، وقد هربت الأفعى التي جاءت لتأكل من الطعام المتروك بعد العشاء. الواحد منا ينام وهو محاط من كل جانب من رأسه حتى أخمص قدميه ببطانية تقيه من العقارب والثعابين.

الأكثر إثارة في كل هذا أن أسمع من بعض المقاتلين ممن لدغتهم الأفاعي السامة كيف شارفوا على الموت جراء بعض اللدغات. أحدهم انتفخ مثل البالون من شدة التسمّم أثناء دورية بعيدة في ظل صعوبة نقله.

ومن مصاعب الحياة في الطبيعة بروز ملايين الحشرات الطائرة الصغيرة في بدايات الصيف. كان عددها من الكم بحيث إن مقدرة أيّ منا على شرب الماء أو أكل أي شيء تتحول إلى عمل مستحيل وسط هجوم مئات الحشرات على الكوب أو الصحن. حتى تكاد في بعض الأيام تحجب الشمس عنا لكثرتها.

علاقة خاصة مع الطبيعة

مرّت شهور في رحاب الطبيعة الهادئة أمضيتها في قراءة عشرات الكتب. حين أذهب إلى بيروت، كنت أنفق كل مخصصاتي على شراء الكتب. لم أقتن شيئاً سوى الكتب، وقد اكتفيت ببنطال الجينز وبضعة قمصان، أما الجاكيت فيجب أن تكون من أرخص الأنواع وأكثرها خشونة وذلك التزاماً بمبدأ التقشف. أما عن مخصصاتي التي تُصرف لي لقاء تفرّغي للعمل الفدائي ولتوفير الحد الأدنى من المعيشة فلم تتجاوز ١٧٤ ليرة لبنانية شهرياً، ما يعادل ٥٠ دولاراً.

في تلك الهضاب والجبال والأودية السحيقة، ووسط الأشجار والمياه الباردة ووسط الرياح والأمطار في فصل الشتاء القارس أو بين الأزهار البرية الملونة في الربيع الرائع وتحت أشعة شمس الصيف الحارقة، أمضيت أيامي أكتشف الطبيعة وجمالها. في المستقبل لن أرى مطراً أو رياحاً أو أسمع خرير مياه وعواصف ورعداً إلا وسأتذكر تلك الأيام.

إلى حدود فلسطين والكمين الإسرائيلي

تناوب أعضاء كتيبة نسور العرقوب على الذهاب إلى قريتيْ كفرحمام وكفرشوبا الحدوديّتين المواجهتين لإسرائيل. في هذه المنطقة التي تعرف باسم العرقوب أو باسم فتح لاند وقعت أعنف المعارك والمواجهات منذ عام ١٩٦٩، وفيها سقط مئات الفدائيين العرب والفلسطينيين. وفي عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥ شهدت كفرشوبا قتالاً بالسلاح الأبيض وسط البلدة بين الجيش الإسرائيلي والفدائيين.

تحركت في ظل هذه التوترات في أوائل سبتمبر ١٩٧٥ إلى كفرحمام وكفرشوبا. وفي كفرحمام فوجئت بالوضع، ففي كل زاوية آثار القتال والحرب، بينما الدمار شمل معظم المنازل. يغلب على كفرحمام كما على كفرشوبا الطابع السنّي خلافاً لمعظم قرى الجنوب ذات الطابع الشيعي. بالطبع هناك عدة قرى أو مدن فيها أغلبية مسيحية مثل مرجعيون ثم القليعة، أو حتى مختلطة مسلمة مسيحيةْ مثل الخيام.

من كفرحمام يمكنك أن ترى فلسطين، فنحن نبعد بضعة كيلومترات عن الحدود، ولكن لا شيء يفصل بين أطراف كفرحمام وإسرائيل وحدودها، فالفاصل هو وادٍ يُعدّ امتداداً لسهل الحولة الشهير في فلسطين. ومن كفرحمام ترى مدينتيْ الخيام ومرجعيون وتشاهد وراءك راشيا الفخار.

تمركز فصيلنا في منزل شبه مهدم نستخدمه كمركز في النهار، أما في الليل فننتشر على أطراف البلدة في كمائن محكمة. المسؤول عن دفاعات القرية هو الملازم حسن من نسور العرقوب. وحسن في أواخر العشرينيات من عمره، منظّم ومثقف، اصطحبني معه في جولات ليلية إلى كل الكمائن المنتشرة حول كفرحمام. وأثناء المسير يخبرني الكثير عن تاريخ أحداث هذه المنطقة، عن عدد المرات التي دخل فيها الإسرائيليون هذه القرى وعن غارات الطائرات وطرق الاحتماء منها.

ونحن نتجول قال لي حسن: «الإسرائيليون لن يأتوا الليلة وفي إمكاننا أن ننعم بليلة هادئة».

قلت له ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك. أجاب: «دفاعاتنا ونشاطنا هما مجال عملهم وهذا يدفعهم إلى تأجيل أي عمل يقومون به هنا. إنهم يأتون عندما

نسترخي، لهذا تجدني أغيّر كل ليلة أساليب الدفاع ومواقع الكمائن، فهم يضربون في أول ليلة يعرفون فيها أننا استرخينا».

قلت في نفسي ما هذه المعادلة، فسألته: «ولكن كيف يعرف الإسرائيليون وضعنا؟».

أجاب حسن: « يا جهاد نحن مخترقون في هذه المنطقة، فهي منطقة حدودية، وللإسرائيليين جواسيس وهناك مراقبة جوية وليلية لطائراتهم. أتذكر ذلك الرجل الذي زارنا أمس، إنه راعي غنم ويذهب كل يوم إلى الحدود ليرعى أغنامه. إنه يقدّم إليهم المعلومات، ومن الصعب أن نجزم بذلك فنتصرف معه، رغم تحذير قرويين آخرين لنا منه. لهذا عندما يكون قريباً منا نعطيه المعلومات التي تدلّ على جهوزيتنا ونضلّله عن أوضاعنا، فينقل المعلومات الخاطئة إلى إسرائيل. لقد نجحنا مرات عديدة في إيقاع الإسرائيليين في أخطاء رئيسية».

واستمر حسن: «إن الفقر في هذه المنطقة وتهديد الإسرائيليين لبعض المزارعين بعدم السماح لهم بزراعة أرضهم الحدودية، يدفعان بعدد من السكان إلى التعامل معهم».

مرت أيام سبعة على مجيئي إلى كفرحمام. ونشأت علاقة صداقة بيني وبين أستاذ المدرسة الباقية في البلدة. فهو مثقف يساري، كما هي حال معظم الأساتذة في الجنوب. تميّز موقفه برفضه ترك البلدة، إذ فضّل الاستمرار في فتح المدرسة برغم المصاعب. أخذني الأستاذ في زيارات إلى القرى والمدن المحيطة في مرجعيون والخيام، كما أخذني إلى كفرشوبا.

في كفرشوبا تعرّضت لأول جرعة من الرعب، ذلك الرعب الذي ينتج من الدمار الهائل الذي تحدثه الطائرات القاذفة الإسرائيلية من نوع أف-١٦ وغيرها، وخاصة أن انفجار القنابل فوق المنازل وعلى رؤوس الناس كان يحصل قبل سماع صوت الطائرات، إذ تأتي الطائرات بسرعة تفوق سرعة الصوت ثم ترمي بحمولتها على أهدافها. لهذا تنفجر في المواقع قبل سماع المقاتلين أصوات الطائرات، فلا يتاح الوقت الكافي للانتشار بعيداً. الحفر في القرية على عمق أمتار في الأرض وبعرض أمتار أيضاً، والمنازل كلها من دون استثناء مهدمة.

لم يكن في كفرشوبا سكان إلا من بعض الفقراء المعدمين ممن لا يستطيعون العيش في مكان آخر. القرية ملأى بالمقاتلين من كل التنظيمات الفلسطينية الذين يعيشون في منازلها المدمّرة وقد حفروا لأنفسهم حفراً في الأرض. كفرشوبا قرية مقاومة، ولكنّ دمارها شاهد أيضاً على ما تستطيع إسرائيل فعله في القرى التي تساند الفدائيين وتقدّم لهم المأوى والمعلومات.

في اليوم السابع لقدومي زرت قاعدة للفدائيين أسفل وادٍ سحيق قرب كفرشوبا. يومها تعلمت شيئاً جديداً عن غارات الطائرات الإسرائيلية، إذ دخلت كهفاً كبيراً، وأثناء التجوال في الكهف قال لي أحد المقاتلين إن أربعة من الشبان قتلوا في هذا الكهف منذ شهور وذلك نتيجة نزف داخلي أصابهم جميعاً بسبب قوة ضغط الصواريخ الإسرائيلية ذات وزن الألف باوند التي أصابت مخارج الكهف. لهذا أصبح من الضروري إحداث فتحات من جهات مختلفة في كل كهف لتخفيف الضغط الذي تحدثه الصواريخ.

في الأسبوع الثاني في كفرحمام جاءني حسن قائلاً: «لقد اخترناك يا جهاد لتكون عضواً في مجموعة استطلاع مكوّنة من ثلاثة أشخاص. سوف تتحرك عصر اليوم إلى الحدود الإسرائيلية وإلى منطقة تكثر فيها الأنشطة والكمائن الإسرائيلية. المعلومات التي ستحصلون عليها ستكون أساسية لمعرفة طبيعة الأنشطة الإسرائيلية على الحدود».

انتشيت للفكرة، وبدأت بالاستعداد. وعند الغروب نقلت بالسيارة إلى قرية كفرشوبا، وهناك تعرّفت إلى مسؤول المجموعة والمقاتل الآخر المشارك فيها. تحدث معنا أبو هاني قائد الدورية مؤكداً على الالتزام، وموضحاً الإشارات التي سيستخدمها معنا لكي لا يضطر إلى التحدث وشارحاً طبيعة المهمة.

قبيل الغروب انطلقنا وأمامنا رحلة طويلة تمتد لعدة كيلومترات على سفوح جبال ووسط أحراج وصخور وأشواك، وذلك باتجاه التلال المطلة على المواقع الحدودية الإسرائيلية. هدفنا أن نصل إلى ملتقى أطراف الجولان المتصل بمنحدرات جبل الشيخ حيث قرية المجيدية الحدودية التي هجر منها أهلها نتيجة

حرب عام ١٩٦٧. في تلك النقطة تحديداً يقع المخفر السوري الممتد من الجولان، الذي سقط عام ١٩٦٧.

سرنا لساعات ولكن في بداية المسير قبل الغروب كنا مسرعين. وحين حلّ الظلام واقتربنا من المناطق الحدودية أبطأنا المسير. استمرّ سيرنا وسط الظلمة التي لم تخلُ من ضوء خافت للقمر. فجأة، من دون سابق إنذار، رأينا ضوءاً يلمع في وجوهنا، ثم رأينا شعلة صغيرة لا تبعد عنا أكثر من مئتي متر. توقف قائد المجموعة أبو هاني ونادانا وهمس في أذن كل منا: «علينا أن نغيّر الطريق ونلتف حول مصدر الضوء».

قلت له « وما هو مصدر الضوء؟» قال لي مبتسماً: «كمين إسرائيلي في الأراضي اللبنانية كدنا نقع فيه. إن أحد الإسرائيليين قرّر أن يدخن سيجارة وهذا ما أنقذنا».

واصلنا المسير إلى أن وصلنا إلى تلة تشرف على الحدود مع فلسطين/إسرائيل. إنها تلة خطرة تواجه المواقع الإسرائيلية التي تقع على مقربة منا. علينا أن نمكث في هذه النقطة طيلة اليوم الثاني حتى الغروب. فقلت لأبو هاني: «إنني عطشان وأحتاج إلى الماء».

نظر إليّ بضيق: «كيف شربت كل الماء ونحن في بداية المهمة يا جهاد؟ فهذه المطرة يجب أن تكفي ليومين».

ثم قال: «سأجد لنا حلاً مع المياه. سندخل الليلة قرية المجيدية الخالية من السكان وسنشرب من البئر التي يشرب منها الإسرائيليون».

قلت له: «ماذا، هل أنت متأكد؟».

قال: «سندخل القرية بحذر شديد لكي لا نقع في الكمائن الإسرائيلية المنتشرة فيها. وسوف نجلب مياهاً تكفينا من وسط البلدة، فنحن لدينا مهمة يجب أن نؤدّيها ولا نستطيع العودة بسبب نقص الماء».

وبينما الرياح تضرب الجبل من كل مكان، سرنا من أعلى التلة هبوطاً باتجاه قرية المجيدية الواقعة على الحدود مباشرة.

تحركنا من منزل إلى آخر داخل البلدة، إلى أن وصلنا إلى منزل قرب البئر.

طلب منا أبو هاني أن نغطيه من الجانبين في حال تعرّضه لرماية إسرائيلية، وتحرك وحده كأنه قطّ وسط الليل. كالشبح وصل إلى البئر وعاد حاملاً المياه التي نحتاج إليها.

اختبأنا في أحد منازل القرية بينما نسمع أصواتاً إسرائيلية يحملها الهواء من المواقع القريبة. حلّ علينا التعب، فقررنا النوم على الأرض في أحد المنازل التي لم يكن لها أبواب أو شبابيك. قام كلّ منا بحراسة المجموعة لساعة بينما ينام الآخران. وعند الرابعة صباحاً تحركنا جميعاً وسط رياح قوية، سائرين باتجاه التلة الصخرية التي تكسوها الأشجار والتي تواجه المواقع الإسرائيلية.

طلع الصباح علينا ونحن ننتظر، وإذا بالمواقع الإسرائيلية أمامنا. يا له من منظر أشبه بلوحة فنية كاملة. فكل شيء أمامنا، فلسطين التي حلمت بها أمامي، سهل الحولة أمامي، مستوطنات، وجنود إسرائيليون يسيرون على الطريق، سيارات عسكرية إسرائيلية على الحدود، رشاشات مصوّبة باتجاهنا لكنها لا تعرف أننا هناك، ولو عرفت لحصدتنا في ثوان، المخفر السوري القديم الذي سقط عام ١٩٦٧ أيضا أمامي.

بقينا جالسين طيلة اليوم نراقب ونسجّل على أوراق كانت في حوزتنا. وإن أراد أحدنا أن يغيّر موقعه زحف بين الصخور، وإن أراد قضاء حاجة زحف وراء الأشجار والأعشاب ثم عاد زحفاً إلى موقعه.

وجدت نفسي أمام تاريخ، أمام قصة قديمة، أمام ما حلّ بأسرتي عام ١٩٤٨ . فخلف هذه المواقع الإسرائيلية تقع مدينة طبريا التي تنحدر والدتي منها، ووراء ذلك الساحل الفلسطيني مدينة حيفا التي ينحدر والدي منها. في تلك المنطقة مستعمرات إسرائيلية معروفة دارت حولها معارك رئيسية مع العمل الفدائي.

أردت أن أسير باتجاه فلسطين فأدخل لأغيّر كل شيء، لأعيد التاريخ كما كان قبل عام ١٩٤٨ . أليس بالحلم يتحرك الإنسان؟ لماذا لا نحلم كما حلموا ولا نعود كما عادوا بعد آلاف السنين؟ لماذا يحق لهم أن يحلموا بجنون وجموح وبروح العودة إلى أرض قديمة ولا يحق لنا أن نمارس الجنون نفسه بروح العروبة والحقوق السليبة حديثا؟

أثناء اليوم الطويل دارت بيننا أحاديث هادئة. فقائد المجموعة من المقاتلين القدامى في حركة فتح وجناحها العسكري «العاصفة»، وكذلك الشاب الآخر الذي كان معنا. حدّثاني عن معارك أيلول في الأردن عام ١٩٧٠ والأصدقاء الذين فقدوهم، عن العمليات ضد إسرائيل من نهر الأردن عام ١٩٦٨، عن معارك جرش وعجلون عندما كانا مع القائد الفتحاوي الكاريزمي أبو علي إياد. تحدث أبو هاني عن الأسر في سجون سوريا بعد إحدى العمليات التي جرح خلالها في جبهة الجولان. تحدثا عن معارك مع إسرائيل من لبنان وأحياناً عن اشتباكات مع الجيش اللبناني.

تجارب المقاتلين تعكس واقع القضية الفلسطينية القاسي وغياب الحقوق والحريات في العالم العربي وحالة الإنسان في بلادنا الممتدة، وتعكس مصاعب تحرير أرض وسط دول تفتقد الحدّ الأدنى للحريات وترى كلّ منها أن حدودها يجب ألا تنتهكها جماعات فدائية ومسلحة لا تخضع لسلطتها. أبو هاني لم ير والدته ووالده منذ عام ١٩٦٧ والشاب الثاني توفي والده ولم يره. ولدى المقاتلين إخوة وأخوات في الأراضي المحتلة لم يلتقوهم في حياتهم لأنهم ولدوا بعد عام ١٩٦٧. الألم يعتصر قلوبهم، يشعرون بمرارة النكبة الفلسطينية، وهم يقبلون على حياة القتال لأنها طريقتهم لرفع رؤوسهم عالية، لإبقاء حلمهم حياً.

إن المعاناة الفلسطينية معاناة وجودية ونفسية وإنسانية. إنها عميقة، وقاسية وبلا حدود، إنها رحلة عذاب.

مع الغروب نهضنا للعودة إلى مواقعنا الأصلية في كفرشوبا وكفرحمام. ولكي نعود، لا بد من النزول من التلة لأن العودة من الطريق نفسه الذي جئنا منه محفوفة بالمخاطر. هبطنا من التلة في الظلام وأصبحنا في السهل مقابل الدفاعات والرشاشات الإسرائيلية بما لا يتجاوز ثلاثمئة متر. وما إن بدأنا بالمسير ونحن ما زلنا قرب الحدود، حتى وُجّهت الكشّافات الإسرائيلية إلينا. لقد شعر بنا الإسرائيليون.

صرخ بنا أبو هاني لنستلقي ولا نتحرك بينما الكشّاف موجّه إلينا. مرّت الدقيقة كالسنة، انتظرت فتح نار الرشاشات الإسرائيلية الثقيلة وقذائف المدفعية المباشرة لنحصد في ثوان.

تذكرت أحاديث أبو هاني عن عشرات الفدائيين الذين قضوا في سهل الرعب هذا: ضباط ومقاتلون كثر قتلوا أثناء المرور في هذا المثلث الذي يقابل المواقع الإسرائيلية قرب قرية المجيدية اللبنانية. أحدهم اسمه شفيق، ما زاد تشاؤمي من هذه اللحظة.

عندما تحوّل الكشاف إلى نقطة ثانية، أمرنا أبو هاني بالركض بعيداً فركضنا كأننا في سباق لكسر الرقم العالمي في الجري. خلال ثوان عاد الضوء إلينا، فأمرنا بالانبطاح ثانية، ثم بعد تحوّل الضوء عنّا عدنا إلى الركض. بقينا نتحرك في منطقة الخطر لمدة ربع ساعة إلى أن وصلنا إلى منطقة آمنة بعد أن سيطر التعب علينا.

سرنا طيلة الليل، عبرنا السهل وبدأنا بصعود الجبل. وفي الطريق وجدنا منازل مهجورة وبيوتاً للبدو تركوها في ظروف الحرب. جلسنا في أحد المنازل المهجورة وكل منّا معه بطانية، ففرشناها على الأرض وارتحنا نصف ساعة، ثم تحركنا بين أشجار التين المنتشرة من حولنا.

وبدأ كلّ منا بتناول فطوره من أشجار التين والصبار، إذ اكتشفنا أن أبو هاني خبير في التقاطه وتقشيره من دون أن يؤذي يديه. لن ألتقي أبو هاني بعد ذلك، ولكن ستصلني أخباره: لقد سقط شهيداً في واحدة من أشرس معارك الجبل إلى جانب الحركة الوطنية اللبنانية في الحرب الأهلية اللبنانية.

الفصل السابع

الحرب الأهلية اللبنانية - حرب مع الذات

دخل لبنان في نفق أكثر ظلمة. فبالرغم من جهود التهدئة الكبيرة التي بذلتها حكومة رئيس الوزراء رشيد كرامي التي تألّفت في ١٩٧٥/٦/٣٠ لحل الأزمة، فإن قوى عديدة في الساحة اللبنانية وخارجها لم يرقها توصّل الأطراف إلى حل، إذ كانت لكل طرف حساباته. فرشيد كرامي، بدعم من القيادات التقليدية والتاريخية السنّية اللبنانية (اليافي، رشيد الصلح، صائب سلام، أمين الحافظ، المفتي حسن خالد وغيرهم) سعى بالتعاون مع موسى الصدر، الزعيم الشيعي الذي سيؤسس حركة أمل، ومع القيادات الفلسطينية، ولا سيّما ياسر عرفات، إضافة إلى عدد من القيادات المسيحية في الجهة الأخرى، إلى تطويق الحرب.

وقد تبلور في صفوف الحركة الوطنية اللبنانية وفي صفوف فصائل رئيسية في الساحة الفلسطينية (الجبهة الشعبية – القيادة العامة، الصاعقة السورية، الجبهة الديموقراطية، إضافة إلى دعم فعّال من سوريا) موقف ضمنيّ أو علنيّ يقول بضرورة الاستمرار في الحرب، لأن ذلك ينقذ لبنان من حزبي الكتائب والأحرار والانعزالية اليمينية، وقد يخلق من لبنان هانوي ترفد العمل المقاوم لإسرائيل. وقد رأى جناح مهم في حركة فتح بقيادة أبو صالح وأبو موسى وآخرين إمكان نصرة الحركة الوطنية في لبنان تمهيداً لإقامة حكم «تقدّمي» في لبنان.

لكن عرفات، البراغماتي ومعه تيار في الحركة الفلسطينية، لا يريد أن يشارك في الحرب. بل أصبح عرفات من أكثر المتعاونين مع حكومة كرامي والساعين إلى التهدئة لتفادي الحرب، لكن هذا لم يكن موقف جميع القيادات الفلسطينية. أما

سوريا فسعت، من خلال أصدقائها في لبنان، إلى دعم التصعيد لاقتناعها بأنه يصبّ في مصلحتها الإقليمية ورؤيتها السياسية الأوسع، وخاصة تصوّرات نظام حافظ الأسد الذي أراد تعزيز سلطته في سوريا من خلال الدور الإقليمي. وستثبت الأيام أن ثمن محاولة تجميع هذه الأوراق هو الآخر كبير على سوريا. إن الشهور الثمانية الأولى من الحرب اللبنانية شهدت بالتالي خلافاً ضمنياً، وليس علنياً، بين قوى التحالف السوري الفلسطيني واللبناني الوطني على هذه الاستراتيجية.

هذا لا يعني إعطاء حزبَي الكتائب والأحرار والتيار الانعزالي في الساحة المارونية مبرّرات وصك براءة، فقد غالت هذه الأحزاب في تلك المرحلة في تطرّفها وردود فعلها ومجازرها، ما أسهم في زيادة إشعال النيران بلا توقف.

لكن من المعروف، على سبيل المثال، أن اتفاقاً جرى التوصّل إليه بين عرفات ورئيس حزب الكتائب بيار الجميّل لتسهيل مهمة رشيد كرامي، وأن الذي توسط للاتفاق هو أبو حسن (علي سلامة)، المسؤول عن أمن عرفات، في يوليو/تموز عام ١٩٧٥، وقبل أن يدخل الاتفاق حيّز التنفيذ أُمطرت منطقة الأشرفية المسيحية بمئات القذائف من جهات مجهولة الهوية ومنظمات فلسطينية ولبنانية معارضة للاتفاق وأقرب للسياسة السورية الساعية في ذلك الوقت للتصعيد والتفجير. فكل اتفاق لا يحظى بدعم الأطراف الأخرى في الحركة الوطنية اللبنانية والفلسطينية وسوريا، حتى لو أقرّه ياسر عرفات، مصيره الفشل.

أما مصلحة إسرائيل فهي الأخرى اقتضت انتشار الحرب في لبنان وبدأ سعيها إلى مدّ خيوط وبناء علاقات مع الأطراف المتضررة في الجانب المسيحي في لبنان.

* * *

وصل إلى لبنان كمّ كبير من السلاح بطرق كثيرة. فالمقاومة الفلسطينية مسلّحة بالأساس، وخطّها للتسلّح يأتي عبر الحدود مع سوريا ومن خلال التهريب وعبر البحر. للمقاومة وسائلها، إذ كانت تعقد صفقات الأسلحة مع دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي والدول العربية المتعاطفة معها. أما الحركة الوطنية اللبنانية، فلها مصادر تسلحها، فضلاً عن أن المقاومة الفلسطينية هي الأخرى سلّحت حلفاءها اللبنانيين من الحركة الوطنية. وقد وجد حزبا الكتائب والأحرار طريقهما لجلب

السلاح عبر مرفأ جونية وعبر وسطاء دوليين ومن مستودعات أسلحة الجيش اللبناني نفسه.

السرية الطلابية في الميدان

أمام اندلاع الحرب وخاصة مع انهيار الأمن في كل أجزاء الجانب الإسلامي من بيروت خاصة، ومع ارتفاع نسبة هجمات الكتائب والأحرار، بدأ الطلاب من تنظيم الجامعات التابع لحركة فتح، ولا سيما اللبنانيون منهم، يجدون ضرورة أخذ موقف ودور في حماية سكان المناطق المتاخمة لخطوط التماس في الجزء الغربي ذي الأغلبية الأسلامية من بيروت. تشكلت السرية الطلابية في صيف ١٩٧٥ وأصبح سعد (عبد القادر جرادات) قائدها الأول. وُضعت السرية ضمن تشكيلات ميليشيا فتح في لبنان، التي يقودها جواد أبو الشعر، قائد ميليشيا لبنان.

أثناء مراحل القتال الأولى بدأت الجبهات تشتعل أكثر فأكثر مع المناطق التي تسيطر عليها الكتائب. وبدأت بيروت الغربية تقع تحت سيطرة الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة لاستباق أي محاولة من الكتائب والأحرار لاقتحام هذه المناطق. وهكذا في صيف ١٩٧٥، تحوّل شارع الحمراء ورأس بيروت وجميع المناطق ذات الأغلبية الإسلامية السنيّة أو الشيعية في بيروت إلى مناطق تسيطر عليها حركة فتح والحركة الوطنية اللبنانية وبقية المنظمات الفلسطينية.

وقد قرر الطلاب من تنظيم فتح بالرغم من كل تحفّظاتهم على الحرب الأهلية، حشد عناصر السرية الطلابية في فراغات أمنية في بيروت الغربية. جاء تحرك الشبان على شكل مبادرات وطنية شبابية لحماية منازل السكان في المناطق المأهولة إسلامياً، وقد وجدوا أيضاً أنهم يجب أن يحموا في الوقت نفسه الأقليات المسيحية في تلك المناطق من الأجواء الطائفية التي بدأت تنتشر بين الميليشيات في الشارع الإسلامي، والتي سادها الكثير من الغوغاء. في تلك المرحلة اختفى الجيش اللبناني والشرطة في معظم أنحاء بيروت، وبدأت كل مظاهر الدولة والأمن والقانون تنهار هي الأخرى.

أخذت السرية الطلابية على عاتقها أن يكون أول امتحان لها موقع البرجاوي

الاستراتيجي الملاصق للأشرفية والشديد الخطورة، لأنه يقع أسفل الأشرفية المرتفعة أمامه. البرجاوي بوابة منطقة رأس النبع الكبيرة والمكتظة بالسكان مكوّنة أساساً من المسلمين اللبنانيين السنّة. وقد أشرف عدد من الشبان مع نظير ومروان وأبو خالد جورج وأبو حسن وحمدي وعلي أبو طوق ومعين وحسن صالح وآخرين على تسلّم الموقع وتحصينه لمنع أي اختراق. وخلال فترة وجيزة منذ أواخر صيف ١٩٧٥، تحوّل البرجاوي إلى خلية نحل. أخطر ما واجه هذه الموقع هو القصف والقنص الدائمان.

أحمد القرى هو أحد المشاركين مع الشبان في البرجاوي. وأحمد شاب لبناني من رأس النبع، في الثالثة والعشرين من عمره، من أعمدة العمل الطلابي. لقد تطوّع في مجال الإسعافات الأوّلية في مركز قيادة حي البرجاوي. لكن أثناء وجوده في المركز يوم ٢٢ سبتمبر/أيلول ١٩٧٥ تعرّض حيّ البرجاوي لقصف مدفعي عنيف وقنص أدّيا إلى جرح مقاتل من السرية الطلابية في المواقع الأمامية.

حمل أحمد جعبة إسعافاته الأوّلية وتحرك بسرعة مستخدماً الأزقة الضيّقة للوصول للجريح. وقبل وصول أحمد بثوان، إذا بقناص في الجهة المقابلة يصيبه عدة إصابات. هرع الشبان لنقله، لكنه فقد حياته قبل أن يصل إلى المستشفى.

هذه من أولى تجارب السرية الطلابية المباشرة مع الموت، وذلك بعد اندلاع الحرب بحوالى خمسة أشهر. فقبله سقط الشهيد من السرية مجاهد الضامن وهو يدرّب قوات لحركة أمل التي أنشأها حديثاً الإمام موسى الصدر.

أم أحمد القرى

مثّل استشهاد أحمد صدمة لأعضاء السرية ومناصريها، إذ نُقل جثمانه بصمت وذهول إلى المستشفى تمهيداً لإبلاغ والدته أم أحمد وإخوته وأختيه. إيصال النبأ إلى أم أحمد القرى في رأس النبع هو الأصعب. فأحمد ابنها الأكبر، وقد أخذ مكان والده بعد وفاته، متحمّلاً مسؤولية العائلة المكوّنة من خمسة إخوة وفتاتين. أم أحمد وأبناؤها وابنتها آمنة من النشطاء في العمل الطلابي لفتح، والهم الوطني العام جزء من حياتهم اليومية.

دُفن أحمد في مقبرة شهداء فلسطين، وسار في الجنازة شبان السرية ومناصروهم. وفي المستقبل سيدفن في هذه المقبرة كلّ من قاتل من أجل القضية الفلسطينية من العرب واللبنانيين والفلسطينيين ممن أمكن إحضار جثامينهم بعد القتال.

تلقّت أم أحمد نبأ استشهاد ابنها بصبر وعزيمة. مع الوقت ستتحول أم أحمد إلى رمز لأم الشهيد في هذا الوسط الشبابي. وسيكون حضورها بين شبان السرية الطلابية ملهماً للطلاب ممن تركوا عائلاتهم في مجتمعات ودول شتى. أم أحمد شخصية مبتسمة ومتدينة، والدين بالنسبة لها في جانب أساسي منه إيمان يدفع للتسامح والتفاؤل بما سيكون في اليوم التالي.

وستجد آمنة، ابنة أم أحمد، التي لم تتجاوز الثامنة عشرة، أنها أكثر التزاماً بالسرية الطلابية وأنشطتها في مجال العلاج والتموين والإسناد.

لكن سيشعر الابن الأصغر لأم أحمد، جمال، بضرورة أن يمارس دوره بعد موت أحمد. لهذا تحرّك جمال الذي لم يبلغ السادسة عشرة من العمر مع صديقه حماد حيدر إلى أحد المواقع القتالية للسرية في منطقة عيون السيمان الجبلية الوعرة في مواجهة قوات الكتائب وحلفائهم. لم يعرف أحد من قادة التنظيم في السرية الطلابية بتحرك جمال. فوفق تقاليد العمل الفدائي، لا يُرسل شاب سقط له أخ شهيد إلى موقع متقدم خطر، كما أن شابًا في الخامسة عشرة من العمر يجب أن لا يكون في موقع متقدم كهذا.

يوم مجيء جمال شنّت قوات الكتائب والأحرار وحلفائهما هجوماً كبيراً على الموقع الذي كان فيه جمال. ستُباد المجموعة التي معها جمال، وسيبتلعهم القتال وتختفي آثارهم. ستفجع أم أحمد ثانية بابنها. هذه المرة وضعت أم أحمد اسم جمال على قبر أحمد ليكون إلى جانب أخيه رمزياً، فليومنا هذا لم يصل جثمان جمال إلى عائلته.

أما حماد حيدر الذي لم يبلغ السادسة عشرة والذي سقط في القتال إلى جانب جمال، فقد صدم موته عدداً كبيراً من الشبان والشابات ممن في عمره. تروي لي صديقة له كانت معه قبل ساعات من موته: «أذكر أنني ودّعته، وودّعته صديقته التي

أحبته حباً كبيراً قبل ذهابه إلى الجبل في الصباح. في المساء جاء خبر استشهاده. لكنّ تقاليد النضال تفرض علينا أن نتماسك وألا نبكي شهداءنا أثناء مراسم العزاء. لقد تماسكت أثناء العزاء المؤلم وحبست دموعي. لكنني بكيت بحرقة كبيرة عندما كنت أختلي مع نفسي متذكرة أنه لن يعود».

معركة البرجاوي: رهبة القتال

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٥، أثناء زيارة لي لبيروت قادماً من نسور العرقوب في الجنوب، فوجئت بعبد الفتاح، المسؤول (منذ تخرّجه أخيراً من الجامعة) عن مركز المعلومات في القطاع الغربي يبلغني عن معركة كبيرة نشبت في البرجاوي. عبد الفتاح يدير هذا المكتب الذي سبق لـ«أبو حسن قاسم» أن أسّسه. بدا لي عبد الفتاح على غير عادته قلقاً على الشبان:

«نجح المقاومون من المجموعات الطلابية في صدّ الهجوم الذي استمر ست ساعات، ولكنهم فقدوا عدة شهداء بعد سقوط بعض المواقع ومحاصرة المجموعات».

في ذلك اليوم العصيب سقط سليم إدريس فرج الله (عزمي إبراهيم) شهيداً، وجُرح كلّ من أبو ربيع وعاطف وبكري، إضافة إلى سقوط موقع كبير عرف باسم الطبية، وهي كلية الطب التابعة لجامعة القديس يوسف الملاصقة للحي.

في هذه المعركة قاتل علي أبو طوق وحده في واحدة من أشرس المعارك، كأنه عشرة أفراد من فوق أسطح المنازل المتلاصقة، مستخدماً القنابل اليدوية. وفي جانب آخر قاتل سعد، ما أدّى إلى نجاحه مع علي أبو طوق والبقية في الحفاظ على حي البرجاوي من السقوط، إذ استمرت المعركة ست ساعات بلا توقف. أحد الشبان، عدنان أبو الهيجا، قاتل بقوة أمام تدفق عشرات الشبان من الكتائب لمحاصرته. رشقوه بطلقات عديدة مزّقت جسده بالكامل.

أصبح عدنان أبو الهيجا في نزاع مع الحياة والموت. أُدخل إلى المستشفى وبدأت قصة إنقاذ حياته على مدى شهور طويلة.

عند وصولي إلى حي البرجاوي مع عبد الفتاح وجدت القصف ودوي المدافع

والدخان يعلوان كل شيء. فوجئت بسعد (عبد القادر جرادات) يناديني: «جهاد، سنحتاج إليك اليوم. سنقوم بعد ساعة بتحرير موقع الطبية الذي سقط هذا الصباح، نريدك قائداً لقوة الإسناد أثناء الاقتحام».

قلت: «أفضّل أن يقود المجموعات أحد غيري، فأنا لم أقاتل في معركة في السابق».

سعد: «ستفعل أحسن ممّا تتوقع. بمجرد بداية اقتحامنا، أمطر شبابيك هذه الأبنية بوابل من الرصاص، ثم بعد أن نصبح داخل الطبية يجب أن تترك مواقعك الإسنادية في هذه البناية وتنضم إلينا داخل الموقع لنكمل عملية الاقتحام معاً. نحن نتعلم الحرب بالحرب».

تجمّعت معي مجموعة من عشرة شبان وصعدنا إلى مبنى ملاصق للطبية ومطلّ عليها واختبأنا خلف شبابيكه بانتظار ساعة الصفر. وقد حمل كل منا رشاش كلاشنيكوف وذخائر كافية للإسناد، لكن إضافة لذلك كان معنا رشاش ديكتريوف، وبندقية ناتو وقنابل يدوية.

ساعة الصفر هي الرابعة بعد الظهر. قاد سعد المجموعة المهاجمة التي تكوّنت من سبعة طلاب حاليين أو متخرّجين جدد أو عاملين مع أبو حسن في القطاع الغربي، منهم نائب قائد السرية أبو الراتب، وحمدي، وعلي أبو طوق، وحسنين (المقاتل الذي خرج بعد ثماني سنوات من سجن إسرائيلي) وركس وعبد الفتاح وآخرون. فجّروا الباب الرئيسي للكلية الطبية، ثم تسللوا إلى داخل الطبية من نقطة التفجير واحداً تلو الآخر. أما نحن فأطلقنا نيراناً كثيفة لمنع أيّ من القناصة من القوى الكتائبية وحلفائها من إطلاق الرصاص على المجموعة المهاجمة أثناء قطعها للشارع. خلال دقائق أصبح الشبان بقيادة سعد في الداخل ونحن نسمع رماياتهم.

عندما هممت بالالتحاق بهم، كما هو الاتفاق، تبيّن أن ذخائرنا قد نفدت. فجميعنا بلا خبرة ولم أكن قد تعلّمت كيف أقتصد في ذخيرتي أثناء القتال. وإذا بحشد من القادة والمسؤولين من فتح والحركة الوطنية يتقدّمهم أبو داوود قائد بيروت الغربية من قبل المقاومة الفلسطينية عند نقطة التجمع خلف موقع الاقتحام

يطلب منا التمهّل إلى حين مجيء الذخيرة. أصررت على اللحاق بهم، علا صوتي بانفعال واضح مصرّاً على تأمين الذخائر الآن. فما كان من أبو داوود إلا أن أمر الجميع بإعطائي الذخائر. أخذت ذخائر المجموعات المحيطة بي وذخائر حراسات أبو داوود وقطعت الشارع وورائي المجموعة المكوّنة من عشرة شبان.

التقيت سعد والآخرين، ودهمنا الطبقات في المبنى معاً. ولحسن الحظ لم تقع معركة مباشرة، فالكتائب انهاروا وتركوا المبنى أثناء اقتحام سعد ولم يقاتلوا.

ولكن في نهاية تقدمنا في الطبية تواجه ركس مع شاب من الكتائب قرب سور الطبية المطل على الأشرفية، ولم يفصل أحدهما عن الآخر سوى متر ونصف. تحادثا، وكلّ منهما يظن أن الآخر من جماعته. كلاهما (ركس الفلسطيني مقابل الشاب الكتائبي) ذوا ملامح شقراء ووجه شديد البياض. وكلاهما يتشابهان في المنظر والملامح، كأنهما أخوان من أم واحدة. ولكنّ ركس اكتشف من نوع البندقية (أم ١٦) التي يحملها الشاب الكتائبي أنه عدوّه، ما لبث أن عرف الكتائبي أن ركس من الفدائيين وأنه عدوّ بفارق جزء من الثانية حين انتبه أنه يحمل رشاش كلاشنيكوف سوفياتياً. عند تلك اللحظة، أطلق الاثنان النار أحدهما على الآخر في الوقت نفسه. أصيب ركس بساقه، وأصيب الشاب الكتائبي في رأسه وقلبه فقتل فوراً. وعندما نُقل الشاب الكتائبي المتوفى ظنّ معظمنا أنه ركس.

هطل المطر بغزارة في تلك الليلة، لقد غسل المطر كل شيء، ربما عبّر لنا عن فرح السماء بانتهاء المعركة، ولكنه على الأغلب عبّر عن غضبها بحصولها.

بقينا في الطبية عدة ساعات إلى أن جاء سعد وأبلغنا أنه آن الأوان للتبديل مع مجموعات أخرى من الطلبة. عدت إلى مركز قيادة البرجاوي، لأجد أمامي جواد أبو الشعر قائد ميليشيا لبنان التابعة لحركة فتح، يرافقه صديقه محجوب عمر. قال لي محجوب بلكنته المصرية الطريفة: «بتعمل إيه هنا يا جهاد؟». قلت: «في إجازة من نسور العرقوب، سأعود بعد يومين، لكن الإجازة تحوّلت لتطعيم بالنيران كما ترى».

تكررت اللقاءات بجواد أبو الشعر الذي امتلك ملامح شرقية عربية لا تخطئها العين. لقد تميّز جواد بنقائه وقدرته على التعامل مع تنوّع عناصر الميليشيا في

لبنان، من فلسطينيين ولبنانيين. جواد ومحجوب قلّما يفترقان، فقد جمعتهما علاقة قديمة وتاريخية. يعمل جواد بلا توقف، يستمع جيداً إلى الآخرين.

أثناء التحدث مع محجوب وجواد، إذا بـ«أبو فادي» (منير شفيق) في البرجاوي أيضاً، وكنت التقيته عدة مرات في نقاشات امتدت لساعات خاصة في مركز التخطيط الفلسطيني. أسرع منير في تهنئة الشبان، إذ شعر بفخر كبير بما قاموا به ثم أردف: «هذه خطوة كبيرة. ما قمتم به سيساعد على إيقاف الحرب لكي ننتقل بعد ذلك إلى موقعنا الطبيعي في الجنوب».

وفي البرجاوي التقيت للمرة الأولى سمير الشيخ، الطالب اللبناني القيادي في الجامعة الأميركية وأحد مؤسسي السرية الطلابية. سمير لديه حضور. فإن جلس في غرفة ملأها طاقة، ولديه قدرات تحليلية عميقة وثقافة متميّزة تؤهله لأن يكون مفكراً سياسياً من الطراز الأول. والتقيت معتصم دمشقية ابن بيروت الحالم بلبنان أفضل بعد كل وقف لإطلاق النار.

أما عبد الفتاح فنشأت بيننا صداقة طويلة منذ تلك الحادثة. فهو الآخر استمر في التزامه منتقلاً من موقع إلى آخر في تلك المرحلة الحساسة من الحرب. التقيت في البرجاوي مجدداً القائد الطلابي حسن صالح. حسن شاب نقابي التوجّه من اتحاد طلبة فلسطين، التزم مع السرية منذ بدايات عمله مع التنظيم الطلابي، لكن لحسن قدرات أدبية وكتابية، لهذا أصدر مجلة «الاتحاد» الشهرية التي من خلالها حُفظ الكثير من أسماء الشهداء.

في البرجاوي تعلمت درساً لن أنساه: فبعد أن يبدأ القتال بدقائق قليلة تختفي مظاهر التوتر التي يختبرها المقاتل قبل بدء القتال. وأهم ما في الحرب هو الاقتناع بالمعركة من جانبها السياسي ومبرراتها. لهذا بالتحديد تتفوق القوات الأقل تدريباً على جيوش جرارة إن آمنت بالمبدأ واقتنعت بما تقوم به. القتال احتضان للموت وطرد له في الوقت نفسه.

بعد الانتهاء من القتال تكون الراحة مختلفة، فهذه أول مرة أعرف فيها معنى «استراحة المحارب» الدارجة على ألسنة الناس. استراحة المحارب تأتي بعد ضبط

النفس تجاه الخوف والقلق. أن تنتظر قذيفة قد تسقط على رأسك برباطة جأش من أهم المشاعر التي لا يعرفها المرء إلا مع الحرب.

بعد معركة البرجاوي انطلقت السرية الطلابية وذاع صيتها. وقد انضم إلى جهد السرية شبان وطلاب جامعيون من كل مكان.

الكلية العسكرية: الاحتراف

حصل تطوّر مفاجئ في نسور العرقوب في بدايات كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥، فقد سعى قائد الكتيبة نعيم، إضافة إلى عدد من المسؤولين في نسور العرقوب منهم «منجد» و«أبو دلال»، لإرسالي إلى دورة ضباط في كلية فتح العسكرية الموجودة في سوريا. وقع العرض عليّ كأنه حلم، فالدورة مدّتها عام وهي في سوريا، والتدريبات التي تتضمّنها شاقة.

سجلت اسمي، لكن لا بد من مقابلة شخصية. دخلت إلى المقابلة وإذا أمامي أبو جهاد (خليل الوزير) وهو ثاني شخصية في العمل الفدائي ومعه لجنة من العسكريين بينهم سعد صايل وهو رئيس أركان قوات المقاومة. سألني أبو جهاد: «تحدث عن نفسك؟» فعرّفت عن نفسي وتجربتي. سألني «منذ متى أنت في العمل الفدائي؟» فقلت له «منذ نيسان/ أبريل ١٩٧٥». وأردفت «إنني من التنظيم الطلابي أساساً خاصة تنظيم فتح في الولايات المتحدة وقد تخرجت من جامعة جورج تاون منذ بضعة شهور».

فوجئ أبو جهاد. لا أعرف ماذا دار في ذهنه وفي ذهن اللجنة، لكنهم سُرّوا بوجودي وارتفعت علامات استفهام. نظر أبو جهاد بابتسامته الهادئة: «أحيّيك على روحك. لكن هل تعلم كيف ستكون هذه الحياة بالنسبة إليك؟».

قلت «هذا ما أسعى إليه، وكما تحمّلتم أنتم بإمكاني أن أتحمّل».

وافق أبو جهاد ووافق سعد صايل الذي تُعرف عنه جديته الكاملة ووجه لا يبتسم أبداً. هكذا قُبلت في الكلية العسكرية لفتح.

ومنذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥ بدأت أخضع مع عشرات الشبان القادمين من

كل قواعد حركة فتح وقواتها العسكرية «العاصفة» لبرنامج تدريبي شامل ومرهق. ركض ومسير لساعات كل يوم، تدريب على أسلحة ومهارات قتالية وقياس تحمّل وفن الحرب والتكتيك وتعلّم الخرائط العسكرية واستخدام البوصلة والمدفعية وأنواعها. في الكلية العسكرية بدأت أتعامل مع موضوع الحرب باحتراف.

المسؤولون في الكلية كانوا من متخرّجي أهم الكليات العالمية، ومن الذين تمرّدوا في حرب أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ الأهلية وانشقوا عن الجيش الأردني وانضموا إلى الفدائيين، بل ربما وصل عدد الذين انشقوا عام ١٩٧٠ إلى خمسة آلاف، وانتقل قطاع كبير منهم إلى جنوب لبنان بعد ذلك ضمن العمل الفدائي. منهم قائد الكلية على سبيل المثال الرائد مطلق حمدان ذو الشخصية القيادية وهو من جذور شرق أردنية. أما القيادي الآخر في الكلية فكان النقيب سميح نصر الذي يتسم بالطبع الهادئ الرزين والذي عمل نائباً للرائد مطلق ورئيساً للمدربين. أما القيادي الملازم أول يونس العاص الذي أثار إعجاب المتدربين فكان قائداً لسرية التلاميذ.

هذه فترة ذهبية لتكوين الهوية الوطنية الفلسطينية ومشروع تحرير فلسطين. وكان معنا عدة شبان من لبنان، منهم أدهم وربحي وجميل. وكان معنا أيضاً أربعة شبان من ثوار إريتريا.

ربحي وأدهم والمقاومة الفلسطينية

سألت ربحي، محاولاً فهم دوافع التزامه بالقضية الفلسطينية وهو اللبناني السني (وفق تقسيمات لبنان) من بيروت، فأجاب:

«عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري هاجم الجيش اللبناني الفدائيين في ٢٣ نيسان ١٩٦٩، فانضممت إلى تظاهرة كبيرة دعماً للمقاومة، لأنني رأيت في المقاومة نصيراً للضعفاء في لبنان».

ويستمر ربحي بالكلام:

«أثناء التظاهرة في منطقة البربير في بيروت، بدأنا نتعرّض لرماية غزيرة من رشاشات الجيش اللبناني. سقط أحد الطلاب قربي أرضاً والدماء تنزف من رجله كأنها نافورة مياه. قتل قربي عدد من الطلبة، ركضت هرباً إلى منطقة أخرى في أزقة

بيروت وصولاً إلى جامع جمال عبد الناصر. فما كان من الجيش إلا أن حاصرنا ليمنع علينا طرق الهرب».

«في هذه اللحظة حملت حجراً للدفاع عن نفسي. المسافة بيني وبين الجندي اللبناني لم تتجاوز أمتاراً. لكنّ الجندي صوّب على رأسي وأطلق النار فأصابني في فمي ورقبتي. ركض أصدقائي في اتجاهي ونجحوا في نقلي إلى المستشفى. هذه الحادثة غيّرت مجرى حياتي».

ويستمر ربحي:

«بعدما شُفيت غادرت منزل أسرتي باحثاً عن الانضمام إلى المقاومة. ولصغر سنّي لم تقبلني أيّ منظمة، وبعد أسبوعين وجدتني أسرتي وأقنعتني بالعودة لتكملة دراستي. وأثناء المدرسة وجدت في منظمة الاشتراكيين اللبنانيين ثم منظمة العمل الشيوعي خير مكان للتعبير عن طموحي الوطني والقومي. لكن ما حصل عام ١٩٧٣ إبان القتال بين الفدائيين والجيش اللبناني فرض علينا أن نناصر الفدائيين أكثر. لهذا انشققنا عن منظمة العمل، أنا وأصدقائي أدهم ورياض وعشرات الشبان والشابات، وانضممنا إلى تنظيم حركة فتح الطلابي في الثانويات وفي الجامعات».

وبعد توقف قليل يعكس طبيعة سرد ربحي لتجاربه المشوّقة أردف: «منذ بداية الحرب الأهلية تمركزت مع شبان السرية الطلابية في منطقة الشياح ذات الأغلبية الشيعية للدفاع عنها، وعملنا مع شاستري، القائد في فتح، وخضنا معارك كثيرة إلى أن رشّحت للكلية العسكرية».

ثم نظر إليّ نظرة عميقة بينما بدا كأنه يلقي خطابه الأهم: «أنا لبناني مئة في المئة، لكني عربي أيضاً وأتأثر بما يحصل لجيراني العرب، ولا أستطيع أن أقبل تصفية القضية الفلسطينية لأنها تصفية لي وللبنان وللمستقبل العربي».

أما أدهم، فلم تختلف تجربته عن تجربة ربحي في أبعاد عديدة، إذ بدأ يسارياً معارضاً وهو في سن المراهقة منضماً إلى منظمة الاشتراكيين اللبنانيين. وقد شارك في التظاهرة الكبيرة نفسها التي أدّت إلى مقتل وجرح الكثير من الطلاب. ولكن بعد أن أصبحت منظمة الاشتراكيين اللبنانيين منظمة العمل الشيوعي بفترة من الزمن،

انشق عنها أدهم أسوة بربحي مطالباً بالمزيد من الدعم للفدائيين، وصولاً إلى ممارسة الكفاح المسلح.

لكنّ أدهم، بخلاف ربحي البيروتي، من قرية جنوبية شيعية عانت من إهمال الدولة اللبنانية كما عانت من قيام إسرائيل. فمع قيام إسرائيل دُمّر اقتصاد الجنوب الذي اعتمد أساساً على فلسطين، وخسرت قرى جنوبية عدة أراضيها للاحتلال الإسرائيلي، ووقعت قرى جنوبية ضحية مجازر وهجمات إسرائيلية.

أدهم الجنوبي نشأ في منطقة الأشرفية المسيحية ذات الطبقة الوسطى وما فوق، شعر بالكثير من الغربة واللاإنتماء، ما زاد من حدّة وعيه اليساري. لكن الأهم أن الشيعة في لبنان في ذلك الزمن في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي تحوّلوا إلى أهم قاعدة لليسار اللبناني العلماني القومي وأفكاره الداعية إلى المساواة بين اللبنانيين وإلغاء الامتيازات الطبقية العائلية للعائلات الإقطاعية الكبيرة.

محمد شحادة والسبت الأسود

في الأيام الأولى في الكلية العسكرية وفي مهجع النوم تعرفت إلى محمد شحادة الذي وضع سريره إلى جانب سريري. محمد من مخيّم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين، الذي خضع منذ بدايات يناير ١٩٧٦ لحصار محكم من جميع الجهات من قبل حزبي الكتائب والأحرار، وإن كان يخف الحصار بين حين وآخر بحسب اتفاقيات وقف إطلاق النار. وقد اكتشفت أن محمد وعبد الله حمدان وشاباً ثالثاً اسمه فرج في المهجع ذاته، وجميعهم من مخيم تل الزعتر، لا ينفصلون.

محمد شحادة لم يكن يتجاوز التاسعة عشرة من عمره (فهو يصغرني بثلاثة أعوام ونيف)، وهو من مواليد مخيم تل الزعتر عام ١٩٥٧. حين كان يضحك يسمعه الجميع في أرجاء المعسكر. بدأ محمد نشاطه الفدائي وهو في الرابعة عشرة، وقد أرسلته منظمة أيلول الأسود التابعة لفتح في مهمة إلى الخارج لاستهداف مركز تجاري إسرائيلي في ألمانيا في عام ١٩٧٢، وقد حوكم في محكمة ألمانية وأطلق سراحه لأنه قاصر.

يردّد محمد باستمرار ذلك الخطاب الذي ردّده أمام المحكمة الألمانية عن بلاده

وعن قريته في فلسطين: «المخيّم ليس منزلي، أنا لي وطن اسمه فلسطين، أُخذ مني بالقوة وسوف أقاتل كل يوم لأعود إليه». محمد يتحدث ببراءة شديدة تعكس ذلك الطفل الذي يحمله في أعماقه.

لكنّ محمد شحادة وعبد الله حمدان وزميلهم الثالث فرج سبّبوا قبل مجيئهم إلى الكلية بأسابيع أي في الثالث عشر من ديسمبر ١٩٧٥ أزمة كبيرة مثّلت منعطفاً في الحرب الأهلية بين المقاومة الفلسطينية والكتائب. وقد وصف لي محمد شحادة ما قام به في تلك الليلة المظلمة:

«تقمصنا دور مقاتلين في حزب الكتائب. لبسنا ملابسهم، وحملنا رشاشات أم ١٦ التي يحملها أفراد ميليشيا حزبهم وأقمنا حاجز تفتيش وسط مناطق تسيطر عليها الكتائب على طريق بيت مري - برمانا. قلدنا لهجتهم وطريقتهم بالتعامل حتى نبدو كأننا من تلك المناطق. مرّت سيارة، طلبنا الهويات، فاكتشفنا أنهم قيادات للكتائب. لم يشكّوا لحظة في أننا لسنا كتائب. جرّدناهم من المسدسات، بينما هم يؤكدون لنا أنهم قادة في الحزب، ويجب ألا نشكّ فيهم».

قلنا لهم «تحقيق سريع للتأكد من الهويات عند القيادة. هكذا أخذ عبد الله الأول بين الأشجار على أساس أنه سيأخذه إلى قائد الحاجز، ولكن لم يكن هناك أحد، فأعدمه. وقد حصل هذا مع الثاني ثم الثالث».

فقلت له: «كيف فعلت هذا يا محمد، أنتم سببتم كارثة. كيف تصرّفتم بلا أوامر من أحد؟ خاصة أن تلك فترة وقف إطلاق نار وياسر عرفات يحاول إيقاف الحرب؟».

ردّ عليّ: «لم نكن نعلم أننا سنتسبّب بكارثة. فقد قُتل لنا الكثير من الشبان في المخيّم على أيدي الكتائب، وأردنا أن ننتقم لأصدقائنا، وخاصة أن فتح تقود تهدئة وراء تهدئة، بينما يُقتل أصدقاؤنا. وحين كشف الأمر، أراد المسؤولون في فتح أن يعاقبونا بحكم أننا أعضاء في فتح، لهذا اضطررنا إلى الاختباء لفترة. لكنّ ردّ فعل الكتائب وارتكابها مجازر «السبت الأسود» ضيّعا الموضوع ونسي الجميع ما قمنا به».

لقد نتج من قتل محمد شحادة وعبد الله حمدان وفرج للقياديين من الكتائب أن

ارتكب حزب الكتائب مجزرة السبت الأسود بحق مئات المسلمين المدنيين. وقعت المجزرة بتاريخ الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥ عندما قامت قوات محسوبة على بشير الجميّل ذي الشخصية الكاريزماتية في حزب الكتائب وابن مؤسّسه بيار الجميّل، بقتل عشرات من المسلمين المدنيين على الحواجز بدم بارد، إضافة إلى خطف ما لا يقل عن ٣٠٠ مسلم قُتل معظمهم بعد الخطف. صفّوا المدنيين أمام جدران قرب الحواجز وأعدموهم رمياً بالرصاص.

في حمّى الحوار نظرت إلى محمد بينما عبد الله وفرج إلى جانبه وقلت: «ألا تعتقدون أن هذا يسبّب حقداً لن ينتهي إلا بتدمير المخيّم وتدمير لبنان وإبعادنا عن حلم تحرير فلسطين؟ أنتم تنتقمون لأصدقائكم وهم ينتقمون لمقتل أصدقائهم، والخاسر الأكبر هو القضية الفلسطينية».

محمد شحادة: «هذه معركة حياة أو موت».

لكن يا محمد، أردفت قائلاً: «ستعود قريباً قائداً عسكرياً للمخيم ومعك عبد الله وفرج. أنتم شبان أنقياء، ومع ذلك بإمكانكم أن تسبّبوا كارثة يُقتل فيها عشرات المدنيين. إن ضبط النفس ثمن يجب أن ندفعه لنبقي قضية فلسطين في مصاف القضايا الأخلاقية في العالم. إن قضيتنا قضية أخلاقية وإنسانية ويجب أن نتصرف بأخلاقية عالية».

ببراءة وابتسامة قال محمد: «سأفكر. أنت تفكر كما يفكر د. محجوب عمر، فهو جاء إلى المخيّم وأمضى فترات معنا. حاولنا أن نطبّق بعض ما قال، لكننا عدنا إلى مبدأ السن بالسن والعين بالعين والبادي أظلم».

أما عبد الله وفرج، فلم يعلّقا كثيراً.

لكن عبد الله الذي كانت ملامح القساوة ترتسم على وجهه باستمرار، ولديه تحكم واضح بكل الانفعالات التي تصدر عنه قال بهدوء بعد أن أخذ نفساً عميقاً: «مسؤولو الكتائب أخذوا جزاءهم عن كل ما فعلته الكتائب. والثمن علينا أن ندفعه في كل الأحوال، قاتلنا أو لم نقاتل. الأفضل أن نموت مقاتلين، هذه الإنسانية لن تنفعنا. انظر ماذا حصل بنا في فلسطين».

الكلية العسكرية: بين الانضمام للقتال وأخلاقياته

أثناء وجودنا في الكلية، ازدادت الحرب الأهلية اللبنانية اشتعالاً، وبالفعل اقتُحم مخيّم الضبية الفلسطيني في الرابع عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٧٦، وهو مخيّم مسيحي فلسطيني وسط المناطق التي يسيطر عليها حزب الكتائب، إضافة إلى اقتحام منطقة المسلخ والكرنتينا ذات الأغلبية المسلمة الشيعية الفقيرة، حيث هُجّر أهلها وقُتل العشرات منهم في التاسع عشر من ذاك الشهر.

وقد أنشأ اليمين ما عرف بـ«الجبهة اللبنانية» لتكون تحالف عدة أحزاب وشخصيات يمينية لمواجهة الحركة الوطنية اللبنانية. ترأس الجبهة الرئيس الأسبق كميل شمعون زعيم حزب الوطنيين الأحرار. ومن قادتها أيضاً رئيس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميّل والرئيس سليمان فرنجيّة، إضافة إلى إتيان صقر رئيس حزب حراس الأرز. وقد أنشأت الجبهة «القوات اللبنانية» لتكون جناحها العسكري تحت قيادة بشير الجميّل (الكتائب والأحرار والجيش اللبناني المنضم إليهما وحراس الأرز). طالبت الجبهة اللبنانية بسيادة لبنان على كامل أراضيه، واعتبرت الفلسطينيين العدوّ الأول لها، فيما اعتبرت جنبلاط والحركة الوطنية اللبنانية واليسار اللبناني العدوّ الثاني. ومن بين مقترحاتها إقامة نظام فدرالي. لكنّ الحركة الوطنية اللبنانية أطلقت على الجبهة اللبنانية لقب الانعزاليين، ورأت أنها تسعى إلى تقسيم لبنان والتحالف مع إسرائيل.

في المقابل أنشأت القوات الفلسطينية وقوات الحركة الوطنية اللبنانية «القوات المشتركة»، ولكنها ستنجر إبان الحرب إلى السياسة نفسها التي مارستها الجبهة اللبنانية، فأمام سقوط مخيّم الضبية الفلسطيني والمسلخ والكرنتينا وجدت هذه القوات أنها مضطرة لإثبات قوتها: فاقتحمت مناطق الدامور والجية والسعديات، الواقعة وسط المناطق الإسلامية على الساحل الجنوبي لمدينة بيروت. حدث ذلك في السابع عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٧٦. وقد حوصر الرئيس شمعون في قصره، لكنّ عرفات أرسل له أثناء القتال من يُخرجه من قصره إلى مناطق آمنة.

بسبب التداخلات بين كل الأطراف بدأت قصة الحرب تسير في طريق التصعيد من جولة عسكرية إلى أخرى. لقد فشل رشيد كرامي في تحقيق مساعي التهدئة

منذ ترأس الوزارة في ١ يوليو ١٩٧٥. استمرت الحرب بين أطراف يعتقد كل منها أنه قادر على تحقيق نصر نهائي.

أمام تطوّر الأحداث إذا بقائد الكلية العسكرية لفتح، ونحن في سوريا، يجمعنا ليعلمنا قراراً صادراً من قيادة الثورة الفلسطينية وقوات العاصفة بدخول جميع القوات الفلسطينية في لبنان وسوريا الحرب اللبنانية، وذلك لأن الجيش اللبناني، بأوامر من رئيس الجمهورية سليمان فرنجية، قد نزل إلى الساحة بثقله إلى جانب قوات الكتائب والأحرار. وضح لنا أن الحرب انفجرت على مصراعيها مع أواسط كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦. لقد دفعت فتح بكل قواتها إلى المعركة. هكذا اضطر عرفات في بدايات ١٩٧٦ إلى رمي ثقله مع الحركة الوطنية اللبنانية لينجح في استمالتها إلى جانبه وتخفيف نفوذ سوريا عليها، بالإضافة لمعرفته أنها قاعدته الرئيسية في الجنوب في مواجهة إسرائيل.

نُقلنا إلى البقاع اللبناني للمشاركة في الحشد العسكري الكبير، وإذا بنا قرب شتورة التي عرفتها في طفولتي نقطة ذهاب وإياب بين بيروت ودمشق مع عائلتي ووالدي. انتظرنا يومين في تلك المنطقة التي تعجّ بألوف المقاتلين من القوات الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . اصطفّت أثناء مرورنا الجماهير اللبنانية على جوانب الطرق تحيّينا منتظرة منّا أن ننقذها من الحرب الأهلية وأن نحميها وأن نحسم المعركة مع الكتائب والأحرار في زحلة وفي بيروت والجبل.

أشرف أبو جهاد على الاستعدادات، وخطط للعملية العسكرية الكبيرة التي يفترض أن تحسم المعركة في جزء كبير من الأراضي اللبنانية. إن تحالف عرفات مع كمال جنبلاط وتحالف المنظمات الفلسطينية مع منظمات الحركة الوطنية اللبنانية أصبح متيناً، وسوريا هي الأخرى أيّدت بقوة هذا السعي لهزيمة الجبهة اللبنانية.

اختير عدة شبان من مهجع المتدربين للقيام بمهمة خلف قوات الجيش اللبناني الرسمي في الليلة نفسها التي سيبدأ إبانها انشقاق كبير في الجيش اللبناني بقيادة الرائد أحمد الخطيب. في تلك الليلة الحاسمة ستشتعل كل الجبهات. ولكن عدم اختياري ضمن المجموعة أغضبني. يبدو أن الضابط المسؤول، وهو برتبة ملازم ومسؤول عن مهجعنا الرئيسي في الكلية، قرر أنني لا خبرة لي لهذا النوع من

العمل. لكنّه، أمام احتجاجي، ضمّني إلى المجموعة المكوّنة من أحد عشر مقاتلاً.

لبسنا ملابس مدنية وانتقلنا سراً عبر حواجز الجيش اللبناني إلى قرية بوارج المشرفة على البقاع والواقعة على الطريق بين بيروت والبقاع من جهة ظهر البيدر المرتفع بحدود ١٥٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر. هناك تسلّمنا أسلحتنا الكاملة وتجهيزاتنا في منازل أبناء القرية وهم من المناصرين للمقاومة الفلسطينية ولفتح. بعض هؤلاء المناصرين كان متردداً في استقبالنا أو كان خائفاً وعبّر عن امتعاضه من وجودنا، فنحن مكثنا في منازل أعضاء التنظيم لحين حلول الليل.

تحركنا ليلاً نحن الأحد عشر مقاتلاً بهدف مهاجمة سرية دبابات للجيش اللبناني تقع على تلة عالية مقابل قرية بوارج. ولكن أثناء الطريق أضعنا الضابط الملازم قائدنا. لم نجد له أثراً، لقد اختفى. ماذا حصل؟ أين هو؟ هل عاد دون أن يُعلمنا؟ هكذا عندما سألني نبيل ذو الصفات النبيلة: ماذا نفعل؟ هل نستمر أم نعود؟ هل يمكن أن تكون المعطيات قد تغيّرت؟ قلت له: نستمر لتحقيق الهدف ما دمنا لم نبلّغ شيئاً آخر. وبوجود محمد شحادة وعبد الله حمدان وفرج ذوي القدرات القتالية الكبيرة قررنا أن نستمر في اتجاه الهدف.

سرنا وسط أرض طينية بسبب الأمطار، وأثناء صعودي سقطت بين الوحل والطين، لكنّ محمد شحادة أمسك بيدي وأنقذني من سقوط أكبر. تابعنا تسلّق التلة، و بعد مسيرة زادت على ساعتين، شاهدنا دبابات الجيش أمامنا. فقمنا بعمل نسق عسكري (خط حرب) واستعدّ محمد لإطلاق قذيفة مضادة للدبابات عند ساعة الصفر وهي الثانية عشرة ليلاً. رماها بسرعة البرق فأصاب الدبابة الأولى مصحوبة بصرخات الله أكبر، ومعها بدأ إطلاقنا الكثيف للنيران والتقدم باتجاه الدبابات. تحركنا بين الدبابات الساكنة وفي الموقع المحصّن لنكتشف أن الجيش اللبناني غادر التلة قبل هجومنا بدقائق.

في تلك الليلة، دوّت المدافع وارتفعت أصوات المعارك والرماية والانفجارات في كل أنحاء البقاع ولبنان، إذ وقعت مئات الهجمات التي قام بها ألوف الفدائيين في كل الأراضي اللبنانية. انشقّ الجيش اللبناني وبرز الرائد أحمد الخطيب (المسلم

السنّي) ومعه الجزء المسلم من الجيش اللبناني. سقطت الدولة في لبنان وأجهزتها وثكناتها خلال ساعات. ووسط هذه الأجواء العسكرية، وبينما النيران تشتعل في كل مكان والبرد والرياح تعصف على تلك التلة المشرفة والعالية، وقع ما لم أكن أتوقع أن يقع.

شاهدت رماية من عبد الله ومحمد شحادة باتجاه إحدى الخيام في المواقع التابعة للجيش، وإذا بجندي من الجيش اللبناني يبرز منها رافعاً يديه معلناً الاستسلام. جاء به محمد شحادة وسلّمه إليّ، بينما يقوم بقية الشبان بتطهير بقية الموقع. تسلّمت الأسير الخائف الذي لم يتجاوز عمره عشرين عاماً. أجلسته على الأرض وجلست قربه، بينما السماء مضاءة بالانفجارات حولنا وفي كل البقاع أمامنا.

قال: «ماذا سيحصل لي؟».

قلت: «ليس هناك شيء تخشاه على الإطلاق، أنت في أمان الآن. لكن لماذا بقيت بينما غادر الموقع بقية رفاقك؟».

قال: «لقد تركوني وحدي. كنت نائماً ولم يُعلموني بمغادرتهم».

وبينما نحن جالسون، إذا بالضابط المسؤول الذي اختفت آثاره أثناء المسير إلى أعلى التلة يصل مع مرافق له. حينها نظرت في عيني محمد شحادة ونظر في عينيّ كأننا نتكلم لغة واحدة متسائلين عن سرّ اختفائه بينما أخذنا وحدنا قرار الاقتحام. هذا القائد باشر مهمات القيادة وبدأ يتصل باللاسلكي ليعلن سقوط الموقع ونجاح العملية.

رآني الضابط فصرخ بصوت عال وبفوقية ميّزته منذ اليوم الأول للقائنا: «من الذي معك؟»، قلت: «شاب من الجيش اللبناني كان في الموقع واستسلم لنا». أردف الضابط بصرامة وكأننا في الكلية العسكرية: «لماذا تقف معه بهذه الطريقه كأنه صديقك؟».

قلت فوراً للضابط: «إنه مسالم وقد سلّم نفسه لنا».

نادى الضابط الشاب وسأله: «هل أنت مسلم أم مسيحي؟». فردّ الشاب: «إنني مسلم». قلت للضابط: «هذا السؤال غير ضروري. إنه أسير. إما أن نتركه وإما أن نأخذه معنا ونعامله بطريقة صائبة».

تحدث الضابط باستعلاء من دون أدنى التفات إليّ، فهو يعدّني طالباً في الكلية بينما هو جزء من هيكل القيادة: «إن كنت مسلماً فاقرأ الفاتحة؟».

لكنّ الشاب تلعثم من الخوف ولم يستطع قراءتها.

نظرت إلى الضابط بينما الانفجارات تضيء السماء وتفجر الأرض، وقلت: «هذه الأسئلة ليست ضرورية. ولو كان مسيحياً أو مسلماً هذا لا يهم، فهو لبناني وسلم نفسه وهو أسير».

لم يعرني الضابط أيّ اهتمام. استمرّ ينظر إلى الشاب ويقول له تكلم الحقيقة وسيكون كل شيء على ما يرام.

نظر الأسير إلى الضابط قائلاً: «أنا مسيحي وأنا ماروني».

فما كان من الضابط إلا أن ركله وقال له اذهب واجلس هناك، وأمر المرافق الذي معه بربط يديه من الخلف.

ثم صرخ بي الضابط بصوت عال وسط دويّ المدافع وعصف الرياح «أعدمه الآن».

صرخت مباشرة غير مصدّق قلت له: «ماذا؟».

قال لي بصوت عال وحازم: «أعدمه الآن، هذا أمر عسكري».

صرخت: «لا لا لا يمكن، لن أفعل هذا. يجب أن نأخذه معنا. إنه أسير، ولم يفعل شيئاً لنا».

صرخ الضابط: «أنت تتمرّد على الأوامر، سأحاكمك بسبب هذا الموقف. عليك بإعدامه».

قلت له صارخاً وسط قصف المدافع حولنا: «لقد استسلم لنا ولم يطلق النار على أحد. إنه شاب مسالم وقد أعطيناه الأمان، أعطيناه الأمان».

فصرخ الضابط بي: «قلت لك أعدمه الآن. هذا أمر».

رددت عليه بصراخ عال: «كلا لن أفعل، لن أفعل لن أفعل».

أقول هذه الكلمات بينما يجلس الشاب على الأرض ويداه مربوطتان، ويمثّل في هدوئه وسكونه قمة الاستسلام للمجهول. لقد سمع حديثنا ولا يعرف نتيجة هذا الصراع على مصيره.

وإذا بالضابط يرفع رشاشه وهو في قمة العصبية والانفعال ويطلق سلسلة زخات وطلقات مباشرة على الشاب. صرخت بأعلى صوتي، «لا لا لا لا، حرام حرام حرام حرام»، وباشرت بالسير في اتجاه الشاب أثناء الرماية آملاً أن أتحول درعاً تمنع عنه هذه الرصاصات. أوقف الضابط رمايته، وإذا بالشاب يسبح في بركة دماء، لفظ أمامي أنفاسه الأخيرة. لم أتوقع ان يحصل هذا في أسوأ أحلامي، بل توقعت أن لا يقوم الضابط بعمل إجرامي كهذا.

وقفت مدهوشاً، اغرورقت عيناي بالدموع على منظره، لم تتوقف دموعي أمام المشهد حزناً عليه، شعرت بأنني أعرفه قبل موته منذ زمن أو أزمان. أردت إنقاذه ولم أنجح. اقتربت منه صامتاً، أرحته في جلسته بعد موته. لعنت الحرب والساعة التي أتيت فيها إلى لبنان. قلت لنفسي لو كنت أعرف لساعدته على الهرب قبل أن يقع كل هذا. لعنت الضابط، لعنت كل شيء بينما الضابط يسير بعيداً ومعه الشبان وأنا أقف وحدي على التلة قرب الشاب القتيل وسط دوي الانفجارات والقذائف حول التلة.

سرت وراء المجموعة بعد دقائق عائداً إلى موقعنا الأصلي في القرية. لقد أراد الضابط بعمله هذا أن يثبت أن قتالاً دار في التلة. لكن الدافع إلى القتل مصطنع ومخيف ويعبّر عن نزعة إجرامية هي أحقر ما يقع في الحروب، وهي بالتأكيد أكثر ما يسيء إلى حمَلة السلاح في القضايا العادلة.

عند العودة اتهمني الضابط بأنني لست مهيّأً للحرب، وأنها المرة الأولى التي أرى فيها دماءً. وفي الكلية هناك من لام الضابط على هذا العمل، وهناك من لامني على موقفي ورفضي تنفيذ الأوامر العسكرية. ولكن معين الطاهر، القائد الطلابي وأحد مؤسسي السرية الطلابية الذي عُيّن مفوضاً سياسياً للكلية لفترة الدورة، سألني عمّا وقع، وعندما علم بالتفاصيل صدم. تبنّى معين موقفي وطرح الأمر بقوة أمام قادة الكلية.

بعد أعوام على تلك الحادثة التقيت محمد شحادة في موقع آخر في لبنان، وهو الذي شهد موقفي من مسألة الإعدام: «أخذت المسألة وقتاً لنفهم لماذا رفض صديقنا شفيق (كان يعرفني باسمي الحقيقي وكانت الأسماء الحقيقية تستخدم في

الكلية) تنفيذ الإعدام في أسير، ولماذا عدّ القتل العشوائي والقصف العشوائي للمناطق المسيحية جرماً، ولماذا غضب عندما أعلن أحد الشبان أنه يريد أن يقتحم زحلة ويفتك بالكبير والصغير».

ثم أردف محمد شحادة قائلاً: «لقد عانينا الكثير في مخيم تل الزعتر، وخاصة أننا رددنا على القصف علينا بقصف عشوائي للمناطق المسيحية، ولم نكن نأخذ أسرى في القتال إلا في ما ندر. فالأسير لا يعود إن كنا نحن قد أسرناه أو إن وقع في قبضة الكتائب والأحرار. ولكننا عانينا من جرّاء هذه السياسة، إذ خضنا قتالاً بلا أسرى وازدادت المناطق المحيطة بنا إصراراً على قتالنا حتى النهاية، إلى أن سقط المخيم ووقعت المجازر التي أودت بحياة الألوف من أبناء المخيم».

هذه العقلية جعلت كل الأطراف إبان الحرب في لبنان تدفع ثمناً غالياً، فلم يعد أحد يثق بأنه قد يعامل كأسير إذا حوصر، لهذا أصبح من يحاصر، أكان فلسطينياً أم لبنانياً، مسلماً أم مسيحياً، يقاتل حتى النهاية خوفاً من الأسر.

وحشية الحرب لم تعرف حدوداً. ولا أقصد من هذه الحادثة القول إن الفلسطينيين مارسوا الإعدام قبل غيرهم في هذه الحرب، بل مارسها الجميع بوحشية مقزّزة، وما قام به الضابط في موقع التلة كان استمراراً لعقلية سادت لدى كل الأطراف، إذ لم يكن في هذه الحرب ما ينظم معاملة الأسرى، أكانوا عسكريين أم مدنيين، إلا في حالة واحدة: وصول الأسير إلى القيادات اللبنانية أو الفلسطينية. حينها تشعر هذه القيادات بالمسؤولية. في هذه الحالة تسود روحية عقلانية وتحصل مبادلة الأسير بأسير أو مبادلة الأسير بمواقف. كذلك فإن الكثير من المقاتلين والضباط الصغار أعدموا الأسرى لتفادي وصولهم إلى القيادات.

طالب جامعي يقتحم الجامعة!

جاءت الأوامر مع أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٧٦ بعودة الكلية العسكرية وطلابها إلى سوريا لمزاولة التدريب، بعدما أمضينا نحو عشرة أيام في لبنان. ونحن في الكلية العسكرية في ١٧/٢/١٩٧٦ وصل خبر لم يسرّني. لقد قام شاب أعرفه جيداً من شبان الجامعة لم يبلغ من العمر ٢٠ عاماً، (من تنظيم فتح في الجامعة

الأميركية ومن المفصولين المئة وأربعة) باحتجاز رهائن في الجامعة بعد أن قتل عميدين من عمداء الجامعة. لكن نجم نجم، الشاب الفلسطيني القادم للدراسة في الجامعة الأميركية، استسلم بعد فترة تفاوض قام بها صديقنا د. حسان (حسان كان صديقاً للسرية وطبيباً لنا جميعاً ويعمل في مستشفى الجامعة الأميركية).

استسلم نجم لقوات الأمن اللبنانية التي كانت لا تزال حاضرة في بعض المناطق، كان لسان حاله يقول لنا إنه «ضحية الجامعة والمجتمع. حاول أن يستأنف الدراسة في الجامعة الأميركية فرفضته، حاول في جامعات أخرى في بلدان عدة، لم يتمكن، مما دفعه ليأس مطلق». اعتُقل نجم ووُضع في سجن معروف ومخيف مع مئات المحكومين والمجرمين في بيروت. وكان السجن قريباً من مخيم تل الزعتر.

عادت قصة نجم إلى الواجهة مجدداً بعد أن انهارت كل السجون وفر المحكومون منها. عندها نجح نجم في قيادة السجناء، وهم من المجرمين والمحكومين، إلى خارج السجن وعبر المناطق وصولاً إلى مخيم تل الزعتر.

الذين عرفوا نجم فوجئوا بتصرّفه. نجم هادئ الطباع، مسالم إلى أبعد الحدود. كنت في كل مرة ألتقيه، أجده هادئاً لا تنم معالمه عن شراسة أو عنف. سؤال حيّرني: كيف ينقلب الإنسان بين يوم وآخر، وكيف تنقلب الجماعات والفئات والشعوب أيضاً بين يوم وليلة؟

هذه الحادثة ستجعل رئيس الجامعة وهيئتها القيادية يعيدون جميع المفصولين إليها ما عدا نجم الذي اختفى عن الأنظار. سيبقى نجم هارباً، وستنقطع أخباره، تارة يقال إنه غادر لبنان إلى بلاد بعيدة أو قريبة، وتارة أخرى يقال إنه سقط في إحدى معارك الحرب الأهلية. لكنّ الطلبة المفصولين سيكملون مشوارهم العلمي، بل إن بعضهم أصبحوا قادة في مجالات الأعمال والسياسة والحكومة في العالم العربي، وبعضهم سيسقط في القتال في لبنان مع السرية الطلابية.

نهاية بقائي في الكلية العسكرية

لم أركض في حياتي ولم أقطع المسافات الطويلة وأتحمّل مصاعب التدريب كما حصل في تلك الكلية. نبدأ منذ الساعة السادسة صباحاً، ومعنا دقائق قليلة

لنكون في أفضل حال للتفتيش الصباحي، إذ علينا حلق اللحية والاغتسال وترتيب الأغراض والفراش في دقائق. بعض الشبان لديهم مقدرة هائلة على هذا النظام. أنا تعلّمت وتأقلمت بسرعة.

في الإجازات كنت أعرّج على منزل عمّتي وزوجها وأبنائهم في دمشق كما أعرج علي منزل خالتي وأسرتها وبنات خالتي في بيروت. كانوا يتساءلون باستمرار عن الحكمة في السير في حياة أشبه بحقل ألغام. هذه الحالة أقلقت أقربائي في دمشق وبيروت، رغم أنهم كانوا يعرفون عني بعض الأمور. هذه الحياة التي سرت على دربها أقلقت والدي ووالدتي اللذين استسلما أمام إصراري على المتابعة.

استكشفت في تلك الفترة شوارع دمشق مع أدهم وربحي، وأكلت في مطاعمها، وحيث لا بد أيضاً من زيارة للحمام العربي الذي لم أرَ في حياتي مكاناً مثيلاً له بهذه النظافة والتنظيف.

لكن أثناء التدريب تعرّضت فجأة لآلام شديدة ووقعت مضاعفات في نيسان/ أبريل ١٩٧٦ بسبب مرض الحصى. تركت الكلية لأيام لأمكث عند أقربائي في دمشق لفترة، ثم نُقلت إلى الكويت حيث أُدخلت المستشفى.

في تلك الفترة واجهت خيار أن أبقى في الكويت وأعود إلى متابعة تعليمي، وخاصة بعدما اختبرت مصاعب هذه الحياة وتعقيداتها. ظل حمدي وعدد من الأصدقاء يكتبون لي خاصة بعد أن مكثت في الكويت لأكثر من شهر ونصف. تفاؤلي والتزامي لم يتغيّرا. عدت إلى بيروت في أواخر يونيو/ حزيران ١٩٧٦، وسط مرحلة قتال جديدة من مراحل الحرب الأهلية، هذه المرة بين سوريا والجبهة اللبنانية (تحالف الكتائب والأحرار والأحزاب اليمينية) من جهة والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. لقد انهار التحالف السوري مع الوطنيين اللبنانيين والفلسطينيين وتحول في رمال الحرب المتحركة إلى قتال وعداوة.

الفصل الثامن

التدخل العسكري السوري في لبنان

سبق الهجوم السوري في لبنان اقتحام المقاومة وحلفائها من الحركة الوطنية اللبنانية للدامور والجية والسعديات ومعظم الجنوب والبقاع حتى الحدود السورية، وأصبحت المقاومة وحلفاؤها يسيطرون على الجزء الأكبر من بيروت إضافة إلى صيدا وصور وبحمدون وسوق الغرب والمطار والاتصالات ومعظم الشوف والجبل والشمال باستثناء مناطق محددة ما زالت الجبهة اللبنانية المكونة من الكتائب والأحرار والجيش اللبناني المنضم إليهما والمنظمات المسيحية الأخرى تسيطر عليها. لقد أصبح ما يقرب من ٧٠ إلى ٨٠٪ من لبنان في قبضة القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة. وقد وقع انقلاب عسكري في لبنان في الحادي عشر من مارس ١٩٧٦ قاده العميد الركن عزيز الأحدب قائد منطقة بيروت في الجيش اللبناني، واتُّهمت فتح بأنها كانت وراء هذا الانقلاب. لكنّ الأحدب سيتراجع عن انقلابه خلال أسبوع. وجدت سوريا في ما يقع في لبنان من أحداث فرصة لها وخطراً عليها في الوقت نفسه.

بدأت بوادر الخلاف مع سوريا تتبلور في آذار/ مارس، وتعمّق في نيسان/ أبريل وأيار/ مايو ١٩٧٦. وقد فوّض جنبلاط إلى ياسر عرفات تصويب العلاقة، لكن ذلك لم يكن ممكناً. لقد بدا واضحاً أن سوريا آتية لتحصد نتائج الحرب، ولتصبح جزءاً من الوضع الداخلي اللبناني على أوسع نطاق.

في ظل الوضع الجديد أصبح للكتائب والأحرار والقوات اللبنانية في سوريا نصير، وبدأ بشير الجميّل يشيد بالدور السوري، بينما جنبلاط ينتقده. انقلب كل

شيء بسرعة، وبدأت المعادلة بالاهتزاز. ففي الثامن من مايو/أيار ١٩٧٦ انتُخب إلياس سركيس رئيساً للبنان خلفاً للرئيس سليمان فرنجية. وقد حصل هذا في ظل بدايات التحالف السوري مع الجبهة اللبنانية بالرغم من قيام الأخيرة (وخاصة حزبي الكتائب والأحرار) باتصالات مباشرة مع إسرائيل دون علم سوريا.

في بداية التدخل السوري العسكري أوائل حزيران/يونيو ١٩٧٦ انطلقت المدرعات السورية من الحدود مروراً بسهل البقاع باتجاه مصيف بحمدون على طريق بيروت. وتراجع المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون التابعون للحركة الوطنية والصف الإسلامي أمام التقدم السوري المعزز بحوالى ٤٠ ألف جندي والمدعم بمئات الدبابات، وذلك نظراً إلى الاحترام الشديد الذي يكنّونه لتاريخ هذا الجيش ولطبيعة الصداقة والتحالف مع سوريا.

أثناء التقدم لم يستطع أبو جهاد القائد العسكري الفلسطيني نفسه أن يأمر بإطلاق النار على الجيش السوري. هكذا استمر التقدم السوري من دون أي مقاومة تُذكر إلى أن وصل إلى ساحة بحمدون الرئيسية، وذلك أصبح خطاً أحمر بالنسبة إلى الحركة الفلسطينية والوطنية اللبنانية.

في ساحة بحمدون خرجت مجموعات مقاتلة فلسطينية ولبنانية بقيادة صديقي الرائد محمد علي (أبو يعقوب) الذي التقيته في بداية تجربتي العسكرية في نسور العرقوب، أصبح محمد علي قائداً لكتيبة مقاتلة في بحمدون. وقف أبو جهاد يراقب الموقف ويراقب تقدم الدبابات، بينما محمد علي أمامه. تقدم محمد علي أمام مقاتليه، فبدأ القتال الصعب لأول مرة من قبل محمد علي ورماة الآر بي جي والمدافع المحمولة على الاكتاف المضادة للدبابات. وقد دفعت هذه المواجهة القوات السورية إلى إيقاف تقدّمها. لقد انسحبت القوات السورية من مدينة بحمدون إلى مناطق رويسات صوفر المشرفة على المدينة بعد تلك المواجهة.

أما في الجنوب فقد أوقف التقدم السوري بعد دخول الدبابات السورية إلى قلب صيدا. فقد هاجمت القوات الفلسطينية وقوات فتح بقيادة أبو موسى كتيبة دبابات سورية وسط المدينة، وأوقعت فيها خسائر كبيرة نتج عنه تدمير الكتيبة بالكامل. وقد عسكر الجيش السوري بعد ذلك عند مشارف المدينة.

أما قوات الكتائب والأحرار وحلفائهما في اليمين المسيحي، فقد رأت في هذا التدخل السوري فرصة لتشديد الحصار المحكم على مخيّم تل الزعتر الفلسطيني ولبدء هجماتها اليومية عليه. واشتعلت جبهة أخرى خلف مخيّم تل الزعتر وهي منطقة النبعة ذات الأغلبية الشيعية الجنوبية. أصبح واضحاً أن قوات الكتائب والأحرار تسعى إلى تصفية كل المناطق الإسلامية في الوسط المسيحي بما فيها مخيم تل الزعتر. كان من حسن حظ المخيم تأمين تحصينات قام بالإشراف عليها صديقي عزام المهندس الذي عمل لسنوات في الكويت ثم تطوع للإشراف على خطة التحصينات في المخيم. لكن خسائر المخيم ستكون كبيرة بحكم طبيعة الهجمات والحصار.

في الوقت نفسه دارت معارك وهجمات في جبال لبنان العالية، إذ قامت قوات الكتائب والأحرار والجيش اللبناني المنضم إليها بهجمات على جبال صنين ومناطق عيون السيمان حيث تتمركز المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية. كذلك وقعت هجمات كتائبية ويمينية رئيسية باتجاه البرجاوي ومنطقة رأس النبع المحاذية للأشرفية.

هذا القتال حوّل المقاومة إلى الدفاع الاستراتيجي وإلى حالة حصار على أكثر من جبهة. مع التدخل السوري العسكري في لبنان، بدأت المقاومة الفلسطينية، التي لم تُرد التورّط في الحرب الأهلية اللبنانية، تزداد تورّطاً فيها وتفقد في الوقت نفسه مواقع رئيسية وبعض أفضل وأجرأ قادتها العسكريين.

موت فارس في غير معركته

أثناء الهجمات السورية المكثفة على المقاومة، قادت قوات الكتائب والأحرار هجوماً واسعاً باتجاه رأس النبع والبرجاوي في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٧٦ نتج عنه سقوط عدة أبنية ومواقع، فبدأ سعد (عبد القادر جرادات) قائد السرية الطلابية بالإعداد لهجوم مضاد. تجمّع مع سعد عشرات المقاتلين من فتح والتنظيمات الأخرى، لم يكن بينهم أحد من أعضاء السرية الطلابية الذين كانت لديهم مهام في مناطق أخرى.

بدأ سعد هجوماً باتجاه الأشرفية، ولكنّ معنويات القوة المهاجمة تردّت أثناء الهجوم من جراء قدرة الكتائب والأحرار والجيش على الدفاع. أسهم هذا في إغضاب سعد الذي اعتاد قتالاً جريئاً. فحمل المسدس وتقدّم أمام القوة الفلسطينية اللبنانية المشتركة . نجح في التوغل في الأشرفية، لكنّ الرمايات الكتائبية الغزيرة أصابته فسقط جريحاً لا يقوى على الحركة. نتج عن إصابة سعد تراجع القوة المهاجمة التي تركته ينزف في أرض المعركة. هرعت بسرعة مجموعات من شبان السرية من مواقع أخرى نحو منطقة القتال باحثة عن سعد. توغلت في الأشرفية وسط القتال، لكن من دون فائدة. فقد أسرت قوات الكتائب قائد السرية الطلابية، وربطته بسيارة عسكرية وجرّته وهو في كامل وعيه سحلاً وسط شوارع تلك المنطقة من بيروت.

صدم موت سعد الجميع. وهو بطبيعة الحال كان شخصية واعدة في العمل السياسي الفلسطيني والعربي، وهو أيضاً من أشد المعارضين للحرب والتورّط فيها ولمخاطرها. لكن في الصراعات والحروب تجري الأمور بما يتجاوز تمنيات الأفراد ورغباتهم. فلو ترك سعد منطقة النبعة والبرجاوي تسقطان بيد الكتائب وحلفائها يكون أيضاً كمن أسهم في مقتل سكان تلك المنطقة من جراء التطرف والمجازر التي سترتكبها القوات المهاجمة بحق المدنيين مما سيطيل أمد الحرب ويؤخر عودة القوات المقاتلة الى الجنوب لمواجهة إسرائيل. إنها دائرة مغلقة.

سعد من مواليد ١٩٤٧ وهو من قرية سعير المحتلة قرب مدينة الخليل في فلسطين، استشهد وهو في التاسعة والعشرين من عمره، وقبل استشهاده بأسابيع أعلن خطوبته على هالة العاملة في مركز التخطيط الفلسطيني. وقد اختفى جثمانه حتى يومنا هذا.

سقوط قادة

استمرت حالة الموت وفقدان القادة الميدانيين. سقط الحاج حسن (عبد الإله محمد دراغمة من طوباس المحتلة في فلسطين) قائد منطقة الشمال وقائد كتيبة الجليل من فتح. الحاج حسن صديق للقطاعات الطلابية، إذ رأى فيها مستقبلاً

واعداً للعمل الفدائي الفلسطيني، وهو صديق لسعد، شاءت الصدف أن يسقطا في الزمن والمرحلة نفسيهما. وعُرف عن الحاج حسن تنفيذه لعشرات الدوريات ضد القوات الإسرائيلية على مدى سنوات من الأردن ولبنان وعلى جبهة الجولان. وكان شخصية محبّبة ومنفتحة على الآخرين. يمتلك الحاج حسن قدرات قيادية وميدانية في كل المواقف الصعبة، لكنّ الحرب الأهلية جعلته يتصدى للدفاع عن مناطق كبيرة في الشمال اللبناني.

ولتعويض خسارة الحاج حسن أرسلت فتح من طريق البحر إلى طرابلس في ذلك الصيف ثلاثة من خيرة قادتها لقيادة الشمال. وقد تطوّع لهذه المهمة كلّ من نعيم (عبد الحميد وشاح) قائد كتيبة نسور العرقوب المتميز الذي التقيته قبل عام، وأبو عمر حنا (حنا ميخائيل) النموذج الذي ألهمني للمجيء الى لبنان، وأبو الوفا (جودت المصري) الذي سيأخذ مكان الحاج حسن في قيادة كتيبة الجليل. كان أبو الوفا صديقاً للسرية ويؤمن بطريقة تفكيرها.

أبحر الثلاثة معاً في القارب وسط البحر قبالة بيروت، انقطع الاتصال بهم، ثم انقطعت الأخبار وسط الترجيح أنهم اكتُشفوا وأن اشتباكاً وقع، وربما أغرقوا في البحر على يد حزبَي الكتائب والأحرار أو على يد الزوارق الإسرائيلية.

في الفترة نفسها سيسقط قائد ميليشيا لبنان جواد أبو الشعر خلال قصف سوري ووابل من المدافع على بيروت الغربية وذلك أثناء محاولته الانتقال وسط الأبنية للوصول إلى قواته. سيقع هذا في حزيران/ يونيو ١٩٧٦. تميّز جواد بأسلوبه الرزين، وهو أحد الداعمين الأساسيين للسرية الطلابية التي انبثقت أساساً من عباءة الميليشيا في لبنان.

سقط أيضاً أبو الراتب، نائب قائد السرية الطلابية، في حادث سيارة، حيث كان يستعد في ذلك الحين لقيادة دورية من شبان يمتلكون خبرات عسكرية إلى داخل الأرض المحتلة. هذه خطة كان يسعى اليها كل من أبو حسن وحمدي.

هؤلاء جميعاً عارضوا الحرب الأهلية وأرادوا العودة إلى الجنوب واستعادة أسس النضال من أجل القضية الفلسطينية. لكنّ الأخطر في الوقت نفسه أن هذه

النسبة العالية من الإصابات في الجسم القيادي لحركة فتح والجسم القيادي للسرية الطلابية طالت أساساً القيادات الجريئة والميدانية، انها مجزرة للقيادات المقدامة لحركة فتح في مرحلة تطويق وإبادة.

قيادة جديدة للسرية

عندما عدت إلى لبنان في يونيو ١٩٧٦ لم أعد إلى الكلية العسكرية بعد أن علمت أن سوريا قد أغلقتها إثر توتر الأجواء بينها وبين منظمة التحرير والقوى اللبنانية الوطنية. وقد حسبت لنا الكلية العسكرية مدة التدريب التي أمضيناها فيها، وعدّتنا جميعاً متخرّجين، فنال أعضاء الدفعة رتبة عسكرية: ملازم ثان في قوات العاصفة التابعة لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). لم أعد أيضاً إلى نسور العرقوب، فهي الأخرى دفعت خسائر في جسمها القيادي وأصبح لها قيادات جديدة، بينما انتشرت في جبال لبنان أمام الجيش السوري وقوات الكتائب وحلفائها. انضممت رسمياً إلى السرية الطلابية وجهودها. وجدت في السرية خير تعبير عن تجربتي وما أسعى لتحقيقه.

أصبحت السرية الطلابية بعد استشهاد سعد تحت قيادة معين الطاهر، القائد الطلابي الذي تخرّج حديثاً في الجامعة، والذي يمتلك خبرات نضالية طلابية. وقد زكّاه الكادر القيادي في السرية وفي التيار. وستكون أمام معين فترة حرجة لتثبيت تجربته وتعميقها وملء الفراغ الذي تركه سعد. سينجح معين في رؤية الأخطار بشفافية كبيرة، وسيكون ناجحاً في بناء التحالفات المؤيّدة للسرية الطلابية في داخل حركة فتح وخارجها ومع لجنتها المركزية.

لكنّ السرية في الوقت نفسه اقتربت من أسلوب القيادة الجماعي، وذلك من خلال جهود المجموعة القيادية مثل أبو حسن وأبو خالد جورج وحمدي ومروان وعلي أبو طوق ومحمود العالول ونظير الأَوبري ورمضان وقياديين من الجبل ومن الشمال ومن بيروت وآخرين. وبسرعة وقعت إصابات كادت تودي بحياة علي أبو طوق وحمدي في حي البرجاوي.

أصبحت السرية من أكثر الأطراف وعياً لأهمية عدم قصف المناطق المسيحية،

وعدم استهداف المدنيين، والحفاظ على الأملاك العامة للناس، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً لبنانيين. وأصبحت السرية في الوقت نفسه من أكثر المجموعات في فتح وفي ساحة العمل الفدائي عملاً على جمع فلسطينيين ولبنانيين وعراقيين ويمنيين، وسنّة وشيعة ودروز وموارنة.

ولتوضيح موقف السرية الرافض للتطهير الديني والطائفي، نأخذ على سبيل المثال واقعة معروفة وهي قيام السرية الطلابية بالانسحاب بقيادة أبو الراتب قبل استشهاده بفترة وجيزة إبان معركة الدامور في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٦، وذلك بعد قيامها بجهود كبيرة لحماية أسر مسيحية كثيرة في تلك المنطقة. حينها اتَّهمتها أطراف، وخاصة القائد العسكري للهجوم في الدامور أبو موسى وهو قائد منطقة الجنوب عن فتح والمقاومة، اتهمت السرية الطلابية بالتخلّي عن واجبها العسكري أثناء المعركة.

لكنّ أبو إياد (صلاح خلف)، الذي حقق في الأمر، اكتشف أن السرية انسحبت بعدما أدّت واجبها العسكري كاملاً وبعدما بذلت جهوداً جبّارة لمنع الاعتداءات على المدنيين المسيحيين ولمنع السرقات الجنونية التي عمّت الدامور والجية، بما في ذلك حرق كل منزل فيهما بعد نهبه كاملاً. وصف أبو إياد سلوك المجموعة الطلابية بأنه «ضمير الثورة المحافظ على قيمها».

* * *

لقد نجحت السرية في استقطاب كلّ من امتلك حسّاً شبابياً، وكلّ من أراد التغيير، وكلّ من أحبطته ممارسات الفصائل الأخرى والقيادات التقليدية والممارسات الفوضوية إبان الحرب. هكذا توسّعت «السرية الطلابية» لتشمل مئات الطلبة والطالبات والمتخرّجين الجدد، وفي الكثير من الأحيان المتطوعين العرب والفلسطينيين من الشتات والقادمين من دول كثيرة في العالم لنصرة الحركة الوطنية الفلسطينية واللبنانية. بل أصبحت السرية الطلابية تشكيلاً متطوراً يضم عدداً كبيراً من الوحدات العسكرية والسرايا، ولكنّ اسمها بقي «السرية الطلابية». خلال أشهر معدودة أصبحت السرية من أكثر الأطراف جرأة وقتالية واحترافاً.

ملحمة صنين: امتحان السرية

انفجر لبنان كالبركان، ومن فوهة جباله خرجت حمم القتال. في أوج هذه الحرب في صيف ١٩٧٦، إبان التحالف السوري مع الكتائب والأحرار، تطورت جبهة جديدة في أعالي جبال لبنان حيث مراكز التزلج التقليدية في جبل صنين الذي يصل ارتفاعه الى أكثر من ٢٦٠٠ متر. هاجمت القوات اللبنانية للكتائب والأحرار وقوة كبيرة من الجيش اللبناني المنضم إليها، مستغلة التقدم السوري الذي أسهم بتشتيت القوة الفلسطينية اللبنانية الوطنية، ذلك الجبل الهائل. وقد اضطرت قوات تابعة للسرية الطلابية وقوات العاصفة في فتح وقوات الحركة الوطنية اللبنانية، إلى خوض قتال ضارٍ فوق تلك القمم البيضاء.

تحصّنت السرية الطلابية في أعلى مرتفعات صنين، الذي ينقسم إلى ثلاث تلال عالية، واحدة منها يطلق عليها تلة الغرفة الفرنسية. وقد هدفت هجمات الكتائب المتتالية إلى احتلال الجبل لأنه يمثل نقطة دفاع رئيسية عن مناطق كسروان والمتن التي تسيطر عليها القوات اليمينية. وأثناء القتال في صنين سقط من أعضاء السرية الطلابية طالب الجامعة الأميركية طوني النمس. طوني وحيد والديه. لم يكن ذلك حدثاً عادياً، وخاصة أن طوني عُرف بنشاطه بين جميع طلبة الجامعة الأميركية.

ازداد القصف على صنين خطورة، وسط تقديرات من قياديي السرية الطلابية بوجود مخاطر تهدّد هذا الموقع. طلب مني أبو حسن وحمدي القيام بمهمة خاصة: «نريدك يا جهاد أن تكون في قيادة موقع صنين، الوضع يتطلّب منّا الصمود في الموقع مهما كلّف الأمر خاصة أن مخيم تل الزعتر الآن محاصر ويتعرض لهجوم مستمر، نريد أن نخفف الضغط على المخيم عبر صمود صنين».

قاد موقع صنين في ذلك الوقت أبو خالد جورج (جورج شفيق عسل). وأبو خالد يكبرنا سناً وهو في أوائل الثلاثينيات من عمره، ولديه تجربة فكرية وسياسية وتنظيمية طويلة. أبو خالد هادئ، مثقف من الطراز الأول، مثّل منظمة التحرير في الصين لسنوات طوال وتعلم الكثير عن التجربة الصينية، إنه فوق كل شيء مناضل صلب ومفكر في الوقت نفسه، يلتهم المعرفة والكتب التهاماً، ولديه أسلوب إنساني

يأسر محدّثه. أبو خالد محاور من الطراز الأول، وهذا دفعه إلى إنشاء صداقات مع الأطراف والتيارات المحيطة.

أبو خالد جورج من مسيحيي فلسطين وهو شقيق منير شفيق المفكر الذي ألهم تيارنا بطروحاته. تأثيره على الشبان والشابات مثل تأثير سقراط على تلاميذه، فهو حاضر في النقاش، دائم التساؤل، منفتح على الأفكار، يراجع نفسه على الدوام ولديه قدرة على الإصغاء للآخرين.

التقيت أبو خالد في بيروت عند وصوله قادماً من موقع صنين الذي قاده لأسابيع. كان ذلك اللقاء الدافئ أول لقاء لي معه، لم اصدق أنني أمام ذلك العملاق الوديع والإنساني، صوته خافت، يتحدث بحب ودفء، رقيق وشديد الاحترام لمن يتحدث إليه. كان قائداً من طراز فريد.

نظر أبو خالد إليّ قائلاً وكأنه يعرفني منذ سنوات طوال: «سيكون الموقف صعباً، فهناك نيّة لدى الكتائب والأحرار والجيش اللبناني المنشق لاحتلال الموقع، يجب ألا تسترخي على الإطلاق، معك شبان متميزون سيكونون قادرين على التصرف»، قال كل هذا بنظرة متفائلة، كأنه يتغزّل بجبل صنين وبمن يعيش على قممه.

وقبل أن أتركه أردف قائلاً: «سآتي إلى الموقع لأبدّل معك يا جهاد حين تتعب. لا أحب أن أتغيّب كثيراً عن هذا الموقع، فهو عزيز علي».

أبو خالد متزوج بامرأة ذات تاريخ نضالي في صفوف النساء، وهي من شرق الأردن، ولديهما طفلة لم يكن يتجاوز عمرها ثلاث سنوات. وكان من القلائل المتزوجين في تلك الأجواء الشبابية، حيث إن معظمنا لم يكن قد تزوج وارتبط. تحولت أم خالد إلى أخت كبرى لنا في أمور عديدة تتعلق بالسؤال عنّا وعن أحوالنا، وبالإسناد الطبي والإداري لمواقع السرية.

أخذتني سيارة الجيب العسكرية من طريق عرمون. وشاركني تلك الرحلة شاب قيادي من أعمدة السرية الطلابية ومؤسسيها: رمضان، وهو من بيروت الغربية ومن أعمدة الدفاع عن مناطق الخندق الغميق في بيروت الغربية. في البداية عرّجنا على

مدينة بحمدون لرؤية محمد علي الذي لا يزال يقود البلدة في مواجهة القوات السورية المتمترسة في التلال المواجهة في صوفر.

أخذ محمد علي نفساً عميقاً: «خذ حذرك يا صديقي، أنت ذاهب إلى منطقة خطرة. ستكون القوات الكتائبية وأنصارها أكثر جرأة في محاولة أخذ صنين الذي يشرف على مناطقهم وذلك بسبب تحالفهم الآن مع سوريا وتشتيت قواتنا التي تحاول فك الحصار عن تل الزعتر. ستواجه معارك جدية قريباً».

ثم أردف عندما ركبت في الجيب وأنا أستودعه: «انتبه وأنت في السيارة باتجاه صنين من القناصة على الطريق. بعض الطرق مكشوفة بالكامل للقنص».

سيقود محمد علي بعد أيام مئات المقاتلين في واحدة من أجرأ المحاولات لفك الحصار عن تل الزعتر، لكن المحاولة لن يكتب لها النجاح، بينما يشتعل الجبل عبر منطقة المونتفردي وصولاً للمخيم. لن تنجح المحاولة التي أشرف عليها أبو جهاد، لم يمتلك محمد علي خياراً سوى تطبيق أمر القيادة ومحاولة فك حصار في اللحظات الأخيرة حول مخيم يدفع يومياً عشرات القتلى والجرحى.

انطلقنا في الجيب عبر الجبال والمنحدرات. وعندما نمر في هذه المناطق المكشوفة كنا نسرع بالسيارة بطريقة جنونية لتفادي القنص أو المدافع الموجهة إلى الجزء المكشوف من الطريق الذي يكون عادة ممتداً مئات الأمتار.

أثناء الطريق يحدّثني رمضان عن المعارك التي دارت قرب هذه المواقع التي نمر بها وعن القرى التي سقطت وعن المناطق التي أحرقت. قبل حلول الظلام، وصلنا إلى خيمة على سفوح جبل صنين. خرج من الخيمة مرحّباً بنا صديقنا أبو خليل، وهو شاب فلسطيني من شبان السرية صاحب نكتة ساخرة وابتسامة دائمة.

ذكّرني رمضان: «هذه أبعد نقطة تستطيع أن تصل إليها السيارة، علينا أن نسير على الأقدام لمدة ساعة صعوداً للوصول إلى الموقع في قمة هذا الجبل». وأردف بعد ذلك قائلاً: «قبل شهر كان المسير يتجاوز ثلاث ساعات للوصول إلى المواقع في قمة صنين، ولكننا قمنا بشق هذا الطريق الترابي وسط الصخور وتحت القصف مع أبو حسن بفضل جرافة أتى بها وشغّلها شخصياً. كدنا نموت عشرات المرات وسط القصف وإصراره على شق الطريق».

بتنا تلك الليلة في خيمة وحيدة وسط جبال وأودية ممتدة، كأنها قشة وسط الجبال. لم نسمع صوتاً واحداً وسط الظلام الدامس الذي أحاط بنا نحن الثلاثة.

في الصباح الباكر أيقظني صوت انفجار كبير قربي. حملت سلاحي وركضت خارج الخيمة وأنا في حالة هي بين اليقظة والنوم، إذا بقذيفة أخرى تسقط قرب الخيمة. استلقيت على الأرض وأنا أتفحّص الموقف حولي، وإذا بالقذائف تنهال في كل مكان. نظرت إلى الجبل الذي يقف أمامي كما تقف الأهرام، وإذا بالقصف ينهمر على جبل صنين وعلى الغرفة الفرنسية ومواقع السرية الطلابية التي يجب أن أتوجّه إليها. مئات المدافع تقصف الجبل دفعة واحدة.

قلت لنفسي: «هذا هو الهجوم الذي حذرني منه أبو خالد جورج وتحدث عنه محمد علي».

خلال دقائق، لا شاي ولا قهوة ولا فطور، كنت مع رمضان في الطريق إلى القمة سيراً على الأقدام. لم يكن رمضان مضطراً إلى المجيء معي إلى موقع صنين العالي، لكنه أبى أن يتركني في هذا الموقف المعقّد.

سرنا والقذائف تتساقط علينا وتنهال كرشقات الأرز وتنفجر حولنا وأمامنا ووراءنا، بينما نركض ثم ننبطح على الأرض ونختبئ وسط الصخور الصغيرة الحجم لثوان. تحولت الصخور المنتشرة على سفوح صنين إلى صديق لنا، لأننا كنا نحتمي بها من القذائف التي تنفجر قربنا على بعد مترين وأحياناً متر واحد فنستلقي على الأرض بين الصخور كي لا تصيبنا. شعرت للحظات بأنني لن أستطيع تجاوز الحائط الناري والأسوار الملتهبة من شدة القصف المدفعي والقذائف.

أثناء الركض بدأت لياقتي تتراجع وسط الشمس الحارقة في منتصف الصيف (أوائل آب ١٩٧٦)، فالمرض الذي ألزمني الفراش عدة أسابيع في الكويت أضعف لياقتي. بعد مرور ساعة ما بين الركض والانبطاح على الأرض لتفادي القذائف، بدأت أشعر بإرهاق ممزوج بلامبالاة تجاه حياتي وسط صراخ رمضان بضرورة أن أتنقل بين الصخور بحذر.

سرت إلى الأعلى في خط مستقيم بينما أشعر بتعب كبير. كل شيء ينفجر من حولي بجنون، مئات القنابل تسقط حولي وحول رمضان، أريد فقط الوصول إلى

القمة. شعور غريب ذاك الذي سرى في جسدي وعقلي: قد أموت هنا، بدأت للحظات أستسلم للقدر. ولكنني سرعان ما طردت الفكرة من بالي. دبّت الحياة بجسدي ثانية وبدأت أركض بقوة أكثر، وأختبئ بين الصخور وأتقدّم، عادت إلى أوصالي الحياة من جديد وارتسمت على وجهي معالم التصميم.

أما رمضان فلياقته لم تخنه حتى اللحظة الأخيرة، وقد تجمّدت في مكاني عدة مرات لأن القذيفة انفجرت في المكان نفسه الذي غادره رمضان منذ ثانية.

قرابة الساعة الثامنة صباحاً، أي بعد مرور ساعتين من المسير الشاق، أصبحنا قرب المواقع. رأينا شباناً عن بعد بينما الغبار يعلو التلال نتيجة القصف المستمر. لم نعرف إذا كانوا من الكتائب والأحرار أو هم شبان السرية. فالموقف الآن غامض. المسافة بيننا وبينهم لا تزيد على ٣٠٠ متر. شعرت بإرهاق شديد إلى درجة أنني بدأت أرى رمضان وكأنه اثنان. فجأة خرج أحد الشبان من بين الصخور قربنا واقترب منّا وهو يساعد شاباً غطّت الدماء صدره وقميصه، فسألناه عن الموقف.

صرخ بتأثّر: «كل شيء انتهى. لقد سقطت المواقع واحتلوا كل شيء باستثناء بضعة أمتار حول خيمة القيادة. لقد هوجمنا في الصباح الباكر من موقع جانبي. هناك العديد من الجرحى، لم يبق في الموقع سوى خمسة شبان من أصل ٢٢ مقاتلاً. لقد استشهد محمد شبارو إضافة إلى عدد من الجرحى اضطررنا إلى إخراجهم في بداية الهجوم». ثم أردف: «هذا انتحار، أنا سأساعد الجريح وأوصله إلى المواقع الخلفية، أنصحكم بعدم الذهاب إلى الموقع».

لم أكن قد تعرّفت إلى محمد شبارو ابن بيروت الغربية، لكنه اسم لامع في العمل الطلابي. تخرّج من كلية الهندسة في الجامعة اليسوعية في بيروت منذ مدة وجيزة وفي الوقت نفسه عرف عنه اهتمامه بالإخراج السينمائي. لقد جلب كاميراته إلى الموقع، وسعى إلى توثيق جانب من الحرب في الوقت عينه.

نظرت إلى رمضان وفهم أحدنا الآخر. سنصل إلى الموقع لأنه ما زال صامداً وهناك قتال يخوضه أيمن البرقاوي وفوزي وثلاثة شبان معهما. قد يكون الموقع في دقائقه الأخيرة، وقد ننجح في تغيير الموقف وإنقاذ الشبان الخمسة من الإبادة.

ابتعد واحدنا عن الآخر لأننا لم نكن متأكدين من مواقع الكتائب. سرنا بحذر شديد. وفي وسط المسير رآني قنّاصة الكتائب، بينما لم أرهم. فجأة شعرت بزخات من الرصاص قربي وأمامي وحولي. حوصرت بنيران لم أعرف مصدرها. فقدت التركيز، لم أعرف كيف حصل ما حصل، إلا أنني رميت نفسي بعفوية غريزية بين الصخور. لحسن الحظ قفزت في الاتجاه الصحيح مما أبعدني عن مصدر الرماية. شعرت ببرودة كبيرة في رجلي من دون أن أشعر بألم، وإذا بالدماء تنزف من جرح في ساقي اليمني، لقد أصبت بطلقة. قطعت جزءاً من ملابسي بواسطة الحربة التي كانت معي، وربطت الجرح ربطة قوية بهدف إيقاف النزف. قد أنزف، لكن عليّ أن أصل للشبان مهما كان الثمن.

عدت الى الوراء ثم تحركت بعيداً عن القوة التي رمتني من أحد مواقعنا التي سقطت وسرت إلى أن رأيت رمضان. وإذا به ينظر إلى رجلي والدماء تغطيها وأسير بصعوبة. «ماذا حصل؟». قلت له: «أصبت لكن الألم محتمل». نظرنا حولنا وإذا بالشبان الخمسة المدافعين عن الموقع يشيرون إلينا. لقد عرفونا. وصلنا إلى الجزء من الموقع الذي لم يسقط بعد.

ويا له من موقع: فما بقي معنا الآن عبارة عن تلة صغيرة وسط صنين على شكل سور زراعي صغير لا يزيد طوله على ٥٠ متراً أسفله خيمة قيادة الموقع. مساحة الموقع لا تزيد على مئة وخمسين متراً مربعاً، ويتعرّض لقصف ولهجمات من وحدات الجيش اللبناني التي انشقت إلى جانب الكتائب والأحرار. تميّز هجومهم بالانتظام والاستمرارية والدقة وفيه العديد من الأسلحة المستخدمة من المشاة إلى المدفعية الثقيلة. المسافة بيننا وبين مشاة الكتائب لم تتجاوز ٣٠ متراً و٤٠ متراً من معظم نقاط الاشتباك المحيطة بنا والممتدة على خط مستقيم، بينما المؤخرة خلفنا مفتوحة وغير مطوّقة.

استمرت محاولات أخذ الموقع بلا انقطاع. فنحن سبعة وهم عشرات أمامنا. نحن في نقطة صغيرة والمواقع الأخرى سقطت كلها. أثناء القتال أسمع صرخة فرح من أحد الشبان في الموقع وذلك عندما يحقق إصابة أو عندما ينجح في إيقاف تقدم مجموعة من ميمنة التلة أو ميسرتها أو مقدمتها. لقد توزعنا على السلسلة عند التلة

على مسافة حوالى خمسين متراً، وعندما يشن الطرف الآخر هجوماً وتشتد الرماية من اليمين ينضم ثلاثة منا إلى تلك الجهة ويحدث العكس عندما تشتد الرماية من جهة اليسار. لم يكن بعضنا يرى البعض الآخر نظراً إلى شدة تعرّج السلسلة الحجرية. حاولوا المرة تلو الأخرى اجتياحنا لكننا نجحنا في إيقافهم بفضل تصميم الشبان وبفضل غزارة رماياتنا واستخدامنا الفعال للقنابل اليدوية صندوقاً وراء صندوق.

تعرّفت إلى الشبان أثناء القتال. أعرف بعضهم من بيروت ومنهم فوزي، وكان بينهم شاب جامعي يقترب من التخرّج من جامعة بيروت العربية اسمه أيمن البرقاوي. في إحدى اللحظات ازدادت الرماية باتجاهه، فوجدت نفسي أتحرك من الجهة الأخرى إلى جانب أيمن لردع التقدم الآتي نحوه.

حققنا نجاحاً واستخدمنا معاً قنابل يدوية أثناء صدّ ذلك الهجوم. شعرنا بأننا في وقت للراحة بعد انكسار الهجوم وسط إصابات واضحة في الطرف الآخر، فبدأنا نتحدث أنا وأيمن، فأخبرني عن حياته وعن أسرته، وعن جامعته في بيروت العربية التي ينوي التخرّج فيها خلال شهور، وعن حلمه بالعودة إلى فلسطين.

تأملنا معاً في زمن أفضل نرتاح فيه من عناء هذه المعركة، وعدته بأن نلتقي في بيروت على غداء بعد المعركة. لم يكن معنا في ذلك اليوم العصيب قطرة ماء واحدة طيلة اليوم. فخزان المياه الأساسي في المواقع الأخرى سقط بيد الطرف الآخر. كما أن الثلوج التي في إمكاننا شرب الماء منها (تبقى الثلوج في نقاط متفرقة معظم الصيف علي رأس الجبل) كانت في المواقع التي سقطت بأيدي القوات المهاجمة.

قلت لأيمن: «كل شيء سيكون على ما يرام. دفاعنا عن الموقع هو طريقنا إلى النجاة». تحدثنا لدقائق عشر بهدوء، لكنّ الحديث مع أيمن بدا كأنه ليوم أو يومين. الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهراً، وقد مضى على قتالنا ساعات. لم نكن نعاني من نقص في الذخائر، فقد كانت متوافرة معنا وقربنا بلا حدود.

فجأة بدأت الرماية من جهة أخرى فتحركت باتجاهها، حيث الشبان الآخرون، ثم عدت إلى أيمن بعد دقائق، وإذا به ممدّد على الأرض، رأسه مفتوح بالكامل

والدماء على الأرض حوله مثل البركة، دماغه بالكامل أمامي. لقد قُتل بطلقة متفجرة أصابت رأسه ففجرته. لم أمتلك الوقت للحزن أو حتى التفكير، أغمضت عينيه المفتوحتين ببطء وهدوء، أرحته في مكانه، قرأت الفاتحة على روحه دون أن أبالي إن كان أحد سيباغتني من الجهة المقابلة لنا.

لكنّ المعركه لم تنته، إذ بدأ هجوم للدبابات يطوّق مواقعنا من جهة السفوح الواقعة خلفنا، وسط قصف شديد. بدأنا نقاتل على جبهة دبابات تبعد عنا حوالى ٦٠٠ متر وتحاول تطويقنا من أسفل الجبل. هنا نزل رمضان باتجاه الدبابات. رمضان يقاتل كأنه عشرة أفراد، أطلق على الدبابات قذيفة آربي جي ٧. إلا أنه أصاب المشاة المرافقين للدبابات، كذلك أصاب المشاة رشاشنا المتوسّط الذي لم يتوقف للحظة. وبعد ساعة ونصف من محاولات الدبابات التقدّم والسيطرة على السفوح وتطويقنا، بدأت تنسحب حاملة معها الخسائر.

في الوقت نفسه اشتدت المحاولات لأخذ موقعنا، وفي إحدى أصعب الفترات سقطت قذيفة وسط ٤ من الشبان في الموقع، كنت أبعد عنهم ١٠ أمتار، اختفى الشبان وسط الغبار، وما إن انجلى الغبار إذا بهم تعرضوا لحروق: الوجوه سوداء الرموش والحواجب والشعر محروق والقمصان ممزقة. وقفوا أمامي يريدون ترك الموقع. أتحدث إليهم فلا يسمعونني من شدة الانفجار. غادر الأربعة الموقع من هول الصدمة.

هذا يعني أننا سنُباد في أي لحظة. فنحن الآن ستة ولن ننجح أنا ورمضان وحدنا. وقفت أمامهم وصرخت فيهم ليعودوا إلى الموقع، بينما أنتظر أن تخرج عشرات المجموعات الكتائبية والجيش من خلف الموقع لتبيدنا. لوهلة تذكرت قصص عشرات المجموعات في الحرب الأهلية التي حوصرت واختفت آثارها حتى اللحظة.

قلت صارخاً في وجوههم: «يجب أن نصمد هنا، عليكم بالعودة وإلا أطلقتُ النار عليكم، سنباد جميعاً إذا لم تعودوا».

وقف الأربعة ينظرون إليّ بدهشة، وقد بدأوا يستعيدون سمعهم. للوهلة الأولى

رفضوا العودة، ولكنهم أمام إصراري المجنون عادوا إلى الموقع وتقدمت معهم إلى الأمام واستمررنا بالدفاع عن الموقع.

حوالى الثانية والنصف ظهراً وصلت إمدادات مكوّنة من عشرة مقاتلين من فتح. وعندما سأل قائد المجموعة القادمة عن قائد الموقع، تقدمت وتحدثت معه عن الموقف، فقلت له: «هذا المكان فقط هو ما بقي لنا، هذه الأمتار هي كل ما بقي معنا». نظر إليّ سائلاً: «هل تقصد أن كل ما هو حولنا ساقط الآن؟». قلت له: «نعم» مع ابتسامة كبيرة.

سألني: «كيف بقيتم هنا طيلة اليوم؟».

أجبته: «دفعنا ثمناً غالياً لتحقيق هذه النتيجة».

ثم بادرني قائلاً: «دعنا نبدأ هجوماً معاكساً لنستعيد بعض المواقع».

قلت له: «علينا أن نرهقهم أكثر لجعلهم يتكبّدون مزيداً من الخسائر، وخاصة نحن أقوى الآن بوجودكم أنتم العشرة معنا، بعد ذلك في إمكاننا أن نبدأ هجوماً معاكساً. يجب أن يحصل هذا قبل الغروب بقليل لا الآن حتى لا تقع إصابات في صفوفنا ونقطع عليهم فرص الهجوم المعاكس نظراً للغروب».

ابتسم قائد المجموعة المساندة موافقاً.

ثم أردف: من أنت؟

قلت: «جهاد من السرية الطلابية، وأنا أقود هذا الموقع منذ الصباح فقط».

استمر يتساءل بينما تنفجر قذيفة حولنا، وتمرّ رصاصات قريبة منا وسط قتال متقطّع وغياب محاولات الاقتحام الجديدة من القوات التي تواجهنا: «لكن من أين لكم هذه القدرة على القتال وهذه الحماسة وهذا الهدوء».

قلت له: «هذا أمر يتطلب حديثاً طويلاً».

قمنا بهجوم خاطف على إحدى التلال التي سبق لها أن سقطت، وأمام تقدّمنا بنسق عسكري ولكن بأسلوب التسلل والاستعداد للاشتباك، انسحب الطرف الآخر بلا مقاومة. لقد أنهكتهم معارك اليوم واستنزفت طاقاتهم. وأخذت مجموعة أخرى منّا التلة الفرنسية التي سقطت في الصباح بسهولة. وجدنا المواقع التي عدنا إليها

مليئة بأسلحة الجيش والكتائب والأحرار، ومليئة بالدماء، وبآثار القتال الدائر منذ الصباح.

بعد أن استعدنا جميع المواقع قبل الغروب بدقائق، جلسنا على الأرض لنرتاح من عناء يوم مرهق وأليم. وبينما أنا مستلقٍ على الأرض بالكامل وبقربي عدد من الشبان الذين افترشوا الأرض مثلي، إذا خلفي مجموعة من المقاتلين من الأحرار والكتائب تتقدّم ببطء وخفة باتجاهنا، ورأيتهم على بعد ستة أمتار مني يستعدون لمهاجمة الموقع. لم يرونا لأننا كنا مستلقين على الأرض والشمس شارفت على الغروب، لكنني الوحيد الذي رأيتهم قربي.

لحسن الحظ صدقت عيناي، ولحسن الحظ كنت أتفحّص المحيط وأنا مستلقٍ ولم أترك التعب يحل علي. فما كان مني إلا أن فتحت نار الرشاش باتجاه المجموعة. عاونني بقية الشبان، إذ قام كل منهم من استرخائه وبدأت المعركة من جديد، لكنهم انسحبوا بسرعة بعد أن تكبدوا خسائر، سحبوا خسائرهم ولكنهم تركوا قائداً عسكرياً لهم فاقداً الروح.

لقد رأيت وجه ذلك القائد وجسمه جيداً لأنه كان أول المتقدمين، كان لقاء الموت بيننا على بعد أمتار، لن أنسى ذلك ما حييت. تمنيت لو لم يحصل هذا ولم أر وجهه، ففي الحرب نقتل من لا وجه له، كان الشاب وسيماً للغاية وعملاقاً في الوقت نفسه. هذا أسوأ ما في الحرب: أن ترى وجه من سيقتلك أو من ستقتله. ففي هذه الرؤية شعور بالأنسنة وتذكير لك بأنه يشبهك، بالتأكيد لديه أهل وأم وأب وأسرة وأخوات وإخوة، وهو بالتأكيد عربي مثلي ولديه منطلقات أفهم جزءاً منها، فأنا هنا مضطر لهذا القتال بينما وجد نفسه في الطرف المضاد يدافع عن أرضه ووطنه وفق مفهومه، ولو لم تكن هذه الحرب لربما كان صديقاً أو زميلاً جامعياً أو شخصاً أحاوره فكرياً. طردت هذه الأفكار بسرعة، تذكرت أصدقائي الذين سقطوا اليوم، تذكرت أيمن البرقاوي ومحمد شبارو. إنني الآن جهاد ولست شفيق.

مع الظلام توقف كل شيء، بينما اشتدّ الألم في رجلي المصابة، ولم نكن قد شربنا الماء منذ الساعة السادسة صباحاً. ثم جاء الماء، وهو عبارة عن أكوام ثلج سوداء ملوّثة بسبب القصف، أذبناها وشربنا ماءً ممزوجاً بالوحل من شدة العطش.

مساءً نقلنا الشهيدين أيمن البرقاوي ومحمد شبارو على بغلين من أعالي قمة صنين إلى المواقع الخلفية عند السفوح ثم إلى بيروت. بُدّل المقاتلون الذين قاتلوا طيلة اليوم في الموقع، ونقلت إلى بيروت لتلقّي العلاج بسبب الإصابة، لأفاجأ بآمنة القرى ابنة أم أحمد وأخت الشهيدين أحمد وجمال تعالج جراحي في مستوصف خاص لجرحى الحرب وللسكان في بيروت.

«حظك منيح الإصابة باللحم وليست في العظم أو العصب» قالت آمنة ثم أردفت: «لكن الجرح يحتاج إلى تخييط، وإبرة ضد التسمّم، ولازم تيجي كل يوم لمتابعته». لم أكن أعرف آمنة جيداً برغم لقائي بها في السابق ومعرفتي الأوّلية بأم أحمد.

بعد يومين على انتهاء المعركة في صنين، سار المئات منّا وراء نعشَي الشهيدين، بينما إخوة كلّ منهما وأخواتهما وأهلهما وأصدقاؤهما يشعرون بوقع الخسارة الشخصية. لقد غادرا إلى الأبد، لكنّ ذكراهما بقيت في كل محيط. لم يكن هناك في ذلك الزمن إنترنت، ولا موبايل، ولا فايسبوك، ولا إعلام مفتوح لنقل صور هؤلاء الشبان الجامعيين والطلبة وكلماتهم وتجاربهم وأدوارهم. فالمعارك تخاض بصمت، يسقط الموت عليهم بصمت، ثم تقفل الأحداث عليهم بصمت.

شهداء جدد في صنين

بعد معركة صنين حضر لقيادة الموقع محمود العالول من كادر السرية المؤسس وأحد القياديين المعاونين لأبو جهاد في القطاع الغربي الذي يتحمل مسؤولية المقاومة في الأرض المحتلة. جاء معه إلى صنين شابان أساسيان في العمل في الأرض المحتلة. حسنين (محمد أمين أحمد) وهو زميل لمحمود منذ أيام السجن في الأرض المحتلة، وحرب (عدنان علي إبراهيم) ، وهو أهم وأقدر خبير متفجرات في القطاع الغربي، فهو مهندس الكثير من الأعمال المقاومة ومدرب من معدن نادر. ألحّ حرب على العالول أن يأخذه معه إلى صنين، لكنّ العالول أعطى أمراً واضحاً لحرب: «يُمنع عليك القتال، ستكون معنا في الإسناد ولا تعرّض نفسك أبداً للخطر، الأولوية لما تقوم به للمقاومة في الأرض المحتلة».

فوجئ محمود يوم تسلّمه للموقع في صنين بحدّة هجوم القوات اليمينية على الموقع. لم يتوقف القتال لعدة أيام كما حصل معنا. سقط حسنين شهيداً في البداية ثم لحقه حرب الذي لم يلتزم بتعهّده لمحمود وانضم إلى القتال في لحظة حرجة.

الموت يلاحقنا

بعد ذهاب العالول لحضور جنازة مساعديه الرئيسيين في بيروت سيأتي لقيادة الموقع أبو خالد جورج (جورج شفيق عسل)، وسيكون معه عدد من الشبان من كل مناطق لبنان وفلسطين. ستستمر الهجمات الكتائبية وهجمات الأحرار والجيش اللبناني المنضم إليهما، وهذه المرة مستخدمين أسلحة أشد فتكاً. أبو خالد قاد هذا الموقع في السابق والتصق به.

في إحدى الهجمات استخدمت قوات الكتائب قنابل منشارية تنفجر في الجو فتضرب كل ما يقع في مجالها على الأرض. سيصاب أبو خالد جورج إصابات بالغة في رأسه تؤدي إلى استشهاده الفوري في موقع صنين على رأس القوات المدافعة عن الموقع. وبعد سقوط أبو خالد سوف تستمر الهجمات فيسقط أيضاً نقولا عبود المسيحي من القرعون من سهل البقاع. لقد أصبح صنين مكاناً لموت الكثير من شبان السرية.

بكى كل الناس على أبو خالد قبل دفنه في مقبرة شهداء فلسطين في بيروت. بكى الناس على الشهداء الطلاب وعلى نقولا عبود وحدة الموت الذي أحاط بهم في ذلك الأسبوع. كان أبو خالد رجل حوار لا يربط بين العلاقات الشخصية والاختلاف السياسي، ديموقراطي بطبيعته وأميل إلى الرؤية الإنسانية وصاحب قدرات فكرية. وقد وفد إلى مجلس العزاء الذي جلس فيه أخوه منير شفيق الكثير من قادة العمل الفدائي والحركة الوطنية وأعداد كبيرة من المقاتلين القادمين من الجبل ومن الجبهات المختلفة ومن بيروت. كان ذلك عزاءً مهيباً.

سيغيّب الموت الشبان واحداً تلو الآخر، وسيكون وراءهم أسر وأهل وأصدقاء وصديقات وأحياناً زوجات وأبناء وبنات. وسنكتشف مع الوقت أن بعض الشهداء لا يمكن استعادة جثامينهم من أرض القتال. وقد غنّى الشاب حاتم، الشاعر

والعازف الجبلي اللبناني الذي ألهم صوته وعوده الكثير من أمسيات قواعد السرية الطلابية عن الشهداء خاصة عند استشهاد أبو خالد مودعاً كل شهيد.

لغة الحرب

لبنان كله في تلك الفترة عرضة للقتال وللقنص والقصف، وبيروت جزءان: جزء شرقي للمسيحيين وجزء غربي للمسلمين، بينما يحاول كل طرف تصفية الجيوب الديموغرافية الجغرافية للطرف الآخر في مناطقه على أرضية طائفية بحتة. في هذا الصيف الساخن وإبان قتالنا دفاعاً عن صنين، سقط مخيم تل الزعتر في ١٢ آب ١٩٧٦ بعد أربعة أشهر من الحصار المتواصل وبعد شهرين من الهجمات اليومية، كما سقطت منطقة النبعة ذات الطابع الشيعي ووقعت مذابح مخيفة: في تل الزعتر وحده سقط ثلاثة آلاف قتيل. انتشر التطهير الطائفي من أوسع أبوابه.

بعد سقوط تل الزعتر في الصيف الساخن، أراد أبو عمار إسكان أهل تل الزعتر الذين نجوا من المجزرة ووصلوا إلى مواقع آمنة في مدينة الدامور المسيحية، التي هُجّر أهلها في إحدى المعارك. لكن محجوب عمر اليساري العربي المصري القائد في فتح رفض الأمر بشدة، وأعلن موقفاً كبيراً ضد عملية إسكان الفلسطينيين، حتى لو مؤقتاً، في الدامور. استمر السجال لفترة بين الثورة كضمير وأخلاق كما عبّر عنها محجوب عمر، والثورة كسياسة كما عبّر عنها عرفات. في النهاية انتقل الأحياء من سكان تل الزعتر للعيش في الدامور، وازداد لبنان انقساماً واشتعالاً، وزادت الجبهة اللبنانية تحريضها على الوجود الفلسطيني في لبنان مستخدمة الآن نغمة التوطين كما حصل في الدامور.

الفصل التاسع

محنة جيل مقاوم: بحمدون نموذجاً

لم نكد نرتاح من معارك صنين حتى بدأ الإعداد لمعركة في مواجهة القوات السورية الزاحفة باتجاه بيروت والمتحالفة مع القوات اليمينية لحزبي الكتائب والأحرار منذ ربيع ١٩٧٦. العقل المخطط لهذه الاستعدادات أمام الهجوم السوري هو أبو جهاد (خليل الوزير)، إذ قرّر أن أفضل وسيلة للتعامل مع القوة السورية المندفعة هي الإعداد الجيد للمواجهة وإقناع سوريا بأنها ستتكبّد خسائر فادحة إن استمرت في سعيها إلى اقتحام معاقل المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في الجبل ثم في بيروت. لكننا لم نكن نريد هذه المعركة، شعرنا بأنها مفروضة علينا ولم تكن تسعدنا.

تبلورت الخطة على أن تكون مدينة بحمدون عقدة عسكرية رئيسية أمام القوات السورية، ثم تبدأ عقدة ثانية في عاليه ثم في سوق الغرب ثم في بقية الجبل، وذلك بهدف إنهاك القوات السورية قبل وصولها إلى بيروت، حيث ستخاض معها معركة حاسمة دفاعاً عن بيروت والمخيمات. في الوقت نفسه هدف أبو جهاد من هذا التكتيك إلى كسب الوقت لإحداث تحركات عربية لإيقاف القتال.

في إطار هذه الخطة بدأنا في السرية الطلابية نأخذ مواقعنا في النصف الثاني من شهر آب/أغسطس ١٩٧٦ في بحمدون وإلى جانبنا العديد من المنظمات الفلسطينية ومنظمات الحركة الوطنية اللبنانية. تمركزت القوات السورية المعززة بالدبابات في منطقة صوفر مقابل بحمدون.

شاءت الصدف أن أكون مسؤولاً عن خط الدفاع الأول على الطريق العام بين

بحمدون وصوفر. وقد تضمّن الموقع مجموعة من الأبنية والفيلات وعدداً من الشوارع الواقعة بين الشارع الرئيسي (بعد ساحة بحمدون مباشرة باتجاه صوفر) والمنطقة التي تقع إلى يساره وصولاً إلى فندق الأمباسادور قرب ساحة بحمدون. عندما كُلّفت بهذه المهمة ارتسمت في عقلي علامات استفهام عديدة. فأنا أتذكر بحمدون وفندق الأمباسادور مصطافاً مع أسرتي ووالديَّ في سنوات الطفولة.

في السرية انطلقنا من أن المعركة مع سوريا يجب أن تكون مؤقتة، نقاتل فيها بشدة بهدف إيقافها، لأن المعركة الأساسية مع إسرائيل، وأن سوريا ليست عدو. في تلك الفترة تساءلنا كيف يؤدي كل هذا إلى تحسين فرص القضية الفلسطينية وحماية قاعدتها الآمنة ومنطلقها نحو الأرض المحتلة؟ فنحن الآن في بحمدون ولسنا في نابلس والقدس أو على الحدود مع فلسطين في الجنوب.

بدأت أرى من خلال الصراع الأكبر والصراعات الأخرى المرتبطة بالقضية الفلسطينية، كما حصل في الحرب الأهلية اللبنانية، ما ينسجم جزئياً مع ما ذكره مؤسّس حزب الكتائب بيار الجميّل الذي نشتبك مع حزبه والذي لخص مشكلة المنطقة بوجود أربع دول، إسرائيل وسوريا ولبنان والأردن، وخمسة شعوب. الشعب الخامس الذي لا دولة له هو الشعب الفلسطيني الذي لم يتوقف عن النضال والسعي لتثبيت نفسه وحقوقه التي سُلبت جرّاء قيام إسرائيل عام ١٩٤٨.

لكنّ كلاً من هذه الدول المحيطة بإسرائيل تواجه مأزق منشئها منذ تقسيمات سايكس بيكو بعد الحرب العالمية الأولى، كما تتحكم بها عصبيات فئوية وتوازنات ضيّقة وثقافة لا تعكس تطلعات أغلبية سكانها. فالأنظمة المحيطة بإسرائيل لم تكن تحترم شعوبها بالأساس لتحترم الشعب الفلسطيني ومتطلبات صموده وعودته. هذا بطبيعة الحال زاد من آلام الشعب الفلسطيني وتعقيدات شتاته.

وبرغم اقتناعي آنذاك بأهمية تحرير فلسطين وفق الشعار التاريخي من النهر إلى البحر، كان الاقتناع يزداد كل يوم بأن المخرج لكل هذا يتطلب دولة فلسطينية في الضفة والقطاع وعاصمتها القدس، يتطلب المخرج حلاً عادلاً وإنسانياً وشاملاً يأتي بعد نضال طويل ضد التوسّع والاحتلال والاستيطان الإسرائيلي. لم يكن هذا رأي معظم أصدقائي في السرية، كنت أفكر في الأمر ولم أكن قد استسغته بالكامل.

ولكن الأهم أمامنا، كنت أقول لنفسي ليس دولة أو غير دولة، بل أن نناضل لتحقيق انتصار، فقضيتنا بحاجة لانتصار واحد ذي معنى تاريخي وإنساني يشكل بداية انتقال نحو آفاق جديدة. حتى الآن كنا نعيش حالة حصار ودفاع في ظل خسائر عالية.

استمرت الاستعدادات في بحمدون خلال النصف الثاني من آب ١٩٧٦. كل يوم نكدّس مزيداً من أكياس الرمل في الأبنية الواقعة على خط المواجهة، والتي هي عبارة عن فيلات صغيرة ومتوسطة الحجم خالية من السكان وتتفاوت بين طبقتين وثلاث طبقات، فصلتنا عن القوات السورية المتمركزة أمامنا على مسافة خط نظر لا يتجاوز كيلومترين. زرعنا الألغام على الطرقات بكثافة، وفي الليل نشرنا الكمائن وذلك تحسباً لتسلل ليلي سوري.

تصاعدت أجواء الحرب، بعد فشل مفاوضات علنية بين وفدين عسكريين أحدهما فلسطيني بقيادة العميد سعد صايل رئيس غرفة عمليات القوات المشتركة اللبنانية الفلسطينية، وآخر سوري. وتبيّن من خلال المفاوضات أن المطالب السورية سيصعب القبول بها، وأن الحرب ستقع.

وبالفعل شنّت القوات السورية هجوماً واسع النطاق في أواخر آب ١٩٧٦ ولم تكن بحمدون ضمن الهجوم. نجحت سوريا في احتلال منطقة الجبل الشهيرة: إذ سقطت منطقة صنين وعيون السيمان وجوارها بيد الجيش السوري خلال ساعات. قائد تلك المنطقة كان أبو خالد العملة، أحد قادة تيار اليسار التقليدي في حركة فتح.

وكنا نقول لأنفسنا في بحمدون: «سنكون الهدف المقبل للجيش السوري».

في المحور الذي تحمّلت مسؤوليته، حشدنا حوالى ٣٠ شاباً من السرية، بينهم حسام القارئ ذو القدرات الفكرية الكبيرة، وأبو يعقوب (الفلسطيني) المتطوع من ألمانيا، ومنير قانصو القادم من الجنوب، ومحمد ونديم من طلبة الجامعة الأميركية وهما من لبنان، وعمار (عاطف بدوان) الفلسطيني الذي تطوّع للعمل الفدائي منذ أيام الأردن، وأبو علي الجنوبي، وكان معنا شبان من الجبل والبقاع ومن فلسطين وهكذا.

تسلّحنا جميعنا بالأسلحة الخفيفة وقاذفات الآر بي جي. وقد تمركز الحزب الشيوعي اللبناني على ميمنتنا ومعه ما يقارب عشرين شاباً. وكانت هناك أيضاً تنظيمات أخرى إلى الجهة اليسرى منا، ولكنها لم تكن خاضعة لقيادتي المباشرة.

أما صلة الوصل بيننا وبين قيادة فتح في مدينة بحمدون فكانت عبر محمود العالول القيادي في السرية الطلابية. بين يوم وآخر يمر علينا محمود، نشرب الشاي، نتحدث بهدوء ونراجع الخطط التي نضعها معاً. محمود هادئ الطباع، ركز طوال عمله النضالي في فتح على المقاومة في الأرض المحتلة. قلت لمحمود: «أتمنى أن تكون هذه آخر المعارك».

محمود: «ستكون آخر المعارك في هذه الحرب، وإذا نجحنا في تفاديها فسيكون ذلك أفضل. أنت ستذهب إلى الجنوب وأنا سأعود إلى القطاع الغربي مركزاً على المقاومة في الأرض المحتلة».

ثم أردف قائلاً: «إذا لم نخض هذه المعركة بقوة فقد يفسّر النظام في سوريا هذا ضعفاً، وقد يعتقد حزبا الكتائب والأحرار بأن الطريق مفتوح لتصفيتنا في كل لبنان. قتالنا الآن هو مفتاح حماية المقاومة».

مواجهة عصابات مسلحة

في أيامنا الأولى في بحمدون، وبينما كنا نحتسي الشاي بعد الظهر، إذا بمواطن لبناني من بحمدون يهرع إلينا وينادي وهو في حالة هلع: «سرقوني، أخذوا ممتلكاتي».

سرت مع الرجل بسرعة كبيرة باتجاه المبنى الذي يقع في شارع خارج صلاحيات مجموعاتنا المباشرة لكنها ليست بعيدة عنها. تحرك معي الشبان إلى أن وصلنا إلى المبنى. وجدت أمامي شاحنة كبيرة وشباناً مسلحين من منظمة فلسطينية صغيرة، يحملون أثاثاً وأغراضاً من المبنى إلى الشاحنة.

صرخت بحزم: «لماذا تأخذون أغراضاً ليست لكم؟».

فقال أحدهم: «هذه أغراضنا».

فجأه برز أمامي مسؤول المجموعة: شاب نحيف أسمر قسماته قاسية عابس الوجه ولديه جرح كبير وسط وجهه. نظر إليّ نظرة استخفاف وازدراء، واستمر بالسير مبدياً عدم اكتراثه لوجودي ووجود شبان السرية.

أكملت: «يجب أن تتوقفوا عن أخذ هذه الأغراض».

قال المسؤول: «لا دخل لك في هذا». واستمر بتجاهلي.

حينها صرخت في وجهه قائلاً: «أنا قائد هذه المنطقة من فتح وأقول لك الآن عليكم أن تتوقفوا وتعيدوا كل شيء إلى المنزل».

وبسرعة ابتعد كلّ شبان السرية عني، ووقف كلّ منهم في زاوية مختلفة من الشارع لمواجهة أي طارئ وللرد إذا تعرّضت شخصياً لعمل طائش من المجموعة التي تمارس السرقة. (فتح كلمة كبيرة في ذلك الزمن وتمثل سلطة معنوية كبيرة).

ثم قلت له بهدوء وإصرار: «كل شيء يجب أن يعود كما كان».

سكت قليلاً ثم نظر إلى شبّانه. مرّت ثوان كأنها عام ثم قال: «أعيدوا كل الأغراض الآن».

كان ذلك تنظيماً فلسطينياً صغيراً. لا أذكر إن كان جبهة النضال الشعبي أو جبهة تحرير فلسطين. سألتقي هؤلاء الشبان بعد أيام وهم يقاتلون دفاعاً عن محورهم بشراسة، وسيموت عدد منهم ببطولة. لا أعرف إن عاش قائدهم أو لم يعش. لكني ظللت أتساءل عن هذا التناقض الكبير: شجاعة في القتال ممزوجة بتدنٍّ في الأخلاق واستعداد للاعتداء على أملاك الناس. هذا التناقض في العمل الوطني المقاوم ظل مجالاً لتفكيري.

لقد نجحنا في إشاعة الثقة بدورنا بين سكان تلك المنطقة من بحمدون. لم نكن نقبل دعوات في المنازل وذلك لكي لا يُساء تفسير ذلك كأنه استغلال نفوذ. لم نقبل هدايا من الناس إلا في حدود إرسال سلة من التين الطازج. نشرب الشاي مع الناس في الطرقات وحيث يجلسون خارج منازلهم. وبطبيعة الحال أجاد شبان السرية التحدث في كل شيء، فهم ضليعون في التاريخ وفي السياسة واللغات والاقتصاد والأدب. وهذا ما زاد في إعجاب الناس بهم.

يهود بحمدون

ولكن أهم حماية قدّمناها في بحمدون هي للكنيس اليهودي الذي كان يقع على بعد أمتار قليلة من مواقعنا. خلفنا مباشرة وجد مبنى لأحد بيوت الله. أما الحاخام فهو يهودي لبناني سكن مع زوجته وأطفاله في ملحق تابع للكنيس. تحدث الحاخام معنا دائماً وتبادلنا معه التحية باستمرار. ومع ذلك في تعابير وجهه بعض التخوّف والتشكّك. لقد سكن في بحمدون عدد من اليهود وانتقل إليها أثناء الحرب عدد آخر من وادي أبو جميل وهو حي لليهود اللبنانيين في بيروت. هؤلاء يهود لبنانيون بقوا في لبنان رغم حرب ١٩٤٨ ونزوح الكثير من يهود العالم العربي إلى إسرائيل.

في ساعة متأخرة من إحدى ليالي آب ١٩٧٦، إذا بالحاخام وزوجته يصرخان. وكنت قد فرغت من جولة ليلية على المواقع الأمامية المواجهة للجيش السوري. خرجت مسرعاً وإذا بالحاخام يقول «إنهم يسرقوننا يا شباب».

نظرت أمامي فوجدت ثلاثة مسلحين من فتح (هذه مصيبة لي) يحاولون سرقة سيارة الحاخام اليهودي. عرفت أحدهم، وإذا به المرافق الأول لدى مسؤول بحمدون العسكري من فتح.

سرت باتجاهه: «ماذا تفعل، عليك ترك السيارة الآن».

صرخ في وجهي قائلاً: «مش شغلك».

قلت له بلغة يفهمها وبوضوح وهدوء: «راح أعدمك انت والحرامية اللي معك إن حركت السيارة. رأح اسويك شهيد السرقة».

في اللحظة نفسها ومثل البرق انتشر شبان السرية على جانبي الطريق، واتضح بلا مواربة أننا سنقتل الثلاثة خلال ثوان إذا حرّكوا السيارة.

السارق في نهاية الأمر جبان، ولكنّ الذي أمامي مقاتل وفدائي ومن التنظيم نفسه الذي أنتمي إليه (فتح)، ولا أستطيع أن أتنبأ بسلوكه ومدى سعيه إلى امتحاني. لكني لم أكن لأتردّد في إطلاق النار عليه. فالفدائي ليس عضواً في عصابة سرقة، ولن أستطيع أن أعيش مع نفسي لو لم أنجح في حماية الحاخام وممتلكاته.

مرّت لحظات صمت. دماؤنا تغلي، بينما الرشاشات مصوّبة على الثلاثة من كل الجوانب، وإذا بهم يترجّلون من السيارة وهم يشتموننا قائلين لنا: «يا حماة اليهود، سوف نعود ونؤدّبكم. أنتم سرية الصهاينة العملاء».

لم نردّ عليهم بأي كلمة بينما يبتعدون.

نظر إليّ الحاخام محتاراً. قال لي وهو بالكاد قادر على الوقوف من شد الأعصاب: «شكراً، لم أتوقع أن تتصرفوا بهذه الطريقة».

ثم أردف: «كيف تكون فتح ضد فتح؟».

قلت له: «نحن هنا لهدف سياسي وفتح حركة كبيرة. نحن طلبة جامعيون وأتينا من منازل طيبة وعائلات مثل عائلتك الكريمة. حملنا السلاح إيماناً منا بأنه سيوصلنا إلى فلسطين، نحن عابرو سبيل هنا في بحمدون وسنكون في الجنوب بعد انتهاء هذه الحالة. إن تركناهم يسرقونك الليلة فسيسرقون منزلك وعائلتك غداً. وإن حصل هذا نكون قد هزمنا وأقررنا بحق إسرائيل في سرقة منازل الفلسطينيين وأراضيهم وطردهم من بلادهم».

أبقينا الحراسة على الكنيس اليهودي في بحمدون، وأبلغنا محمود العالول ليتابع الأمر مع القيادة في بحمدون، أما الحاخام فجاء في الصباح ومعه فاكهة وقهوة. تحدثت إلينا أسرته وعدد من اليهود ممن أتوا إلى المعبد للاطمئنان على الحاخام.

بعد أيام جاء الحاخام مبتسماً: «الحاخام الأكبر في الجالية اليهودية في لبنان، وهو تحديداً الرجل الثاني في تسلسل المسؤولية بين يهود لبنان، يريد أن يراكم».

وافقت على اللقاء، وجاء أيضاً حسام ومحمود العالول. جلسنا مع الحاخام في منزل وسط بحمدون. إنه رجل كبير في السن واستقبلنا بحفاوة كبيرة.

نظر إلينا مبتسماً وقال: «يا شباب، أنا مسرور بلقائكم. لكن ما الذي جعلكم تقومون بما قمتم به؟».

قلت سريعاً: «نحن هنا في بحمدون مضطرين. قضيتنا الفلسطينية تقوم على أخلاق، لهذا علينا واجب حماية الحاخام وحماية أسرته والمعبد من أي مكروه، في هذا حماية لما نؤمن به».

تحدث محمود، وأضاف حسام الكثير ودار نقاش عميق مع الحاخام المثقف.

في ختام الجلسة أنهى الحاخام الكلام قائلاً: «الله يحميكم، ويرجعكم سالمين لأهلكم».

هجوم القوات السورية

في أوائل تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٦ تبيّن أن الأوضاع تسير نحو التصعيد مع سوريا. بدا لنا أن أياماً قليلة تفصلنا عن معركة حاسمة مع جيش متفوّق في العدد والعتاد.

زرعنا مزيداً من الألغام على الطرقات. وقد خطط لكل أعمال الهندسة ونشر الألغام غيفارا الخبير في حقول الألغام والمتفجرات والصديق القديم للطلاب. غيفارا يعمل مع أبو جهاد لمصلحة المقاومة في الأرض المحتلة، وقد انضم إلى الفلسطينيين منذ سنوات طويلة وهو في عمر شاب. لكن غيفارا كردي الجذور، نشأ في سوريا وإن كان يقال إن له جذوراً بين أكراد إيران. كان غيفارا متميزاً في أعمال التفجير.

في ليلة ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٦ لم ننم على الإطلاق. لم تنقطع أصوات حركة الدبابات السورية في التلال المواجهة لنا في صوفر. أيقنّا أن شيئاً كبيراً سيقع مع بزوغ الفجر. من جانبنا هيّأنا أنفسنا للصمود لأيام خوفاً من أن تقطع الطرق علينا من الخلف.

الخطة واضحة: سنصمد أمام حدة القصف، وذلك لتحين الفرصة لنا للاشتباك القريب مع القوات المتقدمة التي ستتفوّق علينا بنسبة واحد إلى عشرين. سنحافظ على المواقع، ولن ننسحب إلا بعد قتال لأيام يجعل الموقف العربي يتحرك لإيقاف الاندفاع السوري نحو بيروت.

هذا التكتيك، الذي أطلقنا عليه القتال التراجعي، سوف يعطي أيضاً الفرصة للقرى والمدن الواقعة خلفنا، في سوق الغرب وعاليه وغيرهما، للاستعداد لمنازلة شبيهة. هذا الأسلوب في القتال سيرفع الثمن لدى الطرف الآخر وسيفرض

مفاوضات وحلاً سياسياً يسمح بإنهاء الحرب وحشد الطاقات مرة أخرى من أجل مواجهة إسرائيل.

* * *

كنا حوالى ٣٠ شاباً في الموقع موزّعين على خمس مجموعات رئيسية، لكل مجموعة قائد. مع حلول الفجر، أرسلنا مجموعة بقيادة حسام إلى الأبنية الواقعة إلى اليمين من مواقعنا، والمطلة على الطريق الدولي الذي يصل بحمدون بصوفر.

وقد أدى انتقال بعضنا إلى تلك البقعة إلى انزعاج الحزب الشيوعي الذي لديه مجموعات على الطريق العام والذي ظن أننا نضخّم الحدث وأنه ليس هناك هجوم. ولكننا قلنا لهم «بعد ساعتين ستشكروننا على تعزيزنا لمواقعكم».

في السابعة صباحاً على وجه التقريب نزل علينا غضب لا حدود له من السماء. راجمات الصواريخ السورية والدبابات والمدافع الثقيلة تقصف مواقعنا والأبنية التي نتحصّن فيها بزخم. القذائف تنفجر فوق رؤوسنا بالمئات، وتحفر في كل مكان، وتصيب كل مبنى، أما نحن فنتحصن في الأبنية خاصة في الطوابق السفلية.

حاولت الدبابات تحقيق إصابات مباشرة في الغرف التي نختبئ فيها، لمنعنا من مراقبة الطرق والوادي الذي يقع أسفلنا. فهناك في الوادي بدأ مشاة القوات السورية بالتقدم على شكل مجموعات صغيرة مزودة بالأسلحة الخفيفة والمضادة للأفراد والآليات. ومن أسلحتها وحركتها أيقنّا أنها القوات الخاصة، أفضل وحدات الجيش السوري.

اشتبكت مجموعاتنا مع القوات المتقدمة بالبنادق والرشاشات ورشاشات متوسّطة. حاولت أنا وعمار (عاطف بدوان) أن نقصف القوة المهاجمة بمدفع الهاون الوحيد الذي معنا. وقد نجحنا في إصابة أهداف شاهدناها بالعين المجردة، ولكنّ ردّ الراجمات على مدفعنا أوضح لنا مدى دقة الراجمات السورية، إذ سقطت صواريخ راجمة كاملة معظمها من نوع غراد بالقرب مني. انفجرت حولي وحول عمار، ورفعتني قوة الانفجار في الهواء كما رفعت عمار ربما متراً ونصف المتر. ارتطمت بالأرض بقوة، وظننت وصديقي عمار أننا أصبحنا في عداد الأموات.

نظرت إلى عمار: «ما زلت حياً، مع ابتسامة تعجّب». بحثت في جسمي لأرى

إن كنت قد أصبت، فأنا أعرف أن الإصابة في الثواني الأولى قد لا تشعرك بالألم على الإطلاق، فلم أجد شيئاً.

عمار (يضحك ويسخر من الموقف) «أنا بخير».

عندما يتحدث عمار فإنه يتحدث ببراءة شديدة، كأنه لا يزال في العاشرة من العمر. عمار يمتلك خبرة قتالية كبيرة، فقد كان مقاتلاً «شبلاً» في حركة فتح منذ أن كان في الخامسة عشرة من العمر مع الشهيد أبو علي إياد.

في إحدى اللحظات، وبعد مرور ثماني ساعات على الهجوم، إذا بقوة سورية تتسلّل بنجاح أسفل مواقعنا، مستغلة النتوءات الصخرية في الوادي. تحركنا أنا وعمار باتجاهها واقتربنا منها على مسافة مئة متر ونيف وبدأنا معركة معها. لم تكن القوة السورية محصنة جيداً، وكنا في موقع مشرف عليها، لهذا وقعت إصابات كثيرة في تلك القوة المتسللة، إذ حاصرناها بعد أن انضمّ إلينا عدد من الشبان، ولم تعد قادرة على الانسحاب أو التقدم، وسط خسائر وصراخ في صفوفها. نتج عن تلك المعركة التي استمرت أكثر من ساعتين إيقاف تقدم تلك القوات السورية في ذلك المحور ومنع أي تعزيزات جديدة طوال النهار. لكن القصف استمر مستهدفاً مواقعنا، كما أن المحاولات السورية استمرت من زوايا أخرى تطل على مواقعنا. هكذا لم يتوقف القتال طوال اليوم الأول.

مع اقتراب انتهاء اليوم الأول لم تقع بيننا خسائر سوى جرح طفيف في رأس نديم من الجامعة الأميركية، نجحنا في الاحتفاظ بكل مواقعنا. هذه التجربة هي الأولى لي مع قوات خاصة تابعة لجيش نظامي متطور كالجيش السوري. لكن معركة اليوم الأول لم تنته وهي ما زالت في طور الاستمرار خاصة قبل حلول غروب هذا اليوم.

مواجهة مع الدبابات

في نهاية اليوم الأول، وبعد قتالٍ استمر حوالى إحدى عشرة ساعة نجحت دبابات الجيش السوري في التقدم إلى مسافة قريبة منا هي أقل من مئة متر خلف الأبنية التي نتحصّن بها على الطريق العام بين صوفر وبحمدون. استطاع الهجوم

السوري إزالة ألغام زرعتها وحدات الهندسة وغيفارا. أصبحت الدبابات قربنا، على بعد ٧٠ متراً أو أقل. أصبح الوضع خطيراً للغاية.

نسمع أصوات الجنود السوريين وهم يسيرون مع الدبابات هبوطاً على الطريق العام باتجاهنا، كانت الشمس قد قاربت على الغروب لكن الضوء في كل مكان. إنهم يزدادون اقتراباً خلف الأبنية التي نختبئ فيها، لا نراهم ولا يروننا رغم قرب المسافة. انضممت إلى حسام ومحمد وعمار وأبو علي وعززنا موقعنا تجاه الطريق العام، أصبحنا هناك حوالى ٢٠ مقاتلاً موزعين على نقاط على الطريق العام بين صوفر وبحمدون، وخلفنا ساحة بحمدون، بانتظار أن تبرز أمامنا الدبابات في أي لحظة.

الواضح أننا أمام لحظة قاسية جداً. سندمّر دبابتين أو ثلاثاً على الأغلب بواسطة قذائف الآر بي جي المضادة للدبابات، ثم سيقع أحد احتمالين: إما ستتراجع الدبابات السورية قليلاً إلى الوراء، وإما سنقتل نحن، أو الاثنان معاً. تلك الدبابات كانت بالعشرات ومعها مئات من قوات المشاة.

شربت بعض الماء. تمتمت بالشهادة ونظرت إلى كل الشبان حولي نظرة شعرت بأنها وداعية. لقد حلّ تعب القتال المتواصل علينا. هذه لحظة أستطيع أن أطلق عليها لحظة حسم وتحديد مصير في معركة رئيسية. ستمرّ الثانية كأنها دهر، وستمرّ الدقيقة كأنها الحياة كلها.

ازدادت أصوات الدبابات الضخمة وأصوات الجنود المتقدمين اقتراباً. أصبحنا في سكوننا وانتظارنا جزءاً من الطبيعة والأبنية والمواقع. فقد تظهر الدبابات أمامنا ونبدأ بالمواجهة.

قلت لعمار وهو قربي: «هذه آخر المعارك حتى نذهب إلى الجنوب، انتبه على نفسك». وافق مبتسماً كعادته.

لكني قلت لنفسي ما لم أقله لعمار: «قد لا نذهب إلى أي مكان فنموت هنا حيث تدفن معنا أحلامنا وآمالنا».

سرت للحظات في عقلي ذكريات عائلتي وأسرتي، سنوات طفولتي في هذه البلدة وفي الحياة الأوسع، شعرت لوهلة بثقل كل ذلك التاريخ الذي أتى بي إلى

هذا العالم المتقاتل، لكنني بسرعة طردت تلك الأفكار من عقلي. عليّ أن أركّز ويجب أن نحيا من خلال القتال.

سألت نفسي للحظة: «أين أنت يا غيفارا يا خبير المتفجرات؟ أين ألغامك؟ لماذا لم تنفجر كما وعدتني قبل المعركة؟ لماذا أصبحت الدبابات قربي وأنت وعدتني بأنني سأقاتل المشاة فقط؟».

ازدادت الأصوات اقتراباً وأصبحت الأرض تهتز من تردّدات جنازير الدبابات وكأنها قطيع من الفيلة الهائجة. الأصوات تصمّ آذاننا. استعدّ محمد الذي يدرس الهندسة في الجامعة الأميركية بالآر بي جي، ثم عمار، وأبو علي، بينما صوّبت الرشاش باتجاه الزاوية التي ستطلّ منها الدبابات لمنع الجنود من التقدم معها.

وقبل أن تصل إلينا الدبابات بأمتار (فقط بأمتار)، سمعنا دويّ انفجار كبير هزّ كل بحمدون. حاول أحد الشبان التقدم قليلاً لمعرفة ما حدث، وإذا أمامه كاسحة الألغام السورية تحترق ووراءها رتل طويل من الدبابات السورية والجنود. نجحت خطتنا. توقف الهجوم السوري. ضحكنا من أعماق قلوبنا قائلين: «عملها غيفارا كما وعدنا».

لقد وضع غيفارا ألغامه بطريقة تفجّر كاسحات الألغام التي تتقدم أمام الدبابات، لو كان غيفارا أمامي لحملته على كتفي.

معركة الليل الفاصلة

جاء الليل وتحول كل شيء إلى هدوء والتقاط للأنفاس، لكنّ المعركة لم تنته، برغم محافظتنا طوال قتال اليوم الأول على جميع مواقعنا موقعاً موقعاً. في الليل وزّعنا الكمائن بانتظار هجوم سوري ليلي. لكننا مجهدون، فنحن لن نستطيع النوم في الليلة الأولى، كما خضنا قتالاً ليوم كامل حتى الليل. وعلى الأغلب علينا أن نقاتل هذه الليلة ونتعامل مع هجمات جديدة تستهدف احتلال الأبنية التي نتمركز فيها. لن تأتي قوات صديقة تحلّ مكاننا وتريحنا، علينا أن نقاتل إلى أن تنتهي هذه المعركة.

أخذ الجميع وجبة العشاء على دفعات. سرت في أذهاننا فكرة هجمات غوارية

على مواقع الجيش السوري. ولكننا متعبون وأيّ عمل من هذا القبيل يحتاج إلى قوة جديدة غير مجهدة. عوّضنا الذخائر التي صرفناها خلال الاشتباكات والقنص، نظّفنا أسلحتنا جيداً، وجهزنا كل شيء لمتابعة المعركة.

عدت إلى مركز قيادتي الذي يقع على بعد ثلاث فيلات (منازل) من الخندق الأمامي في الفيلا الأولى التي تعترض طريق التقدم السوري. فبين جميع المواقع طريق خلفي غير مرئي يوصلني إلى الشبان في المقدمة وينقل الإمدادات. إن المسافة بين المقدمة ومركز القيادة لا تتجاوز مئتي متر. وينتشر ثلاثون مقاتلاً على ثلاثة خطوط من الفيلات، تشرف على الطريق العام والطريق الداخلي والوادي، وتكشف آفاق التسلل، ويحمي بعضها بعضاً من أي محاولات حصار.

حاولت أخذ قسط من الراحة لمدة نصف ساعة قرابة الثانية فجراً ومعي عدد من الشبان في مركز القيادة، وسط هدوء شامل عمّ الجبهة. نصفنا يتمدد بينما النصف الثاني يقوم بواجب الحراسة الليلية.

ما إن أخذت قسطاً صغيراً من الراحة حتى سمعت دوي انفجار كبير ورماية في المنزل الأول حيث نديم وأبو يعقوب. نهضت بسرعة ومعي كل تجهيزاتي وسلاحي وتحركت مع بقية المجموعة باتجاه الموقع الأمامي.

في الطريق إلى المنزل الأول، إذا بأحد الشبان قادم منه: «لقد هاجمونا في المنزل الأول تسللاً واحتلوا الطبقة الأرضية منه وقد رمينا عليهم قنابل يدوية». الإرهاق كان واضحاً على الشبان، إذ غافلتهم القوة السورية وفاجأتهم، ربما كان الحارسان عند ذلك المدخل فقدا التركيز.

لقد دخلت قوة سورية خاصة إلى الطبقة الأرضية في المنزل الأول، اشتبك معها الشبان الأربعة وانسحبوا إلى المنزل المجاور. كانت القوات السورية الخاصة تتسلل على عدد كبير من خطوط الجبهة في محاولة لاحتلال ما تستطيع من مباني الخط الأول.

شعرت لوهلة بأننا سنباد إن لم نتحرك بسرعة لإقامة جبهة جديدة يمكن الدفاع عنها وإيقاف التقدم السوري. طلب عدد من الشبان أن نعود إلى الفيلا الأولى

ونشتبك مع القوة السورية، لكن ذلك أمر فيه غموض وقد ندفع خسائر عالية مع تدفق المزيد من القوات السورية الخاصة. لهذا طلبت فوراً من الشبان الانسحاب من الفيلا الثانية أيضاً التي نقف فيها الآن وأن نتجمع أمام الثالثة حيث مركز القيادة التي تفصلها عن الفيلا الثانية حديقة كبيرة مساحتها ٢٠٠ متر مربع. هذا موقع يمكن الدفاع عنه ويمثّل بالنسبة إليّ خط دفاع ثانياً وسط مواقعنا إلى حين طلوع الصباح. وبالفعل انسحبنا إلى تلك المواقع بلا خسائر.

بعد نصف ساعة حاولت القوة السورية خرق مواقعنا لحسم المعركة، ولكن أكثر من ٢٠ شاباً منّا اصطفوا عند تلك الحديقة واشتبكوا معها لمدة ثلث ساعة نتج عنها صدّ الهجوم والتسلل السوري ومنعه من التقدم. بل فوجئت القوة السورية بطبيعة قدرتنا على بناء جبهة جديدة متراصة وسط مواقعنا وحول الأزقة وبعد سقوط أكثر من موقع متقدم لنا، كأننا أعددنا أنفسنا لدفاع تراجعي مدروس. لم ننهر، بل بقينا نقاتل بتماسك وخطة جماعية دفاعية منتظمة.

أرسلنا في الوقت نفسه مراسلين إلى المواقع التي فيها حسام وعمار وبقية الشبان على ميمنتنا لإعلامهم بالموقف وبما حصل وكيف تعاملنا معه. هكذا قام عمار ومحمد وحسام وأبو علي والشبان بحركة التفاف على القوة المهاجمة في المنزلين الأول والثاني بهدف محاصرة القوة السورية من الأعلى وإبقائها في المنزلين الأوّلين. وقد بدأوا برماية كثيفة على المنزلين والاشتباك مع القوة السورية فيهما لمنعها من التمركز أو التقدم أو التفكير بهدوء في الخطوة التالية.

بنجاح ومهارة وبلا خسائر استوعبنا الهجوم السوري ضمن مواقعنا، إذ أصبحت القوة السورية جيباً محاصراً وسط مواقعنا، ولم تستطع تلك القوة أن تكمل طريقها للوصول إلى ساحة بحمدون خلفنا. بقينا نشتبك بتقطّع مع القوة السورية في ذلك الجيب طوال الليل إلى أن طلع الفجر والصباح.

اليوم الثاني: ضراوة القتال وخسائر بالأرواح

خرج الضوء علينا لتستمر المعركة. القوة السورية بقيت في المنزلين، وسط جهود سورية لاستكمال الهجوم. في الحرب بإمكان خطة جيدة أن تنقذ الكثير من

أرواح المقاتلين، لكن هذا يحتاج إلى العمل كفريق ومرونة كبيرة في الحركة وإلى خطط بديلة في كل لحظة.

حوالى الساعة التاسعة صباحاً، حاولت القوة السورية التقدم مجدداً، فاشتبكنا معها. لكن هذه المرة أصيب اثنان من الشبان، الأول أبو يعقوب (يوسف جوادة) وهو في الثانية والثلاثين من عمره وهو قائد مجموعة أنهى الدراسات العليا من ألمانيا وأتى إلينا متطوّعاً، والثاني منير قانصو طالب جامعي لا يتجاوز عمره عشرين عاماً وهو من جنوب لبنان.

عندما أصيب أبو يعقوب سمعت منه صرخة. كان يبعد عني على الجهة الأخرى من الموقع عشرة أمتار. ركضت باتجاهه والرمايه مستمرة علينا. لقد أصيب بقذيفة آر بي جي ٧ انفجرت أمامه ودخلت شظاياها جسده.

وصلت إليه وإذا به يتقيّأ دماً أحمر على ملابسي. حاول الوقوف فلم يستطع، لقد أصابت الشظايا معدته وأحشاءه وبدأ نزف سريع في معدته، لذلك تقيّأ.

صرخ أبو يعقوب: «يا جهاد اتركني أجلس هنا، سوف أموت الآن، أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه» كررها قائلاً: أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

قلت له بصوت واثق بينما أشعر بقلق كبير عليه: «لن تموت، ابق صامداً. سننقلك الآن للمستشفى». استمر أبو يعقوب بالتقيّؤ: «اتركني أموت يا جهاد، رجلاي تؤلمانني، دعني أجلس، أريد أن أرتاح دعني أرتاح». ابتلّت ملابسي بدماء أبو يعقوب بينما يتقيأ، حمله ثلاثة من الشبان باتجاه المواقع الخلفية حيث ساحة بحمدون لنقله بسيارة الإسعاف.

في الوقت نفسه حملنا منير، ذلك الشاب المتوقد والكثير النقاش والتساؤل والقادم مج جنوب لبنان، والذي لم يبلغ عشرين عاماً، فنقلناه أيضاً بعد أن أصيب إصابة بالغة في كبده. لكن حالته كانت أكثر استقرارا من أبي يعقوب.

بعد الحادثة بدقائق، أمطرني رشاش سوري ثقيل بوابل من الرصاص. كاد الرشاش يصيبني إصابات بالغة لولا قفزي السريع، فوقعت في بركة الدماء التي تركها أبو يعقوب.

أصبح الوضع أكثر صعوبة وتبيّن لي في اليوم الثاني للقتال أننا أصبحنا في جزيرة وحدنا في مقدمة بحمدون. بدا لي أن الفيلا الصغيرة التي نحن أمامها والفيلات الأربع إلى اليمين والفيلا الأخرى إلى يسارنا هي كل ما بقي للمقاومة في معظم مواقع بحمدون الأمامية، وأن المواقع التي خلفنا، أي المؤخرة التي هي لقوى أخرى، أصبحت خالية من المقاتلين، بالإضافة إلى احتلال القوات السورية لمجموعة من الفيلات الأولى في مواقعنا، نجحنا في حصارها فيها.

تحركت باتجاه الأبنية التي تقع خلفي والتي فيها قوات احتياطية لبعض المنظمات، فلم أجد أحداً. لقد انسحبوا جميعاً، بينما هناك قوات فلسطينية ولبنانية وطنية تقاتل في نقاط متفرقة على الجبهة. شاهدت وأنا في الطريق الشاب الذي قاد مجموعات أرادت سرقة أحد الأبنية، كان هادئاً، بادلني نظرة احترام وتحية، تمنيت له التوفيق في معركة يخوضها باتجاه الوادي، كان للتو قد أوصل مع مقاتليه عدة جرحى لموقع الساحة في بحمدون. بدأت أخشى من أن نباد جماعياً، وقد نهاجم من الخلف إذا نجحت القوة السورية في الالتفاف علينا. أصبح الوضع مختلفاً.

سرت قليلاً فوصلت إلى ساحة بحمدون، لأجدها خالية ومقفرة. القصف مستمر وهناك جثث على الطريق لشبان من منظمات مختلفة قضوا في القصف العنيف. فجأة سقطت مجموعة قذائف قربي كادت تصيبني فدخلت إلى غرفة وإذا فيها جثة.

اقتربت من الجثة، يا لهول المفاجأة والصدمة: إنها لأبو يعقوب (يوسف جوادة). شعرت بانقباض عصر روحي، أردت أن أطلق صرخة غضب لكنني عجزت، قبلته، أغمضت عينيه المفتوحتين، أخذت ذخائره وما يحمله من قنابل. وقفت أمامه للحظات متذكراً أياماً جميلة جمعتنا، إنه أكبر منا سناً، لديه قصص كثيرة وحكايات جميلة عن ألمانيا ووالديه في فلسطين، وزوجته الألمانية وابنتيه اللواتي ينتظرن عودته فور انتهاء المعارك. تبخر كل هذا بموته. هكذا لم يتحدد فقط مصيره، بل مصير الأحياء من أطفال وزوجات وعائلات.

عدت إلى الموقع، لم أخبر أحداً عن أبي يعقوب، بدأت أُعدّ لخطة دفاع دائري بالكامل في حال حصارنا. قلت لنفسي: «لن نباد ولن نؤسر مهما كلف الأمر».

في الجهة الأخرى قرب الطريق العام حيث مجموعة حسام ومحمد وأبو علي وعمار، لمح حسام حامل مدفع سورياً على سطح البناية المقابلة فناداه متحدثاً باللهجة السورية. فحسام هو الآخر من أسرة سورية وانضم إلى التنظيم الطلابي إبان الدراسة وأكمل طريقه مع المقاومة مؤمناً بها وبأهدافها ليجد نفسه يواجه جيش بلاده فصرخ بالجندي السوري: «أنت عربي وأنا عربي، أنت سوري وأنا كذلك وعدونا المشترك إسرائيل لا تطلق علينا». لكنّ المفاجأة التي حيّرتنا أن الجندي السوري تراجع عن رمي القذيفة. ظل هذا سؤالاً مفتوحاً لنا يرمز إلى طبيعة الحرب والإنسان وإلى معنى الاقتتال.

تساءلنا: هل كان هذا السوري سنّياً يشعر بالغبن؟ هل كان كردياً وليس عربياً يشعر بخطأ ما يقع؟ هل كان علوياً يشعر هو الآخر بعروبة موقفه؟ وماذا عن الشبان السوريين من خلفيات مختلفة وطوائف مختلفة بيننا؟ كان معنا عدد منهم قاتلوا بألم ولكن بإيمان بالقضية الفلسطينية. فالعرب يقاتلون أنفسهم، وحديثهم عن القومية لا يلغي وجود المعارك بينهم خاصة أن أهواء الأنظمة الفردية الديكتاتورية وأزماتها تورّطهم في صراعات جانبية، وفي هذا دروس.

بقينا طوال ساعات اليوم الثاني في اشتباكات متصلة حتى قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر، عدنا للاشتباك أنا وعمار والشبان عند تلك الحديقة ومع ذلك الجيب الذي حاصرنا فيه القوة السورية. وإذا بي أجد أمامي في الموقع محمود العالول مقطّب الجبين وهادئاً في الوقت نفسه. جاء محمود الذي يقود مجموعات أخرى في منطقة ثانية من بحمدون ليبلغني بينما نخبّئ رؤوسنا من الرماية والقصف والقنص:

«صدرت التعليمات من أبو جهاد بالانسحاب من كل مواقع بحمدون. أبو جهاد فخور بما قمتم به طوال أمس واليوم. القوات السورية بدأت تدخل بحمدون من مواقع أخرى، فنحن الآن في جزيرة. علينا أن ننسحب، فهناك خطط أخرى تعد الآن للقتال في بقية المدن خاصة سوق الغرب وحمانا وعاليه إذا استمر الاندفاع السوري باتجاه بيروت».

وما إن أكمل محمود كلامه، حتى بدأت القوات الخاصة السورية بشنّ هجوم كبير على مواقعنا من الطريق العام باتجاه حسام ومحمد وأبو علي والشبان هناك.

بالعشرات تدفق الجنود السوريون لاجتياح مواقعنا بلا هوادة في معركة كسر عظم وحسم. لكنّ الهجوم لم يكن حيث نقف أنا وعمار والعالول، ولا يفصلنا عن القوة السورية سوى أمتار خلف السور والحديقة حيث وجدت القوات السورية منذ ليلة أمس، بل وقع من جهة الطريق العام من قبل عشرات الجنود، حيث أصدقائي حسام ومحمد وأبو علي ومجموعة لم تتجاوز ستة أشخاص.

ركضت بسرعة عند سماع أصوات القتال فوقنا، وأنا أشعر بخوف شديد على الشبان، هل يعقل أن نموت في اللحظات الأخيرة من المعركة، هل يبادون في الثواني الأخيرة؟ ارتسمت لوهلة صورة أبو يعقوب الشهيد، «لا أريد مزيداً من القتلى بين الشبان» قلت لنفسي.

ركضت بسرعة البرق بينما يتقدّمني عمار إلى أن وصلت قرب المبنى الذي تتمترس فيه المجموعة بينما النيران من كل مكان، دخان وانفجارات ورمايات. ارتمينا على الأرض لنفهم ماذا يحصل ولنحدد موقفنا.

توقفت الرماية فجأة، ولكن على الأرض أمامي عشرات الجثث، لم أصدق عيني، خفت أن تكون جثث أصدقائي، وإذا بها جثث سورية، نظرت أمامي بينما نسير أنا وعمار قربها وحولها وعددها تجاوز ١٦، وكأن إحداها ستقف الآن وترميني بعشرات الرصاصات. إنه منظر مخيف للموت ورائحته، ولكنه نتاج الحرب ودمويتها.

لم أعرف ماذا حل بحسام ومحمد وأبو علي والبقية، للحظات ظننت أنهم قضوا، وإذا بهم يلوّحون باتجاهي. لقد نجح الشبان الستة المتحصّنون في البناية المكوّنة من ثلاثة طوابق في صد الهجوم، بل أبادوا القوة المهاجمة التي دخلت البناية وتلك التي حاولت تعزيزها. لقد قام كل منهم برماية أعداد كبيرة من القنابل اليدوية على الطابق الأرضي ثم على الساحة المقابلة للبناية حيث وقعت الإصابات الأكبر في القوة السورية. لقد كان تحت يد كل منهم أكثر من صندوقين من القنابل اليدوية أفرغوا معظمها في دقائق. هذا يفسّر ما رأيت منذ دقائق. أعلمتهم بقرار الانسحاب، فانضموا جميعاً إليّ وإلى عمار و تحركنا بسرعة بينما نراقب كل شيء حولنا للتصدي لأي محاولة لإطلاق النار علينا.

بقيت هناك مجموعة للحزب الشيوعي قاتلت بشجاعة كبيرة، هم الآخرون بدأوا بالانسحاب، فالأوامر جاءت للجميع. مررنا في الطريق على الكنيس اليهودي، فقد انسحبنا عبر الأزقة التي تحيط به، أطل علينا الحاخام وعدد من السكان من مخبئهم في المعبد. وإذا بأحد سكان الحي يقول: «قاتلتم بشجاعة، لو كان أحد غيركم في هذه المواقع لما تحمّل ساعة». أما الحاخام فقال: «الله يحميكم، الله يكون معكم أينما حللتم». ابتسمت لهما، اعتذرت عن اضطرارنا للمغادرة، قلت لهم إن أبا يعقوب استشهد، عانقني الحاخام بقوة وكذلك بعض رجال الحيّ، شدوا على يدي وغادرت مسرعاً فيما الدموع تتجمع في عينيّ لشدة تأثري بالموقف.

أنا والعالول: محاصران

انسحبت المجموعات بنظام، وبقيت مع عمار لحماية المؤخرة أثناء الانسحاب. التقينا أثناء الانسحاب من وسط بحمدون أحد أقدر المسؤولين العسكريين من العاملين في أوساط السرية، وهو عدنان أبو جابر، الذي كان في موقع آخر من بحمدون مع مجموعة من الشبان.

عدنان مقاتل قديم يمتلك قدرات كبيرة وهو الذي سيقود بعدها بسنوات عملاً مسلحاً تميّز بنوعيته في الضفة الغربية المحتلة (عملية الدبويا). طلب منه العالول اصطحاب مجموعاتنا بينما نتحرك أنا والعالول معاً لرؤية قائد منطقة بحمدون الذي أراد رؤيتنا قبل الانسحاب الأخير.

سرت مع محمود للقاء قائد منطقة بحمدون من فتح، وبعد اللقاء ووسط القصف المتقطع وأصوات المدافع والرشاشات، عدنا بسرعة باتجاه مجموعاتنا التي تبعد مئتي متر عن مكان اللقاء، وإذا بالقوات السورية بيننا وبين شبان السرية، وفي وسط المدينة. كانت تلك مفاجأة.

وجدنا أنفسنا في نقطة معزولة، فركضنا باتجاه شارع المدينة الرئيسي خلف ساحة بحمدون ونزلنا على السلالم الطويلة في بحمدون بعيداً عن القوات السورية. قررنا أن نختبئ في غرفة بانتظار التأكد من مصير قواتنا. تخابرنا مع عدنان أبو جابر

وأبو جهاد باللاسلكي وأعلمناهم بموقفنا وبضرورة تحركهم من بحمدون من دوننا. أعلمناهم أننا سنبقى مكاننا حتى تتاح لنا فرصة للانسحاب.

انسحبت القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة وبقينا أنا ومحمود في المدينة. وحدنا في غرفة لا سقف لها ولا باب ولا شبابيك. كنا في غاية الإرهاق والعطش، ونواجه خطراً كبيراً. وبينما نحن مختبئان، رأتنا سيدة لبنانية في الغرفة، فأحضرت لنا الشاي والكعك وبعض الفواكه على صينية.

نظرت في عينيها وإذا وجهها يشع تعاطفاً وملائكية، بينما أنا ومحمود في قمة الإرهاق، وأنا أعاني من ألم في رجلي. نظرت إلينا بحنان كأنها جاءت من السماء. ابتسمت بهدوء، تريد منا أن نأكل ونشرب ممّا أحضرت. شكرتها بصوت منخفض بالكاد سمعته، لكنها لم تجب سوى بهزّة رأس هادئة وبابتسامة يعتصرها الألم وتشعّ محبة. لم أعرف من تكون، من هي وما دينها وفكرها، سوى أنها لبنانية وإنسانة شعرت بتعاطف عندما رأتنا نختبئ في تلك الغرفة الملحقة بمنزلها. ربما تلك الغرفة لها ولعائلتها وربما لديها أخ أو صديق يقاتل في مكان ما أو ربما عدّتنا ضيوفاً في منزلها وأرضها.

شربنا وأكلنا، ثم وقفنا أنا ومحمود في الغرفة بعد أن نفد صبرنا من الانتظار، نسمع صوت إطلاق نار وتفتيش على بعد أمتار منا فقط. نعم على بعد عشرين متراً عدد من الجنود يبحثون عن مقاتلين مختبئين. أما نحن فبدأنا نفكر في الخروج والاشتباك مع الجنود لتغطية انسحابنا إلى خارج بحمدون.

استجمعنا قوتنا وخرجنا بسرعة من الغرفة. وما إن خرجنا حتى رأينا تجمعاً كبيراً للجنود السوريين أمامنا، وقد لمحنا أحدهم، ولكننا عدنا إلى الغرفة. أيقنّا أننا الآن في مأزق، وبدأت رماية باتجاه غرفتنا، أما نحن فاستعددنا على جانبي الغرفة لفتح النار ورمي القنابل اليدوية التي جهزناها.

بعد دقائق توقفت الرماية ولم نضطر إلى الاشتباك، وإذا بنا نسمع صراخاً وبكاءً. لقد أصيب شاب يمر في الشارع قربنا، وربما ظنوا أنه أحدنا. لكنّ السيدة التي أتت إلينا بالشاي ركضت نحو الشاب وأبعدته. لا نعرف إن كان قد مات أو نجا.

انتظرنا نصف ساعة إضافية مرت علينا وكأنها دهر، وتحركنا بسرعة مع بدء الغروب بين الصخور والأشواك باتجاه أطراف بحمدون، ونجحنا في التخفّي بينما نشاهد الحراسات السورية حولنا.

لكنّ الأخطر الآن هو تجاوز مناطق مليئة بحقول ألغام واقعة بيننا وبين القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة على بعد عدة كيلومترات. فطوال المسير بقي العالول على الجهاز مع أبو جهاد وربيع الجالس إلى جانبه. وربيع من قيادات السرية الطلابية في الجبل ومن منطقة العبادية، ويعرف تماماً مواقع الألغام الرئيسية في تلك المنطقة. ظل أبو جهاد يوجهنا طوال المسيرة الشاقة. وقد وجدنا ربيع ينتظرنا لينقلنا إلى معسكرنا في بيصور في الجبل (معسكر الشهيد أبو الراتب). هناك التقينا جميع الشبان ومعهم عمار وحسام ومحمد وأبو علي وعدنان أبو جابر والبقية.

معنى ما وقع في بحمدون

بعد الانسحاب وبعد قتال ليومين ونصف نمت تلك الليلة بلا حراك وذلك على الرغم من هدير المدافع حولنا والقصف براجمات الصواريخ السورية على الجبل وقرب المعسكر. شعرت بألم كبير في قدمي جرّاء تقرّحات سببتها جزمة لم تكن مناسبة. سأتعلم منذ ذلك اليوم أن أعتني بقدميّ.

في اليوم التالي زرت في المستشفى منير قانصو الذي جرح جرحاً بالغاً في خاصرته وكبده، لكنّه لن يصمد، سوف يفارق الحياة وسط أصدقائه وأهله. أما بالنسبة إلى أبو يعقوب، فلم ننجح في سحب جثته معنا، لقد بقيت الجثة في بحمدون. شعرت بضيق إزاء هذا الأمر. استحق أبو يعقوب أن يحظى بجنازة مناضل سقط من أجل مبادئه. سيصدر نعي له في الإذاعة، وسيكون له ملصق في شوارع بيروت والمخيّمات ومدن الجنوب. وستكون الصدمة الأكبر لأسرته وابنتيه في ألمانيا.

كان هذا يذكّرني ببشاعة ما حصل، فهذه معركة ليست مع إسرائيل على الأقل. ولكن من جهة أخرى كلما سقط منا مزيد من الشهداء، ازددت إيماناً بأن الاستمرار هو وفاء لهم ولتضحياتهم وأننا يجب ان نصل للجنوب ونواجه إسرائيل.

لقد حققت معركة بحمدون التي وقعت في الحادي عشر من أكتوبر من عام ١٩٧٦ نتائجها، إذ فرضت على سوريا أن تسعى إلى اتفاق ومساومات مع المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. فضراوة المعارك وعنفها في بحمدون أوصلت رسالة مفادها أن بقية المدن والمناطق ستكون عصيّة على الإخضاع.

دفع هذا الأمر بالملك خالد (العاهل السعودي) إلى الاجتماع بالرئيس حافظ الأسد والرئيس اللبناني الياس سركيس ورئيس منظمة التحرير ياسر عرفات، بحضور الرئيس المصري أنور السادات، في ١٦ أكتوبر ١٩٧٦. هذا اللقاء التاريخي أوقف المعارك، ووقعت مساومات في غاية الأهمية.

كان أبو حسن قاسم يكاد يطير من الفرح حين رآني مع محمود في المعسكر وهو يعيد تنظيم الشبان ويدفع بمجموعات جديدة لمواقع جديدة:

«حققتم إنجازاً، أوقفتم الحرب بقتالكم في بحمدون، الآن سيتغير كل شيء».

ويمكن تلخيص الاتفاق الجديد بالآتي:

يتوقف القتال وتنسحب المقاومة الفلسطينية وحلفاؤها من الحركة الوطنية اللبنانية من الجبل ومن مناطق أخرى في بيروت إلى الجنوب لمواجهة إسرائيل. في الوقت نفسه تتسلم القوات السورية المواقع اللبنانية في الجانب المسلم والمسيحي من لبنان، وتتحول إلى قوة ردع عربية مهمتها حفظ الأمن ومنع القتال. كذلك تعزَّز قوة الردع العربية بقوات مسلحة من السودان واليمن والإمارات ومصر. أما مناطق المخيّمات الفلسطينية ومنها مخيّما صبرا وشاتيلا ومنطقة الجامعة العربية والطريق الجديدة والفاكهاني، إضافة إلى كل الجنوب اللبناني، فبقيت مراكز محصّنة للمقاومة الفلسطينية لا يدخلها أحد.

مع نهاية معركة بحمدون، عاد التفاهم إلى الإطار الفلسطيني السوري، وعاد تقسيم العمل جاعلاً المقاومة تقوم بدورها ضد إسرائيل. لكن الأحداث ستؤكد أن شيئاً ما انكسر في العلاقة الفلسطينية مع النظام السوري ونظام الأسد جرّاء هذه الحرب، وسيبقى الأمر كذلك لفترة طويلة، وستكون العلاقة السورية الفلسطينية بعد ذلك علاقة الضرورة لا علاقة التحالف والألفة السابقة.

وبرغم دموية الموقف، فإن النظام السوري سيكتشف أن كل من تدخل في

لبنان لن يحقق أهدافه بلا ثمن باهظ وصعب. حققت سوريا في هذه الحرب تقدماً كبيراً على صعيد العمليات العسكرية كما رأينا، ولكنها ستفقد جزءاً كبيراً من التعاطف بين الدول والشعوب العربية المناصرة للقضية للفلسطينية، كما أن الموقف السعودي والكويتي والخليجي سيكون ناقداً لمحاولة تفرّدها في لبنان. كذلك فإن الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية هي الأخرى غضبت جرّاء التدخل السوري الذي اعتدى على أنصارها في الحركة الفلسطينية واللبنانية.

إن القتال الذي خضناه في بحمدون أنهى المرحلة الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية أو ما عرف بحرب السنتين. في ذلك اليوم كتبت عدة صحف في بيروت عن السرية الطلابية ودورها في معركة بحمدون وكيف أصبحت ظاهرة طلابية شجاعة وفعالة.

الفصل العاشر

السرية الطلابية في مواجهة إسرائيل

أخيراً انتهى انغماسنا في الحرب الأهلية، فقد شكلت معركة بحمدون الحالة الفاصلة بالنسبة لنا. تجمّع نحو مئة وخمسين مقاتلاً من أعضاء السرية الطلابية بعد أيام قليلة من وقف القتال في الجبل وبحمدون وفي كل لبنان، وبدأ التحرك في قافلة كبيرة من السيارات والجيبات ومعنا أسلحتنا من منطقة الجامعة العربية (الطريق الجديدة) في الخامس والعشرين من أكتوبر ١٩٧٦ باتجاه الحدود إلى جنوب لبنان. في القافلة معين الطاهر قائد السرية، ومروان كيالي الذي التقيته في بداية الحرب في بيروت نائباً لقائد السرية، ومعنا أيضاً أدهم (زميلي في الكلية العسكرية) وانضم إلينا شاب تعرّفت إليه للمرة الأولى: خالد، الذي خاض معركة النبعة، ومعه شريف الذي ألتقيه للمرة الأولى، وانضمّ إلينا أيضاً د. خالد، الطبيب الجنوبي القادم من فرنسا، وحسام وعمار وخليل وعشرات من الشبان من أعمدة السرية الطلابية.

لم أعرف ماذا أتوقع في بنت جبيل التي تلقّب بعاصمة جبل عامل الواقعة قرب الحدود. فالمدينة تتعرّض لقصف وهجمات وتهديد من إسرائيل ومن الضابط سعد حداد الذي انشق عن الجيش اللبناني وأعلن تعامله مع إسرائيل. لقد بدأ حداد منذ أسابيع قليلة باحتلال المدن والقرى في الجنوب لبناء حاجز أمني يقي الإسرائيليين هجمات الفدائيين. وجاء تحركنا إلى بنت جبيل بعد يومين من قصف سعد حداد لسوق الخميس في المدينة، الذي أدّى إلى مقتل وجرح العشرات من سكانها.

مع وصولنا تبيّن أن قوات حداد انقسمت إلى قسمين: قسم في جيب يزداد توسّعاً يواجه بنت جبيل مباشرة ويشمل قرى رميش ودبل وعين إبل وحانين

ويارون. ويقود تلك المنطقة سامي الشدياق، نائب سعد حداد، بينما هناك جيب آخر يزداد انتشاراً يبعد عن بنت جبيل باتجاه الشرق عدة كيلومترات ويتكوّن من قرى ومدن القليعة ومرجعيون (بلدتان مسيحيتان) والخيام (مدينة مختلطة احتُلت أواخر ١٩٧٦) والعديسة (قرية مسلمة احتُلت أيضاً)، وكفركلا حيث بداية ما سيعرف ببوابة فاطمة. تلك منطقة مجاورة لكفرشوبا وكفر حمام حيث كنت لفترة من الزمن.

لقد نما الجيب الأمني الخاص بحداد والشدياق من خلال جلب مسلحين في آب ١٩٧٦ إلى عين إبل ومناطق أخرى قادمين من جونية عبر ميناء حيفا في إسرائيل ثم إلى قرى الحدود. ومع مجيء هؤلاء العناصر وعددهم بالعشرات، فرضوا أنفسهم على سكان القرى المسيحية، بعد قمع المعارضة المسيحية الوطنية الرافضة لهم وللتعاون مع إسرائيل[١].

وبما أن عدة قرى ومناطق حدودية فصلت بين «جيشي» حداد والشدياق، فقد تحوّل هدف سعد حداد، وقبل كل شيء هدف إسرائيل، إلى فتح الطريق بين الجيبين. وأصبحت بنت جبيل أهم مدينة فاصلة بين الجيبين، كأنها شوكة في حلق الشريط الأمني الإسرائيلي. ومثّلت مارون الراس، التي يصل ارتفاعها إلى ٩٤٠ متراً والواقعة فوق بنت جبيل مباشرة، أخطر القرى الحدودية المحايدة الفاصلة بين الجيبين، فهي تطلّ على بنت جبيل، وسقوطها سيؤدي إلى السيطرة على بنت جبيل من معظم الجهات.

* * *

إن مجموعة القرى الفاصلة بين الجيبين والواقعة إلى الشرق من بنت جبيل هي: عيترون ثم ميس الجبل وبليدا وحولا ثم مركبا والعديسة وديرميماس، وجميعها على الحدود مباشرة. هذه القرى الحدودية المحايدة، هي بمعظمها قرى مسلمة من الطائفة الشيعية، لكن حداد لم يكن يمتلك القوات الكافية ولم يكن لديه

---

(١) انظر كتاب منذر محمود جابر المتميز والموسوعي عن تلك المرحلة **الشريط اللبناني المحتل**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص ١١٥-١٧٥.

الالتزام الإسرائيلي الكافي لتوسيع المنطقة الأمنية لتشمل تلك القرى الحدودية. وفي الشريط ذاته قريتا الطيبة ورب ثلاثين القريبتان من الحدود والواقعتان تحت سلطة المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية.

هذا عنى بالنسبة إلينا أن بنت جبيل ستكون هدفاً للهجمات المقبلة لإسرائيل والمتعاملين معها من جانب سامي الشدياق والمنطقة المحاذية مباشرة لبنت جبيل في عين إبل. التوسّع باتّجاه بنت جبيل سيأتي من الغرب بصورة رئيسية. لقد تمركزت السرية الطلابية في عين العاصفة، ومهمتها الأساسية منع توسعة الشريط الحدودي التابع لإسرائيل بل والعمل على تقليصه.

قبل مجيئنا بأيام وجّه سعد حداد إنذاراً إلى بنت جبيل بالاستسلام. واحتل نائبه الشدياق قبل ذلك بأيام قرية حانين، القريبة من بنت جبيل، وقتلت قواته عدداً من سكانها رغم عدم مقاومتهم، ثم هجر سكانها جميعاً وأُحرقت بيتاً بيتاً.

عندما دخلنا بنت جبيل وجدنا مدينة أشباح لا يعيش فيها أكثر من خمسة آلاف من السكان من أصل ٢٥ ألفاً. المدينة تعيش حالة قصف وحرب ومواجهة مستمرة مع قوات سعد حداد والشدياق وجيشه في عين إبل. سمّي جيش حداد «جيش لبنان الحر» في تلك المرحلة، وسيسمّى في مرحلة أخرى «جيش لبنان الجنوبي». الأهم في المعادلة أن هذا الجيش موّلته ودرّبته وأنشأته إسرائيل وأمدّته بالدبابات والأسلحة والقدرات.

لم تكن بنت جبيل، ولا التلال المحيطة، تتمتع بأية حماية بينما معنويات السكان في أسوأ أحوالها. لهذا فور وصولنا تمركزت قوة لنا في تلة مسعود المشرفة على بنت جبيل تحت قيادة أدهم، فيما تمركزت قوة أخرى في تلة على ميمنة تلة مسعود بقيادة خالد، بمواجهة قوات حداد والشدياق في عين إبل.

وقد تمركزت قوة من فتح (العاصفة) تابعة لكتيبة عُرفت باسم «القطاع الأوسط» في تلة شلعبون الواقعة على ميمنة تلة مسعود، وهي تلة استراتيجية تقع بين بنت جبيل وبلدة الطيري وتوفّر الحماية لمداخل بنت جبيل.

قاد تلك الكتيبة في فتح بلال (محمود الشريف طاهر) من بلدة اليامون المحتلة في فلسطين. وكان بلال قائداً مرموقاً ذا سمعة ممتازة، وامتلك قدرات كبيرة. عرف

عن بلال عدله في التعامل مع المقاتلين ومع السكان، وعرف عنه احترامه للذين يعملون معه. تميّز بلال لمحات شرقية شديدة الحدة، كل شيء فيه كان حاداً إلا تفكيره الذي اتسم بالمرونة والعمق والنظرة الثاقبة في كل مسألة تواجهه قبل اتخاذ أي قرار.

ما إن خيّمنا في بنت جبيل في مساء الخامس والعشرين من أكتوبر ١٩٧٦ ووضعنا قواعدنا في التلال، حتى أصدر معين قائد السرية الجديد قراراً بتعييني قائداً لمدينة بنت جبيل من دون أن يتحدث معي في الأمر. ذهبت إليه محتجاً، فأجاب: «عليك أن تكتشف طريقك». قالها من دون أن يرفّ له جفن.

* * *

أصبحت السرية الطلابية عنواناً لأكثر من مجرد تشكيل عسكري، بل أصبحت كتيبة مكوّنة من عدة سرايا وإن حافظت على اسمها «سرية أو كتيبة الطلاب» كما أحبّ أن يسمّيها الناس. وقد حملت السرية التي أقودها في بنت جبيل وتلالها اسم سرية الشهيد سعد نسبة لقائدها الأول.

وكان للسرية الطلابية قوات منتشرة في مناطق أخرى في المواجهة بالإضافة إلى بنت جبيل. ففي بلدة رشاف مواقع مواجهة مع قوات تابعة لسعد حداد، حيث يقودها رياض المثقف اللبناني، وعمار (عاطف بدوان) المقاتل الفلسطيني الذي كان معنا في بحمدون.

انضم إلينا شبان جدد تعرّفت إليهم لأول مرة، بينهم شاب يدعى راسم (يعقوب عبد الحفيظ سمور). راسم قوي البنية كأنه رافع أثقال، يعمل بلا توقف، ويسهر الليالي بحثاً عن جهد يبذله لحماية المواقع، إنه مقاتل صلب لم يتجاوز عمره العشرين عاماً. شاركه أبو حديد (سليمان عمران، هو الآخر مقاتل، قوي البنية كما لقبه) حراسة بعض المواقع في بلدة رشاف المواجهة لبلدة دبل في القطاع الذي يقوده الشدياق.

وأصبح معين الطاهر في الجنوب يحمل مسؤولية كبيرة. فمعين دخيل على القادة العسكريين لحركة فتح، وجناحها العسكري قوات العاصفة، وهو أصغرهم

سناً، وجاء من خلفية العمل الطلابي وهو بالكاد بلغ الخامسة والعشرين. معين ذو ثقافة واسعة، وقد كان له سر خاص: فوالده وأعمامه امتلكوا مكتبة كبيرة في نابلس، فوجد تسليته بين عشرات الكتب. ستساعده ثقافته هذه في عمله النضالي.

يتمتع معين أيضاً بقامة طويلة قد تكون الأطول في الجنوب. ربما في حياة خالية من القضية الفلسطينية كان في إمكانه أن يتميّز في لعبة كرة السلة. وهذا الطول سيتطلب منه أن يأخذ مزيداً من الحذر في حركته التي يمكن كشفها من على بعد مسافات طويلة. مع الوقت سيكون معين من أكثر القادة الميدانيين في فتح قدرة على التخطيط العسكري وببرود تتطلبه حدة المواجهات، فهو يتمتع بهدوء التفكير ومقدرة على صنع القرار في أسوأ الظروف، وهو شديد الوضوح في قناعاته ومبادئه، قليل المجاملة، فما في قلبه من قسمات رفض أو قبول ستجده على وجهه بوضوح. معين يفكر باستمرار وهو لا يكاد يتوقف عن التفكير في كل شأن، وسيكون قادراً على تحويل السرية الطلابية إلى تسميتها الجديدة: «كتيبة الجرمق» وذلك نسبة إلى جبل الجرمق في فلسطين الذي نشاهده كل يوم أمامنا عبر الحدود قرب بنت جبيل.

أما نائب رئيس السرية مروان كيالي الذي بالكاد بلغ الخامسة والعشرين، فهو شاب حنطي اللون واسع الثقافة شديد الدفء مع المقاتلين وحاد الذكاء وتميز بنظرة ثاقبة. فإن كان معين يحقق البعد الاستراتيجي للسرية الطلابية، فقد حقق مروان البعد الإنساني وبرع في التواصل مع كل من أراد التواصل. مروان طالب في الجامعة اللبنانية في كلية الحقوق، بل رئيس تنظيم فتح فيها، وقرر ألا يتخرّج في الجامعة في شهوره الأخيرة كي يتمكن من الانخراط لسنوات طويلة في العمل الطلابي الكثيف ويبقى بالتالي مسجلاً كطالب في الجامعة. قاد عام ١٩٧٤ المئات من طلبة لبنان إلى خطوط المواجهة في الجنوب لإعادة بناء كفرشوبا بعد أن دمّرتها الطائرات الإسرائيلية.

لم أكن لأنجح في بنت جبيل لولا التزام مروان بمساعدتي. رافقني إلى جميع الاجتماعات الحاسمة مع الحركة الوطنية اللبنانية وفصائل العمل الفدائي في بنت جبيل. وفي البداية لم أكن أمتلك أي دراية في التعامل مع هذه الأحزاب

والمنظمات، وجميعها تمتلك قوات مسلحة ولديها شبان على الجبهة ولديها مطالب. لكن مروان مخضرم ولديه قدرات هائلة في التعامل معها بثقة.

سيكون مروان أيضاً مثل معين دخيلاً على القادة العسكريين لحركة فتح بحكم خلفيته الطلابية وحداثة تجربته العسكرية وصغر سنه. بل إن كليهما سيحاول إخفاء عمره الحقيقي لكي يأخذهما على محمل الجد القادة العسكريون لفتح في الجنوب، الذين تجاوز أصغرهم أواسط الثلاثينيات.

في بعض الأحيان سأذهب مع مروان للقاء جنرالات وقادة عسكريين في جيش التحرير الفلسطيني رابطوا في مناطق مختلفة في الجنوب. ولكن من خلال الحديث معهم عن التنسيق سنكتشف جانباً من العقلية التقليدية في تفكيرهم العسكري اكتسبوه من تجاربهم في الجيوش العربية وفي المدارس العسكرية النظامية. فوجئنا خلال أحاديثنا بأنهم لا يمكن أن يقبلوا بخوض معركة كالتي خضناها في بحمدون أو صنين أو البرجاوي أو في بنت جبيل، بل اعتبروا أن ما نقوم به غريب وينطوي على الكثير من المغامرة. الحرب بالنسبة لهم يجب أن تخاض في ظل تعادل في الأسلحة والقوات والمدافع، أما نحن ففكرنا بطريقة مختلفة لتعويض هذا النقص في ميزان القوى العسكري بيننا وبين إسرائيل.

بدء الدوريات اليومية

بعد انقضاء الأسبوع الأول على وجودنا في بنت جبيل، بدأت سلسلة من الدوريات الاستطلاعية في المناطق المحتلة التي تسيطر عليها قوات سعد حداد. في الليلة الأولى وصلنا إلى أطراف قرية عين إبل المحتلة، واستطلعنا البلدة من مناطقها الخلفية. ولكنّ أحد الحراس سمع وقع أقدامي، وكاد يطلق النار عليّ وأنا على بعد عشرة أمتار منه، فيما أبو الفتح على وشك ان يطلق النار بدوره على الحارس لو كشفني. لكن من حسن الحظ أن خنزيراً برياً خرج من قربي راكضاً، فظن الحارس أنه مصدر الصوت.

أبو الفتح (ذياب العلي) مقاتل قديم وقائد عسكري عاصر العمل الفدائي منذ مجيئه إلى لبنان، وهو من أحد مخيمات الفلسطينيين في جنوب لبنان. في هذه

الدورية أعطاني أبو الفتح من النصائح من خبرته ما يمكن توزيعه على عشرات المقاتلين والقادة. يتمتع أبو الفتح بجسم ضخم وملامح عربية مستمدة من كونه من بدو فلسطين ممن هُجّروا إلى لبنان عام ١٩٤٨. تحلى أبو الفتح بروح دعابة لم تغادره حتى أثناء الدوريات.

في اليوم التالي قررت استكشاف قرية حانين المحتلة التي أُحرقت ودُمّرت منذ أسابيع. لهذا الهدف قدت دورية من ستة أفراد إلى القرية، ثم دخلتها متسللاً مع أحد أبنائها، وكنت أول من يدخلها بعد احتلالها. تجوّلت فيها بحرية، وساعدني على التجوال الرياح العاصفة في تلك الليلة. بقيت في القرية ساعتين قبل أن أعود إلى مجموعتي التي انتظرتني على مشارف القرية بين البساتين والأشجار. بقينا في المنطقة المحتلة يومين كاملين نراقب في النهار ونتحرك في الليل.

أصبحت خبيراً في جغرافيا المنطقة خاصة بعدما قمت بما لا يقل عن خمس عشرة دورية في فترة قياسية بمعدل خمس دوريات في الأسبوع جميعها في الفترات المسائية. وقد أسهم في هذه الدوريات كل من خالد وأدهم وأبو الفدا وأبو حديد وعمار وحسان شرارة وعشرات الشبان من قادة فصائل السرية الطلابية/ كتيبة الجرمق وأفضل عناصرها.

كنا نشاهد في الصباح الباكر إبان دورياتنا أعداداً كبيرة من السيارات التي تغادر المنطقة الأمنية تحت سيطرة الشدياق باتجاه إسرائيل عبر بوابات فتحتها إسرائيل تحت مسمّى الجدار الطيب قرب رميش تحديداً. هذه السيارات أخذت مئات العمال من أبناء القرى المحتلة للعمل في إسرائيل.

في إحدى الليالي قررنا ان نبدأ سلسلة دوريات إغارة. هاجمنا في ليلة واحدة مواقع عديدة في عين إبل وعلى الطرق بين عين إبل ورميش ودبل، وزرعنا ألغاماً على الطريق العام وضربنا سيارة عسكرية، وفجّرنا جسراً. كل هذا حصل في ليلة واحدة، وقد تحركت مع قوات عديدة وتحرك ربحي وخالد وأدهم مع قوات صغيرة في مواقع متفرقة لتوجيه هذه الضربات. تلك ليلة سترفع من معنويات بنت جبيل ومحيطها، وستُشعر السكان بأن هجوم سعد حداد ومعاونه سامي الشدياق قد تم

احتواؤه مرحلياً بفضل عمليات السرية الطلابية/كتيبة الجرمق ذلك الاسم الجديد الذي سنعرف به في الجنوب.

كانت المخاطر في هذه الدوريات كبيرة. ففي إحدى المرات كدنا نقع في كمين لقوات سعد حداد، وفاجأتنا رماياتهم بغزارتها. لكنّ الليل ساعدنا على الانسحاب.

في هذه الدوريات صادقنا الليل كما صادقنا الرياح والأمطار والأجواء الملبدة والباردة. كنا نسير لساعات تحت الأمطار ولأميال عديدة، ونستكشف كل ما نريد مستغلين عوامل الجو. يا لها من حياة! لا أخفي على القارئ أننا شعرنا بالاعتزاز لقدرتنا على اتخاذ المبادرة والتخطيط للدوريات والعودة بعد ذلك بلا خسائر.

خالد وشريف وبهية

في الأسبوع الثالث جلست مع خالد جلسة نقاش هادئ بل جلسة راحة بعد عدة أسابيع من الدوريات وبناء الاستحكامات العسكرية في محيط بنت جبيل. شعرنا بالحاجة للتحدث وتبادل تجاربنا. لكن ما سأسمعه من خالد صدمني. لم أتخيّل مدى صعوبة تجربته وقساوتها. انضمّت إلينا زوجته بهية التي رافقته إلى بنت جبيل وبقيت في المدينة تعمل مع التنظيم النسائي فيها.

خالد في مثل سني تماماً وهو بالكاد أصبح في الثالثة والعشرين، وبهية تصغره ببضع سنوات. خالد وبهية مسيحيان مارونيان من لبنان.

سألتهما ما الذي دفع بكما إلى هذه التجربة ومع فتح بالذات؟

فهمت من خالد أنه كوّن وشارك مع أصدقاء له «حركة المسيحيين الملتزمين» لنصرة المطران كبوجي الذي اعتقلته إسرائيل عام ١٩٧٤. وعندما حوصرت النبعة ذات الأغلبية الشيعية الواقعة وسط مناطق تسيطر عليها الكتائب في بيروت انتقل خالد إلى النبعة للدفاع عنها انطلاقاً من رفضه تقسيم لبنان. في ذلك الوقت من عام ١٩٧٥ كان في سنته الجامعية الأخيرة. آمن خالد بأن تصفية النبعة وسط المناطق المسيحية سوف تعني تقسيم لبنان ودماره.

وعندما قاتل دفاعا عن النبعة اكتشف أنه يمتلك قدرات عسكرية. مع الوقت

أصبح خالد قائداً لأحد أهم محاور النبعة. ظل خالد يقاتل في محوره دفاعاً عن النبعة مع عشرات من الشبان الجنوبيين ومن حركة فتح حتى سقوطها. وقد انضمّت إليه بهية في النبعة المحاصرة على مدى عام ونصف من حصار النبعة.

أما شريف (وهو شاب فلسطيني مسيحي) فقد ترك عمله على رسالة الدكتوراه في باريس وجاء إلى النبعة للوقوف مع صديقه خالد حيث تحوّل إلى صلة الوصل بين شبان السرية الطلابية في المنطقة الأخرى من بيروت (الغربية) وخاصة مع أبو خالد جورج. استطاع شريف بسيارته تهريب ذخائر وأسلحة وأدوية لخالد والشبان في النبعة. كان شريف يتميز بمهارات أمنية عالية، وساعدته ابتسامته وصمته العميق وهدوء طباعه ونظارته السميكة على إنجاز أخطر المهام الأمنية.

قبل سقوط النبعة بيومين أي في الرابع من أغسطس ١٩٧٦ بدأت انسحابات المقاتلين، إذ انسحب ما يقارب ٤٠ شاباً من فتح، معظمهم جنوبيون شيعة والبعض الآخر من الفلسطينيين. انسحبوا عبر حيّ الأرمن المحايد في ظل ضمانات تهريبهم إلى مناطق آمنة. نصحهم خالد بعدم المغادرة بهذه الطريقة ورفض الذهاب معهم لأنه لم يكن يثق بصدقية الاتفاق، وعندما علمت الكتائب بأمر الأربعين، أصرّت على تسلّمهم مقابل ترك اثنين من قادة فتح العسكريين ممن كانوا ضمن المجموعة. فحصل ذلك.

لكن حزب الكتائب وضع المقاتلين الثمانية والثلاثين في غرفة واحدة. وصاروا يأخذون ثلاثة منهم كل يوم إلى ساحات عامة ويربطونهم ثم يسحلونهم بالسيارات حتى الموت وفي وضح النهار أمام أعين الجميع. دفع هذا المنظر الخوري حليم ريشا في بكفيا، للتدخل لدى الشبان الذين يمارسون عملية السحل فقال لهم: «إني أرى المسيح يُصلب في شوارع بكفيا». بعد أسبوع لم يبق إلا شاب جنوبي اسمه ناظم في تلك الغرفة، وقد رآه شخص يعرفه، فأطلق سراحه وساعده على الهرب. إنه الناجي الوحيد من الثمانية والثلاثين الذين تحوّلوا إلى مختفين.

وتقول بهية التي لم تتجاوز سبعة عشر عاماً في تلك المرحلة:

«في اليوم الأخير قبل سقوط النبعة، جاءت إليّ امرأة تطلب مني أن يسمح خالد بخروج ابنها الذي يقاتل معه للانضمام إلى شبان حركة أمل الذين يتجمعون

في الحسينية القريبة للاستسلام للكتائب أثناء سيطرتها على معظم أحياء النبعة. كان معهم الأخ الأكبر لهذا الشاب، وقد أكدت الأم لخالد أن الكتائب تعهدوا بأن يساعدوا جميع شبان أمل على الخروج من النبعة بأمان، على اعتبار أن حركة أمل كان لها موقف محايد منذ بدء التدخل السوري في يونيو ١٩٧٦».

وتكمل بهية: «عندما جاء مقاتلو الكتائب إلى الحسينية أعدموا الأخوين الاثنين وجميع عناصر أمل رمياً بالرصاص أمام الحسينية. جاءت الأم إلى بهية وهي بحالة هستيرية تقول إنها سلمت ولديها للموت بيدها».

وتواصل بهية: «في الساعات الأخيرة في النبعة كان القتلى على الأرض في كل مكان. الجرحى لا يجدون من يداويهم فيموتون ببطء أو يُقتلون عندما تصل قوات الكتائب إليهم. والناجون الوحيدون حتى تلك اللحظة كانوا مجموعة من المقاتلين تمركزوا في أربعة أبنية حول خالد. لكن خالد أصيب يومها إصابات بالغة قرب قلبه وفي رجله. بدأ كل الشبان بترتيب الانسحاب، أما أنا فأخذت خالد الجريح بمساعدة شريف عبر الأزقة في سيارة خاصة لشريف إلى حيّ الأرمن حيث خبّأته لأيام قبل خروجه إلى منطقة آمنة تحت سيطرة المقاومة».

* * *

سقطت النبعة سقوطاً مدوياً في السادس من أغسطس/آب ١٩٧٦، وبعدها بأيام سقط مخيّم تل الزعتر. آلاف القتلى، سحلٌ في الشوارع، اغتصاب، قتل جماعي ومجازر في كل الأحياء، ومئات المفقودين.

هذه الأحاديث التي تبادلتها مع خالد وبهية ومع شريف كانت بداية صداقة كفاحية طويلة.

أم أحمد (سامية)

وبينما أقف في تلة مسعود، أتى شريف ومعه شابة لم تتجاوز العشرين من العمر. لم أعرف من تكون، لكن شريف جاء بها إلى بنت جبيل للقاء بهية ولكنه أراد مني أن أعطيها بعض الأبعاد عن تجربتنا الجديدة. كان هذا أول لقاء مع أم أحمد (سامية). شربنا الشاي، سألتني عن تجربتنا في بداياتها، سألتها عن فترة

الحرب فعرفت أنها فلسطينية من برج البراجنة، اغتيل والدها القومي وهو أحد زعماء المخيّم في أوائل الستينيات بينما لم تتجاوز الرابعة من العمر، إذ تتذكر أنه أعطاها آخر قبلة وضمّها بينما ينتظره رجال غرباء أتوا لاعتقاله، عرف أنه سيموت، انتهى الأمر عندما وجدت جثته بعد ذلك بشهر.

أم أحمد وجدت منذ أن فتحت أعينها على الدنيا في القضية الفلسطينية ما يشبع سعيها لإعلاء الحقوق واستعادة الوطن الذي مات والدها من أجله.

في ذروة الحرب الأهلية وجدت نفسها في مواجهة مسؤولية كبرى، هكذا أنشأت مع رفيقات وأخوات لها من لبنان وفلسطين في منطقة برج البراجنة نظم تحصين متينة بهدف إعاقة تقدم الكتائب على طول خط التماس. وكان معها سلوى ونادية أبو عيس التي استشهدت لاحقاً وشابات أخريات من المخيم.

بدء العمل السياسي في بنت جبيل ومحيطها

سنكتشف أنه لا يكفي أن نقوم بدوريات عسكرية في عمق المنطقة المحتلة من جنوب لبنان، فالحرب والسياسة متداخلتان، إذ علينا أن نتعامل مع الوضع السياسي حولنا. لهذا بنيت مع مروان نوعاً من الثنائية، إذ أتحرك مع مروان يومياً، للاتصال بمخاتير القرى المحيطة ببنت جبيل وعائلاتها، وإدارة حوار معهم بشأن ما ينبغي أن تكون عليه الحال في بنت جبيل ومنطقة جبل عامل. شجعنا الناس على التحدث بصراحة وبلا خوف من كوننا نمثّل فصيلاً مقاتلاً.

في بدايات هذا العمل تفاعلنا مع أبو ميسون (عبد الحسن الأمين) القيادي الوطني من الجنوب، ومع علي يوسف وهو ناشط قيادي في الحركة الوطنية من بلدة حانين التي احتلت قبل أسابيع، اللذين قدّما لنا ما يساعد على تعميق فهمنا للأوضاع الصعبة في تلك المنطقة.

تميّز مروان بقدرته على الإقناع وبصدق إحساسه. تعلمت منه الكثير، فهو مدرسة في العمل السياسي وفي الحوار مع الآخرين وفي جعلهم يقولون كل ما يجول في خاطرهم بلا خوف أو ضيق. تعرّفنا إلى الوجهاء والتجار والمسؤولين العائليين في المنطقة الواقعة بين بنت جبيل وميس الجبل ومارون الراس وفهمنا أيضاً

مدى عمق الخلافات العائلية. فوجئنا بمدى تعطّش الناس إلى من يسأل عن رأيهم، ويستمع إلى تجربتهم.

وبينما نفعل ذلك يحاول معين أن يتعامل مع الاستراتيجية الاوسع لعملنا، ثم نجده يغادر إلى بيروت لمقابلة أبو عمار (عرفات) وأبو جهاد، لحل مشكلة التموين التي واجهتنا في البداية عندما لم تعترف بنا قيادة فتح في الجنوب كمقاتلين تابعين لها فمنعت عنا الذخائر والتموين. كان ذلك قراراً من أبو موسى الذي كان حين وصولنا القائد لجميع قوات فتح في الجنوب. غاب معين وعاد باعتراف بأننا من قوات العاصفة ويحق لنا ما يحق لغيرنا في مجال التموين الذخائر والسلاح.

وفي بنت جبيل فتحت المنظمات الفلسطينية والتنظيمات اللبنانية اليسارية مكاتب قيادة وسط المدينة. فعلى مستوى الحركة الوطنية اللبنانية كان هناك الحزب الشيوعي اللبناني، ومنظمة العمل الشيوعي، والبعث السوري، والبعث العراقي، والقومي السوري، إضافة إلى تجمّعات أخرى صغيرة لها جذور ناصرية أو قومية أو يسارية. أما حركة أمل فكانت حتى ذلك الوقت على خصام مع بقية الحركة الوطنية، سيأخذ الأمر بعض الوقت لحل هذا الخصام على خلفية الموقف من الاجتياح السوري للبنان.

أما على الصعيد الفلسطيني، فكانت هناك الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، والجبهة الشعبية الديموقراطية بقيادة نايف حواتمة، وجبهة التحرير العربية التابعة للعراق، وجبهة تحرير فلسطين بقيادة أبو العباس، والجبهة الشعبية. القيادة العامة بقيادة أحمد جبريل. الفصيل الوحيد الذي لم يكن موجوداً في تلك المرحلة هو الصاعقة التابع لسوريا، نظراً لانضمامه إلى صف سوريا خلال الصدام السوري الفلسطيني، وسينضم هذا الفصيل لاحقاً بعد إتمام المصالحة الفلسطينية السورية. جميع هذه المنظمات اللبنانية والفلسطينية كانت في بنت جبيل إلى جانبنا.

أصبح لزاماً عليّ أن ألتقي هذه المجموعات وأنسّق معها وأضع لها إطار تحركنا العسكري والسياسي. وجود مروان ومعين في الكثير من هذه الاجتماعات سيكون مفصلياً.

* * *

أكثر ما أعاننا في بنت جبيل في ذلك الوقت هو الدور المتميّز لكل من حسان شرارة وصديقه يوسف. حسان شرارة ويوسف من مدينة بنت جبيل، لم يتجاوز كل منهما الحادية والعشرين من العمر. حسان يرتبط بقرابة لأول لبناني استشهد في معركة مع الجيش اللبناني أثناء تأييد العمل الفدائي في عام ١٩٦٩. ويوسف كان في النبعة في بدايات الحرب وعمل مع خالد وعاش بعضاً من تجربتها الأليمة. عاد حسان ويوسف من فرنسا مع مجيء السرية إلى بنت جبيل وذلك لمساعدتها في عملها. فقد أرسل وراءهما صديقهما خالد لمعرفته الوثيقة بهما.

إن حماية حقوق كل الناس من تجاوزات المنظمات الفلسطينية أو اللبنانية مثّلت أحد أسس السرية الطلابية/ كتيبة الجرمق. لقد أصبح سلاحها سلاحاً للمجتمع ولحماية حقوقه في وقت بدأت تبرز فيه مظاهر الاستعلاء على الناس من قبل الوطنيين أنفسهم.

في بنت جبيل تعرفنا إلى عائلة بزي المعروفة والكبيرة وعائلة بيضون وعائلة شرارة وغيرها من عائلات بنت جبيل. سعينا إلى أن نستمع أكثر مما نتكلم وأن نلبّي أكثر مما نعد. فبالرغم من يساريتنا وثوريتنا، كنا نعي معنى أن نحترم حِقوق الفئات والأقليات ومن يختلف معنا. وفي بنت جبيل وجدت نفسي لأول مرة أتعرف إلى الشيعة وهم أغلبية سكان الجنوب، وأتفهم الظروف التي يمرون بها والأجواء التي تؤثر بهم في أفراحهم وأحزانهم.

في هذا أصبحنا من أكثر الفصائل الفلسطينية المسلحة قدرة على التعامل مع الأبعاد والتوازنات السياسية والاجتماعية والدينية لسكان المنطقة، إذ اكتشفنا أن القوى الوطنية والفدائية الفلسطينية، على الأقل في زمن الحرب الأهلية ومنذ بدايتها، قد عزلت عائلات بتهمة الرجعية أو بتهمة الانحياز إلى الدولة اللبنانية وما كان يطلق عليه الإقطاع السياسي الذي مثلته عائلة الأسعد وعائلة الخليل في الجنوب. هذا التفكير رفضناه وعددناه من موروثات حزبية صنّفت معارضيها من بسطاء الناس والناقدين لها على الدوام خونة ورجعيين. لقد تقبّلنا في السرية الاختلاف، واحترمنا آراء كل الناس. مددنا أيدينا إلى هذه العائلات وتفاهمنا معها على منع أي تجاوزات في حقها.

السيد هاني فحص

أثناء وجودي في تلة مسعود حيث نواصل تجهيز مواقعنا الأمامية في الأسابيع الأولى، ناداني الشبان على جهاز اللاسلكي للتوجه إلى مركز السرية الطلابية/كتيبة الجرمق في سرايا بنت جبيل، مركز الحكومة سابقاً. وجدت نفسي وجهاً لوجه مع السيد هاني فحص. السيد رجل دين جعفري، عُرف عنه نضاله لمصلحة القضية الفلسطينية في الجنوب.

جلسنا نحتسي الشاي معه أنا ومعين ومروان وأدهم وشريف. قال لنا السيد:

«لقد خلقتم ارتياحاً بين أبناء الجنوب. يا جهاد (تحدث إليّ كأنه يعرفني منذ سنوات) الناس يتحدثون عن التغيير الذي حدث خلال فترة قصيرة. أنتم تضيئون شمعة في الجنوب. التحدي أمامكم الآن في إبقاء هذه الشمعة متوهجة».

الحديث مع السيد عميق، فهو ضليع في التاريخ الإسلامي من وجهة نظر فيها الكثير من التقويم والنقد، وهو ضليع في الفقه من وجهة نظر فيها الكثير من المرونة. الإسلام في فهم السيد دين يسر ورحمة وتسامح. هذه الجلسات أفهمتني الكثير عن مرونة الدين الإسلامي ومدى التسامح الذي يحويه والذي قلّما يكون محطّ تركيز الدعاة والقيّمين على شؤونه.

حوار مع نائب بنت جبيل

وفي المرحلة الأولى في بنت جبيل التقينا (أنا ومروان) نائب بنت جبيل عبد اللطيف بيضون (توفي عام ١٩٨٤). بيضون كبير السن ولكنه حاضر الذهن ونائب ذو سمعة طيبة. ظل بيضون يردّد أمامي وأمام مروان خاصة بعد نجاحاتنا الأولى في بنت جبيل: «يا شباب، لو ترشحتم للانتخابات هنا لانتخبكم الناس. لديكم شعبية الآن أكثر مني».

شرح لنا النائب بيضون كيف أدّى دوره التاريخي في حماية المقاومة والوجود الفلسطيني في بنت جبيل في أحداث ١٩٦٩، وكيف استطاع أن يحمي الفدائيين ويحمي شخصياً وفي منزله القائد الفدائي رياض عواد الذي وصل إلى بنت جبيل على رأس قوة من فتح لم تتجاوز أربعين فدائياً. حينها أيضاً تضامن سكان بنت

جبيل وعيناتا بالآلاف مع الفدائيين مفترشين الأرض نهاراً وليلاً ليمنعوا الجيش المرابط على تخوم بنت جبيل من الاشتباك مع الفدائيين. حينها سقط شهيد من أبناء المدينة أثناء الدفاع عن المقاومة وحقها في الانطلاق من الأراضي اللبنانية، وهو واصف شرارة، ثم بعد ذلك الأخضر العربي (أمين موسى سعد) الذي سقط بمواجهة مع القوات الأسرائيلية في ديسمبر ١٩٦٩.

فجأة قطب النائب بيضون جبينه بعض الشيء وأردف لي ولمروان:

«يا شباب، وقعت تجاوزات كثيرة وانحرافات كبيرة في العمل الفدائي منذ ذلك الزمن حتى اليوم انعكست على التعامل مع الناس والشعب، ودفع ثمنها سكان الجنوب الذين احتضنوا العمل الفدائي. لهذا يا إخوان، أقدّر مسؤوليتكم، إذ عليكم الكثير لتغيّروا من هذا الواقع».

صداقة مع السيد عبد الرؤوف فضل الله

ولكنّ رمز بنت جبيل لم يكن رجل سياسة، بل رجل دين في زمن غير ديني. ففي مدينة بنت جبيل عاش رجل دين كبير عُرف بعلمه ووقاره وتأثيره. السيد عبد الرؤوف فضل الله (توفي عام ١٩٨٤) عالم كبير حاز لقب آية الله (منزلة علمية). عندما التقيته في خريف ١٩٧٦ كان قد تجاوز السبعين من عمره. ينتمي السيد إلى عائلة لها تاريخ في القيادة الدينية وهو أساساً من بلدة عيناتا الملاصقة لبنت جبيل. والده كان من أكبر علماء جبل عامل في أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٧.

تلقّى السيد علومه في النجف منذ عام ١٩٢٧ واستمر مجتهداً في النجف إلى حين عودته إلى بنت جبيل/عيناتا عام ١٩٥٥. من تلامذته ابنه السيد محمد حسين فضل الله (الذي سيكون في زمن قادم على كل لسان بمواقفه واجتهاداته) وتتلمذ على يده ابنه الآخر السيد محمد علي، والشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي أصبح في ما بعد نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان. تميّز السيد فضل الله بانفتاحه على كل المذاهب الإسلامية، وعلى كل الديانات.

ذهبت إلى منزل السيد في وسط بنت جبيل مع كل من حسان شرارة ويوسف بناءً على دعوة من السيد.

دخلت على السيد حيث صالونه عبارة عن مجموعة من الفرش الممتدة على الأرض وأسفلها سجادة متميزة. أول ما يلفت نظرك وجهه الذي تكسوه لحية متوسطة الطول، شديدة البياض، وتضيئه ابتسامة ودودة ومُحبة. أصرّ على الوقوف للسلام، بينما يقف قربه ابنه وظله الذي تتلمذ على يده السيد محمد علي.

بادرني السيد قائلاً: «أرحّب بك. سمعت عنك وعن شبّانكم في السرية الطلابية».

قلت للسيد: «أشكرك على استقبالي. نحن في السرية ننظر إليك نظرة تقدير».

قال السيد بعد صمت: «لي ملاحظات آمل ان تتقبلها مني».

قلت: «أنا هنا لأستمع لك».

قال السيد: الناس في حاجة إلى الأمن. آمل منكم حماية أمن الناس في أرواحهم وممتلكاتهم وقيمهم، كما آمل منكم العمل على تخفيف المواجهات العسكرية لكي يعود الناس إلى المدينة والمناطق المحيطة. آمل منكم عدم ضرب المناطق المدنية لدى الطرف الآخر (المسيحيين). فالمسلحون المتعاملون مع إسرائيل فرضوا نفسهم فرضاً وبالقوة على السكان في تلك المناطق. وهذا إن وقع يخفف من القصف المضاد على أحيائنا المدنية في بنت جبيل والمنطقة المحيطة. أتمنى منكم أيضاً التصدي للصوص والسرقات وهي كثيرة هذه الأيام».

ثم أردف: «نحن في حرب طويلة، وكلما حاولتم المحافظة على الحياة وحماية الناس إلى حين استقرار الأوضاع كان ذلك أفضل».

أصغيت إليه بإنصات تام وهو يتحدث بهدوء. لدى السيد شخصية ساحرة ويمتلك جاذبية تكمن في تواضعه وابتسامته وحسن اختياره لكلماته.

ثم قلت له: «سنفعل كل هذا. نعدك بحماية الناس وبإيقاف السرقات وبعدم ضرب المواقع المدنية في الطرف الآخر، سيكون ما قلته برنامجنا».

شربت كوب الشاي الأول ثم الثاني، لكنه أصرّ على أن أشرب الثالث، قائلاً لي: «النصاب عندنا ثلاثة».

خلال مدة ليست طويلة نجحت السرية الطلابية في تنفيذ كل مطالب السيد، فاكتسبت الكثير من الاحترام والتأييد الجماهيري. فتحوّل لقائي بالسيد عبد الرؤوف

فضل الله إلى لقاء يكاد يكون يومياً، وإن غبت عنه عدة أيام سأل عني حسان ويوسف، فأسارع إلى رؤيته.

في أحد الأيام سألني السيد ماذا سأفعل يوم الجمعة. قلت له سأكون في المدينة. قال لي: « أتمنى عليك أن تأتي للصلاة معنا في المسجد». وافقت بالرغم من أنني مؤمن لكن لا أصلي.

وإذا بي أصلي خلف السيد يوم الجمعة وكل جمعة. فأنا وعدد صغير من المقاتلين بدأنا نصلي خلفه بانتظام. رغم أنني سنّي المذهب والمقاتلين من المسلمين في الكتيبة من السنّة والدروز والشيعة، إلا أن هذه الأجواء عبّرت عن التلاقي والتوحّد الذي يجسّده الإسلام.

وعندما التقيت بابن السيد عبد الرؤوف وهو السيد محمد حسين فضل الله لأول مرة، كان قد قطع شوطاً أولياً في تجربته السياسية والفكرية.

حملة ضد اللصوص

بدأنا، بمساعدة كبيرة من حسان ويوسف وشبان بنت جبيل، حملة كبيرة استهدفنا فيها اللصوص والسرقات. بل وصل الأمر إلى أن تجمّع حولنا عشرات الشبان ممن سعوا إلى الحفاظ على أمن مدينتهم.

في كل يوم يأتي إلينا من يقول سُرق بيتي وسُرق محلّي التجاري. وبدأنا نعرف أن السرقات هي من أعمال عناصر غير منضبطة، كما نحب أن نسمّيهم، من بعض المنظمات الفلسطينية ومن بعض أطراف الحركة الوطنية.

وفي ليلة باردة من شهر نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٦، بينما أتفقد المواقع الأمامية، سمعت أصواتاً في أحد المنازل في منطقة قرب المواجهات، فدخلت مع ثلاثة من رفاقي، وإذا بشبان من الجبهة الديموقراطية يعبثون بمنزل. نجحنا في الإمساك بهم، فأكدوا أنهم انتقلوا منذ يوم واحد ويبحثون عن مكان يقيمون فيه. أجبرتهم على مغادرة المنزل، لأكتشف في اليوم الثاني أنهم سرقوا منه.

ذهبت إلى مقرّهم، فخرج مسؤول القاعدة العسكرية عابساً محتجّاً على مجرد مجيئي، قلت له: «أريد منكم أن تغادروا المنطقة، وخاصة أن السرقات ازدادت منذ

مجيئكم. فكل يوم يُسرق منزل جديد». احتجّ وحاول تهديدي، فقلت له: «إذا لم تعودوا من حيث أتيتم فستتحمّل أنت عاقبة ذلك وسيصل الأمر إلى قادة الجبهة الديموقراطية الذين سيعاقبونك».

مع نهاية اليوم تركوا بنت جبيل لا أدري إلى أين. هذا لا يعني أبداً أن الديموقراطية أو فتح أو أياً من المنظمات الأخرى تؤيد السرقات، ولكنه يعني أن درجة من الفساد والتسيّب وصلت إلى جميع المنظمات الفلسطينية. لقد أسهم هذا في إذكاء حالة الغضب التي سادت قطاعاً كبيراً من الجمهور اللبناني الجنوبي تجاه العمل الفدائي.

في بنت جبيل سادت مجموعات حزب البعث (التابعة للنظام العراقي) وجبهة التحرير العربية حالة من عدم الانضباط. لم أكن أدري كيف أتعامل معهم فغالبيتهم مارسوا السرقة من منازل خالية لمهاجرين ومغتربين أو لفقراء هاجروا هرباً من القصف وانقطاع الكهرباء. لكن قائدهم عبد زهرة وهو ضابط عراقي تميّز بالجدية والانضباط.

جاءني شاب لبناني ذات يوم خائفاً، وكان يعمل في صناعة الأحذية في بنت جبيل وقال: «لقد أخذ مسؤول البعث، وهو لبناني، سيارتي وأنا خائف ولا أريد أن يعرف أحد أنني اشتكيت إليكم». ثم أردف: «أخشى أن يقتلني إن طالبت بالسيارة».

كنت أمقت هذه الأوضاع، وأخشى على العمل الفدائي في جنوب لبنان من هذه الأعمال. بل كنت أجدها خيانة للمبادئ كلها. تحركت بمساعدة يوسف وحسان شرارة وذهبت إلى مقر البعث وأمسكت بالشاب المسؤول قائلاً: «إذا لم تعد السيارة فستندم». بدأ التهديد والصراخ من قبله، وفي لحظة من اللحظات قلت لنفسي إنني تورّطت مع شاب سريع الغضب كأنه خرج إليّ من إحدى روايات المافيا، لكن لا بد من موقف صلب فقلت: «سأغادر الآن. ولكن مع المساء، إذا لم تعد السيارة فسألقي القبض عليك وسأودعك السجن وربما أكثر من هذا».

في المساء عادت السيارة إلى صاحبها، ولكني قلت لمسؤول البعث عندما رأيته في المساء: «عليك أن تنتقل من بنت جبيل. فكيف تكون مسؤولاً هنا وسارقاً».

فقال: «لست أنت من يقرر أن أبقى أو أذهب». ولكنّه نُقل في كل الأحوال.

إن مواجهة العصابات واللصوصية أشد صعوبة من القتال في الحرب. وبإمكان اللصوص أن يقتلوك في أي لحظة لحماية مصالحهم في السرقة.

ازدادت الشكاوى من المنظمات الفلسطينية الأخرى على ممارساتي لدى القيادة الفلسطينية في صيدا، التي تسلّم قيادتها في الجنوب الحاج إسماعيل من فتح منذ أسابيع. ولكنّ الحاج إسماعيل، وهو قائد القوات المشتركة في كل الجنوب، بدأ يثق بنا و يرى أننا نتعامل بطريقة مختلفة، وأن في هذا مكسباً للمقاومة.

بدأنا أيضاً ننظم مع شبان المدينة، وكانوا بالعشرات، دوريات ليلية تطوعية لحماية المحال التجارية والأسواق والمنازل. وإن وقع شجار بين أخ وأخيه وتحوّل إلى إطلاق رصاص متبادل بين إخوة انتقلت المجموعة وحلّت المشكلة بأكثر الطرق وديّة، بل وصلت الأمور إلى حدّ أننا اضطررنا إلى التدخل في حل خلاف عندما أراد أب قتل ابنته وصديقها بعد اكتشاف حمل ابنته في شهرها الخامس. لكننا أقنعنا الشاب بطلب يدها وفق تقاليد المنطقة، بما يحفظ ماء وجه العائلتين.

كنا نخشى على شباب المدينة من السارقين والعصابات المتوارية تحت عباءة العمل الفدائي. هؤلاء توعّدوهم بالموت، ولكن معظم السارقين وأصحاب السوابق تركوا بنت جبيل إلى مناطق أخرى حيث حبل الأمن في حالة فلتان.

وفي بدايات وجودنا في شتاء ١٩٧٦، اعتقلنا شاباً من قرية أخرى أساء إلى سكان المدينة من خلال استغلال انتمائه إلى حركة فتح، حيث تعدّى على بعض السكان واستمر باستفزازهم بسيارته كل يوم. فجئنا به، ولكنّ الشبان أثناء التحقيق ضربوه ضرباً مبرّحاً.

وعندما جاء والده لأخذه، فوجئت بوجهه منتفخاً. نظر إليّ والده قائلاً: «أنا متأكد من أنك لا تعلم شيئاً عن هذا الأمر». لم أكن أعرف ما يجب قوله له، سوى إرساله إلى المستشفى وتكفّل متابعة احتياجات الشاب.

جاء معين الطاهر وشاهد ما حصل، فقرّر دعوة الجميع في السرية من الضباط والمسؤولين لمناقشة ما حصل. خلصنا بعد النقاش إلى أنه رغم أننا نعيش في غابة من اللصوص والمجرمين والفلتان والمافيات، ولكن يجب ألا نضرب أحداً لأنه

شكل من أشكال التعذيب الذي لا نقبله لنا أو لغيرنا. ومنذ تلك الحادثة الأولى والأخيرة لم تقع في الكتيبة حادثة واحدة من هذا القبيل. كانت تلك الحادثة بالنسبة لي دليل قوة في السرية الطلابية/ كتيبة الجرمق. على الأقل كنا مستعدين للمراجعة ونقد الذات عندما تبرز بيننا ظواهر سلبية.

في الوقت نفسه بدأت بعض التنظيمات، وخاصة جبهة التحرير العربية، بسرقة سيارات الأمم المتحدة ذات اللونين الأبيض والأزرق. السيارات توفّر الخدمات، وتحمل قادة عسكريين من الأمم المتحدة لزيارة مواقع مراقبة للأمم المتحدة في الجنوب. لهذا بدأنا نفرز قوة تلاحق سارقي السيارات وتقبض عليهم وتعيد بعض السيارات للأمم المتحدة.

في شتاء ذلك العام، ١٩٧٦، جاء إلى مركزنا في بنت جبيل قائد أميركي كبير للأمم المتحدة في الجنوب. ما إن دخل مركزنا حتى سُرقت سيارته. أرسلت الشبان وراء المجموعة، قُبض عليهم، وأعدنا السيارة إليه.

قال لي: «أين تعلّمت؟ ومن أين لك هذه اللغة الإنكليزية؟».

ابتسمت قائلاً: «لغتي من هذا العالم الواسع».

قال لي: «هل عشت في الولايات المتحدة؟».

ابتسمت أيضاً، قلت له «لا أستطيع التحدث عن شأن خاص. ولكن نعم، أعرف الولايات المتحدة جيداً وقد تعلمت منها الكثير».

نظر إليّ مستغرباً: «ما الذي يأتي بشخص مثلك إلى هنا، ماذا تفعل هنا؟».

ابتسمت ثانية، فأنا أريد التحدث إليه لو قابلته على الطائرة أو في الولايات المتحدة، لكن هنا ألتزم بإخفاء شخصيتي الحقيقية، فأجبته: «لأنني مؤمن بالقضية الفلسطينية، ومؤمن بحق الشعب الفلسطيني في أرضه وحقوقه. أتيت إلى هنا لأمنع تجاوزات من النمط الذي تتعرّض أنت له، لأن قضيتنا أسمى من أن تشوّه صورتها فئة تحتكرها. أنا هنا لأن التغيير في بلادنا يجب أن يقوم به العناصر الأكثر علماً. هذه رسالة هؤلاء الشبان الذين تتكون منهم هذه السرية المقاتلة».

ثم أردفت قائلاً: «لو وقعت بلادك الولايات المتحدة في ظرف كالذي وقعت فيه بلادنا من احتلال وتهجير ماذا ستفعل؟».

نظر إليّ وقال: «سأمزقهم إرباً من أجل بلدي».

قلت له: «لقد اتفقنا».

منذ ذلك الوقت تكرّرت زيارات ضباط الأمم المتحدة لنا بهدف تسهيل مهماتهم.

حديث الأخلاق والسلوك

لقد انتشر في السرية الطلابية/ كتيبة الجرمق إيمان كبير بضرورة تغيّر الذين ينضمّون إلينا. لهذا تحديداً لم يكن بيننا في الكتيبة من يسرق أو يكذب أو يشتم. عملية رفع الوعي الإنساني والسلوكي أساسية في مقدرة الكتيبة على النجاح.

سادت الكتيبة القراءة الأسبوعية وأحياناً شبه اليومية بمشاركة كل المقاتلين. وطوّرت السرية كراسات ركزت على القيم. ففي أحد الأيام نناقش موضوعاً كتبه أحد الكوادر الأساسيين في التيار عن التواضع كمسلك في الحياة، ثم نناقش في يوم آخر أهمية عدم الادّعاء، ثم نناقش كيف نكون جزءاً من فرق العمل، وكيف نكون مستمعين جيدين، وكيف نتعلم من الآخرين، وكيف نحل النزاعات والخلافات في ما بيننا. أذكر أحد الموضوعات التي تحدثنا حولها بعمق لمنير شفيق: «لكل جواد كبوة»، الذي ركّز على ضرورة أن يغفر بعضنا لبعض الأخطاء. موضوعات الأمانة والصدق والوضوح واحترام الديانات وإحترام تقاليد سكان المنطقة، والتحكّم في الغضب والتعامل مع الأسرى حضرت بقوة في قواعدنا وبين المقاتلين. لقد ركزنا على هذه الموضوعات لنضمن إصلاح ذاتنا عند كل منعطف ولنحدّ من تسلّل الظواهر السلبية إلى صفوفنا. هذا «الجهاد الأكبر» هو الأصعب.

الجبهة الصعبة

الشبان جميعاً تمركزوا في أهم المواقع في التلال المحيطة ببنت جبيل. خالد (خريج تجربة النبعة) قاد فصيلاً رئيسياً وكان على رأس تلة مسعود. أدهم (زميلي في الكلية العسكرية) أصبح نائبي في السرية، وقاد حملة التحصينات وبدأ يركز على الدوريات والاستعدادات. ربحي (زميلي الآخر في الكلية العسكرية) قاد فصيلاً من

الفصائل وكان في تلال أخرى حول تلة مسعود، وحسام المثقف (كنا معاً في معركة بحمدون قاد فصيلاً آخر لمنع أيّ تقدم من ممرات قد تُسقط بنت جبيل. أما شريف (صديق خالد) بنظارته السميكة وقدراته الذهنية فكان العقل المحلل القادر على رسم صورة شاملة للحالة العسكرية والأمنية في المنطقة، كان شغوفاً بجمع المعلومات عن كل شيء ذي معنى، كان يتنبّأ بالأحداث، ولديه حسّ أمني هو الأعلى بين المجموعة.

إن القصف على مواقعنا يتوقف لأيام ثم يعود، ولكنّ سياسة السرية الطلابية في عدم استهداف الأحياء المدنية للآخرين ستساعد في جعل القصف يبتعد عن المدنيين في معظم الأحيان.

وبطبيعة الحال كل عملية فلسطينية في الأرض المحتلة ضد القوات الإسرائيلية والمستوطنين كفيلة بإشعال جبهة القصف. هذه حرب استنزاف لا تتوقف إلا لأيام قبل أن تعود وتشتعل. في أحد أيام هذه التوترات أخذت فتح قراراً أساسياً بتحرير بلدة عين إبل وتوجيه ضربة حاسمة إلى الجيب الأمني. وبالفعل حشدنا قوة كبيرة من الكتيبة، ونسّقنا الخطوات مع الحركة الوطنية والمقاومة وكان يفترض أن يقود الهجوم أبو الفتح بينما أكون نائبه في عملية يشترك فيها مئات المقاتلين. في آخر لحظة تغيّر كل شيء، قرّرت القيادة الفلسطينية بعد ضغوط إقليمية ودولية تهدئة الموقف المتوتّر في الجنوب.

دور المرأة في الكتيبة وحوار مع دلال المغربي

لم تخل الكتيبة من العنصر النسائي، أي الأخوات المناضلات. فبهية (زوجة خالد) كانت في الجنوب وفي بنت جبيل مع أسر المدينة لفترات طويلة. أعطى هذا الوجود للسرية الطلابية في تلك الفترة المبكرة عمقاً إنسانياً، خاصة أن بهية حققت نجاحات مع فتيات بنت جبيل ممن اهتممن بدعم مجهود الدفاع عن المدينة.

ولكن من جهة أخرى جاءت دلال المغربي (وهي شابة فلسطينية لم تتجاوز التاسعة عشرة من العمر، ولدت بعد النكبة في مخيّم فلسطيني في لبنان) إلى الكتيبة. ولكنّ دلال تريد أن تكون على الجبهة وأن تشارك في الكمائن والدوريات.

لقد التقيت دلال أول مرة عام ١٩٧٥ في بيروت متطوّعة مع طالبات وفتيات من التنظيم الطلابي لحركة فتح المرتبط بالسرية الطلابية.

لهذا تشجّعت عندما جاءت إلى بنت جبيل للعمل مع السرية الطلابية. طلبت أن تذهب إلى تلة مسعود، فوافقت. وفي تلة مسعود قامت دلال بواجباتها في المواقع الأمامية والكمائن الليلية، ورفضت بشدة أن يقوم الشبان بالحراسة الليلية نيابة عنها.

بعد مرور أسبوعين، بدأ معين يتحفّظ على وجودها في المواقع الأمامية، فهي الفتاة الوحيدة بين ١٥ مقاتلاً في ذلك الموقع. دفعني هذا إلى التحدث معها بشأن القيام بأعمال إدارية وتنظيمية عوضاً عن البقاء في الموقع الأمامي. لكنّ دلال أبدت معارضتها الشديدة للانتقال من المواقع الأمامية مؤكدة لي: «أريد شيئاً أكبر، أنا قادرة على القتال. لن أبقى هنا إذا نقلتموني من المواقع».

قلت لها: «سيكون لك دور في القتال إن وقعت معركة كبرى، أعدك بذلك».

ردت: «أستحق أن أكون مقاتلة من أجل فلسطين في المواقع تماماً مثل بقية الشبان، لا تحرمني من هذه المتعة يا جهاد، لا يحق لك أو لمعين حرماني من هذا الشرف».

ستبقى دلال في بنت جبيل معنا لمدة، ثم ستغادرنا وتختفي آثارها لفترة طويلة. ستعود إلى الواجهة بطريقة لم أكن أتخيّل أنها ممكنة.

أنيس النقاش

لم أكن أعرف بطبيعة الحال أنني سأصطحب في إحدى الدوريات شاباً تميّز بعمقه الفكري وجدله الدائم في كل قضية، وهو مازن (أنيس النقاش).

تعرّفت إلى مازن في معسكر مصياف الشهير في سوريا عام ١٩٧٣، وحينها تحمّل مسؤولية طلبة الثانويات لتنظيم فتح، وعُرف عنه اعتداله الفكري وتأييده لحل الدولتين في ذلك الوقت. ولكنّ العلاقة مع مازن انقطعت. فمازن لم يكن يعمل في السرية الطلابية أو قواعدها، وإن كان يعرف الكثير منا بحكم عمله الطلابي وصداقات أنشأها مع شبان السرية، ولكنه عمل مع بعض الأجهزة الفلسطينية في

فتح وخاصة مع أبو جهاد. كما أنه سوف ينتقل رويداً رويداً نحو فكر أكثر راديكالية كما سيعرف عنه في المستقبل من أعمال خطف ومحاولات اغتيال.

وجدت مازن أمامي في بنت جبيل. قال لي إنه يريد أن يبقى معنا بضعة أيام ليفهم الوضع في الجنوب. رحّبت به. وهكذا بعد أن رأى أننا نقوم بحملات استطلاع ودوريات دائمة خلف مناطق سعد حداد قال لي: «لديّ فكرة. لماذا لا تتخفّون بألبسة تشبه ألبسة الجيش الإسرائيلي وتذهبون إلى مواقع سعد حداد ثمّ تقومون بعمل عسكري كبير؟».

قلت لمازن: «نحن الآن نمارس مهماتنا كمقاتلين في الجبهة لا كعصابات في المدن. لماذا لا تأتي معنا الليلة لترى ما نقوم به». وبالفعل أتى معي في إحدى الدوريات الرئيسية التي جابت تلك المنطقة المحتلة ليلاً. بعد أيام ذهب مازن إلى عالمه وانقطعت أخباره عني.

الفصل الحادي عشر

الحرب المستمرة حول بنت جبيل

عاشت بنت جبيل منذ وصلنا إليها في خريف ١٩٧٦ تحت ضغط العمليات العسكرية، فالمدينة ساحة حرب ومكان مخيف في الوقت نفسه، في النهار تنتشر الكلاب بين الأزقة وأحياناً تهاجم المارة، وفي الليل تنقطع الكهرباء. أما شتاؤها فبارد جداً خاصة أنها ترتفع ٧٠٠ متر عن سطح البحر، بينما المقاتلون يحيون حياة الجبال والكهوف على التلال المحيطة بها، وقد تهطل الأمطار طوال أيام بلا توقف. والرياح في فترات تصبح عاتية. كل هذا مصحوب بهجمات من جانب إسرائيل والجماعات المتعاملة معها. رغم كل محاولاتنا إدامة الحياة الطبيعية في بنت جبيل، فهناك في كل أسبوع خسائر وموتى وشهداء. فما كدنا نصل حتى سقط هاني عبد الحافظ العزة من الخليل (أبو الهيجا) في إحدى مواجهات القصف المدفعي الكثيف المتبادل مع قوات حداد وإسرائيل على مواقعنا الجديدة.

أصبح د. خالد طبيب السكان في المدينة ومحيطها، فكل من احتاج إلى طبيب سأل عنه. بدأ خالد عمله في مستوصف يعالج السكان ويعالجنا ويخفف آلام الجرحى. بعد فترة سيغادرنا خالد لإكمال تخصّصه في فرنسا ولممارسة فترة التدريب في مستشفيات بيروت، وسيتطوّع د. عزت من الهلال الأحمر الفلسطيني لتعبئة الفراغ.

محمد صالح الحسيني والخميني

في أوائل يناير ١٩٧٧ جاءني في بنت جبيل محمد صالح الحسيني، الذي

ربطتني بأخيه ذي الميول اليسارية والمقرب من منير شفيق (أبو فادي) محمد صادق الحسيني علاقة حوار. بدأ محمد الحسيني قائلاً:

«أنا أعمل لقضية التغيير في إيران».

محمد صالح الحسيني ذو إطلالة بهية في أواسط الثلاثينيات، ورغم أنه ابن لسيد إيراني معروف من طهران إلا أن محمد صالح نشأ في العراق في النجف الأشرف وتشرب من أجوائها العربية، ولم يتعلم الفارسية إلا في مرحلة لاحقة من عمره. في لبنان أصبح الحسيني عضواً قيادياً في فتح ومقرباً من ياسر عرفات وأبو جهاد ويسعى مثلنا إلى إصلاح الحركة الفلسطينية.

ولم يبد الحسيني من هندامه ومظهره الوسيم ما يشير إلى ارتباطه بالإسلام السياسي، فهو حليق الشاربين مبتسم على الدوام وصاحب دعابة في الحديث. لكن الحسيني، بتكليف من الإمام الخميني الزعيم المعارض لحكم الشاه، أصبح المسؤول العسكري والفعلي للمعارضة الإيرانية الإسلامية خارج إيران. تحمّل الحسيني مسؤولية تدريب عناصر المعارضة الإيرانية العاملة مع الخميني في فتح.

وعمل الحسيني في لبنان مع الإمام موسى الصدر الذي أسّس حركة أمل (أفواج المقاومة اللبنانية)، لكنّ الحسيني آمن بضرورة عدم تحوّل الطائفة الشيعية في لبنان إلى طائفة منغلقة على نفسها بين الطوائف اللبنانية، بل أراد أن تتحول الطائفة الشيعية للعمل لمصلحة تنمية لبنان في ظل الارتباط بالقضية الفلسطينية، لهذا اصطدم الحسيني مع بعض توجهات حركة أمل الشيعية الداعية إلى جعل الطائفة بعيدة عن القضية الفلسطينية. ربما يصح القول إن فكر محمد صالح الحسيني في جانب منه آمن بالتوازن بين شعور الشيعة بالظلم وضرورة ارتباطهم بالقضايا الوطنية والعربية التي تهمّ جماهير المنطقة.

في لقائنا الأول ترك لي كتابات الخميني وناقشني في الإسلام السياسي وقدّم لي كتاب مؤسّس حزب الدعوة الإسلامية (محمد باقر الصدر) **اقتصادنا**. كانت للحسيني أيضاً علاقات مع حزب الدعوة وأطراف المعارضة الإسلامية العراقية، فهو ناشط ذو عبقرية تنظيمية متعددة الأبعاد.

حركة أمل: د. مصطفى شمران

في أوائل ١٩٧٧ سادت بعض التوترات بين المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية من جهة وحركة أمل من جهة أخرى خاصة نتيجة وقوف حركة أمل الشيعية بقيادة السيد موسى الصدر على الحياد إبان التدخل السوري في لبنان. أُسّست أمل بدعم كبير من حركة فتح عام ١٩٧٥، بل إن أحد أوائل شهداء السرية الطلابية مجاهد الضامن، الشاب المتميز، استشهد بانفجار لغم وهو يدرّب أمل على القتال.

لكنّ حركة أمل تحولت إلى قوة للمسلمين الشيعة في ظل الحرب الواقعة في لبنان وهذا سيكون على حساب القوى السياسية الأخرى، وخاصة اليسارية الوطنية اللبنانية والفلسطينية، التي ستبدأ بفقد عناصرها الشيعية المؤثرة لمصلحة حركة أمل. منطق أمل قال بضرورة أن تؤدي الطائفة الشيعية دورها مثل أي طائفة أخرى في التوازنات اللبنانية، وهذا زاد التوترات مع الأحزاب اللبنانية اليسارية التي استندت إلى الشيعة بنحو أساسي في حضورها السياسي والعسكري.

أما موقف فتح فهو أقل حدة تجاه أمل بحكم العلاقة الخاصة بين الإمام الصدر وعرفات، ومع ذلك توترت العلاقة في عام ١٩٧٦ واستمر التوتر حتى عام ١٩٧٧.

ومع يناير/كانون الثاني ١٩٧٧ أنجزت حركة أمل مصالحة مقبولة مع كل الأطراف اللبنانية والفلسطينية خاصة بعد المصالحة الفلسطينية السورية، وأعلنت رغبتها في إرسال قواتها إلى الجنوب. اصطدم الأمر بمعارضة من القوات العسكرية للحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية. كان علينا في السرية الطلابية أن نسعى لخلق بيئة مناسبة تنزع فتيل التوتر بين الطرفين.

إن إحدى مشكلات الحركة الوطنية وقطاعات مهمة في المقاومة الفلسطينية في ذلك الوقت، ارتبطت بموقفها من الطابع الديني لحركة أمل. فلـ«أمل» بعض التعبيرات الدينية، وهي تحوي شباناً متدينين إلى جانب شبان انضووا مع أمل لما تمثّل سياسياً للشيعة أو محبّة بموسى الصدر.

أما نحن في الكتيبة، فعلى الرغم من أننا تيار وطني وعربي يساري التوجه في فتح، كنا نحترم التوجهات الأخرى الدينية وغير الدينية ونتفهم دوافعها. لهذا كنا في

السرية الطلابية/كتيبة الجرمق أول من استقبل أمل في الجنوب، وأكثر من أسهم في منع التوترات بينها وبين أطراف عديدة في الحركة الوطنية.

في هذا الإطار التصالحي أتت مجموعة من حركة أمل لمشاركتنا القتال بقيادة مثقف ومعارض لنظام الشاه في إيران د. مصطفى شمران. شمران من مواليد قم في إيران عام ١٩٣٣ ويعمل في قيادة إحدى أهم مدارس الشيعة في لبنان ألا وهي العاملية (مدرسة مهنية معروفة لفقراء الجنوب وللأيتام قرب صور) وهو اليد اليمنى للسيد موسى الصدر رئيس المجلس الشيعي الإسلامي الأعلى في لبنان. وقد حصل مصطفى شمران على الدكتوراه في الولايات المتحدة من جامعة بيركلي في الطاقة الذرية، وقبل ذلك نال الماجستير من جامعة تكساس في أوستن.

أذهب إلى تلة مسعود ليلاً، ذلك الموقع المتقدم المقابل لقوات سعد حداد حيث انضم شمران الى مقاتلي السرية الطلابية/كتيبة الجرمق، وأجلس أحياناً لساعات أناقشه في الفكر وفي الإصلاح والإسلام والدين والدولة. كنا نتحدث بلا انقطاع، بينما تعصف الرياح ويهطل المطر بلا توقف. نتناوب على الحراسة، ثم نحتسي الشاي الساخن ونتحدّث حتى الصباح الباكر عن كتابات علي شريعتي، المثقف الإيراني الإصلاحي الإسلامي.

شمران متحدّث لبق ومتديّن بإنسانية عميقة. وهو مستمع متميّز ويمتلك فكراً نقدياً، وشكله من لحيته وطريقة حديثه يجعلانه أقرب إلى الناسك المتعبّد في الهند منه إلى شخصية المقاتل المعارض.

خشيت أن تقع معركة مع قوات حداد وأن يصاب مصطفى شمران وهو بيننا. حاولت إقناعه بعدم البقاء في التلة في الليلة الثانية وذلك لاحتمال وقوع قصف على المواقع الأمامية. رفض الفكرة بقوة، إذ أراد أن يبقى خاصة أن معه مجموعة من حركة أمل أراد أن يكون قدوة لها.

في النهار يذهب شمران إلى بنت جبيل ويمضي بعض الوقت مع سكانها وأهلها من أصدقائه ومعارفه. جاء في آخر يوم إلى مقرّنا في بنت جبيل ومعه مساعده أبو ياسر الفلسطيني/اللبناني الذي ينحدر من القرى السبع اللبنانية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨ وهجّرت أهلها وصادرت أراضيها:

«يا جهاد، أريد أن أتحدث إليك وإلى مروان. لقد تحدثت هنا إلى سكان بنت جبيل. إنهم يشعرون بأنكم السلاح المدافع عنهم، أنتم بناة نموذج لمقاومة لا تتكبر على الآخرين. شباب أمل على التلة معجبون بكم ويتمنون لو كان العمل الفدائي مثلكم، لكن هذا ليس الواقع».

سكت شمران قليلاً، فهو يتمهّل عند الحديث كأنه يمتلك كل الوقت، بينما أنا ومروان نصغي إليه ونحتسي الشاي الساخن:

«أرجو ألا تتضايقوا مني فأنا أحبكم وأخشى عليكم وعلى نقاوتكم (ثم توقف عن الحديث وصوته يعلو وينخفض ولكن بأدب شديد). لن تنجحوا. أنتم نقطة في بحر مليء بمشكلات جميعها أكبر منكم. لن تستطيعوا تغيير المجرى الذي سارت عليه المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان».

تجادلنا طوال المساء: شمران المتشائم من وضع المقاومة والناقد لتجربتها في الجنوب ونحن المتفائلين بالتغيير.

ظل شمران يقول لنا: «سيقع حدث كبير في إيران سيغيّر كل شيء». ذكر لنا أسماء أصدقائه: إبراهيم يزدي، ومهدي بازركان، وصادق قطب زاده. ثم أردف: «يجب أن تقرأوا للإمام الخميني، فهو مؤيّد لفلسطين».

في مرات عديدة عرّفني د. شمران إلى إيرانيين لم يكشفوا لنا أسماءهم منهم الطبطبائي لكنهم سيكونون من صنّاع الثورة في ما بعد.

لكنني عرفت أيضاً بمدى عمق الخلاف بين محمد صالح الحسيني ومصطفى شمران. فالحسيني أراد رؤية أكثر إقداماً في العلاقة بين الثورة الفلسطينية والإيرانية، بينما شمران سعى إلى تحديد إطار العلاقة ضمن حدود الوطنية الشيعية وأمنها في جنوب لبنان. الحسيني مثّل أممية الفكر الإسلامي الشيعي بمعناه الثوري بينما شمران مثّل طموح الشيعة في التحوّل الى دولة مع التركيز على الوطنية الشيعية. هذه مدارس ستعكس اختلافاتها في واقع الممارسة السياسية في المراحل التالية.

تصاعد التوتّر في الجنوب

استمر سعد حداد يحاول التوسع في قطاعه الشرقي باتجاه احتلال المزيد من

القرى الجنوبية. في يناير ١٩٧٧ استهدف بلدة دير ميماس المسيحية. في هذه الأجواء تجمّع أبناء دير ميماس القريبة من القليعة بقيادة خالد بشارة الناشط في السرية الطلابية. دير ميماس قرية مسيحية وحدودية في الوقت نفسه ولكنها تتميز بوجود تيار وطني مؤيد للمقاومة والحركة الوطنية، وهي لا تبعد كثيراً عن مرجعيون والقليعة حيث سعد حداد. أراد حداد أن يمتد بقوته إلى بلدتهم. فما كان من خالد بشارة أحد شبان السرية وسكان دير ميماس إلا أن أعلن تمسّكه بحياد البلدة ووطنيتها. لكنّ الميزان مال لمصلحة سعد حداد.

خالد لم ينضم إلينا في بنت جبيل ورشاف، لأن بلدته مهدّدة في وجودها. ستحاول الكتيبة من خلال علي أبو طوق ومروان التفكير في خطة، لكن دير ميماس تقع في منطقة يصعب إمدادها والدفاع عنها. ستلتقي عدة عائلات من دير ميماس وتقرر الهجرة سيراً على الأقدام أمام زحف قوات حداد في أواخر يناير ١٩٧٧.

سيبدأ خالد بشارة سلسلة من الأعمال العسكرية ضد قوات حداد التي استطاعت احتلال البلدة. لكن خالد بشارة سيسقط شهيداً مع صديق له عندما انفجر لغم زرعته قوات حداد في أراضي البلدة بتاريخ ١٦ آب/أغسطس ١٩٧٧.

معركة تلة شلعبون ومسعود

تسارعت الأحداث في ظل طموح حداد وإسرائيل لتوجيه ضربة قاصمة لنا وتوسعة الشريط الأمني من خلال قضم واحتلال مدينة بنت جبيل. في الرابع والعشرين من فبراير/شباط ١٩٧٧ قامت قوة من مجموعة تابعة لسامي الشدياق، الذي يعمل مساعداً لحداد، بهجوم صباحي من عين إبل على تلة مسعود وتلة شلعبون المشرفتين على بنت جبيل والمواجهتين لقوات سعد حداد. في هذه المواجهة دار قتال شديد في تلة مسعود. دفعت القوة المدعومة إسرائيلياً بعشرات المقاتلين، لكن خالد في تلة مسعود والشبان معه نجحوا في صدّ الهجوم تلو الهجوم. هذه محاولة كبيرة لتوسعة الشريط الأمني ولإسقاط بنت جبيل.

لكن القوة الهاجمة نجحت في احتلال تلة شلعبون، وهي التلة التي تقطع

الطريق البري بين بنت جبيل والجنوب[١]. هكذا وجدنا أننا نواجه أخطر تحدّ لنا منذ مجيئنا.

تحركت إلى موقع المعركة، ووقفت على بعد ٦٠٠ متر من تلة شلعبون أرى الدخان ودبابة أو أكثر لقوات الشدياق/ حداد. فقد احتلها الجنود بمساندة مدفعية إسرائيلية.

أخذت قراراً سريعاً بشن هجوم مضاد على التلة. جمعت عدداً من الشبان من السرية الطلابية ومن القطاع الأوسط في فتح للبدء بالهجوم. حاول أبو أحمد خميس، وهو رجل ملتح ومتديّن وأحد قادة كتيبة القطاع الأوسط التابعة لحركة فتح، جعلي أنتظر حتى حلول الظلام. كان أبو أحمد مسؤولاً مع شبانه من القطاع الأوسط عن ذلك الجزء من الجبهة «يا جهاد لا تهاجم الآن، الأفضل أن ننتظر حلول الليل».

لم أنتظر انتهاء جملته: «لا لا سأهاجم الآن لنستعيد التلة قبل أن يستقروا بها، ثم هناك هجوم كبير موازٍ على تلة مسعود، إن لم نبدأ الآن فسيكون خالد والشبان في تلة مسعود في خطر كبير».

وافق أبو أحمد بتردّد، فهو فدائي قديم مرّ بعشرات الحروب وأخذ مع الوقت دروساً في الحكمة والتروّي.

بدأت بالتقدّم ومعي نحو عشرة شبان من كتيبة القطاع الأوسط ومن السرية الطلابية. ركضنا بين النيران والقصف بينما نستخدم تضاريس الأرض للاحتماء من رشقات النيران. خلال نصف ساعة كنا على بعد خمسين متراً من التلة. أعجبت خلال الركض بلياقتي التي أصبحت عالية من كثرة المسير في الجبال.

اشتبكنا مع قوات سعد حداد، لكننا لم نكن نمتلك القدرة على الاقتحام وذلك لوجود آليات ودبابات تفوق عددنا. كان هدفنا أن نحتوي الهجوم ونخفف الضغط

---

(١) انظر أيضاً تقييم: منذر محمود جابر، **الشريط اللبناني المحتل: مسالك الاحتلال، مسارات المواجهة، مصائر الأهالي**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص ١٨٠.

عن خالد وحسان شرارة وشبان حركة أمل المتطوعين في التلة، بل ونمنعهم من الالتفاف عليهم في تلة مسعود، ثم نفرض عليهم الانسحاب.

بعد ساعة من الاشتباك تقدمت دبابة إسرائيلية يقودها أحد عناصر سعد حداد. حركت الدبابة فوهة مدفعها باتجاهنا، صرخت على الشبان حولي محذراً بينما فوهة المدفع التي لا تبعد عني سوى ٤٠ متراً مصوّبة إلينا. اتضح لي أنه لم يكن لدينا سوى ثوان قليلة.

رعدت الدبابة من موقعها على التلة، وإذا بالقذيفة تسقط وسط شابين من شبان القطاع الأوسط لم يبعدا عني سوى ٧ أمتار. وقبل أن تطلق الدبابة قذيفة ثانية باتجاهنا قفز أحد الشبان ورماها بقذيفة بي-٧ انفجرت قربها، ربما تضررت الدبابة لأنها اختفت وعادت إلى الوراء.

أعطانا تراجع الدبابة دقائق قليلة لمساعدة الجرحى، فالشابان ينزفان أمامي. طلبت من علي نقل أحد المصابين بينما نغطي انسحابه بتكثيف الاشتباك، أما الشاب الثاني وهو من القطاع الأوسط وبالكاد التقيته قبل الهجوم بدقائق فقد نزف دمه خلال دقائق قليلة أمام عيني بينما يطلق أصوات حشرجة أليمة بصوت عال قبل أن يلفظ أنفاسه.

استمر القتال، سقط لنا جريح آخر، كانت إصابته خطرة. فأرسلته بعيداً مع أحمد من شبان السرية. بعد أكثر من ساعتين من القتال أصبحنا ثلاثة نقاتل وحدنا حول التلة. لكن فجأة مع نهاية اليوم هدأ كل شيء، صمتت الجبهة، وانكسر الهجوم على تلة مسعود بفضل صمود الشبان بينما بدأت قوة حداد بالانسحاب من تلة شلعبون.

كان أول من دخل شلعبون من جهة جانبية متسللاً، خضر، الشاب المقاتل والخفيف الحركة في السرية. وفي تلة مسعود أصيب خالد في رأسه، ولكنّ الرصاصة مرّت من جبينه واخترقته محدثة جرحاً طفيفاً.

سررنا بالنصر في أول امتحان قوة بين السرية الطلابية وأنصار إسرائيل. ولكن الثمن: موت شبان في ريعان الشباب. خسائر الطرف الآخر واضحة من عدة خوذات مليئة بالدماء اخترقتها الرصاصات. أما نحن فلم نكن نلبس الخوذات.

في تلك الليلة، كما هي الحال في كل ليلة تعقب القتال، يخيّم الهدوء على كل شيء، كأن الأرض تحزن على الموتى والخسائر. وتكاد في تلك الليلة لا تسمع طلقة واحدة في هذه المنطقة التي تعجّ بآلاف المقاتلين من كل الاتجاهات ومن كل الجوانب: إسرائيل، جيش حداد، المقاومة الفلسطينية، الحركة الوطنية اللبنانية وحركة أمل.

الحرب في المزاج الشعبي

معركة شلعبون تحديداً دخلت المزاج الشعبي الجنوبي. فأثناء القتال انطلقت صلوات الناس وأدعيتهم في بنت جبيل . السكان قالوا إنهم شاهدوا في ذلك اليوم «أجنحة الملائكة» تقاتل إلى جانب الفدائيين. أهالي بنت جبيل وعيناتا راقبوا المعركة أمامهم من منازلهم ومن الأسطح ومن الساحات، ما حوّل المعركة إلى حدث جماهيري مشاهد بالعين المجردة. فالقصة الشعبية تروي أن الخضر الأخضر قد ظهر في السماء إلى جانب جهاد والمقاتلين. والخضر الأخضر ملاك يظهر (وفق التراث الشيعي) وقت الشدة ليحمي الذين يدافعون عن الحق. قال الناس إنهم رأوا الخضر تارة فوق تلة شلعبون وتارة فوق مسعود.

هذه معتقدات بين حدود الدين والأسطورة، لكنها تعكس خوف الناس من هزيمة من يدافع عنهم.

معركة الطيبة: محاولة أخرى لتوسعة الشريط الأمني

في الخامس من أبريل/نيسان ١٩٧٧ وسّعت قوات سعد حداد الشريط الحدودي وذلك من خلال احتلالها قريتي رب ثلاثين والطيبة الجنوبيتين اللتين تقعان في منطقة أكثر قرباً من منطقة مرجعيون في القطاع الشرقي من الجنوب. ولم تكن في القريتين قوات من السرية الطلابية.

إن هزيمة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في الطيبة ورب ثلاثين أسقطت الثقة في الجنوب بقدرة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية على حماية السكان. بل بدأت الأجواء الجنوبية تخشى من زحف إسرائيلي. لقد خلق

هذا هجرة جماعية إلى صيدا وبيروت، وذلك في ظل قصف سعد حداد وإسرائيل لمدن الجنوب وقراه بالمدفعية البعيدة المدى.

اجتمعت قيادات فتح العسكرية في الجنوب وبينهم بلال (محمود الشريف طاهر) قائد القطاع الأوسط ومعين ومروان، وقررت استعادة القريتين اللتين تقعان على تلة عالية، فيها منزل الزعيم السابق الجنوبي الراحل أحمد الأسعد وابنه كامل الأسعد رئيس مجلس النواب اللبناني آنذاك. كان ذلك قراراً جريئاً. فكيف ستهاجم قرية في أعلى جبل يطل على إسرائيل لتحريره من قوات حداد المدعومة بقوات إسرائيلية ومدفعية إسرائيلية وخطط إسرائيلية.

في المحاولة الأولى فشل الهجوم الفلسطيني الوطني اللبناني المشترك فشلاً كاملاً، أما في المحاولة الثانية التي شارك فيها فصيل من السرية الطلابية بقيادة أدهم، فقد حُرّرت القريتان بالكامل، لكنّ أدهم جرح جروحاً بالغة أثناء القتال وأصيب شبان آخرون منهم طلال الأمين من بلدة شقرا الذي ترأس رابطة ثانوية برج البراجنة وكان قد تطوع لخوض تلك المعركة قادماً من بيروت.

بعد سقوط البلدتين بيد القوات المشتركة الوطنية والفلسطينية قصفت إسرائيل القرى الجنوبية قصفاً مركّزاً استمرّ ساعات طويلة. إن استعادة رب ثلاثين والطيبة غيّرت الأجواء مؤكدة قدرة المقاومة على حماية الجنوب. في الحرب كما في السياسة، التقدم الصغير يترك أكبر الآثار والتراجع الصغير يسقط مواقع معنوية.

في معركة الطيبة شارك سعد حداد في الهجوم المضاد الذي قامت به قواته في الخامس أو السادس من نيسان/ أبريل ١٩٧٧ لاستعادة الطيبة ورب ثلاثين. لكن قواته تخلت عنه وتركته وحده في دبابته. فقد سبّب انهيار الهجوم هزة لحداد[(١)].

* * *

وجدت إسرائيل في معركة الطيبة رب ثلاثين انهياراً لسياستها في الجنوب، فجهّزت قوة عسكرية كبيرة وبدأت بالتقدّم إلى سفوح رب ثلاثين بهدف احتلالها

---

(١) منذر محمود جابر، **الشريط اللبناني المحتل: مسالك الاحتلال، مسارات المواجهة، مصائر الأهالي**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص ص ١٨٤-١٨٥.

لتسليمها إلى سعد حداد. لكنّ الهجوم الإسرائيلي أوقف في اللحظة الأخيرة بعد نجاح القوات المشتركة الفلسطينية اللبنانية الوطنية في شنّ هجوم في الليلة نفسها أدّى إلى تحرير مدينة الخيام من قوات سعد حداد. لقد وقع انقلاب في الميزان أزعج إسرائيل.

هكذا وقعت في ذلك القطاع الشرقي قرب القليعة ومرجعيون معارك شاركت فيها قوات إسرائيلية في مواجهة قوات فلسطينية مقاتلة بقيادة صديقي محمد علي (أبو يعقوب) الذي قاد كتيبة الجليل. ولم ينقذ مرجعيون من السقوط في يد محمد علي والقوات المشتركة في تلك المرحلة سوى تدخل إسرائيلي مباشر[١].

المتعاونون مع إسرائيل

علمنا أن أبو عمر (موسى فارس) من مارون الراس ذات الطابع المسلم الشيعي يخطط لضرب حياد مارون وتحويلها لمصلحة سعد حداد وذلك بعد الفشل الذي واجهه حداد في الطيبة ورب ثلاثين وفي الخيام. أبو عمر عميل معروف لإسرائيل، وهو محكوم بقضية في لبنان، لكنه خرج من السجن عندما خرج الجميع في حمّى الحرب الأهلية عام ١٩٧٥. عاد إلى بلدته ووجد الحماية في التعامل مع إسرائيل.

أبو عمر زعيم في عائلته، وسقوط مارون في إمكانه أن يتحول إلى كارثة على كل مواقعنا في بنت جبيل.

نصحني يوسف بلقاء أبو عمر، «فهذا أفضل من انتظار المفاجأة. قد نندم في المستقبل على عدم إجراء هذا الحوار معه، فنحن بحاجة إلى الوقت في بنت جبيل».

ثم بدأ حسان قائلاً: «لست متأكداً من ضرورة الذهاب إلى مارون. في ذهابك تعبير عن ثقتنا بقوتنا، لكن من جهة أخرى هناك احتمال أن يفسر أبو عمر حوارك معه على أنه ضعف. إنها مجازفة يا جهاد».

تقع مارون الراس فوق بنت جبيل وعيناتا وتكشف بنت جبيل ومعظم منطقة

---

(١) انظر المصدر نفسه، ص ١٨٥-١٨٦.

جبل عامل، وتبعد أمتاراً قليلة عن الحدود الإسرائيلية ومن مارون الراس يمكن مشاهدة مدينة صفد الفلسطينية وعدد من المستوطنات المتاخمة للبلدة. إذا فقدت مارون حياديتها، فسيتحول الأمر إلى كارثة بالنسبة إلى مناطق واسعة من جبل عامل بما فيها قاعدتنا الرئيسية في بنت جبيل.

وفي مارون الراس صراع قديم بين عائلتين، واحدة تعامل أفرادها باستمرار مع الحركة الوطنية اللبنانية (عائلة علوية)، والأخرى وهي عائلة فارس نجح أبو عمر في جرّ بعض أبنائها إلى التعامل مع إسرائيل. الخلافات ضمن القرية عائلية، وخطأ فرد يتحول إلى خطأ تتحمّله عائلة بكاملها. وما سبّب كل هذا أن هناك ثأراً قديماً بين العائلتين.

وعندما تسلّحت العائلة الأولى على أيدي الحركة الوطنية اللبنانية واليسارية، وذلك بحكم انتماء بعض أبنائها إلى الأحزاب اللبنانية والتنظيمات الفلسطينية، سارع بعض الأفراد من العائلة الأخرى إلى قبول عرض أبو عمر بأخذ السلاح من إسرائيل وذلك خوفاً من الثأر. وقد اشترطت عليهم إسرائيل ممارسة مهمات حراسة ليلية لمنع تسلل مجموعات فدائية إلى إسرائيل وحدودها.

قررت الذهاب إلى مارون، وما إن وصلت حتى أخذني يوسف عبر منازل أسرة علوية التي تتحالف مع الحركة الوطنية، فإذا بكبارهم يحذرونني من العائلة الأخرى.

سرت باتجاه منازل العائلة الأخرى، وصلت إلى ساحة البلدة، وإذا بأبو عمر يخرج وحوله العشرات من الشبان. أخذني بالأحضان وكأنني أعرفه منذ أعوام وأدخلني إلى منزله.

أبو عمر ثلاثيني، هندامه في غاية الترتيب، حديثه هادئ، أسلوبه سلس. وخلال دقائق امتلأ منزله بالزوار، ممن جاؤوا ليكتشفوا هذا القادم من المقاومة للقاء زعيمهم أبو عمر. المشهد غريب ومتناقض. جلس أبو عمر بقربي وبدأنا بالحديث عن القرية وما حصل في رب ثلاثين قبل يومين. والمعروف أن أبو عمر لا يغادر القرية الأ للتحرك ضمن المنطقة المحتلة وإسرائيل.

بدأت بالحديث معبّراً عن سعادتي بزيارة البلدة. ثم أردفت: «مارون تقع فوق مواقعنا في بنت جبيل، وأي إدخال لإسرائيل وحلفائها إلى مارون هو عمل عسكري

ضدنا، ولن نحتمل ذلك. لكن من جهة أخرى أعدكم أننا لا نسعى إلى إرسال قوة عسكرية من المقاومة إلى مارون كما لن نقف مع عائلة ضد أخرى تحت كل الظروف. فهل بإمكانكم أن تتعهدوا التزام الحياد في المرحلة القادمة؟».

تحدث أبو عمر بهدوء وثقة: «نحن لسنا على الحياد يا أخ جهاد، نحن مع المقاومة. نقدّر هذه الزيارة، فأنت أول مسؤول من المقاومة تحدث إلينا. لن نؤذيكم. ولكن نأمل منكم أيضاً أن تنزعوا أسماءنا عن اللوائح التي معكم على الحواجز من هنا إلى صيدا وبيروت. كذلك فإن أهلنا لا يلقون معاملة جيدة عندما يذهبون إلى مدينة بنت جبيل لشراء حاجاتهم».

رددت فوراً: «لا أعدك بتغيير الأمر في كل الجنوب لأنه غير داخل في صلاحياتي، لكن أعدك بتغيير المناخ في بنت جبيل تجاهكم، لن نقبل أن يخطئ أحد في حقكم».

قلت: «لديكم أسلحة إسرائيلية موزعة على عدد من الناس. سيأتي يوم يتحرّر فيه الجنوب من سعد حداد وجماعته، وهذا سيحوّل الأمر إلى مشكلة بالنسبة إليكم».

ردّ أبو عمر:

«ليس معنا أسلحة إسرائيلية».

قلت له: «الأهم بالنسبة إليّ هو حيادكم. وإن وُجد سلاح إسرائيلي معكم أنصحكم بإعادته».

انتهت المقابلة الأصعب في حياتي، فأنا في عرين الأسد وسط مجموعة تعمل مباشرة مع أجهزة إسرائيلية. أعرف أنهم قادرون على قتلي أو تسليمي لإسرائيل.

* * *

قصة المتعاونين مع إسرائيل صعبة في مجتمع المال فيه شحيح، والناس يعانون من الضيق. فالمزارع الجنوبي يزرع أرضه قرب الحدود، لكن خلال ذلك قد تقع اتصالات مع أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية التي تعمل بنشاط كبير في المناطق الحدودية، والتي قد تمنع الجنوبي من زراعة أرضه إلا إذا تعاون معها.

عندما نسير ليلاً في بنت جبيل نحرص على أن لا ننسى أننا مخترقون، وقبل أن نقوم بدورية مسلحة نحافظ على سريتها الكاملة بطريقة تمنع أي تسرّب، وذلك

لمعرفتنا أن الشبكات التي أنشأتها إسرائيل فاعلة. وفي بعض الحالات اعتقلنا أفراداً وحققنا معهم، ولكن لم نستطع فعل شيء إزاءهم أكثر من تحذيرهم. لكنهم بمجرد انكشافهم يتعرضون لخطر كبير، ليس بالضرورة منا بل من أطراف عديدة في الحركة الوطنية. فعادة عندما يُكتشف شخص يغادر هرباً إلى مناطق سعد حداد والى إسرائيل.

رجعي وتقدمي: تمزيق الصف الوطني

لم تكن أطراف الحركة الوطنية الرئيسية مستعدة للحوار مع التيارات الأخرى في الجنوب التي تميل إلى تأييد الزعماء التقليديين ممن أطلق عليهم أنصار عائلتي الأسعد والخليل. هؤلاء الزعماء ارتبطوا بالنظام السياسي السابق للحرب واعتبرتهم المعارضة اللبنانية «إقطاعاً سياسياً» يجب إنهاء نفوذه ووجوده.

وقد رأت الحركة الوطنية اللبنانية، أو قطاع كبير منها، أن الكثير من القوى في الجنوب التي لا تشاطرها رأيها وتصوّراتها السياسية والعقائدية هي قوى رجعية يجب عزلها. هكذا أصبح الجنوب منذ ١٩٧٦ وأثناء عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨ امتداداً للتقسيم التقليدي: رجعي وتقدمي. وقد حملت العديد من المنظمات الفلسطينية تصورات شبيهة، وهذا ما انعكس أيضاً على العلاقة مع حركة أمل الشيعية.

في السرية الطلابية/كتيبة الجرمق كنا نعد هذا المنطق تعالياً على السكان. فأنصار الأسعد والخليل كانوا من بسطاء الناس والفلاحين، وتصنيفهم رجعيين سيتحول لمقدمة للصدام مع جمهور كبير من الناس. وكان لنا الرأي ذاته في التعامل مع حركة أمل ذات الطابع الديني او الشبه ديني.

لهذا، في غمرة الحرب الأهلية وقعت بعض الاعتقالات في صفوف مؤيدي القيادات التقليدية التي لقبت بالأسعدية نسبة لكامل الأسعد. هذا أدى إلى خوف في صفوف عائلات عديدة على الحدود وإلى قبول عائلات في الشريط الحدودي، منها عيترون، بعض الأسلحة من إسرائيل خوفاً من الانتقام العائلي والحزبي. إسرائيل كانت على علم بحجم هذا الخلاف بالوسط الجنوبي والمسلم واستغلّته على كل مستوى ممكن.

لقد خسرت الحركة الوطنية ومعها المقاومة الفلسطينية الكثير من النفوذ في ظل هذا التصنيف، بينما حركة أمل ذات الطابع الشيعي والأكثر انفتاحاً على القوى التقليدية الشيعية بدأت تزداد قوة وتأثيراً.

استعلاء في التعامل مع المجتمع

في تاريخ الجنوب اللبناني حيث نتواجه مع إسرائيل، مرّت على الجنوبيين سلطات حاكمة وحركات لا تعد ولا تحصى، فما إن يتخلص الناس من سلطة حتى يقعوا تحت سلطة أكثر سطوة.

أذكر قصة أحد أصدقائي النشطاء والقياديين في الحركة الوطنية اللبنانية الذي واجه احتجاجات جمهور من الجنوبيين من سكان صور عام ١٩٧٧. لم يتحمّل كثرة مطالبهم وحدة احتجاجهم على بعض سياسات الحركة الوطنية اللبنانية في صور، فقد سادت مظاهر فساد واستعلاء جميع الأطراف بما فيها فتح والمقاومة في منطقة صور. في النهاية لم يجد إلا أن يقول لهم واستعلاء كبير يعكس مأزق القوى الوطنية ذات الطابع غير الديموقراطي:

«حكمكم العثمانيون ووافقتم، والفرنسيون فخضعتم، والمكتب الثاني (الاستخبارات اللبنانية) وسكتّم. الآن دور الحركة الوطنية اللبنانية التي حررتكم من المكتب الثاني، هذا حكمنا ويجب أن تقبلوا به كما قبلتم بجميع الذين جاؤوا من قبلنا».

أصبح حامل السلاح يشعر بالامتيازات وذلك لأنه يقاتل نيابة عن الشعب. بدأ حامل السلاح يكره الشعب، ويشعر بأنه يموت من أجله بينما هذا الشعب لا يحبه ويعيش حالة انزواء وإبتعاد عنه.

* * *

في أحد الأيام كنت مع مروان كيالي في زيارة لبيروت، وإذا أمامنا جنازة شهيد لأحد المنظمات. بدأت الجنازة بمسيرة في منطقة الطريق الجديدة والفاكهاني. اصطف الناس بتعاطف كبير بينما سارت أسرة الشهيد وراء النعش ببطء. بدأ إطلاق الرصاص في الهواء من قبل المقاتلين المرافقين للنعش، خاف الناس وتراجعوا إلى

منازلهم وأبنيتهم، بينما سارت الجنازة وحيدة. نظر مروان للمشهد بأسى شديد معلقاً: «هذا إرهاب واستقواء مسلح على الناس، إنهم يكرِّهون الناس بنا».

سعد حداد على حدود عيترون

بعد ذهابي الى مارون الراس، ذهبت إلى مدينة عيترون الحدودية التي تقع خلف بنت جبيل وعيناتا قرب الحدود مع فلسطين. وُجّهت إليّ دعوة لإلقاء كلمة في الحسينية الملاصقة للجامع. وقد أتى معي صديقي يوسف وحسان شرارة. تلك مجازفة في منطقة ملاصقة للحدود ولا وجود عسكرياً لنا فيها.

دُهش سكان البلدة من انتقادي للسرقات والعصابات المنظمة وهجومي على التجاوزات الفلسطينية وتجاوزات الحركة الوطنية واستعدادنا للتعاون مع الناس لمنع كل هذا في إطار مواجهة إسرائيل.

وبينما ألقي الكلمة تقدّم رتل دبابات تابع لسعد حداد وبقيادته عبر قرية ميس الجبل الحدودية، قاصداً عيترون. بالطبع، عندما علمت باقتراب قواته تابعت كلمتي كأن سعد حداد ليس في المدى القريب. وصل حداد إلى مشارف عيترون على بعد مئات الأمتار مني، حيث لم تكن هناك أيّ دفاعات. واصلت إلقاء كلمتي بينما عادت قوة سعد حداد، ربما لأنهم لم يصدّقوا أن المقاومة تلقي كلمة في عيترون من دون أن تكون لديها حماية حقيقية. هذه أيضاً حرب أعصاب.

جبهات معادية ضد قرى مسالمة

في القطاع الغربي من الجنوب، بدأت قوات سعد حداد والشدياق بالاستعداد لاحتلال قرى مسلمة محايدة حدودية لم تكن المقاومة والحركة الوطنية قد تمركزت للدفاع عنها. هذا ما جرى في يارين في الثاني من تموز/أيار ١٩٧٧. بل ستقع الهجمات لأكثر من قرية في ذلك القطاع القريب من رميش، والممتد غرباً باتجاه رأس الناقورة. ستغزو القوات لتدمّر وتقتل وتنهب ثم تعود إلى قواعدها في رميش. وأثناء غزوها تلك القرى المسالمة تقتل أحياناً من تجدهم في البساتين من رجال أو نساء بلا أدنى تردّد. لهذا صار الناس يهربون حين يشاهدون قوات حداد في الأفق. واحتلت قوات حداد أيضاً بلدة العديسة المحايدة في القطاع الشرقي.

نهاية بطل: محمد علي

طوال صيف وخريف ١٩٧٧ ازدادت سخونة منطقة الخيام والحدود الإسرائيلية القريبة من القليعة. فهناك دارت معارك عديدة وتُبودلت السيطرة على تلال استراتيجية قرب الخيام بمشاركة إسرائيلية أكبر حجماً. سيصل القصف الفلسطيني إلى الداخل الإسرائيلي، بينما ستضرب إسرائيل المناطق الجنوبية بلا هوادة، وستعيش تلك المنطقة شهوراً صعبة.

في تلك المعارك الطاحنة مع القوات الإسرائيلية وقوات سعد حداد قرب القليعة ومرجعيون وتحديداً في إبل السقي أصيب صديقي الرائد محمد علي إصابات قاتلة. سقط أثناء قيادته لقواته في ذلك القطاع مضرّجاً بدمائه. تمتم الشهادة، وهو يعلم أنه في دقائقه الأخيرة. مات الرائد محمد علي (أبو يعقوب) واسمه الحقيقي الذي سأعرفه لأول مرة هو: يوسف إسماعيل، وهو من خربة سلامة في دورا قرب الخليل.

سرى الخبر الذي سمعته من إذاعة الثورة الفلسطينية في جسدي كلهب سام. فقدت قوتي، سقطت مني أكثر من دمعة صامتة حارقة، كان ألماً مختلفاً، فقد تحوّلنا إلى صديقين يجمع بيننا الكثير.

تذكرت يوم وصولي إلى الجنوب عام ١٩٧٥، وكيف أخذني بسيارة الجيب إلى السرية ومثّل دور السائق البسيط، وكيف تحوّلت العلاقة إلى صداقة قادتني إلى الانضمام إلى نسور العرقوب في فتح. تذكّرت نصائحه لي وطريقة تفكيره. استعدت زيارتي له في بحمدون قبل صنين ورؤيتي له على الدوام في بيروت أثناء إجازاتي وإجازاته. برزت أمام عيني زوجته الشابة النشطة سميرة التي أحبها وتزوّجها منذ شهور سبعة فقط. تذكرت أنها حامل في شهورها الأولى.

قاد محمد علي واحدة من أجرأ المجموعات العسكرية في قوات فتح وجناحها العسكري العاصفة هي «كتيبة الجليل». وكقائد ميداني أبى أن يبقى في الخطوط الخلفية، فهو ثالث قائد يسقط في القتال لهذه الكتيبة المقاتلة. فقبله سقط الحاج حسن ذو القدرات الفذة، والثاني أبو الوفا الذي اختفت آثاره مع نعيم وأبو عمر حنا في البحر إبان الاجتياح السوري للبنان.

كان محمد علي مع العمل الفدائي في غور الأردن، واشتبك مع الجيش

الإسرائيلي في معارك طاحنة في أواخر الستينيات وطوال السبعينات حتى لحظة موته عام ١٩٧٧.

في جنازته الحزينة لم يطلق أحد من الشبان النار في الهواء، ساد الصمت بينما يطل مئات الناس من كل مكان من منازلهم وأبنيتهم مشاركين فتح فقيدها.

شهور قليلة مرت على موته، أنجبت زوجته سميرة ابناً لن يراه فسمّته «محمد علي». هكذا تكبر المأساة الفلسطينية عبر الأجيال.

نموّ التيار توسّع الحلم

ستتميّز السرية الطلابية/كتيبة الجرمق بأمور كثيرة. فهي في الجنوب أصبحت مع عام ١٩٧٧ تمثّل خطاً سياسياً وفكرياً له امتدادات في بيروت وفي الأراضي المحتلة والعالم العربي. وأصبح الطلبة في الجامعات اللبنانية والأميركية وبعض الجامعات العربية والأوروبية الأخرى ينظرون إلى الكتيبة التي يقودها معين ومروان وبقية الفريق باعتبارها نموذج إصلاح في التجربة السياسية العربية، لهذا انضم إلى السرية العديد من الشباب من جنسيات مختلفة وجاؤوا للعيش معنا في الجنوب.

وعندما نتعرض لخطر اجتياح إسرائيلي، أو يتطلب الوضع استنفاراً، تتحول كتيبة الجرمق من مئتي مقاتل في الجنوب إلى مئات المقاتلين القادمين من طرابلس وصيدا وبيروت والإمارات والكويت وأوروبا ودول العالم.

صراع القوى الحزبية في بنت جبيل

كانت العلاقة بين التنظيمات والحركات اللبنانية الوطنية شديدة التعقيد، إذ علينا أن نتنبّه إلى التوترات الإقليمية ونعمل جهدنا لمنع انتقالها إلى مواقعنا الأمامية وبنت جبيل. فعلى سبيل المثال برز في أواخر عام ١٩٧٧ توتر بين جبهة التحرير العربية (تنظيم فلسطيني محسوب على النظام العراقي) ومنظمة العمل الشيوعي اللبنانية. تفصل بين مكاتب الطرفين في بنت جبيل مئات الأمتار في المدينة، بينما مركزنا القيادي في الوسط.

كنت أحتسي الشاي حين جاء عدد من سكان بنت جبيل طالبين التدخل لوقف

معركة قد تنشب بين المنظمتين وسط المدينة. تحركت مسرعاً، وإذا بعناصر جبهة التحرير العربية يركضون وسياراتهم جاهزة للانقضاض ومليئة بالمقاتلين المستنفرين. أمسكت بأحدهم وسحبت منه قاذف الآر بي جي بيدي، وصرخت في المجموعة طالباً منهم العودة، فتراجعوا بضعة أمتار إلى الوراء.

فجأة تقدمت أربع سيارات مسرعة محمّلة بالمقاتلين من الجبهة العربية وعليها رشاشات ثقيلة. وقفت وسط الشارع محدقاً إلى السيارات المقبلة التي توشك أن تدهسني. لحسن حظي توقفت سيارة الجيب المسرعة ووراءها السيارات المحمّلة بالمقاتلين الذين يصوّبون الأسلحة إليّ وهم على بعد سنتمترات مني.

أيقنت حينها أنني نجحت، ولكني لم أكن منتبهاً إلى أن شباب السرية قد أخذوا مواقعهم فوق الأسطح وحول الأبنية والزوايا وأن أسلحتهم موجهة بالكامل إلى السيارات الأربع وإلى قائد السرية من جبهة التحرير العربية. فجميع عناصر الجبهة الآن في مرمى النيران، وقد توقفوا عندما علموا مدى جدّيتنا وأن مجموعتهم ستباد إذا دهسوني.

أبو عفيف شاب لبناني من دروز الجبل هو قائد هذه المجموعات من كتيبة الجرمق التي انتشرت في كل مكان. لولا تحرك أبو عفيف السريع لوقع اشتباك كبير ولقتل الكثير من الناس وأنا من ضمنهم.

خلال جولاتي في بنت جبيل، يقول الناس كل ما يريدون أمامي بحرية كبيرة، يهاجمون المقاومة الفلسطينية أحياناً بحدّة وبأسماء قادة ومسؤولين في الجنوب لديهم تجاوزات وممارسات فساد معروفة، ويهاجمون أطرافاً عديدة من الحركة الوطنية. أستمع بتفهم ولكن من دون تعليق، فأنا أعرف أن الكثير مما يقال صائب. وإن رأوا أننا أهملنا أمراً فسرعان ما يوجّهون إليّ الملاحظة فآخذ بها.

كنا أحياناً نرفع عدد الدوريات المسلحة في المناطق المحتلة، وكثيراً ما نحاول التخفيف من حالة القصف الذي تزداد وتيرته في بعض الأيام. ونحاول في الوقت عينه إنعاش الحياة المدنية في بنت جبيل. وبالفعل فتحت مطاعم بنت جبيل، وعاد الكثير من الناس إلى البلدة. نجحنا في جلب العديد من المؤن للمدينة ووزّعها على الناس في منازلهم الشبان العاملون معنا بقيادة يوسف وحسان شرارة.

لكنّ الوضع في بيروت لا يطمئن، اتضح أن لبنان لم يتعافَ وأن الحرب مستمرة بأشكال مختلفة، تارة عبر تفجير السيارات وسط الناس وتارة بالقصف المدفعي، وأن سوريا بدأت تتورّط في الحرب على أكثر من صعيد، في شقّها المسلم وشقّها المسيحي. فمثلاً في آذار/مارس ١٩٧٧، اغتيل كمال جنبلاط، زعيم الحركة الوطنية اللبنانية وقائدها. ثم في ليلة واحدة قرر حزب الكتائب التخلص من الوجود السوري في المناطق الشرقية، فانقض على الجيش السوري وكبّده خسائر فادحة وطرد قواته من كافة المناطق ذات الأغلبية المسيحية.

زيارات للكويت

كنت أحاول ألا أغيب أكثر من ستة شهور عن الكويت. في كل زيارة أجد أسرتي مقتنعة بأن هذه الزيارة قد تكون مقدمة لبقائي الدائم. في كل زيارة يأخذني والدي معه لزيارة ديوانية الشيخ سعد مساء الأحد.

طلب الشيخ سعد من الوالد أن يصطحبني معه إلى مكتبه لنتحدث. ومن المعروف عن الشيخ سعد دعمه الكبير للقضية الفلسطينية.

في مكتب الشيخ في ديوان وليّ العهد بادرني قائلاً: «ماذا تفعل هناك يا شفيق؟». فشرحت له بعضاً مما أفعل. نظر إليّ: «هذه مشاركة من الحجم الثقيل، وأنت تعرّض نفسك لمخاطر وتتعب والدك ووالدتك».

ثم أردف قائلاً: «لقد قمت بواجبك حتى الآن و بإمكانك أن تفعل هذا بطريقة أخرى. آن الأوان لعودتك الى بلدك».

قلت له وأنا أستشعر أن الوالد رتّب هذا النقاش بهذا المنحى من القوة مع الشيخ: «عندما أصل إلى نتيجة مغايرة سوف تكون أول من يعلم».

نظر إليّ ممازحاً مع نظرة باتجاه الوالد: «سآخذ منك جواز سفرك وهذا سيمنعك من السفر».

قلت له: «ولكن كيف تمنعني، وهذا سيُحرجك ويُحرج الوالد، لأنني سأعبر الحدود سيراً على الأقدام؟». ثم أردفت قائلاً: «لو منعتك من ممارسة مهماتك وأنت الآن رئيس للوزراء، كيف ستشعر؟».

ضحك الشيخ ثم قال: «أتمنى لك التوفيق، الله يحميك. هذه أيضاً قضيتي. أنتظر عودتك».

في اليوم التالي ذهبت مع والدي في زيارته الأسبوعية الروتينية للشيخ صباح السالم أمير الكويت. جلسنا نتحدث، قال الشيخ: «ما زلت مغلّب الوالد». قلت مبتسماً «جزء من طبيعتي». قال: «يا شفيق اتركنا من هذا. ألا تلاحظ كيف نتجرّأ نحن العرب بعضنا على بعض؟ كيف نتقاتل في ما بيننا بطريقة أشد فتكاً من قتالنا لأعدائنا؟».

قلت له: «أوافقك، أننا قساة على بعضنا. لكنني ملتزم بقضية لا أستطيع التخلي عنها».

هزّ الشيخ رأسه: «ما في فايدة»، ثم نظر إليّ: «دير بالك على نفسك». بعد ذلك تحدث الشيخ بإسهاب عن رؤيته للوضع، بينما أنصتّ إليه مستمعاً. شكرته على صراحته، ووعدته بأن أفكر. سيكون هذا آخر لقاء لي مع الشيخ، إذ سيغيبه الموت رحمه الله في ديسمبر ١٩٧٧.

* * *

بعد سنوات طويلة على تلك اللقاءات، أتساءل عن ذلك الفارق بين دول ودول في واقعنا العربي. فلو كنت مثلاً في معظم الدول العربية الأخرى لما تحمّل مسؤول كبير مهما بلغت درجة الصداقة نقاشاً على هذا المستوى مع شاب ثوري مثلي. التعامل الكويتي مختلف. ففي الكويت تسامح سياسي قديم، واحترام للاختلاف الممزوج بالانفتاح، وفي الكويت دعم تاريخي وروح إنسانية وقومية منذ الثلاثينيات للقضية الفلسطينية. وهذا تحديداً سيجعلني في يوم من الأيام عندما تقع الكويت في أزمة كبيرة (احتلال صدام عام ١٩٩٠ وطوال عقد التسعينيات الحسّاس) من أشد المدافعين عنها.

الفصل الثاني عشر

ثوار ووجهاء وأهالٍ

في مايو/أيار ١٩٧٧ أتى معين إليّ بخبر جديد «لقد أمرالقائد العام لقوات العاصفة ياسر عرفات بترقيتك ميدانياً إلى ملازم أول، وذلك بسبب دورك في المعارك وآخرها معركة شلعبون، كذلك رُقّي أدهم بسبب معركة الطيبة ورب ثلاثين وتاريخه القتالي. هذا نيشان لأدهم ولك يا جهاد، فقلما يقرّر أبو عمار ترقية أحد ميدانياً».

ولكن بعد ذلك بأيام جاء معين بخبر سيّئ: صدر قرار من قيادة فتح في الجنوب، إذ ستحلّ كتيبة شهداء أيلول التابعة لفتح وقواتها العسكرية العاصفة مكاننا في بنت جبيل.

وقع الخبر كالصاعقة على كل الشبان، فهل نعاقب على نجاحنا بوضعنا في منطقة أخرى أقل حراكاً؟ هل اشتكت منا الأطراف التي تهدّدت مصالحها؟ هل ندفع ثمن تصدّينا للفساد وللسرقات لمصلحة الناس والمجتمع؟

ولكن كل شيء تقرر في صيدا بقيادة الحاج إسماعيل المسؤول العسكري عن قوات المقاومة وقوات فتح في الجنوب. لم يكن هناك مجال إلا تنفيذ القرار وسط حالة ضيق بين سكان المدينة. أما الشبان العاملون معنا من أبناء بنت جبيل بقيادة يوسف وحسان شرارة، فبقوا في بنت جبيل يعملون بجد مع القادم الجديد.

لكنّ القادم الجديد كتيبة عسكرية من قوات حركة فتح، أفرادها عسكريون ولا يرون في أنفسهم ما هو أبعد من هذا الدور. فهم انعكاس لنموذج سائد في العمل الفدائي، حيث مهمة الفدائي أن يقاتل في الجبال والتلال بلا أدنى تعامل مع البيئة

السياسية والإنسانية والاجتماعية والأخلاقية المحيطة به. لذلك لم يستطيعوا السيطرة على السلوكيات الاستفزازية لدى بعض المنظمات الفلسطينية، ولم يهتموا بمطالب الناس. عادت السرقات والعصابات التي طردناها من بنت جبيل، وبدأ الوضع يتغيّر، وبدأت هجرة معاكسة لسكان المدينة بعد خروجنا بأسابيع، وسط سقوط صدقية فتح في المدينة. تراجع الوضع، فما أصعب البناء وما أسهل الهدم، هذه قصة متكررة في التجربة الوطنية والنضالية العربية.

هذا النمط من الفدائيين هو الآخر يمكن تفهّم وضعه. فالواحد منهم أمضى من حياته سنوات طويلة، وصلت إلى حد العقد أو أكثر من الزمن، منذ بدء العمل الفدائي في سوريا والأردن قبل حرب ١٩٦٧ وبعدها، وصولاً إلى لبنان ومعارك السنوات الست الماضية في مواجهة إسرائيل والمشاركة في الحرب الأهلية اللبنانية. لقد تقدم الكثيرين منهم في العمر. ولا يخفى أن معظم هؤلاء المقاتلين ومعظم الضباط والقادة معهم لم يروا لأنفسهم دوراً سياسياً او إنسانياً، بل اقتصر أمرهم على الدور العسكري المحض والبقاء في التلال والجبال.

بالنسبة إليّ شخصياً، ما وقع معنا في بنت جبيل هو الدرس الأول لي مع الواقع العربي. فبعد خلق شيء متميّز وجديد، يأتي فوراً، وبلا مقدّمات، من يهوي به. هكذا نكتشف أن المقاومة لم تكن استثناءً لهذا الوضع.

منذ مايو/أيار ١٩٧٧ بدأنا نعزز مواقعنا في قرية رشاف المواجهة لقرية دبل التي تسيطر عليها قوات حداد. فنحن نواجه المجموعات نفسها التي كنا نواجهها ونحن في بنت جبيل. تلك المنطقة الواسعة والجديدة بالنسبة إلينا، التي تمركزت فيها قوات السرية الطلابية/كتيبة الجرمق امتدّت من بلدات قانا وصديقين وجبال البطم وزبقين إلى حاريص وبيت ليف ورشاف وياطر. وقد أقمنا مقر سرية الشهيد سعد التي أقودها ضمن السرية الطلابية في بلدة قانا، وأصبحت بلدة رشاف المواجهة لقوات سعد حداد/ سامي الشدياق موقع المواجهة الجديد.

في اليوم الأول جاء كبار رجال قانا والقرى المحيطة للقائنا مرحّبين بنا. تجاوز عددهم خمسين شخصية اقتصادية وسياسية ومختاراً ووجيهاً. جلسنا في جلسة هادئة في مكان مفتوح أمام مقرّ كتيبة الجرمق في قانا، وألقى كبيرهم كلمة ترحيب

متمنياً علينا أن نحسن التصرف ونحسن العمل، ونيابة عن أهل الجنوب أكد مدى التلاحم مع المقاومة، وقد لمّح المتحدث إلى السلبيات التي دخلت إلى العمل الفدائي وأهمية التعامل معها.

ففي ثنايا كلامه ذلك الشك الذي أحاط بالعلاقة بين المقاومة وسكان الجنوب. بطريقة أو بأخرى لم يكن من السهل إقناع الجنوبيين، وخاصة منذ أواسط السبعينيات، بأننا مناضلون من أجل الحرية. فهناك شك تبلور جرّاء السلبيات التي أحاطت بالعمل الفدائي منذ أن بدأت الحرب الأهلية. يكفي على سبيل المثال حوادث السير. فإن وقع حادث سير سببه سرعة سائق سيارة عسكرية من العمل الفدائي، فلن يكون من السهل التحدث مع مسبّب الحادث الذي قد لا يقف ليتحمّل مسؤولية ما فعله، حتى لو تسبب الحادث بوفاة طفل.

سلوكيات كثيرة عكست تلك الروحية العسكرية غير المدنية السائدة في وسط العمل الفدائي. لهذا كان لزاماً علينا في تجربتنا أن نضرب نموذجاً مغايراً في بعده الإنساني والاجتماعي والسياسي. هذا ما فعلناه في بنت جبيل وهذا ما سنفعله في منطقة قانا ومحيطها.

جبال البطم: بين المختار ومنافسيه

في جبال البطم تعرّفنا إلى مختار البلدة، وجمعتنا به صداقة طيبة. ولكن كحال كل قرية جنوبية، الناس منقسمون إلى عائلات، وكل عائلة رئيسية لديها تيار تحتمي به. لهذا، عائلة المختار نسجت علاقة قوية مع حركة فتح التي أمثّلها، أما العائلة المنافسة فنسجت علاقة مع الحزب التقدمي الاشتراكي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وحفاظاً على الحياد بين العائلتين في جبال البطم، عليك أن تزور العائلة المنافسة أو المعارضة عندما تزور المختار. وعادة ستجدهم أقل سروراً واحتفاءً بك لأنك زرت المختار. لكنّ المختار هو الآخر سوف يحاسبك على زيارتك للعائلة الأخرى، مؤكداً لك أنه لا عهد لديهم وأنهم غير صادقين وأنه عميد البلدة وممثلها الشرعي ووجيهها بلا منازع.

الجنوب في ذلك الوقت: عائلة مع فتح وأخرى مع الجبهة الشعبية، عائلة مع كامل الأسعد الزعيم اللبناني التقليدي المحافظ وأخرى ضده. الانقسام العائلي ينعكس على التحالفات والعلاقات والصداقات.

* * *

في أسبوعنا الثاني في تلك المنطقة، هرعنا إلى جبال البطم لنمنع اشتباكاً مسلحاً بين العائلتين. ولكن الأخطر أن المشكلة افتعلتها النساء، وأن النساء في البلدة من الدهاء والتأثير إلى درجة أنهنّ أجّجن الصراع واستثرن الرجال في رجولتهم بطريقة تجعل أكثر الرجال جبناً على استعداد للضغط على الزناد لكي يثبت عكس ما يقال ولكي يكون عند حسن ظن النساء.

تجمّعن بالمئات في ساحة البلدة يشجعن الرجال على المواجهة. تجمعت أصواتهن بالمئات في صرخات كثيفة ومتتالية. في هذه الأجواء الرجال يكادون يقتتلون، والنساء لا يفكّرن بخطورة ما يحصل. إن تهدئة موقف كهذا من أصعب المواقف، وإقناع الرجال والنساء بالعودة إلى منازلهم من أصعب محاولات الإقناع.

لم تنته المسألة بإيقاف اقتتال، بل كل يوم نذهب إلى القرية بناءً على استدعاء من إحدى العائلتين. والخبر يأتي أن أحد أبناء العائلة الثانية مرابط على الطريق بين جبال البطم وزبقين وعازم على قتل المختار أو غيره.

وأخيراً نجحنا في عقد اتفاق سلام بين العائلتين. وهذا يتضمّن بطبيعة الحال ذبح الخراف وقصائد الشعر والكلمات الجميلة. عند المصالحة ينتقل الناس من النقيض إلى النقيض. فجأة يتحولون إلى أبناء عم وإلى أبناء بلدة واحدة، بينما منذ ساعات كادوا يمارسون الذبح بعضهم في حق البعض الآخر. وهذه من عادات العرب، فمن قمة الكراهية إلى قمة المديح، والعكس صحيح عندما يقع الخلاف. في كل هذا يغيب الوسط والوسطية ويغيب الاعتدال العاطفي والنفسي.

في زبقين المحاذية لجبال البطم، اختلف الوضع. فقد بدت تلك البلدة أكثر تجانساً نظراً إلى عنصر الشباب فيها ووعيهم السياسي الذي أسهم في توحّدهم وعدم انجرارهم وراء الخلافات العائلية. لقد انضوى شبان زبقين تحت لواء المقاومة والعمل مع السرية الطلابية وحركة فتح. وقد نشأت صداقة بيني وبين شاب

من شبان البلدة، كان من أنشط الشبان (حسن) ذو الإخلاص الكبير والروح الملتزمة.

تحولت الصداقة مع حسن إلى علاقة عائلية، وإذا بوالدته تقول لي ببساطة أحاديث أهل الجنوب الصادقة. «لا تبدو لي يا جهاد فلسطينياً في شكلك وفي لهجتك». قلت لها «لماذا»؟. فردّت: «تبدو مختلفاً. تبدو ابناً لعشيرة كبيرة من مكان ما، أنا غير قادرة على التحديد». قلت لها: «كيف يبدو الفلسطيني»؟ قالت: «إنه مائل إلى السمرة، شعره أشعث طويل، لهجته ثقيلة وحركاته عصبية». ضحكنا أنا وحسن. فهي تقصد بالتأكيد بعضاً من لهجات قرى الضفة الغربية وأبناء ريفها من الموجودين بكثرة في العمل الفدائي. كذلك فإن الكثير من الفدائيين تلفحهم حرارة الشمس وشعورهم طويلة نظراً لصعوبة قصّها في الجبال والأودية.

في مواجهة أنماط من المقاومة

في رشاف سيقع باستمرار، وكل أسبوع، تبادل للقصف المدفعي بيننا وبين دبل والمناطق المحيطة بها. وإذا ما وجدت إسرائيل هدفاً جيداً، وجّهت مسلّحي حداد والشدياق لضربه. لهذا وجب علينا أن نمارس حذراً كبيراً للحفاظ على أرواح مقاتلينا. قاد ذلك الموقع كلّ من عمار (عاطف بدوان) ورياض. عمار بتجربته العسكرية العميقة ورياض بقدراته السياسية والإنسانية وأيضاً العسكرية. بين الاثنين أصبحت رشاف محميّة من الهجمات وقادرة على التعامل مع أي طارئ، لكنّ الاثنين جُرحا معاً في الأطراف، ما فرض عليهما غياباً لفترة بهدف العلاج.

* * *

في جبهة مثل جبهتنا، لا بد من تجارب مع المنظمات الأخرى. سنلاحظ باستمرار ظاهرة ستبقى تؤثر في واقع المقاومة. ما إن تنتهي المعارك أو القصف الكثيف الذي يصل الى كل الجنوب وكل شمال فلسطين (إسرائيل) ونبدأ بإعادة ترتيب وضعنا، حتى تبرز مجموعة من مكان ما من إحدى المنظمات الفلسطينية الصغيرة تريد أن تفتح معركة على حسابها.

في كل مرة يقع هذا، علينا أن نتحدث إلى المجموعة القادمة ونقنع أفرادها

بأنهم وصلوا متأخرين، بل نقول لهم ليتهم يساعدوننا في الكمائن الليلية والدوريات والأعمال الصعبة والاستعداد للمعركة المقبلة. نجدهم يتهموننا بأننا نحمي أمن إسرائيل قبل أن يعودوا أدراجهم ويختفوا في صور أو صيدا أو بيروت.

هذا النمط من المقاتلين يريد أن يفجّر الجنوب في كل وقت بلا وعي لواقع السكان وأحوال المدنيين. يفجّرون ويهدفون من إشعال معركة إلى إصدار بيان يعطيهم الأفضلية في المقاومة دون تحمّل مسؤولية القتال والاستعداد والحفر والحراسة والعيش في الخيام والأنفاق والصمود والمواجهة وخسائر المدنيين الجنوبيين بعد ذلك. هم نموذج للعمل العسكري المنفصل عن الناس، لهذا يسهمون في تأليب الناس على المقاومة ويسهمون في ضيق الجنوبيين من وجود المقاومة.

في السرية الطلابية/كتيبة الجرمق نتساءل عمّن أرسلهم؟ بعض المنظمات موجودة في بيروت وصيدا بأعداد قليلة لا تتعدى العشرات، ثم ترسل مجموعة صغيرة تعمل لحساب نظام عربي «ثوري» كنظام معمر القذافي على أمل أن تفجّر الجنوب لتصدر بياناً بما قامت به. هذا بالنسبة إلينا ليس نضالاً بل تلاعب عبثي بالقضية الفلسطينية.

في إحدى المرات، وقبل وصولنا إلى المنطقة ومن وسط قرية ياطر، أطلقت مجموعة صواريخ على إسرائيل. ردّت إسرائيل على المكان الذي انطلقت منه الصورايخ، فقتلت وجرحت عدداً من الأطفال. لام السكان العمل الفدائي ولم يلوموا إسرائيل.

وفي حدث مشابه سابق لمجيئنا الى الجنوب توسّل سكان إحدى القرى الحدودية (كفركلا) إلى بعض المقاتلين ألا يطلقوا صواريخ باتجاه إسرائيل. (هذه قصة وقعت في بلدة كفركلا الحدودية)، بل وصل الأمر إلى مطالبة السكان المقاتلين بقصفهم هم بالصواريخ أفضل من قصف إسرائيل. وعندما سأل الفدائيون عن السبب كان الرد: «هذا موسم الحصاد، قصفكم لإسرائيل سيؤدي إلى ردّ لا نهاية له وسينتج منه تعطيل موسم الحصاد، الأمر الذي سيدمّر اقتصاد البلدة وقدرتها

على الصمود. أما لو قصفتمونا فسينتهي الأمر عند هذا الحد، بينما نستمر في الحصاد». انتهى الإشكال. لكنه تكرر كثيراً في تجربة الحدود والجنوب.

لقد استمتنا في منع أي عمل من هذا القبيل. وأعلنّا كل يوم أمام جميع المنظمات: «من أراد أن يقاتل فليكن معنا في كل الأوقات، إذ عليه أن يفهم واقع الناس والسكان ومعنوياتهم واحتياجاتهم. ومن أراد أن يذهب إلى الحدود فليفعل هذا، ولكن ليبتعد عن القرى اللبنانية لكي لا يعطي إسرائيل ذريعة أكبر في خلق هوّة بين المقاومة والسكان».

هذه الأمور كانت محلّ جهد باسم، الشاب اللبناني الذي عمل معنا معظم تلك الفترات الحساسة. وهي أمور اجتهد في التعامل معها كل من راسم وأبو حديد وربحي وأدهم وشريف وخالد ومروان ومعين، إذ عليهم جميعاً أن يتعاملوا مع تعقيدات الوضع. لقد عملنا في هذه التجربة المقاومة وسط حقول ألغام سياسية وأمنية وإنسانية، ومع ذلك استمررنا إيماناً منا بأن هذا الطريق هو الوحيد المتاح لجيلنا ولبلادنا.

أثناء وجودي في رشاف، جاءني اتصال يطلب مني القدوم إلى قانا. ذهبت وإذا أمامي د. حاتم الحسيني، مدير المكتب الإعلامي الفلسطيني ومسؤول تنظيم فتح في الولايات المتحدة، ومعه فواز تركي الكاتب الفلسطيني وخالد عبدو صديقي في التنظيم في زمن الدراسة في الولايات المتحدة. أخذتهم معي إلى رشاف فما كان من حاتم وفواز إلا أن سألاني: «ماذا ستفعل لو هاجمتكم إسرائيل بجيشها خاصة أنكم مكشوفون هنا؟» قلت: «سننتشر في هذه الجبال. سنتفادى حرباً موقعية قدر المستطاع، لأنه في الحرب الموقعية ستتفوق إسرائيل علينا وتبيدنا».

اعتقال شيخ صديقين

في ذلك الصيف من عام ١٩٧٧ وقعت جريمة قتل كبرى في قرية صديقين، ذهب ضحيتها شاب من أحد أحزاب الحركة الوطنية اللبنانية. فقد قتل وهو نائم على سطح منزله. تدخلت فوراً في هذه الحادثة مجموعة من الأحزاب التابعة للحركة الوطنية اللبنانية، واعتقلت شيخ البلدة، موجهة إليه تهمة القتل.

مثّل الشيخ تياراً إسلامياً شيعياً في تلك المنطقة، استفزّ بطروحاته الحركة الوطنيه التي اعتبرته رجعياً. لقد انضم إلى الشيخ عشرات الشبان الصغار المؤمنين بخط شيخ صديقين الذين تركوا الأحزاب الوطنية اللبنانية انطلاقاً من أن الإسلام أقرب إليهم. سيكون هؤلاء مع الزمنِ نواة للعمل الإسلامي الممهّد لارتفاع نفوذ حركة أمل ونشوء حزب الله. لكن هذا سيأخذ مَزيداً من الوقت.

مع وقوع الجريمة، وُجهت أصابع الاتهام بلا أدلة إلى الشيخ والشبان العاملين معه. اعتقل الشيخ مقاتلون من الحركة الوطنية، في مشهد عسكري كبير، إذ جاءت قوات من خارج المنطقة من مدينة صور دخلت البلدة كأنها تقتحم قلعة إسرائيلية، طوّقت المنازل المطلوبة وبدأت بحملة دهم عصبية.

وصلت إلى المكان حيث منزل الشيخ، فرأيته يقاد مخفوراً. حاولت التحدث إلى أحد مسؤولي المجموعات من الحركة الوطنية اللبنانية التي اعتقلته، لكنّ تدخّلي استفزّهم. بل إن أحدهم أطلق الرصاص في الهواء، فصرخت في وجهه، فأخذه رفاقه. كدنا نشتبك بالأسلحة، إذ إن المجموعات التي أتت سادها التوتر والغضب.

ركبت السيارة وذهبت إلى صور وراء الشيخ والسيارات التي اعتقلته لهذا عرفت مكانه. دخلت مكتب الحركة الوطنية وتحدثت إلى المسؤولين. وبدأت الاتصالات بكل من أعرف وبمعين ومروان. وبات الشيخ تلك الليلة في السجن. وعندما زرته قال لي: «أهكذا نعامل كمجرمين؟!».

أشعرتني تلك الحادثة بأن الجنوب سائر نحو هاوية سحيقة، وأن قوى الحركة الوطنية والمقاومة بدأت تفقد قدرتها على احترام التنوّع. لقد نسي الجميع أنهم طلاب حرية ويحلمون بمستقبل واعد. ولسنا نظاماً سياسياً قمعياً كما الأنظمة في المنطقة العربية.

بعد يوم أطلق سراح الشيخ لعدم توافر الأدلة ولتدخلنا النشط. وتبيّن بعد أسابيع أن قصة عائلية خاصة وراء القتل. وبما أن الشاب الذي قتل من أعضاء الحركة الوطنية الأساسيين في صدّيقين، فقد وجهت الاتهامات إلى عدوّ داخلي. في هذا استمرار لثقافة تتهم بلا دليل وتستغل حادثة داخلية لتصفية حسابات جانبية.

زواج وقضية

في بدايات صيف ١٩٧٧، خلال إحدى زياراتي للكويت لرؤية أسرتي، تعرّفت إلى فتاة أحدثت فرقاً في نظرتي إلى مسألة الارتباط. التقيت بتغريد على درج مكتبة جامعة الكويت في الشويخ، وذلك من خلال صديقتنا المشتركة شيرين التي تعرّفت إليها في معسكر مصياف عام ١٩٧٣. تلك صدفة من صدف الدهر. فشيرين في تلك المرحلة بين الكويت وبيروت، وكانت قد شاركت في إضراب الطلبة الشهير الذي أدّى إلى فصلها وفصل ١٠٤ من الطلبة والطالبات من الجامعة الأميركية. لهذا أتت إلى جامعة الكويت لتكملة ما بقي لها من مواد للتخرج وذلك بحكم وجود أسرتها في الكويت.

سرنا نحن الثلاثة إلى كافتيريا جامعة الكويت حيث تدرس تغريد الأدب الإنكليزي، وقررنا احتساء بعض القهوة والتحدث عن الأوضاع. فقد نشطت تغريد أساساً في الجامعة بين الطلبة والطالبات، وخاصة مع الاتحاد العالم لطلبة فلسطين، وهذا جعل اللقاء مفيداً وغنياً من حيث تجربتي في بيروت وتجربة تغريد في الجامعة. طال النقاش بيننا إذ ربما أوشكنا على غلق الكافتيريا من كثرة الحديث وتواصله، خاصة أنها وأسرتها من الخليل الفلسطينية الواقعة تحت الاحتلال منذ عام ١٩٦٧.

واكتشفت أنها تحلم مثلي باستعادة الحقوق وإرجاع الأرض. هكذا، منذ اليوم الأول، تحوّل الانجذاب الفكري إلى شخصي. تعارفنا وتحادثنا، ومع الأيام ازددت إعجاباً بها. مدّدت فترة بقائي في الكويت شهراً كاملاً في محاولة للتقرّب منها ومعرفتها معرفة أفضل. لم أكن قد فكرت في السابق بموضوع الزواج، فكيف يتزوج من أخذ قراراً بحياة مثل حياتي؟ لم أكن قد بلغت الرابعة والعشرين من عمري، بينما هي في العشرين من عمرها وفي نهاية سنتها الجامعية الثانية.

في ذلك الزمن، كانت جامعة الكويت مختلطة، لم يكن فيها كافتيريا للفتيات وأخرى للفتيان، ولم يكن فيها فصل في المكتبة بين الطالبات والطلبة، ولم يكن كل فرد يراقب الآخر ليطبّق قوانين عفّى عليها الزمن. بل اشتهرت الجامعة بزخم أنشطتها الطلابية. هكذا بدأت أتحيّن الفرص لأذهب إلى مكتبة الجامعة أثناء

دراستها. عرضت عليها فكرة الزواج ولم أطلب جواباً مباشراً. تركت الأمر لها لتفكر فيه أياماً عدة بينما تزداد معرفة أحدنا بالآخر.

إن فكرة الزواج لمقاتل في حرب من هذا النمط أخذت مني الكثير من التفكير والمراجعة. سألت نفسي هل ستتحمّل تغريد هذه الحياة؟ هل ستتحمّل كثرة غيابي في الجنوب؟ وهل سيكون من العدل أن أضعها في موقف كهذا؟ عشت صراعاً مع نفسي في هذا الأمر منذ تعرّفت إليها. أعطيتها فكرة عن حياتي. ومع ذلك فإن حماسة الارتباط والحب جعلتنا لا نفكر كثيراً في كل هذا. عدت إلى بيروت لثلاثة شهور، واتفقنا على عقد القران وعلى مجيئها معي إلى بيروت في أواخر سبتمبر/ أيلول عام ١٩٧٧.

جاءت تغريد إلى بيروت لأول مرة لتجد الحواجز والمقاتلين في الشوارع، ولترى مدينة تتآكل جرّاء الحرب الأهلية، ولترى بيتها الذي استأجرته وفرشته بأقل كلفة ممكنة وبمساعدة كبيرة من صديقي غسان القيادي في الاتحاد والناشط في التنظيم الطلابي، والمكوّن من غرفة واحدة وصالون صغير في منطقة جامعة بيروت العربية مقابل الملعب البلدي.

وصلت إلى عالم سمعت عنه ولكنها لم تجربه. عرّفتها إلى كل السيدات وأمهات الشهداء وأخوات الشهداء في بيروت. أهم امرأة عرّفتها إليها هي أم أحمد. فأم أحمد تجمع في بيتها كل الشبان والشابات وتزورها زوجات الشهداء وأبناء الشهداء وبنات الشهداء. فهي رمز لتلك الحياة ولذلك الصراع، وتوزّع العطاء والخير والرعاية على كل من يحتاج إليها. أصبحت تغريد في عهدة أم أحمد، وتعرّفت إلى عدد من الناشطات، أم خالد زوجة الشهيد أبو خالد جورج، وآمنة القرى بنت أم أحمد وأخت الشهيدين أحمد وجمال، وتعرفت إلى الناشطة أم أحمد (سامية) زوجة أحد نشطاء الكتيبة، كذلك تعرّفت إلى بهية زوجة خالد، وبدأت تتأقلم مع حياة بيروت لتجد في أم أحمد وبيتها مواساة لها وامتداداً للأسرة التي تركتها وراءها في الكويت.

التقت تغريد أم جريس اللبنانية المسيحية من دير ميماس والدة خالد بشارة، من أوائل شهداء السرية الطلابية في الجنوب، والتقت ابنتها رجاء المساهمة في كل

مشروع والتزام. لقد تشاركت أم جريس مع أم أحمد في عمق الألم فهما رمز من رموز تلك الحياة القاسية، حيث فقدان الرجال وهم في ريعان الشباب.

كذلك استقرّت شيرين في بيروت بعدما تزوجت صديقي عبد الفتاح، مسؤول مكتب المعلومات المتخصص في العمل داخل الأرض المحتلة.

تغريد بدأت تجاربها مع الطبخ منذ الأيام الأولى، بينما أنا معتاد، بسبب طبيعة حياتي على كل أنواع السندويشات. لهذا طوّرت قدراتها في إعداد السندويشات إلى حدّ الإتقان الكامل.

ساعدتها على اكتشاف بيروت، فأخذتها بالسيارة التي امتلكتها، وهي من موديل انقرض وصناعة قديمة روسية، في جولة في الأيام الأولى. لم تصدّق عينيها، وهي تنظر إلى الأبنية المنهارة والأحياء المهدّمة التي تحولت إلى أطلال وسط بيروت. الدمار انتشر في كل المناطق التي تقع على خطوط التماس بين منطقة ومنطقة. كل البنايات عليها آثار القصف، والشوارع مليئة بالحفر كل منها أكبر من الأخرى.

من رأى بيروت في تلك المرحلة يعرف جيداً معنى الحرب الأهلية، وأن بيروت الستينيات حتى أوائل السبعينيات اختفت عن الخريطة. نسير في السيارة وأمامنا أبنية قد سُوّيت بالأرض تماماً، أطلال منازل ممتدة لأميال يسكنها مقاتلون مدمنون القتال ينتظرون المعركة والموت في اليوم التالي، شوارع مقفلة بالكامل وألغام منتشرة تنفجر بمن يمرّ فوقها لو دخل الطريق الخطأ، مناطق محروقة يكتنفها السواد وأصوات المدافع والقصف بين مكان وآخر. الشياح وعين الرمانة، منطقة الفنادق، مركز المدينة حيث ساحة الشهداء، المتحف، والأشرفية ورأس النبع وكل نقطة تماس حيث عشرات المناطق المسمّاة مسيحية مقابل تلك المسمّاة إسلامية. في كل هذا، وراء كل بناية مدمّرة وكل حفرة في الشارع، قصة موت. وراء هذا الدمار آلاف الأرواح التي اختفت تحت الأنقاض.

في تلك الفترة يسود الهدوء بيروت لأيام قليلة ثم يعود القصف المدفعي ليأخذ مداه بين الغربية والشرقية. وعندما يهدأ القصف على الأحياء السكنية، تبدأ حرب السيارات المفخخة في المناطق المسيحية والإسلامية من قبل أطراف تحاول إعادة

تفجير الحرب الأهلية. كل هذا يدفع الناس إلى الاختباء في المنازل والأقبية لأيام.

أما الكهرباء فهي مقطوعة معظم الوقت، بينما المدارس تفتح وتقفل بسبب الأحداث والقصف، المستشفيات تعجّ بالمرضى والمصابين، ومن الصعب أن تعالج كل من يحتاج إلى العلاج. بيروت تلك مدينة مجنونة بجنون الحرب ولوثة الصراع.

لكن تغريد ستتحمّل كل هذا بصبر. تتركني أذهب إلى الجنوب، فأغيب أسبوعين أو ثلاثة ثم أعود لأجدها في انتظاري وقد استعدّت لنمضي وقتاً جميلاً في الأسبوع الذي سأمضيه في بيروت. نذهب إلى السينما إذا سمحت الأوضاع الأمنية، نذهب إلى مطعم إذا سمحت قدراتنا المالية البسيطة.

بيروت أيضاً مجنونة في سرعة عودتها إلى الحياة كأن شيئاً لم يكن. فإرادة الحياة بين اللبنانيين لا تضاهيها إرادة، وقد تعلّم الفلسطينيون من اللبنانيين هذه الخاصية من خلال تعايشهم مع بيروت، بينما تعلّم اللبنانيون من الفلسطينيين القدرة على تحمّل الموت والتعايش معه. اللبنانيون يخرجون إلى الحياة العادية ويمارسونها كل يوم كأن الحرب ليست موجودة. فيوماً تبدو بعض شوارع بيروت كأنها قطعة من باريس، وفي أيام كثيرة أخرى تبدو كأنها قطعة من الحرب العالمية الثانية في أوروبا.

ولكنّ الهواية الأجمل بيني وبين تغريد ستكون عادة السير في بيروت من جامعة بيروت العربية إلى شارع الحمرا مروراً بمنطقة الروشة. نسير معاً في كل هذا الطريق ونتحدث ولا ينقطع الحديث. فهي لديها أخبار منذ أسابيع عن المجتمع الجديد الذي تتعايش معه، وأنا لديّ أخبار كثيرة عن الجنوب. الحب تحت الخطر يختلف عن كل أنواع الحب، فيه قلق دائم، فيه خوف دائم من أن يصاب أحد بمكروه، أن تصاب تغريد بمكروه في بيروت أو أن أصاب أنا بمكروه في الجنوب.

أترك تغريد مغادراً إلى الجنوب وهي لا تعرف إن كانت ستراني في المرة المقبلة. تملأ وقتها بإكمال دراستها الجامعية وبالعمل اليومي، بداية في مجال الترجمة في مركز المعلومات الذي يعنى بشؤون الأرض المحتلة، ثم في مركز الأبحاث الفلسطيني في مجال المكتبة والكتب.

هذا الوضع المؤلم ترك أثره الكبير عليها. ومع عقد قران عدد من المجموعة القيادية في الكتيبة، بدأت تتكوّن أسر جديدة وعائلات ستواجه في المستقبل مصاعب شبيهة بتلك التي نواجهها، وهذا من أصعب ما اختبرت في تلك التجربة. فبينما أضحّي بنفسي كل يوم، أشعر بمسؤولية وبشعور يصعب أن أصفه تجاه الموقف الذي وضعتها فيه. فمع كل وداع معاناة كبيرة، أحاول جهدي ألا أشعرها بشعوري هذا، وذلك خوفاً من تأثري وتأثرها، ما قد يجعل إمكان استمرارنا في هذه الحياة صعباً. كان لا بد لي من أن أكون دائماً قوياً وقادراً على أن أقلل من مخاوفها.

وجدت تغريد تناقضات كثيرة في هذه الحياة. لم تكن ترى نهاية للنفق الذي دخل فيه لبنان، بينما أعيش شخصياً حالة تفاؤل. مع كل يوم ازدادت تساؤلاً. فهي متسائلة بطبيعتها. تنقل إليّ أحاسيسها، فتثير في عقلي بعض التساؤل. أقول لها إنها يجب أن تحاول فهم الوضع أكثر، فهو صعب ولكنه ليس ميؤوساً منه.

لا بد أن أشارك القارئ بأن جيلي كان متفائلاً: فكل حق سيصل إلى مكانه وكل ظلم سينتهي في وقته، وبالتالي كل قضية ستصل إلى عدالتها المنشودة بغض النظر عن الظروف والأوضاع الصعبة. لقد حصل هذا مع معظم حركات التحرر، فلماذا لا يحصل في فلسطين وفي زمن منظور وقريب؟

هكذا حاولت تغريد المتسائلة محاورتي، المرة تلو الأخرى، عن مستقبل مختلف. آتي إليها بتحليل متفائل عن آفاق النصر والتحرير أو آفاق التقدم في مدى سنوات. تعارض تحليلي بشدة قائلة: «قد يأخذ هذا الأمر عقوداً أخرى». لكنني بقيت على تفاؤلي.

زيارة السادات لإسرائيل: بداية انقلاب

لكن الحدث الأكبر الذي لم نتوقعه في ذلك الوقت هو زيارة الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل بعد انتخاب اليميني مناحيم بيغن، رئيس حزب الليكود، رئيساً للوزراء عام ١٩٧٧. لقد قرر السادات، الذي يمثل أكبر دولة عربية، أن حالة اللاحرب واللاسلم لا يمكن أن تبقى بين مصر وإسرائيل، وقرر أن تبعات الحرب

المعنوية والاقتصادية لم تعد تحتمل، بما فيها اضطراره إلى طلب المساعدات من دول الخليج لتغطية نفقات الجيش.

فمصر لم تحصد نتائج الحرب التي قامت بها (مع سوريا وفي ظل تضامن عربي واسع) عام ١٩٧٣ والتي حققت من خلالها تقدماً عسكرياً في مواجهة إسرائيل وإعادة الاعتبار إلى الصورة العربية التي اهتزت مع هزيمة ١٩٦٧. لقد رأى السادات أن مبادرة سلام مفاجئة وغير نمطية قد تكون قادرة على فرض الانسحاب على إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة، بدءاً بصحراء سيناء.

لقد شاهدت الزيارة مع رفاقي في كتيبة الجرمق/السرية الطلابية في ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٧ وسط هول الصدمة وبداية الشعور بأن شيئاً قد تغيّر. فزيارة السادات بالنسبة إليّ وإلى أصدقائي بدأت تمثّل تحوّلاً لم نكن قادرين على استيعابه. وبلا مقدمات، إذا بالأفكار التي نشأنا عليها تواجه صدمة. مصر بالنسبة إلينا هي بلد الثورة المصرية وعبد الناصر وقيادة القومية العربية. إذاً ماذا حصل وما الذي تغيّر؟ هل هي كثرة الخسائر وتجربة الحروب والواقع المرير؟ أم هو صوت بورقيبة، الرئيس التونسي، الذي أعلن من القدس قبل حرب ١٩٦٧ أنّ على العرب أن يحسموا أمرهم، إما سلماً وصلحاً وإما حرباً، وألا يُبقوا القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني معلّقين بين الوعود والحقائق.

أثناء الزيارة جلسنا لمشاهدة نقل وقائعها في منزل إحدى الأسر اللبنانية قرب مدينة صور الجنوبية. لم يكن الساتلايت والنقل الحيّ للأحداث قد تطوّر، ولكن في الأحداث المهمة تنقل الوقائع عبر تلفزيونات العالم، إضافة إلى أن محطة إسرائيل تُلتقط في الجنوب.

في تلك المرحلة تبلورت لدى الكثير من العرب براغماتية عملية وواقعية. هذه الأجواء سادت الشارع العربي في لبنان وسوريا ومصر، الذي مال إلى الاعتدال والتفاؤل بالمستقبل. حتى تعليقات الأسرة التي كنا نحضر الزيارة في منزلها مالت الى القول إنه إذا نجح السادات فسيكون الأسد هو الثاني وسينتهي الأمر بسلام شامل.

وعندما زرت مختار جبال البطم بعد زيارة السادات نظر إليّ قائلاً: «إننا نحبكم كثيراً في فتح ولا نحب الجبهة الشعبية على الإطلاق».

سألته متعجباً عن السبب؟

فأردف قائلاً:

«أنتم في فتح قبلتم بدولة فلسطينية. يعني ستذهبون من هنا إلى الضفة الغربية وغزة قريباً، أما الجبهة الشعبية فهم يريدون تحرير كل فلسطين. يعني بالعربي الفصيح، باقون عندنا بالجنوب فاتحين حرب من أرضنا إلى أبد الآبدين».

* * *

مع زيارة السادات تساءلت: ماذا سيعني هذا بالنسبة إلينا وماذا يعني لي شخصياً؟ فأنا قاتلت من أجل فلسطين كفكرة حقوقية وإنسانية، وقاتلت من أجل انعكاس ذلك على عالم عربي مختلف جوهره التنمية والارتقاء. ولم يكن هدفي من هذا النضال أن أعيش في دولة فلسطينية رغم تفهمي الآن أكثر من أي وقت مضى لأهمية هذا الهدف.

في زيارة السادات لإسرائيل، شعرت لأول مرة بأنني في يوم من الأيام سأفقد تلك القضية التي قاتلت من أجلها منذ أن فتحت عينيّ على الدنيا. تساءلت بيني وبين نفسي: هل أصبحت معتاداً حياة القتال والفدائيين إلى درجة أنني لن أستطيع التأقلم مع حياة مختلفة بعد ذلك؟

هذه مجرد أفكار راودت عقلي بعد زيارة السادات لإسرائيل. فماذا أنا فاعل إذا وضعت الحرب أوزارها، ووُقّع سلام؟ ربما حينها سأعلن أن نضالي انتهى وقد حقق بعض أهدافه ثم أعود إلى الكويت وأكمل دراستي الجامعية. وهذا ما أحبّت أن تسمعه زوجتي تغريد التي ما فتئت تتحدث عن الدراسة. ومع ذلك، بالسرعة نفسها التي راودت بها هذه الأفكار عقلي، تركتها تمر عبري دون تغيّر. استمر النضال.

ولكنّ القدر سيخبّئ لنا شيئاً آخر. مع عقد سلام بين إسرائيل ومصر، ستتفرغ إسرائيل لمقاتلتنا بقيادة اليمين ومناحيم بيغن الذي أصبح رئيساً للوزراء عام ١٩٧٧، وستقرر بالطبع تصعيد غاراتها وهجماتها علينا دون أن نمتلك العمق العربي والمصري والتوازنات العربية التي توفّر لنا الحد الأدنى من الحماية. سنكون مجدداً في مهب عاصفة هوجاء.

الفصل الثالث عشر

العودة لبنت جبيل والتصدي لتوسعة الشريط الأمني

صدر قرار في أواخر ١٩٧٧ من قيادة الجنوب عبر الحاج إسماعيل بعودتنا إلى بنت جبيل بعد غياب عن المدينة لم يطل سوى شهور. فقد تراجع الوضع الأمني في بنت جبيل. لكنّ سبباً آخر أثّر في القرار. ربما توقع أبو جهاد بعد مجيء الليكود إلى الحكم في إسرائيل نشوب معركة كبرى في الجنوب، فسعى إلى عودتنا إلى بنت جبيل؟ ربما دخل في حساباته أنه يخطط لواحدة من أكبر العمليات القتالية في تاريخ العمل الفدائي خلال مدة وجيزة؟ ربما شعر بأن هذا جزء من الاستعداد لردة الفعل الإسرائيلية فقرر وضعنا في عين العاصفة؟

يوم وصولنا إلى بنت جبيل وقعت حادثة تحمل دلالات. فقد أراد أحد مسؤولي الكتيبة التي نقوم بتبديل مواقعنا معها في بنت جبيل أن يأخذ قبل مغادرته مقتنيات رئيسية تخص إحدى المدارس الحكومية المقفلة في بنت جبيل. هذا الشاب الذي يحمل رتبة عسكرية في فتح عرفته منذ أيام الكلية العسكرية.

أوقفه هاني والشبان قرب المدرسة، فجاء إليّ. فوجئت بطلبه وصُدمت بسلوكه. قلت له بأدب في البداية إن هذا مستحيل وإن هذه أملاك الناس، لكنه حاول إقناعي بأنه سيعيدها بعد استخدامها، وأنني سأستفيد من العملية.

وضحت له أن عملاً كهذا يضرب الثقة بيننا وبين سكان الجنوب، وأن هذه أملاك يجب أن نحافظ عليها. أصر قائلاً: «سآخذ الأغراض حتى ولو بالقوة». فبادرته: «ستقتل لو اقتربت من المدرسة»، فذهب غاضباً.

في الأيام الأولى لعودتنا إلى بنت جبيل، دخلت قوة إسرائيلية بلدة ميس الجبل

الحدودية التي لم يكن فيها أي من قواتنا. ولكن ما فاجأني هو الأزمة التي وقعت جرّاء ذلك. فقد تحركت قوة من جيش لبنان العربي المرتبط بالقوات المشتركة اللبنانية الفلسطينية لقصف بلدة ميس الجبل، بمن فيها من سكان وأطفال ونساء.

أتى وفد كبير من أهالي ميس الجبل وشخصياتها إلى مقرّنا في بنت جبيل ليوضحوا ما حصل في بلدتهم بعد أن وصلهم إنذار جيش لبنان العربي بقصف بلدتهم بالمدفعية البعيدة المدى في حال عدم خروج القوات الإسرائيلية منها. أوضح وجهاء البلدة أنهم يتعرّضون للاحتلال رغم إرادتهم وأن البلدة مليئة بالمدنيين والنساء والأطفال، وأن قصفها من أطراف من الحركة الوطنية اللبنانية سوف يؤدي إلى كارثة وأن هذا هو ما تريده إسرائيل. وافقتهم الرأي وأبلغتهم بأننا لن نسمح بهذا التصرف.

أثناء اللقاء مع وجهاء ميس الجبل الجنوبية الحدودية، فاجأنا حضور ضباط من جيش لبنان العربي إلى مركزنا مهدّدين متوعّدين بضرب البلدة. وجدت نفسي أصرخ بهم مهدّداً: «إن ضربتم قذيفة واحدة على البلدة فسأحوّل مدافعنا تجاه مواقعكم. أنتم تعرفون أننا قادرون على فعل ذلك».

خرج الضباط غاضبين، وطلبت تحريك قوة بقيادة هاني كمال (وهو ضابط شاب محترف انضمّ إلى الكتيبة من موقع آخر في فتح) باتجاه تلك المنطقة وأجريت الاتصالات اللازمة. بعد نصف ساعة تراجع جيش لبنان العربي عن موقفه. أما القوة الإسرائيلية فانسحبت من نفسها بعد ساعات.

وبما أن الشيخ عبد الأمير قبلان، نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان من تلك البلدة، فقد تركت الحادثة أثراً كبيراً عليه، إذ دفعته إلى شكر الكتيبة، وأرسل يدعوني إلى زيارته في بيروت للتعبير عن تقديره للموقف، فزرته في منزله وتعرّفت إليه عن قرب وتكرّرت لقاءاتنا.

في تلك المرحلة احتدم الصراع السياسي بيننا وبين إسرائيل في الجنوب مع بدء العام الجديد ١٩٧٨. فقد بدأ ضابط إسرائيلي كبير عرف باسم حركي «جعفر» بجمع مخاتير قرى الشريط المحتل والقرى الواقعة خارج سيطرتنا ومحاولة استمالتهم والضغط عليهم للانضمام إلى سعد حداد وجماعته وعزل المقاومة.

من جانبنا خضنا هذا الصراع السياسي من خلال تكثيف الاتصالات مع المخاتير والالتقاء بهم وشرح الموقف وضمان موقفهم من هذا الاستقطاب. هذه مهمة صعبة ستفسّر دخول الدبابات الإسرائيلية إلى ميس الجبل في استعراض قوة داعم لسعد حداد.

في المحصّلة حسمت القرى الحدودية موقفها لجهة عدم التعاون، وفي الوقت نفسه طمأنّا قرى الحدود إلى أننا لن نسعى إلى القيام بعمليات في الأراضي الفلسطينية انطلاقاً من قراهم لئلا نعرّضهم لأعمال انتقامية إسرائيلية. من الواضح أن تحركنا السياسي الهادئ حقق نصراً معنوياً في الشهور الأولى من عام ١٩٧٨. لكن هذا عنى أن إسرائيل بدأت تفكر في الخيار العسكري بعد فشل الخيارات الأخرى القائمة على الترغيب والترهيب. توقعت إسرائيل أن نخطئ الحسابات لكننا نجحنا في عدم الوقوع في الفخ الذي نصبته لنا في ميس الجبل وفي قرى الشريط الحدودي.

ومنذ اليوم الأول بدأنا نستغل الوقت لتعزيز تحصيننا. بدأنا نحفر في كل ساعة، وبدا لنا أن شيئاً كبيراً سيقع نظراً لوجود أكثر اليمينيين تطرفاً في رئاسة الحكومة الإسرائيلية (فوز بيغن برئاسة الوزراء عام ١٩٧٧).

لكن العودة إلى بنت جبيل عنت مزيداً من الانشغال وتقليل فرص ذهابي الى بيروت. اقترحت على تغريد أن تأتي معي إلى الجنوب لقضاء أيام طويلة، وهذا ما حصل، إذ أتت وأمضت أياماً في بنت جبيل في ضيافة أسرة يوسف وزوجته.

تطوّعت تغريد في مستوصف البلدة، مع د. عزت الذي تابع علاج الجرحى والمقاتلين وسكان بنت جبيل. وقد انضمت إلى الفريق ممرضتان متطوّعتان من النرويج: أيبا ونينا. ستنشأ صداقة بينهما وبين تغريد التي أصبحت تعمل في المستوصف متعلمة كيفية إعطاء الحقن والإسعافات الأولية. لكن ذلك لم يكن حلاً طويل الأمد، فقد اضطرت للعودة بعد عدة أسابيع الى بيروت بسبب الجامعة.

توسعة الشريط الحدودي: احتلال مارون الراس

في الصباح الباكر من الثاني من مارس ١٩٧٨ أيقظني صوت إطلاق رصاص كثيف وقنص يأتي من جهة مارون الراس، تلك القرية الواقعة على أعلى قمة في

منطقة جبل عامل وفي الجنوب، والتي ترتفع أكثر من ٩٤٠ متراً فوق مستوى سطح البحر وفوق مدينة بنت جبيل حيث نحن[١].

لقد احتلت قوات سعد حداد المدعومة إسرائيلياً مارون الراس. أصبحت مواقعنا مكشوفة. لقد بدأت مرحلة جديدة في معركة وصل جناحي الشريط الأمني الحدودي بين منطقة سعد حداد في القليعة ومرجعيون والخيام، ومنطقة الشدياق في عين إبل ورميش ودبل. إن سقوط بنت جبيل وصف الهوا سيعني توسعة الشريط الحدودي لمصلحة وصل الجناحين، بما في ذلك سقوط مناطق شاسعة تمتد من ميس الجبل حتى عيترون وبنت جبيل على طول الجبهة.

قلت لنفسي: «سيكون يوماً صعباً»، وتذكرت ما قلته لأحد الشبان المناصرين لنا قبل ذلك بأسبوعين، حيث نظر حينها إلى مارون الراس التي تغطّي سماء بنت جبيل وقال «ماذا أنتم فاعلون يا جهاد إذا احتلتها إسرائيل؟». رددت فوراً: «سنصعد إليهم بالمئات».

وبدأنا بالتجهيز الفوري لدفاع جيد ودائري عن بنت جبيل. فهجوم قوات حداد/ الشدياق المدعوم إسرائيلياً في إمكانه أن يأتي من الجنوب ومن الشرق والغرب. وبسرعة أرسلت قوة باتجاه المنازل الأولى والطرق التي تصل بنت جبيل بمارون. وبدأت بالإعداد لهجوم مضاد ننفذه خلال ساعات النهار على مارون الراس.

مع وصول معين من موقع آخر في الجنوب إلى بنت جبيل (لم يكن مروان كيالي معنا في تلك المرحلة، إذ غادرنا للمشاركة في دورة عسكرية في الاتحاد السوفياتي، وكذلك أدهم) أضاف عنصراً مهماً إلى الخطة. فبعد أن ننجح في اقتحام الجزء الأول من البلدة والسيطرة على الطريق العام، سيدفع معين من جانبه بقوة من المقاتلين والرشاشات والمدافع المباشرة المحمولة على السيارات بقيادة صديقي الملازم أول عمار.

---

(١) انظر منذر محمود جابر، **الشريط اللبناني المحتل**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ١٩٨-٢٠٤.

عيّنت نفسي قائداً للهجوم العسكري الميداني الذي سينطلق نحو مارون الراس، بينما رتّب معين من جانبه عملية إسناد متميزة بالمدفعية تحت قيادة رائد (حكيم عيسى).

خلال أقل من ساعة اتصلت بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والصاعقة السورية (وكانت قد عادت إلى الجنوب بقوات رمزية وقليلة بعد تسوية الخلاف بين فتح وسوريا) والحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي والبعث العراقي وغيرهم، وطلبت منهم أن يتهيّأوا للمساعدة في الهجوم.

جمعت القوة الرئيسية التي ستكون من كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) والمكوّنة من نحو ٧٠ شاباً بقيادة هاني كمال. هاني من مواليد ١٩٥٥ من فلسطين ومتمرّس في القتال. اتفقت معه على القيام بحركة التفاف من أطراف البلدة من جهة عيترون، أي من الشرق.

أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، فاتفقت معها على تجهيز ٣٠ شاباً ليقتحموا أطراف البلدة من الغرب ومن جهة أقرب إلى إسرائيل، وذلك للتصدي للذين ينسحبون من قوات حداد/ الشدياق.

وضعت نفسي في الوسط ومعي أربعة شبان بينهم زيتون (قاسم بزي) من شبان بنت جبيل. قررنا عدم استخدام جهاز اللاسلكي إلا بحدود معينة لكي لا نكشف الاستعدادات والهجوم. وقد نجحت في التسلل إلى نقطة تقع قرب آخر منزل في بنت جبيل باتجاه مارون. وقد حدّدت ساعة الصفر للانطلاق نحو مارون: الواحدة ظهراً.

قبل التحرك باتجاه السفوح، إذا أمامي تموز، مسؤول الحزب القومي السوري في الجنوب. لم يكن معه سلاح. سألني عمّا أنا فاعل بخصوص مارون الراس، قلت له ابق معي وستكون أول من يدخلها.

قال: «ماذا، هجوم وسط النهار، هذا غير معقول يا جهاد، هذا انتحار».

قلت له: «هل تثق بي»، قال: «نعم أثق بك». قلت «إذاً تعال معي وسنذهب معاً لتحرير البلدة».

قال «لا سلاح معي ولا شيء».

قلت له: «سنأخذ السلاح منهم (في إشارة إلى قوات حداد/ الشدياق في مارون)». كان تموز من الجنون أنه وافق.

احتجنا إلى شخص من أبناء مارون ليكون معنا أثناء الصعود، وذلك لكي نعرف كيف نتحرك داخل البلدة.

تحركت أنا وتموز والشبان الأربعة من بنت جبيل، إلى المنازل الواقعة على سفوح بنت جبيل الملاصقة والتي هي امتداد لسفوح مارون الراس العالية.

وبينما نحن جالسون في انتظار بدء تحرك المجموعات من الميمنة والميسرة، إذا بالدليل من مارون يتركنا ويسير باتجاه البلدة وحده. ناديته فاستمر بالسير، فأيقنت أنه تحرك ليخبر المجموعات العسكرية المتعاونة مع إسرائيل بخبر الهجوم على مارون الذي لن يتوقعه أحد. فقد جرت العادة ألا يهاجم المقاتلون الفلسطينيون ومقاتلو الحركة الوطنية اللبنانية إلا ليلاً.

اضطررت إلى ترك الدليل يذهب، فأيّ إطلاق نار عليه سيكشف أمرنا ونحن نحاول صعود التلة الشاهقة من إحدى أصعب نقاطها وأكثرها انحداراً. دفعني هذا الوضع إلى اللحاق به صعوداً لأصل إلى مارون في وقت وصوله نفسه، خوفاً من أن يؤدي تحذيره إلى إفشال الهجوم وإبادة الشباب قبل وصولهم إلى المواقع في مارون.

استغرب ربحي ومعه رائد (حكيم عيسي) المرابط قرب المدفعية الذي كان يشاهد عن بعد تسلقي للتلة وتحركي بهذه السرعة إلى مارون قبل أن تصل بقية المجموعات، إذ لم يكن يعلم بالورطة التي وجدت نفسي فيها مع هرب الدليل إلى مارون.

انطلقنا أنا وتموز وقاسم بزي والشبان الثلاثة بسرعة البرق إلى أعلى التلة، ركضاً وتسللاً وتسلقاً، لنصل إلى مقدمة البلدة والشارع العام فيها قرب خزانها الرئيسي. تسلّلنا قليلاً، وإذا بنا وجهاً لوجه ونحن الآن داخل البلدة مع دبابتين وأمامهما المقاتلون جالسون يحتسون الشاي على بعد مئة متر. فجأة شعرت بتشنّج كبير في رجليّ الاثنتين من صعوبة التسلّق. سقطت أرضاً، وعالجت التشنّج بسرعة.

رآنا المسلحون التابعون لحداد، فاندلعت المعركة بشراسة بيننا نحن الستة من جهة وعشرات المقاتلين من الجهة الأخرى. حينها أيقنت جيداً أننا في وضع صعب، أصبحنا نحن الستة الآن في البلدة وحدنا، وبقية المقاتلين لم يصلوا بعد.

طلبت من أحد الشبان ضرب إحدى الدبابتين بالـ«آر بي جي». ضرب الدبابة فلم يصبها. ازدادت النيران الموجهة إلينا غزارة مصحوبة بقذائف من الدبابتين. غيّر الشاب موقعه ثانية وضرب القذيفة الثانية ولم يصبها، بينما الانفجارات تحيط بنا من كل صوب.

نظرت إلى تموز، هل ترمي القذيفة الأخيرة يا تموز؟ فقال لي: «سأحاول». حبسنا أنفاسنا لدقائق بينما يستعد تموز لضرب الدبابة ووابل من القذائف يسقط علينا. لقد أطلق آخر قذيفة آر بي جي وإذا بالدبابة تحترق أمامنا.

توقعت اجتياحهم لنا، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم ظنّوا أننا أكثر عدداً. استمر اشتباكنا معهم بلا توقف بينما أنتظر مجيء هاني محاولاً الصمود حتى وصوله.

حرّك معين في بنت جبيل المدفعية التي يقودها رائد (حكم عيسى) ومعه ربحي على النقاط التي فيها القوات التي تشتبك معنا على بعد ١٠٠ متر. طلبت منه عبر اللاسلكي قصف الخزان ومحيطه حيث الجنود والدبابات. وإذا بإحدى القذائف التي أرسلاها تسقط على رأس الدبابة الثانية.

استمر الاشتباك لمدة ٥٠ دقيقة، مثّلت كل دقيقة منها دهراً من الزمن وسط تعزيزات لقوات سعد حداد باتجاهنا. وأثناء القتال شعرت بعطش شديد. وجدت أمامي وعاءً على الأرض مليئاً بمياه الأمطار وفيه العشرات من الذباب والحشرات الميتة. أغلقت أسناني وشربت من الوعاء لأروي عطشي غير آبه بالقذارة والنتيجة والأمراض. قلت لنفسي: «قد تكون هذه آخر جرعة ماء في حياتي».

نظرت خلفي من جهة الشرق، لأفاجأ بالملازم هاني يطلّ برأسه ومعه ابتسامته الطيبة والبريئة التي لم تكن تفارقه تحت كل الظروف. جاء مع هاني ٧٠ شاباً من الكتيبة ومعهم شبان من الحركة الوطنية اللبنانية ومنظمة العمل الشيوعي متسلّلين وملتفين عبر شعاب ذلك الجبل من جهة عيترون. طرت فرحاً عندما رأيتهم.

صنعنا خطاً عسكرياً مستقيماً وصرخنا بصوت موحّد كبير: «الله أكبر» (وهو

تقليد في كل الهجمات الفلسطينية والوطنية اللبنانية، وحتى الحزب الشيوعي يقول الله أكبر) وتقدّمنا على محاور البلدة الرئيسية من الشرق إلى الغرب ونحن نطلق وابلاً من الرصاص أثناء تقدّمنا.

لقد قُتل كل من حاول التصدي لنا أثناء التقدم. هرب المقاتلون المتعاملون مع إسرائيل وتقدمنا. خلال دقائق سيطرنا على دبابة ما زالت تطلق النار، أمسكنا بأسير. قلت لتموز «إليك بهذه البندقية إنها لك كما وعدتك».

فجأة دفع معين بسرية آليات وسيارات عسكرية تحت قيادة الملازم عمار (صديقي منذ أيام بحمدون) ومعه نحو ستين شاباً. استمررنا أنا وعمار (عاطف بدوان) وهاني في التقدم لتحرير كل البلدة، بينما لم نسمع شيئاً عن مقاتلي الصاعقة الذين لم يتحركوا حسب الخطة.

أما مقاتلو الجبهة الشعبية، فتحركوا ضمن الخطة بكفاءة كبيرة، وأصبحوا خلف البلدة من الجهة الأخرى الأقرب إلى إسرائيل. فالمطلوب منهم منع الإمدادات وإرباك جماعات حداد في الانسحاب. وعندما وصلت إلى نهاية البلدة مع المجموعات، وهاني وعمار وآخرون إلى جانبي، إذا بنا نشتبك لثوان مع مقاتلي الشعبية قبل أن نتعرّف إليهم ونتوقف.

خلال معركة تحرير مارون لم نخسر مقاتلاً واحداً. كنت سعيداً بالنتيجة، خسائر الطرف الآخر وصلت إلى العشرات بين جريح وقتيل، إذ امتلأت ساحة المعركة بالجثث من قوات حداد/ الشدياق، ووفق مصادر مختلفة وصل عدد قتلاهم إلى ١٨ عدا الجرحى(٢).

لم أصدّق عيني وأنا أرى فلسطين أمامي على بعد أمتار. الأراضي الفلسطينية على مرمى حجر من مارون الراس، وأمامي مستعمرة أفيفيم، وبلدة فلسطينية قديمة لم تعد قائمة الآن يطلق عليها اسم صالحة. وإذا بي أيضاً أمام غرفة مراقبة تابعة للأمم المتحدة الحدودية.

دخلت إلى موقع الأمم المتحدة وفيه ضابط من دولة أوروبية، وإذا به مرعوب

---

(١) انظر منذر محمود جابر، **الشريط اللبناني المحتل**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ٢٠٢.

من الوضع، فطمأنته متحدثاً معه بالإنكليزية، قائلاً «لن يحصل شيء لك، وإن ضايقك أحد أعلمني بذلك، وأريدك أن تعلم أننا لن نقوم من هنا بعمل عسكري، وخاصة أننا اقتحمنا هذه البلدة رداً على سيطرة الفئات المتعاملة مع إسرائيل عليها وكشفها لمواقعنا. لن نحوّل هذه المواقع إلى حرب مواقع مع إسرائيل».

تركته وهو خائف، ولا أظن أنه صدّق كلامي.

خلال دقائق، وأسرع من البرق، طلبت من المقاتلين الذين وصل عددهم إلى مئتين وخمسين مقاتلاً الانتشار السريع في البلدة وخارجها وعلى سفوحها، وذلك تحسّباً للقصف المدفعي الإسرائيلي الشديد الذي سيبدأ بعد دقائق.

بدأ القصف الإسرائيلي العنيف، الذي كاد يحصد هاني الذي جرح جرحاً طفيفاً بوجهه. استمر القصف لما يقارب ساعة دون إحداث خسائر في صفوفنا.

مع توقف القصف، بدأت بعض المجموعات من المنظمات الأخرى بالسرقة، فاضطررنا إلى اعتقال البعض، ومنهم مسؤول أعرفه جيداً من منظمة العمل الشيوعي. صادر بالقوة سيارة فولكسفاغن لأحد المواطنين من سكان مارون، مبرّراً أن السيارة تعود لأحد العملاء العاملين مع إسرائيل.

قلت له: «لا يهم إن كان عميلاً أو لا، السيارة ليست لنا إنها له ولأسرته، يجب ألا نصادر حقوق أحد»، فأعاد السيارة مقتنعاً.

من جهة أخرى وجد مقاتلونا ومقاتلو الحركة الوطنية عدداً من شبان البلدة مسلحين. بدا لي أن بعضا منهم حمل السلاح ليقاتلنا لمصلحة أنصار أبو عمر المتعامل مع إسرائيل. عرفت أحد الشبان من زياراته لبنت جبيل، كان خائفاً ومرتبكاً. جردتهم من الأسلحة وطلبت منهم الذهاب حيثما يريدون مؤكداً لهم أن المقاومة ليست ضدهم ولا ضد سكان البلدة. تركتهم يذهبون خوفاً من أن يسيء أحد إليهم. ذهبوا غير مصدّقين إنني تجاهلت أنهم حملوا السلاح ضد المقاومة. أقول لنفسي علينا أن نؤسس دائما لنموذج التسامح، فالناس يتغيّرون، والتسامح ينشر الخير.

لكن المؤسف أن القوميين السوريين أخذوا أسيراً من قوات حداد/ شدياق سقط في أيدينا وكان قائداً لإحدى الدبابات إلى وسط بنت جبيل أثناء القتال وأعدموه في

ساحة البلدة. هذا التصرّف الوحشي دليل آخر على طبيعة الحرب. فمن الممكن مبادلة هذا الأسير بأسرى آخرين. ثم بعد ذلك ربطوه بسيارة جيب وجرّوه من بنت جبيل إلى تبنين.

في الصباح التالي خيّم الهدوء على المنطقة، وبدأنا بالتحصّن في مارون الراس، نعدّ لمعركة كبيرة نتوقع أن تقع مع إسرائيل التي لن تقبل بوجودنا في موقع أساسي يهدّد مستعمراتها. في الوقت نفسه علينا أن نضمن عدم وقوع أعمال انتقامية في مارون الراس بين العائلات المختلفة. وقد أدّى هذا إلى نزوح كبير من عائلة فارس وأقرباء أبو عمر الذي يتعامل مع إسرائيل. البعض ذهب إلى المناطق التي يسيطر عليها سعد حداد.

جاءت زوجة أبو عمر (موسى فارس) وطلبت أخذ أغراضها من المنزل. قالت لي إنها لا تعرف إلى أين ذهب أبو عمر. سمحت لها بأخذ أغراضها، وهذا ما فعلناه مع كل من أراد ذلك. وأثناء أخذها الأغراض وقعت من بين أغراضها قنبلة إسرائيلية مكتوب عليها باللغة العبرية. فناداني شبان من الكتيبة ليطلعوني على الأمر. نظرت إليها وقلت لها: «ما هذا يا أم عمر؟ لم يكن أبو عمر مضطراً إلى هذا».

ثم أردفت: «عليك التحرك بسرعة ومعك أغراض منزلك، لا أريدك أن تتعرضي لموقف الآن مع أحد من مئات المسلحين في مارون والمنطقة». لم أكن أريد أن يقع لها مكروه، فهي ليست مسؤولة عن هذا الوضع. وبالفعل تحركت أم عمر لتأخذ أغراض منزلها. لقد سيطرنا على البلدة الحدودية ولم تقع حادثة واحدة تسيء لأحد بعد سقوطها.

عدت إلى بنت جبيل وبدأنا نخفف من المظاهر المسلحة في مارون الراس ونستعد لمواجهة كبيرة مع إسرائيل. عرفنا أن المواجهه ستقع وأننا نحتاج إلى التهيّؤ للاحتمال الأكبر، ألا وهو إمكان قيام إسرائيل باجتياح الجنوب ودفعنا خارج بنت جبيل بالقوة. فإسرائيل لن تتحمّل وجودنا على حدودها مباشرة وسط انهيار الجدار الأمني الذي سعت إليه منذ عام ١٩٧٦.

* * *

حلّ ربحي مكاني في مارون الراس ومعه فصيل من السرية وقوات أخرى من الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية، بينما عدت إلى بنت جبيل.

معنى معركة مارون الراس

حسمت معركة مارون الراس الكثير، ووجهت ضربة تكاد تكون قاضية لسامي الشدياق، القائد العسكري لتلك المنطقة. وصلتنا الأخبار في اليوم التالي عن أن أهالي بلدة دبل يحمّلونه مسؤولية ما وقع لأبنائهم في مارون. الشدياق سكن قبل الأحداث في نهاريا، وتحمّلت إسرائيل أمنه بالكامل. لقد فشلت محاولات توسعة المنطقة الأمنية في منطقة سعد حداد وفي منطقتنا حيث الشدياق، أما الآن فقد أصبحت المهمة غير ممكنة بدون هجوم إسرائيلي مباشر واسع النطاق(١).

في بنت جبيل ازدادت الثقة بقوة المقاومة وبقدرتها على حماية الجنوب والتصدي لإسرائيل. لكن هذا لن يدوم. ستغيّر الأحداث هذا الشعور الشعبي في المعركة المقبلة والأوسع في تاريخ الحرب في الجنوب ولبنان.

---

(١) انظر منذر محمود جابر، **الشريط اللبناني المحتل**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ٢١٢.

الفصل الرابع عشر

الكتيبة الطلابية أمام الاجتياح الإسرائيلي

في صباح ١١ مارس/آذار ١٩٧٨ بثّت إذاعة مونتي كارلو خبراً وقع عليّ كالصاعقة: وقعت عملية فدائية فلسطينية كبيرة على الساحل بين مدينتي حيفا ويافا، إذ سيطرت مجموعة فدائية فلسطينية على حافلتين عموميتين إسرائيليتين ووقعت مواجهات استمرت ساعات بين المجموعة، وعدد أفرادها أحد عشر، وقوات الأمن والجيش الإسرائيليين. اتضحت هوية المنفذين الأحد عشر، وهم من حركة فتح، بقيادة فتاة فلسطينية ولدت في مخيّمات اللاجئين في لبنان اسمها دلال المغربي. استُشهدت دلال إلى جانب سبعة من رفاقها المقاتلين، بينما وقع في الأسر ثلاثة من الجرحى المقاتلين بعد اشتباك طويل مع القوات الإسرائيلية بقيادة إيهود باراك.

قلت لنفسي «دلال!! يا إلهي كيف ذهبت إلى هناك؟». تذكرت آخر حديث لنا قبل عام عندما قالت لي: «أريد شيئاً أكبر، أريد دوراً حقيقياً في القتال».

فكرت قليلا فحدثت نفسي:

«لو كنت أكثر مرونة مع دلال لبقيت معنا، ولما قامت بهذا العمل الذي سيدخلها التاريخ الفلسطيني بصفتها نفذت أكبر عملية في تاريخ العمل الفدائي الفلسطيني داخل إسرائيل».

شعرت بالحزن لموتها. وعرفت في ما بعد أن أبو جهاد كان معها هي وبقية المجموعة في الدقائق الأخيرة قبل إبحارهم في القوارب من شواطئ جنوب لبنان. فأبو جهاد هو المخطط الحقيقي للعملية إذ أراد أن يذكر بوجود البندقية الفلسطينية خاصة مع قرب توقيع مصر على اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل.

دلال المغربي وأم أحمد القرى

سوف أعرف في ما بعد من أم أحمد أمراً غريباً وقع بينها وبين دلال المغربي قبل قيامها بعمليتها. فقد جاءت دلال قبل العملية لزيارة أم أحمد وأمضت معها عدة أيام. تسأل دلال أم أحمد:

«كيف استقبلت خبر استشهاد ابنك الأول أحمد وابنك جمال؟ ماذا عنى لك فقدان ولديك الاثنين؟».

انشرحت أم أحمد لزيارة دلال من دون أن تعرف شيئاً عن خططها. أما دلال فأرادت من التواصل أن تطمئن على أمها ومدى قدرتها على التعايش مع استشهاد ابنتها.

في إحدى الأمسيات رأت آمنة دلال قرب الجامعة العربية وبدت، على غير عادتها، في أبهى حلة. قالت لها دلال «أنا في طريقي لأخذ صورة لدى المصوّر».

صدمت آمنة القرى عندما رأت صورة دلال التي انتشرت في العالم كله بعد العملية. إنها الصورة ذاتها التي رأتها عليها في تلك الأمسية. إنها صورة فتاة جميلة تجمّلت لا للقاء حبيب أو صديق بل للقاء من نوع مختلف فوق أرض تختلف كل الاختلاف عن ذلك المخيم الذي يقال لها إنه منزلها.

الاستعداد لاجتياح بنت جبيل والجنوب

عرفت أننا مقبلون على شيء كبير في بنت جبيل وأن أيامنا هناك باتت معدودة. فحكومة بيغن، التي تسلّمت الحكم في مايو/أيار ١٩٧٧ آنذاك، ستنفذ الآن مشروعها في التوسع شمالاً بهدف إبعادنا عن الحدود الشمالية.

حسام (من الخليل) مع معين لا يفارقه في ظل الاستعدادات السريعة للحرب. يتقن حسام الكثير من المهارات، وفي هذه الظروف لن يتحرك أحد منّا وحده. فحسام معنا منذ سنوات، وهو مقاتل قدير. انتهينا إلى لقاء كبير بقيادة معين وبحضوري وحضور خالد وبشار وحسان وأبو خالد (محمد الشحيمي) وحسام وأبو وجيه وربحي وغيرهم من الشبان المسؤولين.

اتفقنا على خطة؛ سنقاتل ونتحرك وفق طبيعة الهجوم. إن هجمت إسرائيل

بقوات كبيرة ومتفوّقة علينا بهدف الوصول إلى نهر الليطاني وقطع الطرق على قواتنا، فسيكون من الطبيعي أن نقاتل بطريقة مختلفة عمّا اتبعناه من تكتيكات حرب المواقع مع قوات سعد حداد وسامي الشدياق، ويجب أن نخرج من عقلية قتال المواقع إلى قتال العصابات المتحرك والانسحاب المنظّم، وذلك لحماية قواتنا من الإصابات الكثيرة وتفادي زخم الضربات الإسرائيلية الأولى.

أما إذا كان الأمر لا يتعدى عمليات إسرائيلية محدودة بهدف توسعة الشريط الراهن ووصله، ويتضمّن محاولة احتلال مارون الراس ومدينة بنت جبيل، فسنحاول خوض الحرب بطريقة أكثر نظامية، والدفاع عن بعض المواقع الثابتة وعن مدينة بنت جبيل.

في تلك المرحلة تولّى كل من بشار (ماهر فاعور)، وحسان شرارة مسؤولية تلة مسعود وانضم إليهما فؤاد دباجة من بنت جبيل. وتحمّل أبو خالد (محمد الشحيمي) وهو من البقاع، مسؤولية تلة شلعبون، أما ربحي فاستمر مع مجموعته في مارون الراس، وهناك قوة في جهة أخرى على مداخل بنت جبيل يقودها هاني وأبو وجيه، وقوة أخرى بقيادة حسام الذي شاركني تجربة بحمدون سابقاً. ومع حسام قوة احتياط خلفية (سرية الشهيد أبو خالد جورج) تحسّباً لوقوع التفاف من الخلف. أما خالد فعاونني في قيادة بنت جبيل من موقعه كنائب لقائد سرية الشهيد سعد التابعة لكتيبة الجرمق (السرية الطلابية).

توزع الشبان على كل التلال والمداخل والطرقات يحملون أسلحة في أغلبها رشاشات كلاشنيكوف وعدد من قاذفات آر بي جي وعدد صغير من مدافع الهاون، كذلك تجمع الشباب في تنظيم بنت جبيل مع يوسف عند مداخل البلدة للدفاع عنها.

اكفهرّت الأجواء، وبدأت رائحة الحرب والتوترات المصاحبة لها تبرز في كل مكان. الشبان في الكتيبة شعروا باقتراب ساعة الحسم. سكان بنت جبيل وعيناتا بدأوا ينظرون إلينا كأنهم يعرفون أننا هنا لأيام قليلة.

بدأ الناس الذين يحبوننا ويساندوننا يأتون لرؤيتنا ورؤية بعض مقاتلينا متسائلين عمّا سنقوم به وهل سنقاتل؟ هل سنقبل بأن تدمّر المدينة لقاء قتالنا؟ هل سننسحب

إذا اجتاحت إسرائيل المدينة؟ هل ننصحهم بالبقاء أم بالنزوح إلى صيدا وصور وبيروت خوفاً من الخسائر المدنية؟

أثناء سيري في الشارع يوقفني أهل المدينة بينما يأخذون حاجياتهم من السوق متسائلين عن الموقف. أجيب في حدود معرفتي، وأقول للناس من حق كل مدني أن يبتعد عن الطريق، وخاصة الأطفال والنساء والكبار. أقول للناس ما قد أقوله لأقرب الناس، يجب أن يحتموا من القصف، في ملاجئ وأقبية، أو أن ينزحوا إلى أماكن أكثر أمناً خارج المدينة.

ولكنّ بعض الناس لا منزل آخر لهم في أي مكان، لهذا تجدهم أمام خيار البقاء الاضطراري على أمل ألا تقصف إسرائيل عشوائياً قلب البلدة. حتى السيد عبد الرؤوف فضل الله فكّر في ما يجب القيام به. تمنّيت عليه أن يغادر إلى خارج البلدة لأنه لن يقوى على طبيعة الوضع عندما يبدأ القتال. وقد قرّر الخروج قبل بدء المعارك بساعات.

جاءت تغريد إلى بنت جبيل وجاءت بهية زوجة خالد مباشرة بعد معركة مارون الراس، وقد أصرّتا على البقاء لعدة أيام مع عائلات صديقة للكتيبة في بنت جبيل، ولكن عندما أيقنت أن الهجوم على بنت جبيل وشيك قلت لها يجب أن تغادري الآن. وافقت على مضض، كما وافقت بهية زوجة خالد بصعوبة كبيرة على الذهاب. ذهبتا مؤقتاً إلى منزل أبو نضال في إحدى قرى الجنوب البعيدة. أبو نضال أكبر منا سناً بما يقارب عشرين عاماً، وخاض تجارب اشتراكية في الزراعة الجماعية في بعض القرى الجنوبية، وقد التزم معنا منذ البداية في جنوب لبنان.

جاءنا علي أبو طوق عدة مرات قبل بدء المعركة ومعه كل احتياجاتنا من الذخائر والغذاء. فهو الآن المسؤول الإداري للكتيبة ومركزه مخيّم البرج الشمالي الفلسطيني قرب صور. وقبل ذلك تدرّب علي، لأكثر من سنة، تدريباً عالياً في مكان سرّي لإعداده للدخول إلى الضفة الغربية وقيادة حرب عصابات ضد الاحتلال. ولكن تلك الخطة لم تتحقق.

تحدثنا طويلاً، ووعدني علي بإرسال كل ما نحتاج إليه مهما طالت الحرب. شجّعني وشجّع الشبان. خلال الأيام القليلة التي تفصلنا عن الحرب سيصل إلينا ٢٠

ألف كيس رمل عبّأها أهالي مخيم البرج الشمالي قرب صور حيث علي أبو طوق.

وفي بنت جبيل وزّعنا الذخائر المتاحة، وقدمنا لكل المجموعات ما تحتاج إليه لخفة الحركة، بما في ذلك تموين يكفيها لأيام، وبدأنا نتخلص من كل ما يجب أن نتخلص منه في مقارّنا ومراكزنا، بما في ذلك إتلاف المستندات المهمة.

عند بداية المساء استُدعي معين ومعه جميع القادة العسكريين لفتح في الجنوب لعقد اجتماع مع الحاج إسماعيل والقيادة المشتركة في صيدا، وذلك لمناقشة الخطة والوضع العام في الجنوب. وهنا برز تساؤل كبير، طرحه خالد وعدد من الشبان حينها. فمعين الذي كان يفضّل البقاء معنا اضطر إلى الذهاب لحضور هذا اللقاء، لم يكن معين يحبذ تركنا في وضع كهذا، لكنه لا يستطيع التغيب عن لقاء على هذا المستوى لجميع القيادات في الجنوب.

تساءلنا ألم تجد القيادة العسكرية للقوات المشتركة ولفتح في صيدا وقتاً أفضل للاجتماع سوى مساء الرابع عشر من مارس قبل بدء الهجوم الإسرائيلي بساعات؟ هذا يقول الكثير عن الارتجال الذي ساد قطاعاً من العمل الفدائي. فعملية دلال المغربي وقعت قبل أيام، والمعلومات عن الهجوم معروفة مسبقاً، والاستعداد واللقاءات من المفترض أنها حصلت قبل أيام، وتفريغ الجنوب من قادته العسكريين يسهم في إرباك الاستعدادات.

في تلك الليلة الأعصاب مشدودة، فاللامعلوم عن الوضع أكثر من المعلوم. ومن مارون الراس التي تطل على فلسطين/إسرائيل يراقب ربحي والشبان حركة الآليات والقوات الإسرائيلية، الكثيفة والكبيرة، فالأرتال وحشود الدبابات وأصواتها لم تتوقف عن التحرك والقدوم. نحن أمام جيش كبير يستعد للهجوم.

من جهة أخرى نحن لا نمتلك خاصية الاختباء وسط السكان ووسط القرى. فنحن من خارج هذه القرى، ولن يرحّب بنا السكان، وخاصة إذا رأوا أن هذا سيعود عليهم بالضرر الكبير. ونعي أيضاً أن مواقعنا مكشوفة، لا غابات ولا أشجار كثيفة مثل فييتنام، بل إنها سلسلة من التلال الرملية المفتوحة وفيها بعض الصخور.

ستكون حرباً صعبة، ولكن أليس هذا ما سعينا إليه دائماً؟ ألم نبن تصوّراتنا على أن القتال ضد إسرائيل يعيد إلى العالم العربي تضامنه السياسي ويخفف قتال

الإخوة في بيروت بين يسار ويمين وسوريا وكتائب وأحرار وقوات لبنانية وبين كل العرب وكل العرب كما يسهم في وضع الضغط اللازم على إسرائيل للانسحاب من الأراضي المحتلة؟ إذاً نحن في المكان الصائب ونخوض معركة عادلة، لكنها غير متكافئة، وتحمل في طيّاتها مخاطر كبيرة على جنوب لبنان والقوات الفلسطينية واللبنانية التي تتواجه وإسرائيل.

وبدأ القتال

طوال يوم الرابع عشر من مارس ١٩٧٨ حاولنا إتمام الاستعدادات حول بنت جبيل ومارون الراس. ضاعفت التنسيق أيضاً مع المنظمات الفلسطينية واللبنانية في بنت جبيل. بعض المنظمات غادرت المدينة وخفّفت من الأعداد، وبعضها عزّز وجوده في المواقع المحيطة بالتلال. أما منظمة العمل الشيوعي، فقد أتت بعناصر جديدة من أعضائها ووضعتهم قربنا في تلة مسعود.

مع الليل ساد الصمت الثقيل. حتى العصافير والكلاب صمتت في انتظار الانفجار. عند الساعة العاشرة مساءً، حمل كلّ منّا ما يستطيع حمله من سلاح وذخائر ومياه، وذلك بهدف التحرك بعيداً عن المقار الرئيسة والمواقع التي سيستهدفها قصف الطائرات الإسرائيلية الكثيف. كل دقيقة مثّلت دهراً من الزمن.

دخلت إلى مقرّنا الرئيسي ومعي بعض الشبان، مزّقت مزيداً من الأوراق، ألقيت نظرة أخيرة. قررت أن أستلقي للحظات وأنا مدجّج بكل ما أستطيع حمله، بينما أبو عفيف في الجهة الأخرى من المقر وكذلك خالد يقولان لي يجب أن نغادر المقر الآن. فجأة، سمعت صوت طائرات بسرعة خارقة تمر فوق رأسي مباشرة وعلى بعد أمتار، وذلك بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً بدقائق. لقد بدأ الهجوم منتصف الليل مع الدقائق الأولى للخامس عشر من مارس/آذار ١٩٧٨.

نهضت بسرعة، لكنّ مقرّنا لم يكن هدفاً للقصف لحداثته. اهتزت أرجاء المدينة، واهتزت الأرض من تحت أقدامنا وكأنه زلزال يضرب كل مكان، ركضنا أنا وخالد ويوسف وأبو عفيف والشبان (كنا نحو ١٢ شاباً) باتجاه الموقع البديل على تلة مشرفة على بنت جبيل.

نظرت أمامي، وإذا بتلة مسعود وتلة شلعبون وبقية المواقع من مارون الراس إلى مداخل بنت جبيل تتعرض لغارات جوية كثيفة بواسطة أسراب من الطائرات الإسرائيلية. نظرت إلى الأفق، لأرى الطائرات الإسرائيلية تحلّق فوقنا وسط إنارة كبيرة من قنابل الإنارة الإسرائيلية. الطائرات من نوع سكاي هوك، أف-١٦ والميراج الفرنسية لم تتوقف عن الإغارة على كل مواقع المقاومة الأمامية في كل أنحاء الجنوب، لم تُستثنَ أيّ منطقة. لقد أضاءت الهجمات عتمة الليل. تبع ذلك مباشرة قصف مدفعي مكثف بواسطة المدافع الإسرائيلية البعيدة المدى وبواسطة عشرات الدبابات المرابطة في عين إبل. تلة شلعبون وتلة مسعود حيث الشبان تحوّلتا إلى كرة نار ملتهبة بفعل موجات القصف والغارات على مدى ساعات.

أجريت اتصالات مع المواقع للتعرف إلى أوضاع المجموعات، تحدثت إلى الجميع، إلى كل الأصوات: بشار وحسان في مسعود، أبو خالد في شلعبون، أبو وجيه قرب مارون الراس، إضافة إلى هاني وحسام وأبو وجيه، وجميعهم على تواصل مع بقية المجموعات المحيطة بهم وتحت قيادتهم. أما ربحي في مارون الراس فانقطع معه الاتصال.

لم تكن الاتصالات تحصل بسهولة، فالتشويش الإسرائيلي على أجهزة اتصالاتنا هو الآخر بدأ. كل موقع وحده الآن، يتوقع أن يقاتل وحده، ويناور بحرية، ففي إمكانه أن يتقدم وفي إمكانه أن يخطط لانسحاب إن أراد، وذلك وفق تقديراته الميدانية.

منذ الدقائق الأولى وضح لي أن ما يقع هو تمهيد لاجتياح كبير سيبدأ مع ساعات الفجر الأولى أو قبلها. بدا واضحاً أن ما يقع الآن تمهيد لتقدم أرتال الدبابات وألوف المشاة. كذلك فإن الهدف من القصف إيقاع أكبر قدر من الخسائر في صفوفنا ثم احتلال التلال والتقدم إلى بنت جبيل.

إلى جانب المدافع والطائرات ارتفعت وتيرة ضربات الدبابات بإطلاق قذائفها المباشرة على المواقع الأمامية في شلعبون ومسعود. لقد مُشّطت مواقعنا حفرة حفرة وبقعة بقعة في محاولة «لتنظيفها» بالنيران والمدافع والطائرات من المقاتلين قبل بدء التقدم الإسرائيلي.

ولكن الأهم في كتيبة الجرمق أننا نجحنا في تفادي الضربات القوية الأولى القاتلة التي من الممكن أن تقضي على قواتنا بفضل سرعة حركة الشبان في المواقع وخارجها. لقد مرّت ساعات القصف الأولى بطيئة متثاقلة كأنها سنوات طويلة.

أمام هذا الوضع وجدت نفسي في حيرة من القرار. ماذا أفعل الآن؟ في حال وصول الاسرائيليين سيكون عشرة من الشبان في كل تلة في مواجهة اندفاع عشرات الدبابات الإسرائيلية ومئات من الجنود الإسرائيليين على كل موقع في ظل تغطية جوية غير مسبوقة وانقطاع المواقع الأمامية عن قوات الإسناد الخلفية.

بعد مرور نحو ثلاث ساعات على هذا الوضع، قلت لخالد «هذا جنون. لن أطلب منهم أن يبقوا الآن تحت هذا القصف وفي ظل اجتياح سيصل إلى كل الجنوب. يجب إخراج الشبان من المواقع وعدم خوض حرب موقعية والعمل وفق خطة مرنة للقتال كما سبق أن فكّرنا». راودتني هذه الفكرة منذ الساعة الأولى للغارات والقصف، تحاورت فيها مع خالد، ثم اتفقنا على الانتظار على أمل أن تتضح الصورة قبل أخذ قرار بهذا المستوى.

ومن جانبها بدأت فتح بتحريك فصائل الصواريخ التابعة لها لتقصف المستوطنات الإسرائيلية في شمال إسرائيل، وذلك بهدف إفهام إسرائيل أن المقاومة لا تُكسر. بطبيعة الحال ألف صاروخ وقذيفة تسقط من إسرائيل في الدقيقة مقابل عشرات الصواريخ من الجانب الفلسطيني كل ساعة أو كل ربع ساعة. ومع ذلك عكست تلك الصواريخ إرادة سياسية ووضعت مئات الآلاف من الإسرائيليين في الملاجئ.

لهذا، على مسؤوليتي الخاصة طلبت من جميع الوحدات الأمامية المنتشرة في شلعبون وتلة مسعود ومارون الراس وعلى سفوحها في بنت جبيل من جهة عيترون الإنسحاب من مواقعها الراهنة حسب الخطة المتفق عليها في حال حصول هجوم شامل هدفه احتلال كل الجنوب والوصول إلى نهر الليطاني. هكذا أصبح الأساس بالنسبة إليّ هو إخراج الشبان من مناطق التماس المباشر على التلال مع القوات الإسرائيلية والالتقاء في المناطق المتفق عليها عند مؤخرة بنت جبيل قرب صف الهوا. إن الهدف من هذا التحرك هو خلق عقد عسكرية أمام تقدّم القوات

الإسرائيلية تسهم في إيقاع خسائر إسرائيلية وتبطئ تقدمها من دون أي التزام منا بالدفاع عن مواقع ثابتة معروفة سلفاً للإسرائيليين.

جرى الاتصال بيني وبين أبو خالد الشحيمي وكذلك حسان وبشار وأبو وجيه وبقية المجموعات المنتشرة. وبدأت المجموعات بالانسحاب باتجاه نقطة التجمع المتفق عليها قرب صف الهوا. ولكن الوحيد الذي لم يكن بيني وبينه اتصال هو ربحي في مارون الراس، فطلبت من أبو وجيه (أمين العنداري) إعلامه بقرار التحرك نظراً إلى قربه منه على السفوح السفلى لمارون الراس.

تحرك أبو وجيه بالسيارة إلى مارون ما بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف صباحاً على وجه التقريب. لكنّ الإسرائيليين وصلوا إلى الطريق وقطعوه مبكراً، فما كان منهم إلا أن أصابوه بطلقات عدة. قفز زميله من السيارة بعد إصابته بعدة طلقات، ونجح في الانسحاب برغم جراحه. أما أبو وجيه (أمين عنداري) فاستشهد فوراً.

عندما علم معين بأوامري للمجموعات، وبينما هو في سيارته المتحركة من اجتماع صيدا وسط القصف متجهاً إلى بنت جبيل، اتصل بي وفهمت منه أن الانسحاب يجب ألا يكون الآن. لم أكن متأكداً تماماً من موقفه، ولم أكن على علم بمقرّرات اجتماع صيدا.

التقيت بمعين ومعه صديقي حسام قائد سرية الشهيد أبو خالد جورج، وهي سرية إسناد من سرايا كتيبة الجرمق. عند لقائنا قاربت الساعة الرابعة والنصف فجراً، طلب مني معين أن أعطي الأوامر للمجموعات كي تعود إلى مواقعها في التلال وذلك لمواجهة مباشرة مع القوات الإسرائيلية. وقفت وإلى جانبي خالد والمقاتلون القادمون معنا، وشعرت فوراً بصعوبة الموقف.

كيف يمكنني أن أتراجع عن هذا القرار؟ كذلك فإن الاتصال مقطوع مع ربحي؟ كيف أطلب من الشبان العودة مع معرفتي بمدى صعوبة الموقف وخطر الإبادة الجماعية؟ هذا هو الغموض في زمن الحرب. شعرت لوهلة بأنني فقدت قدرتي على تقدير الموقف.

لدى معين نظرة أخرى إلى سير المعركة، تقول بأننا يجب أن نبقى في بنت جبيل لأطول مدة ممكنة، ربما ليوم او يومين خوفاً من أن يفسّر الإسرائيليون

خروجنا السريع من مواقعنا دعوة لهم إلى الاندفاع السريع باتجاه بقية الجنوب، ما سيكبّدنا خسائر أكبر في بقية اليوم والأيام المقبلة. ربما فهم عقلي ما يقوله معين، لكنّ عاطفتي لم تستوعب الأمر. قدري أن أكون قائداً لسرية الشهيد سعد في معركة غير متكافئة وشبه موقعية مع قوات إسرائيلية تفوقنا عدداً وعدة بمئات المرات.

لم أستطع إبلاغ المجموعات بالعودة. امتلأت عيناي بدموع صامتة تعكس طبيعة الموقف ومدى صعوبته، وكان الضوء قد خرج بخيوطه الأولى ونحن واقفون. بل أعطيت جهاز اللاسلكي لمعين قائلاً: «اتصل بهم، أنا لن أستطيع فعل ذلك الآن». وبالفعل أبلغ معين المجموعات بضرورة العودة إلى مواقعهم الأصلية فوراً وطلب منهم الحذر الشديد في عودتهم. فعادت المجموعات إلى تلتي شلعبون ومسعود. ولم يكن واضحاً إن كانت المجموعات في تلة مسعود على اتصال في ما بينها، فهناك مجموعة بقيادة حسان وأخرى بقيادة بشار، بينما ظل الاتصال مقطوعاً مع ربحي في مارون الراس.

أصبح تنفيذ قرار العودة إلى بنت جبيل والمواقع لا يحتمل الأخذ والرد، وخاصة أثناء القتال. تحرّك أمامي خالد عائداً إلى بنت جبيل.

وقبل أن أهم بالعودة ومعي يوسف نظر إليّ معين وهو يشعر بما أشعر به من ضيق ويعرف حجم المخاطرة التي نحن في صددها «دع خالد يقود السرية عنك الآن». فوافقت بلا تردد، وأنا أدرك في داخلي أنه أمام أعيننا ستقع ملحمة تودي بحياة معظمنا. استمرت الطائرات بالتحليق في السماء فوقنا، بسرعة كبيرة. عدت إلى بنت جبيل.

رأيت خالد بعد دقائق في نقطة وسطى بين بنت جبيل وصف الهوا وموقع تلة شلعبون وتلة مسعود، ومعه مجموعات مقاتلة من الشبان وهو يحاول أن يتصل بالمواقع الأمامية ويبحث عن طريقة لإسنادها أمام الهجوم الإسرائيلي.

– يا خالد، أنت الآن تقود هذه المعركة، وأنا هنا معك لتنفيذ أي شيء تريده.

نظر إليّ خالد مدهوشاً ومتردّداً في قبول ما قلته له. قلت له «عليك أن تنفذ هذه التعليمات، إنها صادرة من معين وهذا أفضل لنا جميعاً. سأذهب إلى مقرنا في

وسط المدينة لأرى إن كانت هناك أي معلومات عن مارون الراس وربحي والوضع في داخل المدينة».

أصبحت المعركة من الحدّة بحيث لم يعد في استطاعة أحد أن يقود أكثر من المجموعة التي تحيط به. فإلى حدّ كبير لم ينفذ خالد القرار ولم يرفضه، وأصبحت كل دقيقة حبلى بالمفاجآت.

تحركت إلى داخل مدينة بنت جبيل حوالى الساعة الخامسة فجراً ومعي أحد الشبان، تحت وابل من القصف الإسرائيلي العنيف على شوارع المدينة وأزقتها، متفادياً قذيفة سقطت هنا قربي وأخرى سقطت أمامي. وإذا بربحي أمامي، بدا كأنه خرج من جهنم، وكأن كل متفجرات الدنيا سقطت قرب أذنيه.

عانقته وسألته عن مجموعته التي كانت معه في مارون الراس، فردّ: «إنهم جميعاً سالمون وقد انتشروا هنا وهناك لتفادي القصف المدفعي وغارات الطائرات».

سألته «ماذا حصل معكم يا ربحي؟».

قال: «سقطت مارون بأيدي الإسرائيليين، لكنهم دفعوا خسائر كبيرة في البلدة، جميع الشبان معي بخير وهم الآن منتشرون لتفادي القصف».

واستمر ربحي موضحاً طبيعة ما حصل في مارون:

«أخذنا مواقع قبل الهجوم الإسرائيلي خارج مارون الراس في منطقة بين مارون الراس والحدود الإسرائيلية، اقتحمت القوات الإسرائيلية مركزنا القيادي الرئيسي على أطراف مارون الراس. رأيناهم عن بعد، لقد حملت القوات الإسرائيلية أثناء اقتحامها قاذفات اللهب فأحرقت المركز بكامله، وبدأ الإسرائيليون بالاحتفال باحتلال موقعنا ومارون من دون خسارة جندي واحد. اقتربنا منهم من دون أدنى انتباه منهم».

وأردف ربحي: «كنا ١٦ شاباً مصطفين أمام الإسرائيليين وعلى مسافة قريبة، لقد أوقعناهم في كمين، فاجأناهم مفاجأة كاملة عندما أطلقنا نيراناً غزيرة عليهم. لقد وقعت فوراً بينهم خسائر كبيرة، وبدأ الصراخ بينهم».

«وبالرغم من الخسائر الإسرائيلية وهول المفاجأة عليهم، إذ عاش الإسرائيليون دقائق حيرة من أمرهم عندما وقعوا في الكمين مرتبكين في البداية، ولكنهم كانوا

سريعي البديهة ومتماسكين فبادلونا النيران، وبدأت تندفع مجموعات إسرائيلية تسعى إلى تطويقنا. استمر الاشتباك دقائق طويلة، ربما تجاوزت عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة، وعندما شعرت بأنهم على وشك أن يطوّقونا بأعداد كبيرة سحبت المجموعة باتجاه بنت جبيل وسط الظلام».

وأردف ربحي: «لم نخسر أحداً من الشبان، انسحبنا جميعاً ولم يبق أحد في مارون الآن».

وإذا بشاب جريح في رأسه من جبهة النضال الشعبي (تنظيم فلسطيني صغير) يطلّ علينا. وجدتها فرصة لإبعاد ربحي عن منطقة القتال الراهنة، وخاصة أمام آفاق دفعنا إلى خسائر كبيرة في التلال. طلبت منه أن يأخذ الجريح ومن يستطيع من الشبان، وأن يصل إلى سيارة الإسعاف مع د. عزت الموجودة في نقطة آمنة خارج بنت جبيل.

أما الشبان الباقون في بنت جبيل فتحركوا معي لمواجهة تقدّم القوات الإسرائيلية على مسعود وشلعبون وإطباقها على بنت جبيل. بدأ يوسف بجمع بعض المقاتلين من تنظيمات فلسطينية ولبنانية فقدت قيادات لها وقوات في معارك الليلة الماضية وإبان القصف.

معركتا تلة مسعود وتلة شلعبون

استعداداً للمعركة وقبل بدء القصف على تلة مسعود تجوّل كلّ من بشار وحسان في كل مواقع التلة، وإذا أمامهما مجموعة لمنظمة العمل الشيوعي استقروا في تحصينات كبيرة كنا قد أنشأناها في السابق. حذرهم بشار، وهو حاد الذكاء خفيف الحركة وشغوف بالعمل والتحصينات، من البقاء في الموقع لأنه سيكون عرضة للغارات الجوية وطلب منهم الانتشار. لكنّ الشبان أصرّوا على البقاء في هذا الموقع، فحصل المتوقع: قضوا جميعاً في بداية الغارات.

من جهة أخرى قرر بشار وحسان وفؤاد دباجة وقاسم وبقية الشبان التقدم إلى مواقع قريبة من القوات الإسرائيلية وفي المنطقة الوسطى بين تلة مسعود وبداية تقدم الجيش الإسرائيلي القادم من عين إبل. ولكنّ تضاريس التلة في مسعود لم

تساعدهم على الانسحاب كما حصل مع ربحي، كذلك فإنهم استمروا في القتال حتى ساعات الصباح الأولى. حسان شرارة من بنت جبيل وبشار (ماهر فاعور) من الشياح وزيتون (قاسم بزي) من بنت جبيل وفؤاد دباجة من بنت جبيل ومجموعتهم في تلة مسعود انقطعت أخبارهم عنا بالكامل في الصباح. أيقنت أن جميع الشبان هناك قد قضوا في القتال.

ويروي ربحي أنه بقي على اتصال مع بشار إلى ما بعد الساعة الثانية ليلاً وأنه رأى انفجارات ورمايات تصدر عن إحدى مجموعات تلة مسعود أثناء اشتباكها مع القوات الإسرائيلية في منطقة متقدمة اتجاه عين إبل قرابة الساعة الثالثة فجراً أو بعد ذلك بقليل.

لقد تسلّم الشبان في مسعود أوامر الانسحاب الأولى التي أبلغتهم إياها وكانوا حينها في مواقع متفرقة أثناء القصف، لكنهم عادوا الى التلة واشتبكوا مع القوات الإسرائيلية حتى ساعات الفجر الأولى.

تحركت باتجاه مركز لنا خلف تلة مسعود لكنه يشرف على تلة شلعبون التي تتعرض لهجوم مشاة الجيش الإسرائيلي المدعوم بالدبابات، ويبعد المركز عن تلة شلعبون بحدود ٥٠٠ متر على الأقل. إذا سقطت شلعبون فسينقطع الطريق بين بنت جبيل وبقية الجنوب.

انضم إلينا معين في تلك اللحظات الحرجة في تلك المواقع خلف التلال وأمام موقع صف الهوا يشاهد ما يحصل، وتحدثنا عن الموقف في بنت جبيل ولخصت له الموقف. لقد اتضح أن المجموعات في مسعود وفي شلعبون قد نجحت في الاشتباك مع القوات الإسرائيلية بعد عودتها إلى التلال، وأنها فرضت التقهقر على الإسرائيليين على مدى ساعات من القتال، وأن هذا هو تفسير عودة إسرائيل إلى قصف مسعود وشلعبون بالطائرات أكثر من مرة على مدى ساعات. لكن بدا لي أن المعركة في مسعود قد حسمت وأن القوات الإسرائيلية بدأت بالسيطرة على التلة.

تعود الطائرات إلى قصف الشبان في تلة شلعبون وبينهم قائد الموقع أبو خالد الشحيمي وأبو الفدا من فلسطين، وعبد الله البقاعي من طرابلس، وأحمد عواد من الهرمل وعدد من الشبان، وهذا يعكس حرص الإسرائيليين علي تفادي الخسائر وعدم

الدخول للمواقع قبل التأكد من موت المقاتلين. وربما ما وقع في مارون الراس من خسائر إسرائيلية جعل الإسرائيليين أكثر حرصاً. فجأة، بينما أنا ومعين قرب شلعبون في نقطة متقدمة أمام صف الهوا خلف تلّتَي مسعود وشلعبون، مرّت الطائرات الإسرائيلية بقوة فوقنا، فشعرنا بأنها ستقصف مواقعنا، ما دفعنا إلى الانتشار.

عاد معين إلى تبنين لترتيب خطوتنا التالية، فمن الواضح أن إسرائيل في بداية اجتياح سيصل لكل الجنوب، وأن ما يقع منذ منتصف الليل بداية حرب واسعة النطاق. قبل ذهابه قلت له: «سأنتظر منك الخطوة التالية، وما عدا ذلك سنبقى هنا حتى النهاية».

وإذا بعمار (عاطف بدوان) معنا بعد أن تعافى من إصابة بالغة في يده قبل شهور «أنا دائماً أراك في المصائب يا عمار». رد بأسلوبه العفوي والطفولي «هذا حظّي معك». بدأنا بالتحرك معاً.

تقدمت أنا ويوسف وعدد من الشبان متوغلين مع المجموعات باتجاه تلة شلعبون، وذلك حوالى السابعة صباحاً، على أمل أن نخفّف الضغط على الشبان الذين تحاول القوات الإسرائيلية انتزاع التلة منهم.

اشتبكنا مع الإسرائيليين بالرماية والقنص. كنا نراهم أمامنا بأعداد كبيرة، وأرى رتلاً كبيراً من قوات الكوماندوس الإسرائيلية فاق خمسين مقاتلاً أمامي.

تقدم خالد وتوغل، وطلب أن أغطّيه مع بقية المجموعة أثناء تقدمه باتجاه شلعبون، ولكنه ابتعد كثيراً وبدأت رمايته تؤثر على مشاة الإسرائيليين. فعل عمار الشيء نفسه ومعه مجموعة أخرى. تحركت وراءهم بمجموعة ثالثة من خمسة مقاتلين وتوغلنا جميعاً باتجاه تلة شلعبون. وقد نجح خالد في إطلاق قذيفة ب ٧ باتجاه المشاة الإسرائيليين انفجرت قربهم، فتراجعوا إلى الوراء ببطء. بدأنا برماية غزيرة على القوات الإسرائيلية ما جعلها كلها تأخذ الأرض وتتراجع قليلاً أثناء التفافها على تلة مسعود. عادت الطائرات فأغارت بشدة على مواقع في مدينة بنت جبيل ودمرت مركز قيادتنا السابق في المدينة.

في شلعبون استمر أبو خالد (الشحيمي) وأبو الفدا ومجموعتاهما بالحفاظ على

التلة طوال فترة الصباح. بقينا من نقاط متقدمة أمام صف الهوا نحاول إسناد أبو خالد في شلعبون عبر الاشتباك مع أرتال من مشاة الإسرائيليين.

أزيز الرصاص وصل ظهراً إلى أعلى مستوياته، متحولاً إلى ما يشبه سيمفونية نشاز، إلى فوضى كبيرة وسط التنسيق بين المقاتلين. أصوات هذا الصدى تعبّر عن نفسها من خلال اشتباك مئات البنادق والرشاشات الإسرائيلية مع عشرات البنادق الفلسطينية - اللبنانية حول التلال.

أبيدت معظم مجموعاتنا المحاصرة بالكامل في مسعود أولاً، ثم مع اقتراب الظهر في شلعبون ثانياً. سيكون أبو الفدا الناجي الوحيد من المعركة في تلة شلعبون، ليروي تفاصيلها عند وصوله إلى مواقعنا بعد أيام.

وفق رواية أبو الفدا، نفدت الذخيرة من أبو خالد، إذ ظل يقاتل وحده مع أبو الفدا حتى النهاية بعد استشهاد جميع الشبان، وقد اقتربت منه القوة الإسرائيلية. وبعد أن رماها بكل ما لديه من قنابل وطلقات، وصلت قربه وأعدمته بالرغم رفعه يده للأعلى في إشارة إلى أنه لا يمتلك ذخيرة ولم يبقَ معه أحد سوى أبو الفدا. نجح أبو الفدا في التواري في قبر قديم أثري في مغارة كنا قد حفرناها على مدى شهور. رآه الإسرائيليون، فتقدموا نحو باب المغارة بحذر وألقوا عدة قنابل يدوية داخلها دون أن يدخلوها، ولكنّ أبو الفدا لم يصب، فقد حمته القبور القديمة. زحف بهدوء ليلاً، مرّ قرب الدبابات الإسرائيلية المصطفّة أمامه باتجاه المواقع الصديقة.

* * *

أبو خالد سريع (محمد الشحيمي من البقاع اللبناني) كان من النوع الهادئ والصلب في الوقت نفسه، حاد الوجه والقسمات، حنطي اللون. يمتلك جسداً كبيراً، وردود فعله على الأمور هادئة وحاسمة، ليس غريباً أنه قاد واحدة من أكبر المعارك دون أن يرمش له جفن في مواجهة جيش متفوق بالعدد والعدة. بين خفة وسرعة بشار وحسان في تلة مسعود، وبين صلابة أبو خالد في تلة شلعبون طبع كل منهم المعركة مع الجيش الإسرائيلي بشخصيته وبأسلوبه. بشار وحسان خاضا معركة متحركة مع الجيش الاسرائيلي، أما أبو خالد فقد فعل ذلك في البداية ثم تحصّن في موقع أعده سلفاً وقاتل به مع الشبان حتى النهاية والاستشهاد.

بدأ الهدوء يعود إلى تلتي مسعود وشلعبون، وأصبح واضحاً أن نقطة الهجوم المقبلة ستكون باتجاهنا. لقد أخذنا مواقعنا في ذلك المثلث (صف الهوا) الذي يمثّل احتلاله سقوطاً لمدخل بنت جبيل، لأنه يتحكم في كل اتصالاتها الرئيسية: بين تلة شلعبون وتلة مسعود وبنت جبيل من جهة، وبقية الجنوب من جهة أخرى، وهو موقع قريب من الطريق العام عند المدخل الشمالي لبنت جبيل.

لقد تم استيعاب الهجوم وتوقف الاندفاع الإسرائيلي. الخسائر الإسرائيلية مرتفعة بين جريح وقتيل، من دون أن يكون لديّ أي مقدرة حقيقية على تقديرها، ولكنها بالتأكيد أكثر مما توقع أيّ من مخططي الهجوم الإسرائيلي، وأهمهم رئيس الأركان موردخاي غور ورئيس الأركان الجديد الذي لم يتسلّم مهماته رسمياً، ولكنه على الأغلب وضع الجانب الأساسي من الخطة: رفائيل إيتان.

وما يدفعني إلى هذا التقدير هو المؤتمر الصحافي الذي سيعقده موردخاي غور بعد الهجوم ويشير إلى المفاجآت التي واجهتها قواته في مارون الراس وشلعبون ومسعود وبنت جبيل. إن أي مراجعة للصحافة العالمية والعبرية في تلك المرحلة توضح كم تحولت بنت جبيل ومارون وتلّتا مسعود وشلعبون إلى رمز للمفاجآت التي واجهت الجيش الإسرائيلي. وقد أعلنت إسرائيل أنها فقدت ٨ مقاتلين (عدا الجرحى) بعد أن سيطرت على مارون الراس (كمين ربحي). لم تتوقع إسرائيل هذه الروح القتالية بين الفلسطينيين واللبنانيين في حرب ١٩٧٨.

قرابة الواحدة والنصف من بعد الظهر شعرنا بإرهاق كبير من شدة القتال والقصف، ولكننا تحلّينا بيقظة وتماسك كبيرين. بقيت على اتصال بمعين ونحن ننتظر التقدم الإسرائيلي باتجاه صف الهوا، بينما القصف المدفعي المتقطع ينهال علينا من القوات الإسرائيلية. انتظرنا أنا وخالد ويوسف وبقية المجموعات ظهور الدبابات الإسرائيلية أمامنا لكنها لم تظهر. لقد أصبح كل ما بقي من السرية بحدود ٣٠ مقاتلاً محتشداً عند صف الهوا في انتظار معركة أخيرة دفاعاً عن بنت جبيل.

مرّ الوقت بطيئاً، بينما الدخان ينتشر في كل مكان. تهيّأنا للدفاع بطريقة دائرية عن تلك المنطقة، مسلّحين بالرشاشات والقنابل اليدوية وقاذفات الآر بي جي. احتمينا ببعض الحفر المنتشرة، وانتظرنا. تناولنا بعض الطعام، ثم تعاملنا مع إطلاق

الرصاص والقنص الذي يأتي باتجاهنا من القوات الإسرائيلية التي لا تبعد عنا سوى ثلاثمئة متر.

قرابة الثانية والنصف بعد الظهر، تلقيت اتصالاً عبر اللاسلكي من معين: «عليكم الخروج الآن باتجاه مواقعنا الجديدة خارج بنت جبيل».

سرت قليلاً باتجاه خالد في الجهة الأخرى مع مجموعته: «علينا الآن الانسحاب والتحرك إلى كونين. لنستدع كل الشبان بهدوء ومن دون أن يلاحظ الإسرائيليون أننا غادرنا الموقع».

أصرّ خالد: «سأنسحب بعد انسحابكم جميعاً».

قلت له: «لا لن يحصل يا خالد، يكفينا خسائر. أنت تنسحب أمامي مع البقية أما أنا فسألحق بكم مع عمار ويوسف بعد التأكد من سلامة الجميع وانسحابهم وعدم حصول أي مفاجأة من جانب القوات الإسرائيلية خلال الانسحاب، علينا أن نبعد المسافات في ما بيننا لتفادي غارات الطيران». وافق خالد.

بدأت المجموعات بالانسحاب بطريقة منظمة سيراً على الأقدام، بينما القذائف مستمرة بالانهمار بتقطّع حول كل المنطقة وغارات الطيران مستمرة في الجنوب وحول بنت جبيل. سرنا بما بقي معنا من مقاتلين على شكل مجموعات، موزّعين على مساحة كبيرة أثناء الانسحاب، وذلك لتفادي الخسائر الناتجة من القصف الجوي والمدفعي المحيط بنا.

أثناء السير، إذا بسكان من بنت جبيل، رجالاً ونساءً وشباناً صغاراً، يسيرون قربنا في الطريق الترابي الصغير نفسه الذي سلكناه باتجاه كونين. نظروا إلينا وبادلونا السلام بعد أن تعرّفوا إلينا، وإذا بي جنباً إلى جنب مع إحدى شخصيات المدينة ممن أحبّوا السرية الطلابية. نظر إليّ نظرة ضيق من الوضع، تبادلنا التحية، سألني عن حالنا وعما وقع في الليل والقتال هذا اليوم.

قال: «الله يحميكم جميعاً». ثم تابع بعد أن تفحّص الشبان، إذ رأى معي يوسف من بنت جبيل وآخرين: «أين حسان شرارة، وبدأ يتذكر الأسماء».

ردّ عليه يوسف: «حسان إن شاء الله بخير».

ثم أردفت قائلاً: «ولكن لدينا خسائر جرّاء قتال أمس واليوم»، ثم قلت بعد

لحظة صمت: «لقد حصل الكثير على التلال في شلعبون ومسعود ومارون، وهي الآن في قبضة إسرائيل».

لم أقل له شيئاً عن حسان أو زيتون (قاسم بزي) وفؤاد وبقية الشبان، وهم من بنت جبيل، لكن كان واضحاً من علامات وجهي أن شيئاً كبيراً يزعجني. نظر إليّ نظرة تعاطف واغرورقت عيناه بالدموع، ثم نظر إلى الأعلى وفي صوته غصّة عميقة:

«الله يحميكم جميعاً، الله يرحم كل شهيد».

سرت دمعة في عيني، لكنني تماسكت ومضيت سائراً وسط أصوات الانفجارات.

التحرك إلى كونين وتبنين

بعد مسيرة ليست بالطويلة عبر التلال والوادي خلف بنت جبيل، وصلنا إلى كونين. لقد تركنا وراءنا في بنت جبيل عشرات الشبان الذين استشهدوا من السرية ومن تنظيمات لبنانية وفلسطينية أخرى في قتال استبسلوا فيه. قاتل الشبان حتى النهاية. سقط حسان شرارة وبشار (ماهر فاعور) وأبو خالد سريع (محمد الشحيمي) وأبو وجيه (أمين العنداري) وزيتون (قاسم بزي) وفؤاد دباجة ومحمد حمدان. تجاوز عدد شهداء السرية والمنظمات والأحزاب الوطنية في بنت جبيل العشرات من لبنان وفلسطين انضموا إلى شهداء سابقين في عشرات المعارك، بمن فيهم محمد فتوني الذي سقط قبل الحرب بفترة وجيزة جرّاء مواجهة مع قوات حداد. لم نكن نملك «رفاهية» الحزن على شهدائنا. فالمعركة ما زالت مستمرة وحياتنا على المحك.

نصيبنا أن نمتص حدة هذا الهجوم في ساعاته الأولى، وأن يعلن موردخاي غور، رئيس الأركان الإسرائيلي، عن المصاعب التي واجهها هجومه. بل أعلنت إسرائيل أنها فوجئت عند دخولها مقر قيادة كتيبة الجرمق في بنت جبيل بطبيعة ثقافة المجموعات، إذ لديها كتابات ومنشورات. قرأت هذه الإعلانات وسمعتها عبر أكثر من إذاعة وترجمة عن اللغة العبرية بعد المعركة بأيام قليلة.

انسحبنا بعد كونين إلى تبنين التي تقع الآن في طريق القوات الإسرائيلية.

تحصّنّا داخل البلدة، بينما توزع بعضنا في مجموعات صغيرة خارجها، أي بين كونين وتبنين. وفي تبنين بدأنا نستغل كل دقيقة لنتحصّن ونستعد في انتظار أن يصل التقدم الإسرائيلي إلينا. في الليل حرسنا البلدة من كل زاوية، وانتظرنا هجوماً من الكوماندوس الإسرائيلي، ولكنهم لم يأتوا، بل فضّلوا توجيه مدافعهم إلى المدنية لإيقاع خسائر أكبر في صفوفنا.

لقد قرّر الإسرائيليون أن يتعاملوا معنا بالقصف والطائرات لا بالاشتباك المباشر كما حصل في بنت جبيل. لقد أصبح الجيش الإسرائيلي أكثر تحفّظاً في اندفاعه وأكثر استخداماً للطائرات والمدفعية، إذ قررت إسرائيل أن الاشتباك القريب سيؤدي إلى خسائر في صفوفها. أما من جهتنا، فقد أعدنا ترتيب وضع السرية التي أقودها، ولكن هذه المرة سيكون كلّ منا مسؤولاً عن مجموعة صغيرة للتأقلم مع طبيعة القتال مع تفادي الحرب الموقعية.

أثناء غارات الطائرات الشديدة، استهدفتنا غارة جوية مباشرة في مدينة تبنين الأثرية، بينما جعفر السلحوت ومحمد فتوني من فلسطين يتصديان للطائرات برشاش الخمسمئة ملمتر الكبير الحجم. استمرا بإطلاق النار غير آبهين بكثرة الطائرات وكثافة الغارات محاولين إسقاط طائرة، كان هذا حلم كل منهما. وفي لحظة خاطفة لم أعرف ماذا حصل سوى أنني سقطت أرضاً مع هزة كبيرة حولي وانتشار سحب الدخان. نظرت أمامي، وإذا بالاثنين قد أصيبا، بينما رشاشهما الكبير تمزّق إرباً. ركضت باتجاههما مع أكثر من شاب في محاولة لنقلهما قبل أن تعود أسراب الطائرات، لكنهما استشهدا على الفور، واستمرّت الغارات بلا انقطاع.

بعد تدمير منظّم من القاذفات الإسرائيلية لمدينة تبنين التاريخية والأثرية، جاءني وفد ممن بقي في البلدة من سكانها طالبين مني ترك تبنين مع القوة المقاتلة، وذلك لكي لا تتعرّض تبنين لمزيد من التدمير.

مثّل الطلب مشكلة لي ولعمار وللشبان. فالبقاء في تبنين سيعرّض أهلها للموت، واستمرارنا بالمعركة سيعني تدميرها بالكامل. بعد تداول ونقاش، أعطاني معين حرية الحركة والقرار، فقررنا الانسحاب من تبنين والانتشار في مجموعات تقاتل على الطريق العام لا في مواقع ثابتة داخل القرى والبلدات اللبنانية.

معارك الأودية وجويا

منذ اليوم الرابع للحرب تحرك حسام وربحي لشنّ هجمات على الدبابات خارج البلدات اللبنانية وقرب كفردونين، بينما سحبت بقية القوة ومعي عمار إلى مناطق آمنة لترتاح قليلاً قبل أن نعود إلى القتال. وانطلقت قوات أخرى تابعة للكتيبة إلى مواقع أخرى، كلّ منها يسعى إلى إعاقة التقدم الإسرائيلي واحتلاله لمنطقة الجنوب.

تحرك خالد من جهته باتجاه جويا، وهي بلدة جنوبية أساسية على الطريق باتجاه صور. أوامره كانت الدفاع عن جويا بمرونة كبيرة وتفادي الخسائر في صفوف القوة التي يقودها. أتى مع خالد الشاب رائد (حكيم عيسى) ضابط المدفعية القدير ومجموعة شبان. ما إن وصل خالد إلى جويا حتى بدأت الطائرات بشن غارات أدّت إلى تدمير منطقة كاملة في البلدة وخاصة حول مقر قيادة كتيبة القطاع الأوسط التي يرأسها بلال (محمود الشريف طاهر، القائد الفتحاوي المتميّز).

تحرك خالد باتجاه منطقة التدمير بحثاً عن بلال ومعين الذي سبق أن اجتمع معهما قبل ذلك بأكثر من نصف ساعة في المنطقة التي تعرّضت للقصف. ركض خالد بين الأنقاض، أمامه حرائق ودمار في كل مكان، وإذا بامرأة تخرج من بين الأنقاض مليئة بالجروح والغبار، ولكنها نجت من القصف. توقع خالد أن تقذفه بأقبح الألفاظ نظراً إلى شعورها بأن الفدائيين هم سبب هذا الدمار، وإذا بها تدعو له: «الله يحميك ويرجعك سالم لإمك».

وصل خالد إلى مقر كتيبة القطاع الأوسط التي يقودها بلال، ليجد أمامه بلال. لم يصب بلال بالقصف، ولكنه نجا بأعجوبة بينما معين غادر المقر قبل القصف بدقائق. لقد دُمّر المقرّ بالكامل.

عاد خالد ووزّع المجموعات، وإذا بالقوات الإسرائيلية تصل إلى مدخل جويا. اشتبك معها ومجموعته وأصاب دبابتين، بينما استطاع رائد (حكيم عيسى) أن يصيب دبابة وسط البلدة.

أما أبو بهيج (غسان فتح الله) وعدد من الشبان، فقد وقعوا في طوق إسرائيلي أدى إلى استشهادهم جميعاً. هكذا استشهد عيد البقاعي، وفؤاد الداغستاني، بينما

خاض جعفر السلحوت في بلدة صديقين معركة كبيرة من خندق شديد التحصّن مع مجموعته وسقط شهيداً.

أما رائد (حكم عيسى) ومعه شاب إيراني من مجاهدي خلق المعارضة لنظام الشاه والمتطوّع معنا منذ شهور عدة، فركضا أمام الدبابات الإسرائيلية في جويا واستطاعا أن يصلا إلى نقطة صعود. لكن نظراً إلى ضخامة جسم رائد لم يستطع الصعود، فجلس في مكانه، وخاصة أنه مريض بمرض نادر في الدم وقد فقد دواءه منذ أيام. لقد مرّت الدبابات الإسرائيلية تقريباً من فوق رائد بينما هو في خندق وسط شعاب الأرض والسهل. هكذا نجا رائد بأعجوبة، لكن فقدان دوائه سيخلق له مضاعفات ستسبّب وفاته في مرحلة لاحقة.

أما زميله الإيراني سعد فوصلت إليه القوة الإسرائيلية، وإذا به وجهاً لوجه أمام أرتال الدبابات. فاستسلم لها واعتقلته. إنه الأسير الوحيد للكتيبة في هذه الحرب.

ويا لهول المسألة عندما عرفت إسرائيل أنه إيراني. فهذا دليل على تعاون الفلسطينيين مع المعارضة الإيرانية التي تسعى إلى إسقاط نظام الشاه. سيخضع سعد (الإيراني) للتعذيب وسيشارك أعضاء من السافاك، جهاز الاستخبارات الإيراني التابع للشاه، في التحقيق معه في إسرائيل، وسيطلق سراحه بعد ذلك بحوالى عام ونصف.

وقد نجح رائد (حكيم عيسى) بعد معركة جويا في سحب مدفع ١٣٠ مليمتراً إلى منطقة أخرى أثناء القتال، فوضعه في أحد الأودية وغطّاه بأغصان الشجر، واستخدمه مع مجموعته بتقطّع. احتلت إسرائيل كل المنطقة الجنوبية، وظل المدفع الذي يوجهه رائد يرمي حتى الساعات الأخيرة للحرب.

في اليوم الخامس للحرب وجدنا أنفسنا أنا وعمار (عاطف بدوان)، بترتيب من علي أبو طوق، في منطقة بساتين كثيفة خلف مدينة صور. في تلك الليلة نمت ونام عمار بلا حراك، لم يحرّكنا صوت القصف ولا هدير الطائرات.

في تلك المنطقة الخلفية كنا في منزل آمن لأحد المناصرين، جاء علي بمزيد من البطانيات والمأكولات.

وفي مكان آخر انتقلنا إليه في اليوم التالي كان هناك دكان مفتوح لم يكن فيه

أحد. أخذنا أغراضاً من الدكان وكتبنا لائحة بكل ما أخذناه، ثم تركنا مبلغاً من المال على نحو تقديري. تركنا أسماءنا ومن نحن لصاحب الدكان.

اليوم الأخير ومجزرة العباسية

في اليوم الأخير للقتال ازداد اندفاع القوات الإسرائيلية بالدبابات لاحتلال كل ما تستطيع احتلاله قبل صدور قرار وقف إطلاق النار الرقم ٤٢٥ عن مجلس الأمن.

التقيت معين، «سأكلّفك بمهمة أساسية لمنع تقدم القوات الإسرائيلية باتجاه الطريق البحري الذي يربط صور بصيدا وذلك بهدف عزل صور والجنوب عن بقية لبنان، ما يضرّ بخطوط إمداد المقاومة إلى مدينة صور ومخيمي الرشيدية والبرج الشمالي».

وبالفعل، على مدى أيام القتال الثمانية احتلت القوات الإسرائيلية معظم الجنوب وهي تقترب الآن من المخيمات الفلسطينية جنوبي وشرقي صور، وخاصة مخيّمي الرشيدية والبرج الشمالي، وهي تسعى إلى قطع الطريق العام بين صور والمخيمات من جهة وصيدا وبيروت من جهة أخرى.

بدأ آلاف المقاتلين من المقاومة الفلسطينية يحتشدون في صور والمخيمات ومحيطها في محاولة لمنع إسرائيل من الإطباق على هذه المواقع الأساسية وقطع الطريق الرئيسي الذي يصل صور والمخيّمات بصيدا وبيروت.

لهذا تحركت مع مجموعة مقاتلة للتصدي للتقدم الإسرائيلي. ووفق معين، «عليك التحرك بمرونة. تصرّف مع مجموعتك بهدف إشغال الإسرائيليين، اضرب ثم اختف عن أنظارهم، لأن هناك مجموعات أخرى ستقوم بما تقوم به بعد أن تشتبك. الهدف يا جهاد أن تتوقف القوات الإسرائيلية عن التقدم، وعليك الحذر من الخسائر في المجموعة التي معك. الله معك».

أخذت لي موقعاً خارج قرية العباسية اللبنانية وعلى مشارفها.

في ذلك الموقع مغارة كبيرة على تلة صغيرة يمكن الاحتماء في داخلها. ولم نبعد سوى ثلاثمئة متر عن البلدة من الجهة الأقرب للطريق الذي نريد منع إسرائيل من تجاوزه. بدت العباسية أمامنا مثل الصحن المفتوح. كنا خمسة من بيننا خضر،

وهو مقاتل خفيف الحركة ويمتلك مهارات قتالية عالية وله تاريخ مع السرية. وبعد انتظار دام ساعتين إذا بطائرات الهليكوبتر الإسرائيلية تحلّق على علوّ منخفض أمامنا. هذه أول مرة أرى فيها هذه الطائرات بهذا القرب. لم تهاجمنا لأننا مموّهون جيداً.

ثم بدأت الطائرات الإسرائيلية بغاراتها على بلدة العباسية. ما إن تنتهي غارة حتى تبدأ أخرى. ومع كل غارة أسمع صدى أصوات البكاء والعويل لمئات الأطفال والنساء والرجال والناس في منازل البلدة وفي جامعها، إذ شاهدت بعيني المجردة حطام الأثاث، والتلفزيونات، وأدوات المطابخ، والكراسي، وحجارة المنازل تتطاير، ثم أرى مع استمرار الغارات أجساداً وأشلاءً تتطاير لعشرات الأمتار في الهواء. أسمع صراخاً، بكاءً، عويلاً، مناجاة على شكل هدير ألم موحّد يتردد صداه في أرجاء البلدة وعبر الأودية المحيطة بها مع كل انقضاض للطائرات قبل تفريغ حمولتها القاتلة. صدى أصواتهم لازمني حتى اليوم.

أراقب المشهد عاجزاً عن عمل أي شيء. أنظر وأتساءل. أنظر بينما يعتصرني الألم إلى كل روح تزهق تحت الأنقاض البركانية. الطائرات تلقي بحمولتها في وسط البلدة بلا تردد، وفوق جامعها حيث احتشد السكان وهم يحسبون أن إسرائيل لن تقصف الجامع. سقط الجامع أمام عيني، وسط هدير الموت وصراخ الناس. بعد أكثر من ساعة ونصف توقف القصف، لم أعرف حينها كم قتل من الناس تحت الأنقاض، لكنّ الرقم تجاوز في إحصاءات ما بعد المجزرة ١٧٠ مدنياً، وجرح مئات آخرون من سكان البلدة واللاجئين القادمين إليها من قرى ومدن أخرى. في تلك الغارات دُمّرت معظم منازل البلدة، هذه جريمة ضد الإنسانية وقعت أمام ناظري.

إن هذا الانتقام والقتل هما اللذان يعودان وينشئان مقاومين أكثر حدّة وأشدّ قوة. فإسرائيل في هجومها الأول على بنت جبيل وتبنين بدت كأنها غير مهتمّة بضرب المواقع المدنية، أرادت معركة بين عسكريين: نحن وهم، وهذا ما حصل في البداية. ولكن في الأيام التالية تغيّر الأمر، كأن تبديلاً وقع في الخطة الإسرائيلية جرّاء خسائر القوات الإسرائيلية في اليوم الأول في تلتي مسعود وشلعبون ومارون

الراس وفي جويا ومناطق أخرى في الجنوب. ربما تدخل رفائيل إيتان اليميني بصفته رئيس الأركان الجديد والانتقالي بعد موردخاي غور، أو هو بيغن الذي تدخل مطالباً بعقاب أكبر للسكان. لكن كما تؤكد التجربة، هذه السياسة الإسرائيلية هي التي تنبت مقاومين أشد فتكاً وصلابة. ستدفع إسرائيل ثمناً باهظاً لقاء كل هذا في المستقبل.

ما إن اقتربت القوة الإسرائيلية المكوّنة من الدبابات والآليات حتى كنا قد انتشرنا، خضر ينتظر مع قاذف آر بي جي بينما أغطّيه على مسافة قريبة. أطلق خضر قذيفة آربي جي على حاملة للجنود، أصابها فتوقفت كما توقف رتل الآليات والدبابات الذي كان وراءها. في دقيقة واحدة، إذا بخضر إلى جانبي، فتحركنا قبل أن تلحق بنا طائرات الهليكوبتر الموجودة في الجو فوقنا.

في هذه اللحظات وافقت إسرائيل على القرار ٤٢٥ الصادر عن مجلس الأمن. أوقفوا تقدّمهم على جميع المحاور وهم على مشارف المخيمات الفلسطينية خارج صور وعند التلال التي وقفت فيها مع خضر والمجموعة. هكذا، كانت تلك آخر قذيفة تطلق على القوات الإسرائيلية في ذلك القطاع خلال تلك الحرب.

لجأنا إلى مدرسة لشرب الماء، وما هي إلا دقائق من ابتعادنا عن المدرسة حتى دخلتها القوات الإسرائيلية، التي استغلت وقف إطلاق النار لتثبيت مواقع جديدة، وبدأت قوات فتح وقواتنا بدورها بتثبيت مواقع جديدة مواجهة لها. ستنشأ الآن جبهة جديدة على أبواب مخيّمات الفلسطينيين حول صور في البرج الشمالي والرشيدية، إضافة إلى مناطق امتداد الجنوب باتجاه نهر الليطاني حيث كنا أنا وخضر.

بقي الطريق الدولي مفتوحاً، ولم ينجح الجيش الإسرائيلي في قطعه، أو لم ترد إسرائيل قطعه، لأنها لو فعلت لتعرّضت لمحاولات مستميتة من الفدائيين لإعادة فتحه. تحدث الغرائب في الحرب، فإيصال عدوّك إلى نقطة اللاعودة يجعله أكثر شراسة والعكس صحيح.

في هذه الأجواء شاهدت د. مصطفى شمران المعتدل المزاج والقيادي في أمل وصديق الإمام موسى الصدر. وجدته غاضباً متألماً جرّاء ما يقع في الجنوب، وقد

حمل سلاحاً لمواجهة الإسرائيليين في بلدة بيت ليف مع شبان من حركة أمل، لكنه عاد إلى صور. قال لي: «لن أغادر الجنوب، لن أترك العاملية والمدرسة والأطفال الذين يدرسون هنا. سأبقى وأتحدى إسرائيل لو حاولت منعي من فتح المدرسة والحفاظ على الطلبة». شددت على يده، وذهبت في طريقي.

مع نهاية هذه الحرب، أي بعد ثمانية أيام، بدأت حرب استنزاف فلسطينية إسرائيلية جديدة، إلى أن جاءت قوات الأمم المتحدة تنفيذاً للقرار الدولي ٤٢٥ وأخذت المواقع التي احتلتها إسرائيل.

لكنّ إسرائيل بعد انسحابها من معظم المناطق التي احتلتها سترفض الانسحاب من مواقع كثيرة، ومنها بنت جبيل والشريط الحدودي، وستنشئ شريطاً أمنياً على طول حدودها مع لبنان بعمق ستة كيلومترات أو أكثر.

سيسجّل التاريخ أن حرب ١٩٧٨ هي أكبر حرب شنّتها إسرائيل وأكبر عملية إسرائيلية قامت بها بعد حرب ١٩٧٣، وهذا بطبيعة الحال سوف يفتح المجال لاستمرار المواجهات التي ستمهّد بعد عدة سنوات لحرب أخرى أكثر شراسة وشمولية، هي حرب ١٩٨٢.

علي أبو طوق: عبقري الإمدادات

نظّم علي إمداداتنا في حرب ١٩٧٨ من طعام وذخائر ووجبات وإعداد أماكن لانتقال المقاتلين تمهيداً لإعادة إرسالهم إلى الجبهة. وعندما سقط الجنوب تسلل علي إلى مواقع تبعد أمتاراً عن الإسرائيليين ومعه سيارات لنقل المستودعات والأسلحة لمنع وقوعها في قبضة إسرائيل. لن أنسى منظره عندما زرته في أحد المستودعات حيث لا تبعد القوات الإسرائيلية سوى مئة متر، ويفصله عنها بستان صغير وبناية. نقل كل شيء، وأثناء نقله للأغراض، ينشر الشبان حول الموقع لحراسة عملية النقل كي لا تكون هناك مفاجأة إسرائيلية أثناء نقل الأسلحة والمواد.

وبالفعل لم تستطع إسرائيل أن تستولي على قطعة سلاح واحدة من كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) ومستودعاتها إلا كانت قطعة سلاح لشهيد. ففي تقاليد

المقاومة يجب ألا يخسر المقاتل سلاحه مهما كلف الأمر، ففي كل المعارك ننسحب في النهاية بأسلحتنا. أذكر في إحدى المرات أن شاباً خبّأ رشاشه وانسحب، تحوّل الأمر إلى مجال نقد كبير لأنه يذكرنا بهزيمة ٦٧.

ما بعد الحرب

انتهت حرب ١٩٧٨ المدمرة، وتركت وراءها آلاف القتلى. فالتقديرات تشير إلى أن عدد القتلى تجاوز ألفين بينما عدد الجرحى وصل إلى أربعة آلاف أغلبهم من المدنيين. وقد دمّرت الحرب بنسب مختلفة عشرات القرى اللبنانية الجنوبية في صور والعباسية وبنت جبيل ومارون الراس وتبنين وجويا وقانا والطيبة وغيرها. لقد بدأت الحرب في الدقائق الأولى من ١٥ مارس/آذار ١٩٧٨ وانتهت في ٢٢ مارس من الشهر نفسه بقراريْ مجلس الأمن ٤٢٥ و٤٢٦ اللذين يقضيان بوقف إطلاق النار ويطالبان إسرائيل بالانسحاب الفوري. وقد تضمّن القرار إرسال قوة حفظ سلام من الأمم المتحدة قوامها ٤٠٠٠ جندي مكوّنة من فرنسيين وإيرلنديين ودول أفريقية وصلت إلى جنوب لبنان في ٢٣ مارس ١٩٧٨.

وقد وصلت القوات الإسرائيلية الغازية للجنوب في مناطق عديدة لمسافات قريبة من حواجز ومواقع للجيش السوري، لكن نظام الأسد قرّر أن لا يتدخل. خشيت سوريا من مواجهة لا تقوى عليها. لكننا تساءلنا عن حد أدنى من المساندة كتأمين غطاء لنا يحدّ من ضربات الطيران! لم يقع هذا، كان علينا أن نقاتل وحدنا. أما نظام القذافي فأرسل سفينة تكاد تكون فارغة إلا من بعض الأطعمة.

في بنت جبيل، جمعت القوات الإسرائيلية كل السكان في ساحة البلدة، أطفالاً ونساءً ورجالاً، وفتشت منازلهاً واحداً واحداً. خلق هذا أجواء مشاحنات بين الأهالي والقوات الإسرائيلية. كاد الناس يتحركون جماعياً وسط أجواء الاحتجاج والتخوّف من مجازر قد ترتكبها قوات سعد حداد. في هذه الأجواء ستتعاظم روحية المقاومة بين السكان، وستكون تلك بدايات ستتعزز مع مرور الوقت وستمهّد لنشوء تيارات جديدة.

ذهبت إلى بيروت للقاء تغريد، وجدتها في حالة صعبة. لم تكن تعرف الكثير

عني في ظل غموض الحرب والمخاطر المحدقة. فعلى مدى أيام الحرب أمضت وقتاً طويلاً في منزل أم أحمد، بينما أم أحمد على اتصال بزوجات المقاتلين خوفاً من شعورهن بالقلق الزائد، ولتكون إلى جانبهن لو حصل ما هو غير مستحب. بين منزل أم أحمد ومنزل شيرين صديقتها توزّع قلق تغريد وانتظارها.

عندما رأتني تنفّست الصعداء، كأنه يوم جديد يُكتب لها ولي، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى رفاقي من الشبان المقاتلين الذين استشهدوا. قصة الموت ستكون أليمة بعد هذه الحرب، فعدد الشهداء والخسائر فاق المتوقع. في الأيام الأولى بعد الحرب أمضيت بعض الوقت في بيروت.

الشهداء ومسؤوليتي الشخصية

لقد مثّلت حرب ١٩٧٨ ذروة ما خضناه من معارك، وستبقى تلك الحرب في داخلي معبّرة عن ذلك الضيق وعدم التقبّل. وبرغم اعتيادي الحرب والموت الذي تشيعه، لم أتقبّل خسارة هذا العدد الكبير من الشبان في السرية التي تحمّلت مسؤوليتها. لقد عرفت الكثير منهم عن قرب. فأنا أعرف عائلاتهم وأصدقاءهم والكثير عنهم. شعرت بالمسؤولية تجاه ذلك. وما زاد في صعوبة الأمر أن معين طلب مني أن أبلغ كل عائلة من عائلات الشهداء استشهاد ابنهم. إن دخولي إلى المنازل وإخبارهم من أكثر ما فتح جراحي.

لن أنسى كيف تلقّت أم حسان خبر وفاة حسان. تقبّلت الخبر بصمت مخيف، بانفجار داخلي مروّع. لقد تعرّفت إلى أم حسان أثناء وجودي في بنت جبيل، وأعرف كم تثق بي وبحرصي على حياة حسان. ولأم حسان ولدان حسان وحسن. حسان هو الأكبر، لكنه لم يتجاوز الحادية والعشرين. لقد مثّل كلاهما كل ما تحلم به أم بأبنائها. تميّز حسان بخلقه إلى أبعد الحدود، فهو يمتلك صوتاً هادئاً وخافتاً وعقلاً حكيماً مسالماً وحالماً وشخصية ناسك وقديس. لم تختلف أم حسان عن حسان في ذات الصفات.

ما إن دخلت عليها ومعي تغريد، حتى نظرت إليّ نظرات حادة حزينة. عرفت ما أنا قادم لأجله. نظرت إليّ كأنها تموت في مكانها: «لا لا لا يا جهاد لا تقل

لي، لا تقل لي. . . لا لا». وضعت يدها على رأسها وانحنت في الكرسي لا تقوى على الوقوف.

بعد لحظات صمت، قلت لها: «حسان شهيد، سقط في معركة تلة مسعود في اليوم الأول».

لحظة إبلاغ أم حسان شعرت بألمها وبقلبها يخفق، كأنها كبرت أمامي ألف سنة. تمالكت نفسي بصعوبة كبيرة. فقد تعلمنا في ثقافة الشرق المقاوم أن نتماسك، وخاصة عندما يكون الشخص بيننا شهيداً قضى من أجل فلسطين. فكلنا في الثورة والقضية العربية يكابر أمام الآخرين، يكابر أمام الموت، ويكابر أمام الألم، ويكابر أمام الخسارة. أما والده الشيخ، فهو الآخر استقبل الخبر بصمت مرعب بسكون أبدي لن ينتهي إلا بوفاته بعد سنوات قليلة.

لن تتعافى أم حسان جرّاء موت حسان. ففي ما بقي لها من سنوات ستبقى باحثة عن ذكرى ابنها، وستعيش لحظة اكتشاف مكان دفنه في مقبرة جماعية للمقاتلين بعد تحرير الجنوب وتحرير بنت جبيل على يد حزب الله عام ٢٠٠٠ وذلك قبل موتها بقليل.

أصدقاء حسان ومحبّوه لقّبوه بـ«غاندي الصغير»، نظراً إلى ما في شخصيته من تواضع وهدوء وسلام. فهدوء حسان لن تجده عند أكثر ممارسي التقشف والروحانية تعمقاً. من هنا جاذبيته ومحبة الشبان العمل معه وتحت قيادته. لقد انضم حسان إلى العمل المسلح لفترة من الزمن وفي ذهنه تكملة دراسته بعد انتهاء مهمة الدفاع عن جنوب لبنان ومدينته بنت جبيل، لكنّ الظروف لم تمهله لتحقيق ذلك.

من عائلة حسان إلى عائلة بشار (ماهر فاعور) ذلك الشاب المتوقد نشاطاً وحباً لكل من عمل معه، كان بشار صغيراً في العمر لم يتجاوز الثانية والعشرين، لقد أبلغت عدداً من العائلات ثم عدت إلى معين وطلبت مساعدته في إبلاغ بقية الأسر، فقد استنزفني الأمر أكثر من الحرب نفسها. وانتقل معين لعائلة أبو وجيه (أمين عنداري) حيث كان وجيه ابنه مقاتلاً مع الكتيبة في معارك كثيرة، عرفت أبو وجيه على مدى سنوات، كان يكبرنا سناً يرعانا دائماً بدفئه وسعيه لقيادة الشبان في أحلك

الظروف، وانتقل معين لتعزية عائلة أبو خالد سريع (محمد الشحيمي) الذي عرف بتصميمه على قهر الصعاب. أقيمت تأبينات للشهداء في بيروت وفي البقاع وفي الجبل وبالطبع في فلسطين والأردن ودول أخرى لمن كانت عائلاتهم خارج لبنان.

بعد سقوط بنت جبيل التقيت بالكثير من أبنائها كما التقيت بالسيد عبد الرؤوف فضل الله الذي رحّب بي في منزله المؤقت في بيروت. ثم زرت ابنه السيد محمد حسين فضل الله، بادرني أحد الجنوبيين في مجلسه قائلاً في حرقة:

«نحن الشيعة نعيش لعنة كبيرة. الكل يضربنا ويفتك بنا، والكل يستخدمنا. هذه طائفة مستضعفة وهناك لعنة علينا. نحن نعيش لعنة».

عكس هذا الوضع حزناً عميقاً على تدمير الجنوب وعلى القتل الذي تعرّض له المجتمع. فالكثير من الجنوبيين شعروا بأن هذا سيعمّق فقرهم ومأساتهم، وبطبيعة الحال سيعمّق من تناقضهم مع منظمة التحرير والوجود الفلسطيني في لبنان. سيبدأون من الآن فصاعداً ببلورة مشاعر ضيق أكثر وضوحاً من الوجود الفلسطيني في بلادهم. لقد بدأ المزاج الشعبي في ذلك الوقت يزداد تحوّلاً.

الفصل الخامس عشر

إعادة انتشار وجبهة جديدة

بعد عام ١٩٧٨ ازداد الانسحاب العربي من القضية الفلسطينية، فمصر عقدت سلاماً مع إسرائيل، والحرب الأهلية في لبنان لم تتوقف بل ازدادت ضراوة، وأفكارنا عن القتال مع إسرائيل بدأت تواجه عوائق كبرى محلية وإقليمية. إن الظهر العربي الذي سعينا إلى الاستناد إليه لم يعد قائماً، وتصاعد السخط الشعبي الجنوبي على الوجود المسلح الفلسطيني.

اختلفت مهمات الكتيبة وأوضاعها إذ برزت حاجة ملحة إلى إعادة بنائها وتدريب مقاتليها. على مدى السنوات الأربع الماضية لم تتوقف كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) عن القتال، وأصبح ضرورياً أن تعود إلى مواقع خلفية نسبياً قبل مباشرتها المهمات القتالية وتسلّمها مهمات جديدة.

تسلّمت مسؤولية معسكر الشهيد أبو الراتب المعني بتدريب الكتيبة والقادمين الجدد إليها. أقمنا المعسكر في منطقة جبلية حرجية شمالي مدينة صور. ووضعت برنامجاً متكاملاً بالتعاون مع صديقي وزميلي حسام الذي أصبح نائب قائد المعسكر. أصبح المعسكر في جانب منه مكاناً خاصاً لإعادة النظر وللتفكير وللحلم أحياناً، وللتساؤل عن الطريق الذي نحن في صدده.

وحسام منظّر ومفكر بالفطرة، قارئ نهم، يفهم الفكر العالمي واليساري والماركسي بعمق. أشرف على المعسكر في الجوانب السياسية والنظرية ولكن أيضاً في الجوانب الميدانية. انضم إلى السرية الطلابية في الجنوب بعد بحمدون، فأصبح أحد قادة فصائلها ثم قائد سريتها للإسناد.

امتلك حسام قدرات كبيرة في التعامل مع الاخرين عبر أسلوب شفاف للغاية. يطرح الأمر أمام الجميع في الجلسة الصباحية، يشجع على النقاش وإبداء الرأي. يبدأ كل يوم بنقد نفسه ونقدي ونقد مسؤولي المعسكر، ثم ينتقل إلى التعامل مع الظواهر السلبية والإيجابية التي مورست في اليوم السابق. إن لم يجد شيئاً ينتقده تجده يبدعه ويوجه نقده أولاً لي ليكون ذلك نموذجاً يسمح بتقبل النقد عند الجميع.

في هذا المعسكر وجدت نفسي أعدّ محاضرات يومية عن كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) وتجربتها السياسية والإنسانية والجماهيرية، وقد تحولت تلك المحاضرات التي ألقيتها على طلبة المعسكر خلال فترة التدريب إلى مصدر مهم لإعادة استحضار التجربة وللكثير مما كتبته في هذا الكتاب. على مدى عام كتبت تلك التجربة مرات عديدة في عقلي وعلى دفاتري وعبر محاضراتي.

مواجهة الكوماندوس الإسرائيلي

بعد عام من التفرغ في المعسكر، عدت إلى قيادة سرية الشهيد سعد التابعة لكتيبة الجرمق والموجودة على مقربة من الساحل اللبناني شمالي مدينة صور وبين البساتين وفوق التلال المشرفة على ذلك الساحل. علينا الآن أن نكون قوة إسناد لقوات الفدائيين في المواقع المتقدمة، وخاصة بعدما انسحبت إسرائيل من أجزاء مهمة من الجنوب بعد حرب ١٩٧٨، واحتفظت لنفسها بالشريط الأمني الموسع الذي يتضمن مدينة بنت جبيل وضواحيها، مشترطة أن تتسلّم الأمم المتحدة المناطق الجنوبية التي تنسحب منها. كذلك عادت بعض قوات الفدائيين إلى بناء قواعد صغيرة لها في المناطق التي تنسحب منها إسرائيل وعلى مقربة من الأمم المتحدة. لكن إسرائيل بقيت تحتل مناطق واسعة من الجنوب وخاصة ذلك الشريط الأمني الطويل الذي يبدأ من كفرشوبا والقليعة ومرجعيون مروراً ببنت جبيل ومارون الراس وانتهاءً ببلدة رأس الناقورة. وقد امتدت إسرائيل عدة أميال في الأراضي اللبنانية لتجعل من ذلك الحاجز الأمني حاجزاً فعالاً.

وبقيت جبهة واحدة للمقاومة الفلسطينية في مواجهة إسرائيل والقوات العاملة معها على شكل مواقع تشبه مواقعنا في بنت جبيل. ففي مدينة النبطية والمواقع

المحيطة بها، وخاصة قلعة الشقيف (أو قلعة صلاح الدين أو بوفرت أو أرنون) ومنطقة الحرج قرب النبطية، أقيمت جبهة مباشرة أمام قوات سعد حداد وإسرائيل الموجودة في القليعة ودير ميماس ومرجعيون. في تلك الجبهة يقع باستمرار قصف متبادل وأعمال عسكرية دائمة. وقد امتدت تلك الجبهة أيضاً إلى منطقة جزين المحاذية.

* * *

سيصبح الشريط الساحلي الطويل حيث نحن شمالي صور وصولاً إلى صيدا جبهة من نوع جديد، إذ علينا أن نتوقع الهجوم الاسرائيلي براً وبحراً وجواً ومن كل اتجاه على شكل أعمال كوماندوس. فعلى مدار الأسبوع في المناطق الساحلية تقع أعمال الإغارة الإسرائيلية، إذ يبدأ الهجوم الإسرائيلي عادة بإنزال ليلي مدروس بواسطة طائرات الهليكوبتر أو عبر البحر، ثم تسير القوة الإسرائيلية متسللة لمهاجمة قواعدنا وقتل من تستطيع قتله. نجحت إسرائيل في تمويه نقاط الإنزال بواسطة أصوات كثيرة في السماء تصدرها الطائرات النفاثة والهليكوبتر لفترات طويلة في الليل.

وكثيراً ما وضعت إسرائيل كمائن على الطريق البحري العام، فتهاجم سيارة عسكرية فلسطينية أو لبنانية وتقتل أو تجرح أفرادها ثم تنسحب من خلال البحر الذي يبعد أمتاراً عن الطريق العام. هكذا سيقع صديقي محمد شحادة، زميلي في الكلية العسكرية والقيادي في معركة تل الزعتر، ضحية أحد هذه الكمائن وذلك أثناء تصديه للقوة الاسرائيلية قرب الدامور فيستشهد. كما سيقتل زميله عبد الله حمدان الذي كان معنا في الكلية العسكرية أثناء عملية تدريبية قاسية في فييتنام.

في تلك المنطقة الساحلية كان لراسم وأبو حديد وأيضاً أبو رحمة (وهو ابن شهيد انضم إلى الكتيبة كقائد فصيل) أدوار رئيسية في حماية المجموعات والتحركات الليلية. في الوقت نفسه أصبح خالد قائداً لسرية الشهيد أبو خالد جورج، كذلك استمر حسام وربحي في أعمالهما في قيادة مجموعات رئيسية للسرية على امتداد محيط صور، بينما تحول شريف وأدهم ورياض نحو العمل السياسي في الجنوب، في محاولة لمحاورة القوى السياسية.

في الكتيبة اكتشفنا طريقة جديدة في القتال والتعامل مع التكتيكات الإسرائيلية الجديدة التي يخطّطها رفائيل إيتان رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد. فإيتان لديه تاريخ قتالي حافل منذ كان مع أرييل شارون في الوحدة ١٠١ التي قامت بعملية السموع وعمليات ومجازر شبيهة ضد الفلسطينيين في الخمسينيات، وهو يؤمن باستخدام أسلوب الفدائيين نفسه للتغلب على الفدائيين.

لهذا علينا أن ننتشر مساءً، لأن الهجمات تقع في الليل، وألا نبقى في مواقعنا. وبما أن الإسرائيليين يستخدمون تكنولوجيا متقدمة، فسيعرفون أن مجموعاتنا نشطة، ولهذا ابتعدوا عن منطقتنا مفضّلين قواعد لمنظمات فلسطينية اعتراها الإهمال والترهّل.

فقد هاجموا جبهة التحرير العربية قرب النبطية فقتلوا عدداً من المقاتلين في منزل معزول وسط البساتين، وفي منطقة الكفور في الجنوب هاجموا قاعدة أخرى فذبحوا أربعة مقاتلين. وقرب مخيّم القاسمية الفلسطيني هاجموا نحو ثلاثين مقاتلاً فقتلوهم جميعاً تحت أنقاض أحد المباني. ثم هاجموا موقعاً للقيادة العامة في مغارة في الصرفند، وفجروها. حصلت هذه الهجمات الليلية أحياناً على بعد مئات الأمتار منا. في إحدى المرات اشتبك ربحي ومجموعاته مع قوة الكوماندوس الإسرائيلية وهي تنسحب بعد تفجير مقر للجبهة العربية. لم يكن هناك ما يحمي أحداً من هذه الهجمات سوى اليقظة الشاملة.

يصعب عليّ أن أصف الليالي الباردة والعواصف الهوجاء التي هبّت علينا في شتاء لا يرحم، بينما ننام في مواقع مهجورة أو قرب أطلال بناء قديم مكشوف أو بين الأشجار والحشرات والأفاعي في الصيف الحار. ففي كل ليلة نوزّع الدوريات في التلال وخارج القاعدة، ويكون معنا على الدوام كل ما نحتاج إليه للنوم، فرشة خاصة من النوع الذي يستخدمه الكشافة، بعض المياه والأكل، وكل مستلزمات القتال ليلاً، تحسباً لوقوع غارة إسرائيلية.

وكم من مرة سمعت أصواتاً قريبة وشعرت والمجموعات معي بأنهم على بعد أمتار منا بين الأشجار الكثيفة، فانتظرنا مصوّبين أسلحتنا بشكل دائري حولنا. ربما شعروا بيقظتنا فانسحبوا بمهارة. في إحدى المرات وقعت القوة الإسرائيلية القادمة

من البحر في كمين كنا قد نصبناه على الشاطئ، جرح أحد شباننا في الهجوم، ولكنهم انسحبوا بسرعة البرق.

وبين الحين والآخر تقع غارات جوية كبيرة على مواقعنا أو مواقع قربنا. في إحدى الغارات ردّت إسرائيل على عملية مسلحة من تنظيم حمدي وأبو حسن، فقد تدرب الشبان الذين نفذوها في الكتيبة وقاموا بالعملية في الضفة الغربية. لهذا ردت إسرائيل بواسطة الطائرات بتدمير قيادة الكتيبة وسط البساتين، وكادت تصيب معين ومروان وأبو الفتح وعلي أبو طوق.

وإستمرت في الوقت نفسه حرب الاغتيالات الاسرائيلية، لكن هذه المرة بنكهة جديدة بقيادة مناحيم بيغن واليمين. أحد أهم الاغتيالات كان مقدرة إسرائيل على اغتيال علي حسن سلامة عام ١٩٧٩، فعلت ذلك بتفجير كبير استهدف سيارته وحراساته والشارع الذي مر منه في بيروت في فردان. كان ذلك في إطار انتقامها من صانعي عملية ميونيخ.

أبو الفتح صاحب الروح المرحة

بعد حرب ١٩٧٨ انضم إلى كتيبة الجرمق أبو الفتح (ذياب العلي)، وأصبح ضابط عمليات الكتيبة. كنا قد تعرفنا إلى أبو الفتح عن قرب أثناء المرحلة الأولى من وجود الكتيبة في بنت جبيل. فقد تشاركت معه عدة دوريات تحولت لتجارب مميزة بفضل خبرته. وقد ترعرع أبو الفتح في مخيم القاسمية قرب نهر الليطاني قبل أن ينضم إلى فتح.

أبو الفتح ذو قامة كبيرة وقسمات عربية واضحة المعالم وصاحب نكتة متميزة. فحديثه العفوي عن شكل الحياة بعد تحرير فلسطين دائماً ما يثير ضحكنا جميعاً. فهو يصدمنا بنكاته وقصصه، إذ يقول إن الدولة الفلسطينية التي ستأتي في يوم من الأيام ستكون دولة سوموزا، وذلك نسبة إلى سوموزا رئيس نيكاراغوا آنذاك الذي فشل في إدارة شؤون الدولة بسبب الفساد والإهمال وثورة الشعب ضده.

ثم يردف:

«لكنها على الأغلب ستكون أسوأ لأنه لم يكن لدى سوموزا مناضلون سابقون.

فنحن معشر المناضلين (بعضنا حقيقي وبعضنا مثل فلان وفلان لا علاقة له بالنضال) سيحمل كل منا عصاه ويدور يتحدث في الضفة الغربية وغزة عن تاريخه كمحارب قديم ومحرر، وسيتوقع كل منا من أهالي الضفة وغزة أن يقدموا له فروض الولاء والطاعة والتبجيل، وسيطلب الامتيازات لقاء تحريره الأرض». ثم يتحدث أبو الفتح عن نفسه قائلاً «أما أنا فسأتقاعد عندما تنشأ الدولة العتيدة ولن أدّعي شيئاً، أريد فقط أن أرتاح».

أحاديث أبو الفتح عن دولة هي امتداد لما هو قائم في لبنان من سلبيات أصبح مجال حديث وحديث مضاد، فالكثير من أعضاء الكتيبة لم تعجبه فكرة الدولة، بينما آخرون رأوا فيها خطوة بالاتجاه الصحيح، لكن الكثير منا خشي مما كان أبو الفتح يتحدث عنه: أن تكون الدولة مثل دولة سوموزا. إن إضافة أبو الفتح العسكرية وقدراته مثلت عوناً للجرمق (السرية الطلابية). سنعمل معاً، وسيثير أسلوبه الساخر الكثير من المرح بيننا في سنوات لم تعرف إلا الصعاب.

خط الشعب خط الجماهير

عندما غيّرنا في الكتيبة بعض قواعدنا بين القرى في المنطقة المحيطة بصور، رأى رياض المثقف والهادئ حشداً قادماً باتجاهه من سكان القرية. طالبوه برحيل القاعدة. بعض شبان السرية هيّأ نفسه لأسوأ الاحتمالات، وخاصة في ظل وجود مسلحين من أبناء القرية من حركة أمل، فما كان من رياض إلا أن صرخ في شبان كتيبة الجرمق ليتركوا البنادق.

ألقى رياض كلمة أمام ممثلي البلدة أكد فيها أن أطفالهم أطفاله وأن أمنهم أمنه، وأنه هنا مع كتيبة الجرمق من أجلهم. أبلغهم فوراً أنه سيغيّر موقع القاعدة كما يريدون بالرغم من عدم قربها من السكان والمدنيين.

فجأة: توقف التدافع، وبدأ الناس بالتحدث مع رياض والمقاتلين. شعر أهل البلدة بالاحترام والتقدير، بل ساعدوا رياض والمقاتلين في نقل القاعدة إلى منطقة أخرى لا تبعد كثيراً عن الأولى. لقد أصبح رياض صديقاً لكل القرية.

في صباح يوم مشمس جاء فلاح جنوبي غاضب من وجودنا في حقله الكبير.

كان غاضباً، وطلبت منه أن يسمح لنا بالبقاء في البستان ليوم واحد فرفض. فما كان مني ومن الشبان إلا أن بدأنا بنقل أغراضنا. لكن خلال دقائق عاد وقال لنا: «أنا الآن مرتاح لكم، ابقوا يوماً أو يومين أو حتى أسبوعاً». شرب الشاي معنا وبدأ يسأل عنّا كل صباح.

مصاعب تكوين أسرة

استمرّت تغريد بالعيش في منزلنا في بيروت، في منطقة الجامعة العربية، حيث لم يكن الوضع آمناً. كانت تضطر أحياناً للانتقال من مكان إلى آخر تحت القصف، في الوقت نفسه تعمل في البداية في مجال الترجمة في مركز المعلومات الذي كان يقوده صديقي عبد الفتاح، ثم انتقلت الى مركز الأبحاث الفلسطيني حيث المكتبة وتنظيم المعلومات والأرشيف الاهم للقضية الفلسطينية، وتكمل في الوقت نفسه دراستها الجامعية. تشغل تغريد نفسها بالعديد من الأمور لتمرّ الأيام الصعبة حتى نلتقي من جديد. بدأت تشعر بوقع هذه الحياة وبالكثير من المخاوف الناتجة عنها، فكل يوم شهيد جديد، أو حرب محتملة، أو قصف يحصد الحياة. استمرت في تحمّل وضع لا يطاق. أحياناً لا تعرف أن صديقاً لي قد سقط برصاص القتال إلا من خلال ملصق تراه وقد علق منذ دقائق في أزقة بيروت العربية وشوراعها قرب منزلنا. تصدم، تفاجأ من سرعة اختفاء الشبان، فهي ربما رأت زوجته أول من أمس وربما التقت ذلك الصديق منذ خمسة أيام. مفاجآت الموت لم تتوقف منذ مجيئها في حصد الشبان.

سألتني في أحد أيام ١٩٧٩ «إلى متى ستبقى بهذه الحياة، فأنا لا أراك في الشهر سوى أيام قليلة».

بعد نقاش متقطع ومكثف استمر لفترات اتفقنا على أن أستمر مقاتلاً بهذه الطريقة لمدة عشر سنوات أي إلى عام ١٩٩٠ دون أن يصدر عنها أدنى احتجاج، ثم أبدأ بعد ذلك بالبحث عن حياة يكون الأساس فيها بيننا ليس الغياب الدائم إلى جبهات القتال البعيدة، يجب أن أجد لي جبهة قتال تسمح لي بالنوم في بيتي وفق ما رأت.

قلت لنفسي: «من الآن لعشر سنوات سيحل الأمر بصورة تلقائية، إما نكون قد

حررنا الأرض فينتهي مشروع القتال، أو أموت. كنت مقتنعاً بأنني لن أعيش طويلاً، وأن ما يفصلني عن ذلك الموت هو معركة أو اثنتان. كانت تغريد تستشعر ذلك. فتحاول أحياناً أن تتحدث عن تكملة تعليمي في الدراسات العليا. فأغلق الموضوع الذي يشكل نقطة حساسة لي: أخاف أن يأخذني شيء آخر من هذه الحياة التي التزمت من أجلها بكل ما أستطيع.

* * *

جاءت للدراسة في الجامعة الأميركية اللبنانية شابة هي الأخرى شديدة الالتزام بقضايا العمل السياسي والوطني. ويسار من اسمها أميل إلى اليسار أو أن والديها كانا أميل لليسار عندما اختارا الاسم، أو لأن جدها لوالدتها كان رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية (يحيى حمودة) قبل أن يتسلّم رئاستها ياسر عرفات. ولدت يسار ونشأت في الكويت، تعارفت مع تغريد هناك في ظل تجربة العمل التنظيمي بين الجامعة ومدارس الثانوية.

وستشاء الصدف أن يلتقي معين بيسار وتتطور العلاقة بينهما فيتزوجا. أصبحت يسار مرتبطة بمعين الذي يعيش هو الآخر ظروفاً هي بين الموت والحياة وبين المجهول والمعلوم. لقد بدأت تنشأ العائلات بين جيل كامل من الشباب في ذلك الوقت، ما أضاف عبئاً جديداً على كل منّا. بدأ جيلنا يكوّن أسراً، وهذا ما سيحدث مع حمدي وحسن صالح وربحي وأدهم ومحمود العالول وراسم ومع الكثير من الشبان.

لقاء مع أبو جهاد

فاجأنا أبو جهاد بزيارتنا في إحدى قواعدنا في تلك المنطقة الحرجية. أبو جهاد شخصية فريدة، يتميّز بهدوء شديد وبمرونة ورقيّ في التعامل. صوته منخفض أثناء الحديث، يحترم متحدثه، يسأل ويستمع. فهو ليس ذا شخصية طاغية. صفات أبو جهاد القيادية جعلته محطّ احترام الكثيرين في فتح، وجعلته في الوقت نفسه قادراً على تغطية بعض أهم أخطاء أبو عمار ونواقصه. فإن كان أبو عمار عصبيّ المزاج، فأبو جهاد تميّز بالهدوء واستيعاب الآخرين. هذه التناقضات المفيدة جعلت العمل

بين الاثنين ممكناً في الأساس. لكنّ أبو جهاد يمتلك تصميماً حديدياً، يستهويه التجديد والخطط والأفكار الجديدة.

في تلك الجلسة التي ضمّت عدداً من مسؤولي الجنوب العسكريين، منهم مسؤول سلاح المدفعية القدير واصف عريقات، ويونس العاص وكان يقود قوة عسكرية مهمة وأدّى دوراً أساسياً في الكلية العسكرية، وكان معه كمال الشيخ قائد كتيبة في الجنوب وسابقاً نائب قائد كتيبة نسور العرقوب. دار النقاش حول الوضع وإسرائيل تحت قيادة مناحيم بيغن وعن الصهيونية والدولة اليهودية والمستقبل. وقد حرص أبو جهاد على الإنصات إلى كل ما قيل، إنه يسمع أكثر مما يتكلم، وهو أيضاً يفعل أكثر ممّا يقول.

مباراة الرماية

أعلن الحاج إسماعيل، قائد قوات الجنوب، مباراة للرماية بين قوات الفدائيين في الجنوب، وطلب من كل كتيبة وقوة في الجنوب تابعة لفتح أن تزكّي من جهتها أفضل قنّاصيها ورماتها لمعرفة أفضل الرماة في الجنوب. تلك فترة تميّزت ببعض الهدوء العسكري، وقد قصد الحاج إسماعيل تنشيط القوات وتحفيزها في موضوع الرماية. هكذا بدأت كل كتيبة تقوم بتصفياتها.

وجدت نفسي مشاركاً في تصفيات السرية الطلابية/كتيبة الجرمق. لكن المفاجأة أنني أخذت الموقع الأول على مستوى الكتيبة. فرمايتي تميّزت بدقتها العالية، وهذا أمر علّمني عليه محمد علي (أبو يعقوب) الذي افتخر بقدرته على إصابة السيجارة عن بعد كبير. علّمني طريقته، وعلّمني كيف أصيب أدق الأجسام بإطلاق النار وسلاحي على خاصرتي. شعرت بالكثير من الاعتزاز لهذا النجاح. وعندما ذهبت إلى التصفيات النهائية بين جميع كتائب فتح وقواتها في الجنوب دارت منافسة حامية الوطيس. لم يساعدني عامل الجو، لكنني مع ذلك فزت بالمرتبة الرابعة على قوات الجنوب.

كان صديقي قائد كتيبة القطاع الأوسط بلال يراقب الموقف، وتوقع لي أن أكون أحد الأوائل الثلاثة، لكنه عندما علم أنني كنت الرابع أردف مازحاً «أهنئك مع

أنك تفوّقت على شبابنا في كتيبة القطاع الأوسط. على كل الأحوال أنا أعدّك من القطاع الأوسط أيضاً».

هجوم قوات جولاني على النبطية

في أوائل عام ١٩٨٠، وفي ليلة ظلماء، شنّت قوات لواء النخبة الإسرائيلي، جولاني، هجوماً كبيراً على المواقع الفدائية المحيطة بمدينة النبطية، وخصوصاً موقعي الحرج وموقع قلعة الشقيف الشهيرة التي تحولت إلى رمز كبير من رموز المقاومة. طلبت كتيبة بيت المقدس من قوات العاصفة والتابعة لفتح التي تتحمّل مسؤولية النبطية والقلعة المساعدة، فطلب مني معين أن أندفع إلى النبطية لمساندتها.

تحركنا بسياراتنا وأسلحتنا، وجاء معنا الملازم الشاب هاني وكذلك راسم. كنا لا نقل عن ٨٠ شاباً، وفي داخلي قلق من أن تقع السرية أثناء التحرك في كمين إسرائيلي محكم على الطريق، من جهة أخرى عليّ أن أتحرك لمواجهة الموقف. فأنا متأكد من أن إسرائيل لن تترك الطريق العام الذي لا يقل عن عشرة كيلومترات من دون بعض الكمائن.

بدأت التحرك حوالى الساعة الثالثة فجراً بعدما استعدّت السرية بالكامل، وتعمّدت ترك مسافات كبيرة بين الجيبات المحملة بالشبان والمدافع كي تكون الخسائر قليلة في حال وقوع ضربة جوية أو وجود كمين إسرائيلي على الطريق. تقدّمت السيارات بهدوء بلا إضاءة وباستعداد كامل بينما نستعين بضوء القمر للتحرك. لم تكن هناك أي حركة على الطريق العام غيرنا، بينما نسمع أصوات الطائرات الإسرائيلية في الجو وأصوات المدافع والصواريخ التي تستهدف النبطية والتي تخترق الجبال والأودية.

وصلنا إلى أطراف النبطية على مسافة كليومتر من المدينة، وذلك مع بداية بزوغ أشعة الفجر الأولى، وإذا بمدينة النبطية تحترق أمام عينيّ من حدّة القصف الإسرائيلي. معدل القذائف في الدقيقة كمعدل المطر. عرفت حينها أن القوة الإسرائيلية ربما بدأت تنسحب وأنها على الأغلب تحاول أن تغطّي انسحابها بوابل

من القصف لمنع الإمدادات. ولكن إسرائيل تمارس هذا القصف الجنوني لتنتقم من سكان جنوب لبنان وتحرّضهم على مواجهة المقاومة. لم تنتبه إسرائيل إلى أنها بأعمالها هذه تخلق مقاومين جداً بين أبناء الجنوب أنفسهم.

راودني إحساس أمني جارف. فكيف أُدخل السرية والشبان المقاتلين معي تحت وابل من القصف ودون معرفة الوضع في النبطية. تبادر إلى ذهني حل بسيط، وهو أن أدخل تحت القصف أنا وأحد المقاتلين الذي يقود السيارة وشاب ثالث مرافق لنا، هذا سيجعل الخسارة لو وقعت لا تتجاوزنا نحن الثلاثة، وبعد أن نستكشف الوضع في النبطية ونقابل قادة الكتيبة التي وقع عليها الهجوم نقرر كيف تتحرك السرية.

طلبت من السرية ومن راسم وهاني وبقية الشبان أن يبقوا خارج المدينة منتشرين ومتأهبين وبحالة تمويه وانتشار، مع الابتعاد عن الطريق العام، إلى حين إبلاغهم بوقت التحرك. تحركت بالسيارة العسكرية، قادها الشاب بسرعة جنونية، أقول له متى يسرع ومتى يبطئ بينما أجلس إلى جانبه. فعندما تسقط عشر قذائف دفعة واحدة أمامنا في نقطة تبعد خمسين متراً على الشارع أطلب منه الإسراع لتجاوز ذلك بينما تسقط القذائف حولنا وندخل وسط الدخان. أطلب منه أن يدخل الطرق الفرعية في النبطية لأنها محمية أكثر، وذلك لأن القذائف تنفجر على أسطح البنايات فوقنا أثناء مرورنا. كان وابل المدافع متدفقاً لا يتوقف بينما نحن السيارة الوحيدة المتحركة في النبطية نعبر من شارع إلى آخر في مدينة أشباح.

بعد نصف ساعة من المناورة بالسيارة وسط الأزقة، وصلنا إلى مركز قيادة فتح في مدينة النبطية، دخلت مسرعاً على قائد كتيبة بيت المقدس «علاء» في غرفة محمية من القصف، عرفني ورحّب بي. قلت له هناك سرية كاملة على مشارف النبطية من كتيبة الجرمق وعلى استعداد للتحرك في أي اتجاه يتطلّبه الموقف. قال لي «انتظر لست متأكداً من الموقف في المواقع الآن». ثم أردف قائلاً: «لنذهب معاً إلى المواقع الأمامية، ومن ثم نقرر ماذا نفعل وكيف نستفيد من وجودكم».

تحركنا معاً إلى المواقع الأمامية بينما بدأ القصف يهدأ. مع وصولنا إلى قلعة الشقيف توقف القصف، وإذا أمامي عدد من الشهداء، وعدد من المقاتلين الذين

اشتبكوا مع الإسرائيليين. الخسائر الفلسطينية كانت عالية في كل من الحرج وفي قلعة الشقيف ومواقع ملاصقة. ولكنّ المقاتلين أوقعوا خسائر بالإسرائيليين.

وبينما أقف عند القلعة، إذا بالحاج إسماعيل قائد جنوب لبنان يأتي ليتفقّد الموقف. بدا متضايقاً ومتألماً، فقد وقعت خسائر كبيرة في هذه الليلة. نظر الحاج إسماعيل إلى علاء وإليّ وقال: «إنهم (الإسرائيليون) أكثر جدية في الدفاع عن دولتهم من جدّيتنا في الدفاع عن ثورتنا». ضايقتني الملاحظة، لا لأنها خاطئة، بل لأنها تعكس مدى الترهّل الذي أصاب قطاعاً كبيراً من المقاومة في ظل غياب التجديد.

ونظراً إلى الخسائر التي مُنيت بها كتيبة بيت المقدس، اتفقنا على أن نأخذ مكانها في جميع المواقع الأمامية. استدعيت سرية الشهيد سعد المرابطة على مشارف النبطية وتحركنا معاً نحو قلعة الشقيف ومنطقة الحرج ومناطق أخرى حول النبطية في مواجهة القوات الإسرائيلية وقوات سعد حداد.

تمركز شبان الكتيبة في القلعة وانتشروا حولها وخارجها. لقد تمترس راسم في القلعة وقرّر أن يجعلها بيته الذي سيعيش فيه إلى الأبد.

لقاء ياسر عرفات تحت النار

جاءني اتصال مفاجئ بينما أقف مع راسم في القلعة يطلب مني ضرورة الحضور فوراً إلى مركز القيادة وسط مدينة النبطية. قبل ان أغادر طلبت من راسم الانتشار تحسّباً لغارات إسرائيلية مفاجأة.

ذهبت إلى قيادة كتيبة بيت المقدس في النبطية، وإذا بي أمام ياسر عرفات ومعه حراسه والحاج إسماعيل قائد الجنوب وعلاء قائد كتيبة بيت المقدس. كان هذا أول لقاء لي بالقائد العام لقوات العاصفة ورئيس منظمة التحرير منذ أن التقيته في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ أثناء دراستي في جامعة جورج تاون. سلّمت عليه من دون أن أعرف إن كان يتذكر لقاءنا السلبي عام ١٩٧٣. أحاطت به كل قيادات كتيبة بيت المقدس التي تعرّضت للهجوم، إضافة إلى عدد من أعضاء كتيبة الجرمق ممن رافقوني إلى اللقاء.

بدأ عرفات بإلقاء خطاب يهدف إلى رفع المعنويات، وبدأ يرفع صوته كأن مناحيم بيغن رئيس الوزراء معنا في الغرفة. قال عرفات بنبرة خطابية عالية:

«إحنا صامدين. وأنا بقول لبيغن وللي وراء بيغن (ارتفع هنا صوت عرفات أكثر) إحنا صامدين في القلعة وباقين ولن يؤثر فينا، لا الفانتوم والـ أف ١٦ ولا غيرو. وبقول لك يا جهاد (قلت لنفسي كيف تذكّرني وعرفني) القلعة مسؤوليتك الآن، إنت مسؤول عن هذا الموقع وهو أمانة في رقبتك، هذا الموقع اللي كان في يوم من الأيام قلعة صلاح الدين، هذا الموقع بعهدتك يا جهاد».

واستمر عرفات:

«وأنا بقول لبيغن إحنا أبناء شعب لا يتعب، إحنا الرقم الصعب، (وارتفع صوته إلى أعلى درجة) يا بيغن جيب اللي عندك وجرّب كل اللي عندك، راح نواجه وراح ننتصر. وبقول لبيغن..............»،

وإذا بصوت الطائرات الإسرائيلية يغطّي على صوت عرفات. مرت الطائرات فوق رؤوسنا مسرعة على بعد أمتار قليلة فوق المنازل، أيقنّا أن الطائرات ستغير على الموقع، وأن بيغن أراد الآن تصفية عرفات بعدما عرف أنه في النبطية. وبدا لي أننا سنقتل جميعاً. تساءلت هل سأموت إلى جانب عرفات في هذه اللحظات؟

صمت عرفات فجأة، وتبادلنا النظرات بصمت، وقلت له بابتسامة: «إنها غارة»، وصرخ مسؤول الأمن المرافق لعرفات: «لا أحد يتحرك الآن». نظر عرفات إليّ نظرة في غاية الهدوء هز رأسه بالموافقة، ولم يقل شيئاً. لم يكن خائفاً، ففي عينيه نظرات تحدّ وهدوء متصالحة مع اللحظة. مرّت خمس دقائق بدت كأنها أعوام، وفجأةً صرخ رئيس أمنه الشخصي «تحركوا» فتحرك عرفات بسرعة البرق إلى خارج البناية وإلى خارج النبطية، أما أنا وكل من في المبنى فخرجنا راكضين وذهني مشغول بالوصول إلى المواقع والتأكد من أن الشبان بخير بينما الغارات مستمرة في عدد من المواقع. لحسن حظنا لم تستهدف الغارات المنزل الذي كنّا فيه.

توجهت مسرعاً إلى القلعة أثناء الغارات، مستقلاً سيارة الجيب. قدتها بسرعة جنونية في محاولة لتفادي إمكانية قصفي من قبل الطائرات بينما أقترب من القلعة التي تتعرض لغارات متواصلة.

وجدت عدداً من المقاتلين من الكتيبة منتشرين على سفوح القلعة أمامي فسألتهم: «هل أنتم جميعاً بخير؟» قالوا: «نعم، لكن هناك شابان من تنظيم آخر كانا معنا ورفضا أن يتركا القلعة ليطهوا بعض الطعام». صرخت: «كيف تركتموهما؟»، قالوا: «لقد أصرّا على البقاء، ولقد ذهب راسم مع مجموعة لتفقّدهما».

ذهبت باتجاه القلعة، وإذا براسم يحاول إنقاذ أحد الشابين في أعلى القلعة بينما الغارات مستمرة، فأحدهم قتل فوراً بينما الثاني ما زال حياً، ولكن من شدة القصف دفن كل جسمه تحت الرمال والحجارة والأنقاض باستثناء رأسه وإحدى يديه. راسم في أعلى القلعة وأنا في أسفلها وهو يحفر بسرعة بينما الطائرات قد تهاجم. بعد عشر دقائق من المحاولات توفي الشاب، لكنّ الغارات هي الأخرى توقفت.

الجبهة الجديدة: من قلعة الشقيف إلى النبطية

بقينا شهراً وراء شهر في قلعة الشقيف والحرج، فهذان آخر مواقع القتال وآخر الجبهات الحقيقية في الجنوب في مواجهة إسرائيل. لقد فصلنا عن جماعات حداد وإسرائيل وادٍ كبير يجري فيه نهر الليطاني، بينما تبدو أمامنا قرية ديرميماس المحتلة حيث سقط الشهيد خالد بشارة، وأمامنا أيضاً القليعة حيث سعد حداد وكفركلا حيث قواته، بينما تبدو أمامنا أيضاً الحدود حيث مستعمرة المطلة الإسرائيلية التي سنتبادل معها القصف، وقرب المطلة أيضاً مستعمرة مسكاف عام. لقد عدنا إلى المواجهة المباشرة كما كان الوضع في مرحلة وجودنا في بنت جبيل.

أحياناً أذهب في دوريات ليلية لاستكشاف تلك المواقع والتعرّف إلى تضاريس الطبيعة، وكثيراً ما وجدت علب دخان وبقايا مأكولات ومعلبات لجنود إسرائيليين كتب عليها بالعبرية في المواقع التي استكشفتها في ذلك الوادي السحيق الفاصل بيننا. وفي كل مرة أمر على أبو ضرغام، وهو من أكبرنا سناً، الذي يقود الحرج وأراجع معه طرق دفاعنا الليلية والدائرية لنتفادى غارات كوماندوس مفاجئة.

لقد عدنا في النبطية إلى المواجهة المباشرة، بينما نحن من جانبنا طوّرنا قدراتنا القتالية ومدافعنا القادرة على ضرب مستعمرات وقوات داخل إسرائيل. عدنا ثانية

نتواجه مباشرة مع قوات سعد حداد، الذي أعلن في ١٩ أبريل ١٩٧٩ قيام «دولة لبنان الحر» على الشريط الحدودي مع إسرائيل ومعه نائبه سامي الشدياق.

في النبطية، مارس رائد (حكيم عيسى) هوايته التي أتقنها وتفنّن فيها: المدفعية بأنواعها والقصف الدقيق للمواقع الأخرى. نستنجد برائد وفصيله المدفعي باستمرار عندما تقصف إسرائيل وقوات سعد حداد النبطية ومواقعنا. في أحد الأيام وقعت عملية كبيرة في الأراضي المحتلة، عرفنا أن رداً كبيراً سيقع. حينها كان رئيس الوزراء ووزير الدفاع: مناحيم بيغن. غيّر رائد مواقع المدفعية الثقيلة، وكذلك فعلت القوات التابعة لحركة فتح (العاصفة) في كل أنحاء الجنوب قبل الغارات بساعات. بدأت الغارات الإسرائيلية الكثيفة على كل مواقع المدفعية في الجنوب، فلم يصب مدفع واحد، ولم يسقط مقاتل واحد. مثّل هذا انتصاراً للقدرة على تفادي هذه الغارات المفاجئة والتنبّؤ بها.

في هذه الجبهة انضم إلينا الأخ الأكبر لحكيم: أبو أحمد بعد عودته من باكستان خبيراً في الهندسة العسكرية وتنظيم الدوريات القتالية والمتفجرات. سيمارس دوره في خطة الألغام وفي حماية قلعة الشقيف. أبو أحمد كان من النوع الذي لا يتوقف أمام عمل، إنه لا يكل ولا يمل، يعمل بانتظام ولديه قدرة في حل كل إشكال من خلال استخدام المتفجرات بأكثر الطرق انتظاما ودراية. بإمكانه حفر الأنفاق عبر المتفجرات وتدعيم التحصينات.

لأبو أحمد وحكيم أخ شهيد كان لموته أكبر الأثر عليهما: عبد الناصر عيسى من شهداء السرية الطلابية في بداياتها وفي أحد محاورها القتالية في بيروت ضمن تشكيل فصيل رديف يقوده أبو أحمد، شارك في أكثر المواقع سخونة، لا سيما في خط التماس إبان الحرب الأهلية. كان أخوهما نمطاً متقدماً من المقاتلين. عبد الناصر شبّهه البعض بشخصية علي أبو طوق، إذ امتلك قدرات قيادية وخفة في الحركة ميّزته، لكنه سيُستشهد مع صديق عمره علي رزق باكراً في إحدى معارك الحرب الأهلية وسيسحبه من أرض المعركة أخوه أبو أحمد الذي كان عائداً من معركة عنيفة في المونتفردي لفك حصار تل الزعتر.

* * *

قلعة الشقيف أصبحت رمزاً للمقاومة في الجنوب. القلعة اختصرت الصراع التاريخي بين إسرائيل وفلسطين. فالقصف الإسرائيلي على القلعة بدا كأنه مفرقعات أمام حجمها الرمزي وعظمتها التاريخية. فكل حجر من حجارة القلعة يقاس بالأمتار طولاً وعرضاً، وكل شيء فيها ثقيل وكبير. إنها جبل هائل، وفوق كل هذا شموخها.

عرف المقاتلون في القلعة مدى صعوبة مهمتهم. في الليل ينشرون كمائنهم في القلعة وفي محيطها وذلك في انتظار محاولة إسرائيل اصطيادهم. إن من شهد توزيع الكمائن حول القلعة والاستعداد كل ليلة بقيادة راسم لمواجهة قد تقع وقد لا تقع، يدرك حجم الشعور بالمسؤولية السائد بين الشبان. لقد شعر كل منهم بأنه يحرس آخر قلاع المقاومة ورموزها في ظل ظروف غير مؤاتية.

كان مع راسم ما لا يقل عن ٣٠ شاباً موزعين في القلعة وخارجها، يتحمّلون البرد القارس في الشتاء ويعيشون في قلعة يغطّيها الضباب والسحاب والأمطار كل شتاء. ولكنّ راسم لم يضيّع وقتاً، فقد حفر النفق وراء الآخر وبدأ يستعد لمعركة مقبلة لا موعد لها.

أمضى علي أبو طوق أياماً طويلة في القلعة يشارك راسم عمليات حفر الأنفاق ويضيف عليها ويطوّرها، لقد استخدم أبو أحمد مهارات التفجير في حفر الأنفاق. كنت أنضم إليهما لتحقيق الهدف نفسه، وأحياناً أمضي الليل إلى جانب راسم في القلعة أو في الحرج المواجه للقلعة. أنام ليالي في القلعة وفي ليالٍ أخرى في الحرج.

الصباح الباكر في القلعة يمثل قمة الترابط مع الطبيعة والحياة، كل شيء يتفتح لحظة بلحظة: يبرز الضوء ببطء يحيط به ضباب متقطع، يتفتح الزهر، تغرد العصافير، ولكن أيضاً مع كل صباح استعداد ليوم جديد. في كل مرة نكتشف في القلعة غرفاً جديدة، نحفر فنكتشف مواقع جديدة. القلعة مكان يتغيّر كل شهر. لقد رسم راسم والشبان تاريخاً جديداً للقلعة منذ تسلّمناها أوائل عام ١٩٨٠.

ربحي من جهته، هيّأ السرية التي يقودها في منطقة موازية للقلعة وفي خطوط مواجهة شبيهة، ومعه سمير، وهو شاب مسيحي لبناني وقائد لفصيل يزرع ألغاماً

لحماية المواقع. مع الغروب ذهب إليه ربحي، بينما أبو حسن في زيارة لهما من بيروت. تحدث ربحي إلى سمير قائلاً: «عليك بالتوقف عن زراعة الألغام، فهذا العمل خطر الآن مع الغروب». ما إن وافق سمير على ذلك حتى وضع قدمه خطأً على اللغم الذي زرعه. فقد سمير رجله، وفقد ربحي جزءاً كبيراً من نظره في عينه اليمنى وأصيب علي أبو طوق في بطنه وفخذه. هرع باسم، وهو قائد فصيل ومن شبان بيروت الذين لازموا الكتيبة طوال مراحلها المختلفة، وهرع معه أبو حسن وأبو أحمد لنقلهم إلى خارج حقل الألغام ثم إلى المستشفى.

دور المرأة

أما زوجتي تغريد وأم أحمد القرى والأخوات في بيروت، فقد أتين إلى القلعة زائرات من حين إلى آخر في فترات الهدوء، بل حتى أثناء حمل تغريد بابنتي البكر التي سأسمّيها حنين، نسبة إلى البلدة الجنوبية حانين، جاءت إلى القلعة ودخلت بعض الأنفاق الجديدة التي حفرناها.

لكن من الصعب اختزال دوْر المرأة ببضعة تعبيرات، فمثلاً عملت تغريد في مكتبة مركز الأبحاث الذي قام أساساً بإصدار الكتب والأبحاث التي شكلت المصدر الأساسي عن الصراع العربي الإسرائيلي في تلك الحقبة. أما صديقتها شيرين فعملت في مركز التخطيط حيث المطبخ الأساسي للتفكير السياسي الذي قاد حركة فتح وقدم الاستشارة لها. كان هذا الجيل من النساء ملتزماً ببناء مؤسسات تمتلك الديمومة ولديها تعبيرات ثقافية وفكرية مرتبطة بصمود المقاومة واكتشافها لطريقها وسط حقول الألغام المحيطة بالقضية.

من جهة أخرى وفي النشاط المباشر الرديف للسرية الطلابية كانت أم خالد (زوجة الشهيد أبو خالد جورج) مع بهية، وآمنة القرى وأم أحمد (سامية) زوجة أبو أحمد بل وميادة التي عملت بالكثير من الصمت ونجاة وسلمى وابتسام وعشرات من الناشطات ذوات القدرات الثقافية والالتزام الوطني قد نسجن علاقة تنظيمية وكفاحية مع عشرات غيرهن لرفد الكتيبة باحتياجات لوجستية وميدانية مختلفة.

امتدادات السرية الطلابية بين الفتيات وفي بيروت ومناطق مختلفة كانت مؤشراً

على مدى اقتناع جيل كامل بموضوعاتها، بأخلاقيات شبانها وشاباتها وبطبيعة العبء الذي يحمله كل واحد منهم. التجارب النسائية غنية، إذ تنوعت جهودها في مجال الدعم والبحث وفي الكتابة والحشد. كان للتنظيم النسائي حضور لافت في فترة الحرب في بيروت حتى في مجال الحراسة والحفر والقتال في بعض المناطق، كما سقطت شهيدات في مناطق مختلفة. ولا يخفى أن هؤلاء الناشطات كن قارئات بامتياز، كن جميعاً قد تخرّجن من مدرسة اليسار والثقافة السياسية والتاريخية ولهذا فالنقاش معهن كان هو الآخر غنياً.

أبو حسن وحمدي وعملية الدبويا

لا يمر أسبوع من دون أن نسمع شيئاً من أبو حسن وحمدي، فهما يزوران الكتيبة بانتظام لكن كليهما يعمل بتركيز كبير على النضال داخل الأرض الفلسطينية المحتلة. وفي كل زيارة لي لبيروت لا بد من تمضية وقت ليس بالقصير في النقاش والتواصل مع أبو حسن وحمدي. أمضي معهما ساعات طوال. كم كانت أجواؤهما ممتعة ونقاشاتهما مثيرة للعقل والروح.

ستقع عملية كبيرة تمثل نقلة نوعية في العمل القتالي الفلسطيني عام ١٩٨٠، فهي ليست عملية انتحارية بل عملية هجوم على مستوطنين مسلحين في قلب الخليل (عملية الدبويا). ستؤدي العملية إلى مقتل ١٣ مستوطناً وإلى نجاح المجموعة الفلسطينية في الاختفاء في الخليل وفي جبالها. وستكون بصمات حمدي وأبو حسن واضحة. فقد نجحا في إدخال مجموعة قتالية من شبان مرتبطين بتجربة السرية الطلابية إلى الضفة الغربية، وتحديداً إلى الخليل التي فيها الجذور العائلية لكل من حمدي وأبو حسن.

هذه المجموعة كانت بقيادة عدنان أبو جابر وياسر زيادات (عزيز)، إضافة إلى تيسير أبو سنينة ومحمد الشوبكي. عدنان عرفته في لبنان على مدى السنوات، وهو من المقاتلين ذوي الخبرات والقدرات القيادية في القتال، وقد خضعت لدورة تدريبية في بدايات وجودي في لبنان على يديه. أما عزيز فهو أسير سابق، وله تاريخ في النضال، تزوج أمل وهي فتاة أحبها كانت في الأسر قبل العملية بأكثر من

عام. وعدها ياسر (عزيز) بأنه إذا عاش ونجا بعد العملية فسيكمل معها مشوار الحياة، وإذا لم يكن ذلك ممكناً فهو يموت محباً لها إلى أبد الدهر.

بذلت إسرائيل كل الجهد لاعتقال المجموعة. وقد حصل هذا بعد مطاردة كبيرة، انتهت باكتشاف أعضاء الخلية صدفة إثر محاولتهم الخروج من الضفة إلى الأردن سيراً على الأقدام. لم تصدّق إسرائيل أنهم وقعوا في قبضتها، وخاصة أن المجموعة أخفت سلاحها في منطقة جبلية تمهيداً لأعمال مشابهة في المستقبل. عند اعتقال المجموعة حكم عليهم جميعاً بالسجن المؤبّد. لكن سيطلق سراحهم بعد ذلك بعدة سنوات في إطار عملية تبادل كبيرة.

الفصل السادس عشر

الثورة الإسلامية في إيران وانقسامات الجنوب

مع عام ١٩٧٩ تبيّن أننا أصبحنا وحدنا وبلا مساندة عربية حقيقية. فقد نجحت إسرائيل في الاستفراد بالوضع الفلسطيني، بينما جنوب لبنان وقاعدتنا في لبنان بدآ يهتزان أكثر، حيث تخلى الجنوب عنّا شعبياً لضعف عام في أوضاع المقاومة وإدارتها وتنظيمها وأساليبها، ولطبيعة الثمن الذي يدفعه الجنوب جرّاء استضافتنا. من جهة أخرى نجد أن السلام بين مصر وإسرائيل انعكس على ميزان القوى، بينما في إسرائيل حكومة يمينية بقيادة مناحيم بيغن الأكثر استعداداً للمغامرة والسير نحو التطرّف.

لكن التغيّر الكبير الذي وقع في الشرق هو اندلاع الثورة الإيرانية في أواخر ١٩٧٨ وانتصارها في بدايات ١٩٧٩ وسقوط نظام الشاه. الثورة الإيرانية عنت في فهمنا السياسي تراجع الولايات المتحدة في العالم العربي والشرق الأوسط. أحيت الثورة الإيرانية الأمل في قلوب الكثيرين منّا، كأنها جاءت لتنقذ حلمنا وفكرتنا من حالة التطويق والأقتلاع التي عشناها.

من هنا تبلور الإعجاب بالتجربة الإيرانية لدى الكثيرين في الوسط الفلسطيني واللبناني الوطني. وجدنا في إيران حالة قتالية جديدة، فرصة لفك الحصار ولبناء التلاحم الجماهيري مع الجنوبيين. هذه فرصة أيضاً لتخفيف نقمة حركة أمل على المقاومة. أصبحنا نقول للأهالي نحن في جبهة تمتد من الجنوب اللبناني إلى طهران، أما الأهالي فيقولون لنا أين العرب وأين مصر بل وأين سوريا وبقية العرب؟

أثارت الثورة الإسلامية في مرحلتها الأولى التفاؤل. فالشاه لم يكن محبوباً في الوسط العربي والمقاوم، لهذا لا بد من أن يكون القادم الجديد خطوة إلى الأمام. ألا يسير التاريخ إلى الأمام؟ أم هو قد يعود إلى الوراء في مراحل محددة؟ وقفنا حائرين أمام الظاهرة ومتسائلين ومتعاطفين معها في الوقت نفسه.

لقد انقلب كل شيء في إيران بين ليلة وضحاها، وجاءت الحكومة الجديدة والرئاسة الأولى بقيادة تيار ليبرالي إسلامي. أبو الحسن بني صدر أستاذ الاقتصاد في فرنسا أصبح أول رئيس جمهورية ومعه مهدي بازركان رئيس حركة تحرير إيران الذي سيصبح رئيساً للوزراء، وكذلك إبراهيم يزدي وزيراً للخارجية، وسَيَليه صادق قطب زاده أيضاً في وزارة الخارجية.

جاء النموذج الإيراني ليقول إن الثورة في العالم الإسلامي لن تكون ماركسية، أو اشتراكية أو يسارية، أو قومية كما كنا نقول ونعتقد، بل إسلامية الاتجاه والهوى دينية المضمون والعمق.

إن أول من ذهب إلى طهران لتهنئة الإمام الخميني بالانتصار هو ياسر عرفات. فقد رأى أنه ساهم إلى حدّ ما في انتصار الخميني بحكم تأييده الدائم للمعارضة الإيرانية وتبنّي أنصارها تسليحاً وتدريباً. كذلك فإن علاقة عرفات المباشرة بمحمد صالح الحسيني عزّزت فرص العلاقة المباشرة مع الثوريين الجدد. أعلن عرفات: الثورة في إيران فكٌّ للحصار علينا.

مع انتصار الثورة الإسلامية تهيّأ د. مصطفى شمران لمغادرة بيروت على متن طائرة خاصة إلى إيران، وذلك ليلتحق بالإمام الخميني. ذهبنا أنا ومروان لوداعه، وعندما رآني كعادته شدّ بقوة على يدي وظل ضاغطاً معبّراً عن اعتزازه بصداقتنا، وقال مودّعاً كلينا: «قلت لكم سيقع حدث كبير، وها هو قد وقع، تذكروا: لديكم في إيران صديق في أي وقت تحتاجون إليه».

ذهب شمران إلى وطنه الذي نُفي منه لسنوات طوال، ما يعكس تلك العلاقات المؤسفة بين الأنظمة والمعارضة في منطقتنا. فالمعارضة تعيش في المنفى، وعندما تأتي الفرصة تعود لتفرض قانونها الجديد ونظامها، وتلغي كل ما يذكّرها بالقديم، الصائب منه والخاطئ.

أرسلت الثورة الإيرانية إلينا مئات المقاتلين الإيرانيين ولتأكيد موقفها وموقف الإمام الخميني من أن فلسطين هي جوهر الصراع. وقد جاء إلى سرية الشهيد سعد التي أقودها عدد من الإيرانيين لم يتجاوزوا عشرين مقاتلاً.

الإيرانيون الذين أتوا للعمل معنا ودودون، لكنهم بحاجة إلى تدريب، وهذا ما فعلناه في البداية. في الوقت نفسه وجدتهم متديّنين، يرتّلون القرآن في أوقات الفراغ، يصلّون الصلوات في أوقاتها، ويصلّون جماعة يوم الجمعة، يقرأون بنهم شديد، يستشهدون بالقرآن في كل مسألة حتى لو كانت بسيطة جداً، ولديهم اهتمام بالفكر والحوار.

محمد علي الإيرٰاني أحد مسؤولي المجموعة الإيرانية يحترف المصارعة في إيران ولديه قدرات جسدية هائلة، علّمني كيف أسبح في المياه الباردة في الشتاء القارس.

حاورناهم في كل شيء. شرحنا لهم أفكارنا اليسارية والوطنية، وشرحوا لنا أفكارهم الإسلامية. عرفوا أننا يساريون، أننا لسنا متدينين وأن بعضنا يصلّي وبعضنا لا يصلّي، وأن الدين أمر خاص بيننا وبين ربنا لا علاقة له بالعمل السياسي. وعرفوا أيضاً أن بعضنا مسلمون شيعة وبعضنا من السنّة والدروز وبيننا مسيحيون وموارنة.

فوجئ الإيرانيون بهذا التشابك، رغم أنهم شديدو الاحترام لوحدة المسلمين سنّة وشيعة. في البداية دهشوا من علمانيتنا، فبالنسبة إليهم هذه سلوكيات تشبه إيران القديمة وإيران الشاه. بل إن محمد علي الإيراني قرأ علينا كل آية تتعلق بالمنافقين في القرآن في محاولة منه لإقناعنا بأننا منافقون. كنا نضحك عندما يقول ذلك، ونحترم رأيه.

بعدما أمضت المجموعة ما يقارب شهرين، فوجئت بمحمد علي يقول لنا: «لقد توصّلت إلى نتيجة هي أنكم لستم منافقين».

قلت له مداعباً: «وكيف حصل هذا؟».

قال: «أنتم تعلنون أفكاركم وهذا لا يجعلكم منافقين، المنافق يتشبّه بنا ولا يعلن أفكاره، بل إن المنافق يقول شيئاً ويفعل النقيض. أنتم تتميّزون بالصدق ولا تتشبّهون بنا وهذه صفة إسلامية».

ثم أردف قائلاً:

«نحن الإيرانيين نختلف في ما بيننا على كل شيء وعلى أبسط الأمور الدينية، إن بعضنا يكفّر بعضنا الآخر على أبسط المسائل وأكثرها تفاهة. أنتم عكسنا تركزون على الأهم ولا يكفّر أو يخون أحد منكم أحداً. سلوككم إسلامي وكلامكم غير إسلامي، أما نحن في إيران فالكثيرون منا يتكلمون لغة إسلامية ولكنّ سلوكهم ليس إسلامياً».

أثر الثورة الإيرانية

مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران بدأ النقاش في ما بيننا يتفاقم بشأن دور الإسلام في السياسة. بعضنا بدأ يقرأ كل ما يصدر عن الثوريين الجدد في إيران. ولكن لم تمض بضعة شهور على انتصار الثورة حتى بدأنا نشعر بأن الثورة الإسلامية في إيران مقدمة لنموّ الإسلام السياسي وتراجع الحركات العربية ذات الطابع الوطني والقومي واليساري والعروبي والعلماني والليبرالي.

بدأ عدد من الإخوة والأخوات في أواخر عام ١٩٧٩ في صفوف تيارنا العريض يعلنون أن اليسار والماركسية والتقدمية والعلمانية وفصل الدين عن الدولة وشعار الدولة العلمانية في فلسطين كلها لن تكون ممكنة في العالم العربي، وأنه آن الأوان للتخلي عن هذه الأفكار وإعلانها منتهية الصلاحية.

وبدأت مجموعات من الشبان من امتدادات الكتيبة في بيروت ومناطق أخرى من لبنان تقول بأن الإسلام هو طريق فلسطين وهو طريق التغيير والثورة في العالم العربي. اليساريون من حولنا بدأوا باستبدال المصطلحات المتداولة بينهم. فكلمتا العمال والفلاحين استُبدلتا بكلمة المستضعفين، والاستكبار أصبحت بديل الظلم، والشيطان الأكبر عوضاً عن الإمبريالية الأميركية. هكذا وجد البعض أن الانتقال ممكن من الماركسية إلى الإسلام مع إبقاء جوهر الفكرة التي تتلخص في مواجهة إسرائيل واستمرار معركة تحرير الأرض والتصدي للنفوذ الخارجي في العالم العربي.

في الكتيبة بقينا نركّز على مهماتنا ونحاول أن نبتعد عن النقاش الفكري الدائر

في بيروت، فهو قادر على تشتيتنا إن تورّطنا في أعماقه. وأثناء إجازتي في بيروت، ذهبت إلى مركز التخطيط فالتقيت منير شفيق، الذي بدأ يؤكد أن التغيير القادم في العالم العربي سيقع على أرضية الإسلام، وأن علينا جميعاً أن نتسلح بفهم إسلامي وإلا بقينا منعزلين عن عموم الجماهير المتديّنة في بلادنا.

لقد ذهب منير إلى إيران وتعرّف عن كثب إلى الثورة، وشعر بأنها تمثّل وعداً جديداً للعالم العربي، واستنتج أن من يريد التغيير في العالم العربي فعليه أن يتبنّى خطاً إسلامياً ورؤية إسلامية. الكثير منا فوجئوا بالتحولات، ولكنه بطبيعة الحال أثار نقاشاً.

غادرت مكتب منير ومررت بمكتب محمد صادق الحسيني الباحث في مركز التخطيط الفلسطيني. لكنّ صادق مثلنا يميل إلى اليسار وعلى علاقة مع الكثير من الثوريين الإيرانيين اليساريين. سألته عن الموقف الفكري بعد انتصار الثورة.

قال: «كل شيء يتغيّر، هناك انهيار في صفوف اليسار الإيراني والعربي واللبناني».

قلت: «ماذا عنك يا صادق؟».

قال: «ما زلت لم أستوعب ما حصل، ما زلت مكاني لكني أفكّر».

ستمر الأيام وإذا بصادق الحسيني في إيران، وسيتبنّى فكراً إسلامياً ويصبح كاتباً صحافياً متميّزاً، ولكنه سيتحوّل إلى الإسلام السياسي.

* * *

المجتمع العربي في ذلك الوقت كان أكثر انفتاحاً ويتعامل بليونة مع القضايا الدينية. فعلى سبيل المثال لم يكن الحجاب يطرح بصفته الدينية الحادة. لم يكن أحد يناقش هل الحجاب مفروض دينياً أم غير مفروض، لأنه متروك للاختيار الشخصي والعلاقة الخاصة بين الله والفرد.

في زمن ما قبل الثورة الإيرانية أخذ موقع الدين في الحياة العامة والحياة السياسية في البلدان العربية مساحة صغيرة، بينما امتلأت المساجد بكبار السن، وقلما جاء إليها الشباب. ولكن مع الثورة الإسلامية في إيران وتأثيراتها العربية انقلب كل هذا: أصبح للدين مساحة أكبر وبدأ يغزو السياسة، وإذا بالمساجد في

بيروت وصيدا، السنّية منها والشيعية، تمتلئ بالشبان، وإذا بالحجاب يتحول إلى رسالة سياسية مع بدء الكثير من النساء بارتدائه.

لقد تأثر الجنوب اللبناني حتى بروز الثورة الإيرانية بجوّ العلمنة السائد في تلك المرحلة، ولم يكن هذا ببعيد عن المرأة الجنوبية التي كانت تشارك الرجل في كل شيء، بل إنها من القوة بمكان أنها تتحمّل غياب زوجها لسنوات في أفريقيا ودول العالم بينما ترعى شؤون الأسرة والعائلة وتعتني بكل صغيرة وكبيرة.

ومع الثورة الإسلامية في إيران تحركت مواضيع إسلامية عديدة، إذ صاحبها تغيّر في العلاقات بين الرجال والنساء لمصلحة الفصل وعدم الاختلاط وقوامة الرجل والتشدد في مواضيع أخرى، منها تحريم الكحول، ودخل النقاش في مواضيع الحلال والحرام بشأن النحت والرسم والموسيقى والرقص والغناء والتمثيل والفن والإبداع والأدب والشعر والمصافحة باليدين بين الرجل والمرأة. وعاد دور رجال الدين إلى الواجهة بعدما أخذ موقفاً اقتصر على الروحانيات في المراحل السابقة، وإذا برجال الدين يتحولون إلى طبقة سياسية انطلاقاً من أن الإسلام «دين ودنيا».

في ظل هذه الأجواء أصبح بيننا في خطنا السياسي من يقول: إن كانت الشيوعية ضريبة الصين للتوحّد والاستقلال والقوة، فضريبة المسلمين للتحرّر ولتحرير فلسطين هي القبول بالإسلام كلاً كاملاً بما في ذلك الحجاب والحدود الإسلامية. فهذا تراثنا وهو جزء منا لا يمكننا رفضه.

لكنّ البعض الآخر من الشبان حمل رأياً مختلفاً. فالإسلام بالنسبة إليهم دين عبادات وصلاة وصوم وحج وزكاة، وهو يمثل قوة روحية للبلاد الإسلامية. لهذا وجدوا في تحويله إلى حزب وإلى حركات سياسية ومنظمات سلبيّ للدين لأنه يخلط السياسة بالدين. بل رأى البعض أن علينا أن نبقى منفتحين على فكر حديث يقوم على المساواة بين الناس في الحقوق، والعدالة بين الأفراد، والمساواة بين المرأة والرجل والحريات الفكرية والثقافية ومركزية الفرد والإنسان واحترام التنوّع.

بمعنى آخر، انطلق الشبان المعارضون للتحول من أن مقولة الإسلام هو الحل شعار فضفاض يحوي الكثير من المتناقضات ولا يحوي مشروعاً. وبالتالي رأى

بعضنا أن ما يحدث ليس ظاهرة قوة بل تعبير عن انكماش وخوف من العالم وتراجع عن منجزات عصر التنوير.

بدأ بعضنا في الكتيبة وفي الوسط السياسي المناصر لنا يصلّون بالتزام أكبر، وبدأ عدد آخر بإطلاق لحاهم، وبدأ جزء منهم يمتنع عن مصافحة النساء، حتى لو كان يعرفهن منذ عقود وهنّ بمثابة أخوات أو أمهات له.

وجدت نفسي، وسط هذا الحوار المنتشر والمتنامي، متعاطفاً بقوة مع الثورة الإيرانية، وفي الوقت نفسه مستعداً لإعطاء الإسلام ودراسته فرصة كبيرة. طوال عام ١٩٧٩-١٩٨٠ لم أترك كتاباً إسلامياً لسيد قطب ولمحمد قطب ولأنور الجندي وأبو الأعلى المودودي ولمحمد باقر الصدر ولعشرات المفكرين الإسلاميين إلا قرأته. تأثرت ببعض الموضوعات، وأعجبني بعض ما قرأت، وعمّق ثقافتي الإسلامية.

ولكن بعد مدة، فكرة تحوّلي أخافتني وأرعبتني. هل يعقل أننا كنا على خطأ طوال هذه السنوات ونحن نتبنى أفكار اليسار والطرح اللاطائفي والعقلاني الثوري؟ ماذا حصل للمفهوم العربي والوطنية التي تجمع بين المسيحي والقبطي والماروني والأرثوذكسي والكردي والشركسي والآشوري والمسلم الشيعي والدرزي والعلوي والإباضي والسنّي والبربري وغيرهم، على برامج وأهداف وغايات سياسية واجتماعية ووطنية؟

ثم بدأ التساؤل: وهل إذا تبنّينا الإسلام السياسي سنكتشف بعد سنوات طوال أن هذا السعي وقع في ظل شعارات وأيديولوجية غير مكتملة وخاطئة؟ تساءلت هل نحن في طريق الانتقال إلى فكر يقلل من فرص النقاش والاختلاف لأن فيه مقدّسات؟ شعرت لوهلة بأننا نعيش في مهبّ رياح عاتية.

* * *

بعد الثورة ببضعة شهور، جاء آية الله خلخالي، المشرف الأول على الإعدامات في إيران، بزيارة الى قواعد فتح والمقاومة الفلسطينية في الجنوب. لم أكن أراه من كثرة الشبان والمرافقين المحيطين به. وعندما رأيته إذا به رجل صغير الحجم لا تدلّ ملامحه أو مظهره على سطوة العنف والإعدامات التي جاءت مع

صعود نجمه مع الثوريين الجدد. فهو الذي أصبح الممثل الأهم لسلطة الثورة في إعدام المئات من أنصار النظام السابق أو من المختلفين مع الثورة الإيرانية. عندما جاءنا زائراً سألنا مداعباً إن كانت لدينا مشكلة بحاجة إلى تصحيح أو إذا كان أحد ما يضايقنا ليطبّق عليه قانونه. شكرناه ونحن نضحك، إذ نعرف أن طريقته في حل المشكلة هي قتلها وإعدامها.

وصل إلى الكتيبة في إطار تبادل أسرى وإطلاق سراح أسرى الشاب الإيراني (سعد) الذي أسرته القوات الإسرائيلية في حرب ١٩٧٨، وكان من مؤيّدي مجاهدي خلق. وعندما خرج من الأسر بدأ يرى أننا تغيّرنا في الكتيبة. نظر إليّ وقال: «أحترمكم كثيراً، ولكنني أخالف توجّه بعضكم الآن في تصفيقكم للثورة الإسلامية في إيران وانبهاركم بها».

ثم أردف: «حالنا لن تكون أفضل على الإطلاق من الحال السابقة، نحن نخسر حريّتنا ونعود إلى الوراء في ظل الوضع الجديد، لقد استبدلنا ديكتاتورية بأخرى». غادرنا هذا الشاب ولم يعد.

وبسبب تأثير الثورة الأسلامية تغيّرت مجموعتنا وتغيّر تيارنا من بيروت إلى الجنوب. فمنير شفيق الذي كان يرمز دائماً إلى عمقنا الفكري، وهو مسيحيّ المولد يساريّ الفكر، أعلن إسلامه، بينما حمدي وأبو حسن ومروان ساروا على الدرب الإسلامي في إطار فتح، لكنّ إسلامهم ظل يحمل عمقاً فتحاوياً هدفه إبقاء الجهد متّجهاً نحو تحرير الأرض المحتلة من الاحتلال. بقي معين في الوسط براغماتياً، بينما آخرون مثل علي أبو طوق لم يتغيّروا وظلوا على ما هم عليه في براغماتيّتهم.

أما تغريد فهي الأخرى بدأت تعيش ضيقاً من الوضع الجديد، وبدأت تعبّر عن ضيقها: «إنه انتقال كبير، وهو يختلف عمّا بدأنا نسعى إليه. أتيت إلى ثورة وطنية، وإذا بالشبان الذين مثّلوا أسلوباً ومنهجاً في النضال الوطني واليساري يتحولون نحو الإسلام السياسي». هي الأخرى حاورتني في الموضوعات الجديدة ووجدتها غريبة على ثقافتنا. حتى صديقتها شيرين وصديقي عبد الفتاح وجدتهم يأخذون موقفاً فيه بعض الابتعاد عن الأجواء والتمسك بوطنية القضية لا إسلاميتها.

لكن بصورة عامة، وجد الكثير من شبان الكتيبة والخط المناصر لها في فتح في

الإسلام معارضة لاضطهاد إسرائيل للعرب ولموقف الغرب من الصراع العربي الإسرائيلي. إلى حدّ كبير، بعضنا غضّ النظر عن الجانب الاجتماعي وجانب الحدود في الإسلام وركّز على جوانبه الحضارية والتعبوية والقتالية التي تقوّي من عزيمة الناس وقدرتهم على الحشد. هكذا انتقل بعض الشبان بمرونة وبراغماتية نحو الإسلام السياسي، بينما انتقل البعض الآخر بتعمّق وبنسبة أعلى من التشدّد.

التفكّك يضرب صفوفنا

يصحّ القول إنه مع بروز الإسلام السياسي بصورته الجارفة بعد الثورة الإيرانية، بدأ الشيعي منّا يتحول نحو شيعيّته، والسنّي بدأ يكتشف سنيّته الإسلامية، أما الدرزي فبدأ يتساءل عن موقعه في المشروع الإسلامي الجديد، ما يدفعه إلى الانضواء في ظل طائفته. والمسيحي كحال المناضلين خالد وبهية وشريف ممن وهبوا حياتهم لقضية وطنية جامعة، بدأوا يكتشفون أن المشروع الإسلامي لا يقدّم لهم الحل، بل ينظر إليهم بصفتهم مسيحيين وربما أهل ذمة. أما الذي بقي من المجموعة على يساريته أو إيمانه بأهمية فصل السياسة عن الدين، والتركيز على المشروع الوطني في مواجهة إسرائيل فهو الآخر شعر بطوق يحيط بأفكاره.

جلست مع خالد في هذه الأجواء العاصفة، تحدثنا طويلاً، قرأ لي فقرات طويلة من كتاب عن الإسلاميات المطروحة، وقد حملت جمل ذلك الكتاب تناقضات كبيرة ومخيفة في ضعفها وعدم عصريتها بل وخياليتها. سألني «هل هذا ما نريد أن نكون عليه بعد كل هذا النضال يا جهاد؟».

ثم أردف قائلاً «هل بهذا الفكر الضعيف سنحرر فلسطين وسنتقدم وننافس وننجح في استيعاب تنوّع مجتمعنا؟ أم بهذا الفكر سنزداد طائفية وقبلية وانغلاقاً وتفتتاً واقتتالاً؟ هل مشكلتنا في الأساس قلة الصلاة والصيام وغياب الحجاب والطقوس أم مشكلتنا غياب الجدية والالتزام والاستعداد والعمل وضعف حرية التفكير؟».

واستمر خالد: «يا جهاد يا صديقي، هل بدأنا نتخلى الآن عن فكر منفتح في ظل فتح وتحت مظلتها المتنوّعة التي تعترف بالتعدد لمصلحة فكر ضيّق شكلي يركز على الطقوس ويفرز الناس بين مؤمن وغير مؤمن؟ هل بدأ الفكر الوطني يموت

لمصلحة فكر طائفي فئوي يفرّق بين الناس على أمور الآخرة لا على أمور الدنيا؟ هل هذه بداية هزيمتنا وهزيمة جيلنا يا جهاد؟ هل انتهى حلمنا؟».

هز رأسه متألماً: «لقد أخفقنا، لقد أخفقنا».

بدا خالد، وهو أكثرنا تفكيراً في الشؤون الفكرية، متألماً مصدوماً ويعيش خيبة أمل لم أر في عينيه مثلها منذ أن التقيته. خالد الذي يمتلك ملامح حادة، وعينين ثاقبتين يتحدث كأنه فيلسوف، يحمل لي أخبار المستقبل التي بدأ يراها بجلاء. كان يشعر بحجم الزلزال الذي يعصف بنا من الداخل قبل ان تأتي العاصفة من خارجنا. وجدته في هذا الحوار غاضباً على نفسه وعلى ما آل إليه الوضع الفلسطيني واللبناني والعربي، وعلى ما وصل إليه وضع كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) والتيار المناصر لها.

شعر خالد وهو الذي دفع أغلى سنوات عمره لأجل القضية الفلسطينية منذ تبنّى قضية المطران كبوجي المناضل المسيحي عام ١٩٧٤ من أجل فلسطين مروراً بتبنّيه قضية النبعة مع بهية، وقتاله المشهود في السرية الطلابية على مرّ السنوات، شعر بأنه في وضع حرج.

قلت له: «بالتأكيد ليس هذا هو الفكر الذي نريده، ولكنني أشعر ببعض الضياع الآن».

واستمر خالد: «وعندما أعلن منير شفيق إسلامه ذهبت كما ذهب آخرون منّا للقائه محتجّين على انتقاله وحده إلى الإسلام السياسي بلا نقاش وبلا مشاورات. أليس في هذا فردية في القرار، وخاصة أن منير رمز متقدم للتيار وطروحاته؟».

ويستمر خالد في طرحه: «لو وقع نقاش عميق، لنجحت الكتيبة والتيار العقلاني المناضل في بلورة آراء أكثر مواكبة للمرحلة وأكثر قدرة على إعادة اللحمة إلى الصفوف. لكن هذا النقاش لم يقع، لقد انتقل من انتقل إلى الإسلام السياسي بناءً على انبهار سريع بالثورة الإسلامية في إيران والإسلام السياسي وموضوعاته، بينما تجمّد الآخرون في أمكنتهم. الفردية هي التي تحكّمت في القرار».

والأمر نفسه أكدته بهية زوجة خالد على طريقتها: «لقد انكشف ظهرنا فجأة.

فنحن تركنا عائلاتنا وانسلخنا عن خلفياتنا المسيحية المارونية من أجل العمل الوطني ولمصلحة عمل سياسي عربي».

أما شريف، الفلسطيني ذو الخلفية المسيحية الذي ترك دراسته وهو في مرحلة متقدمة من أطروحة الدكتوراه في فرنسا ليكون في النبعة في البداية ثم مع السرية الطلابية والكتيبة في الجنوب، فعارض الانتقال الفردي للإسلام السياسي. أصرّ شريف على التمسك بالفكر العقلاني والمدني المنفتح الذي صاغ السرية الطلابية وكتيبة الجرمق. لكنّ شريف هو الآخر وصل إلى طريق مسدود.

في الكتيبة وفي التيار الشبابي الفتحاوي عبّرنا عن أفكارنا بحرية، حكّمنا عقولنا في تجاربنا، بل واصطدمنا في مراحل مع الأيديولوجية اليسارية التي انبثقنا منها بحرية، فهي في النهاية اجتهاد، لا مقدسات في فكر ماو تسي تونغ أو فكر منير شفيق أو أي فكر. أما الآن فقد بدأ يدخل المقدس إلى العمل الوطني، وأصبح الأمر يخضع للدين وأحكامه. كنا تياراً فوق الطائفة والدين والفئة والقبيلة، وإذا بنا نواجه وضعاً يفرض علينا العودة إلى هذه الجذور. لم يكن أيّ منا موظفاً، لكلّ منا خيارات خارج الثورة وخارج المؤسسة واختار طوعاً أن يكون جزءاً من القضية محارباً من أجلها.

ولكن من جهة أخرى يجب التوضيح أنه رغم علمانية شبان الكتيبة، لم يكن أيّ منا قبل الثورة الإسلامية وانتشار الإسلام السياسي يمارس أي سلوك فيه استكبار على الناس. كنا نمنع شرب الكحول في قواعدنا العسكرية، ونحترم في الوقت نفسه أخلاقيات المجتمع بكل ما للكلمة من معنى. بعضنا يصلّي في المسجد وبعضنا يصوم كل شهر رمضان بلا فرض على الآخرين، بينما بعضنا الآخر لا يصلّي ولا يصوم، ولكنه يحترم عادات شهر رمضان لكل الأفراد من اليوم الأول حتى الأخير.

لم يكن شبان الكتيبة يمارسون أي سلوك سلبي تجاه الآخرين. لم يكن بينهم من يكذب أو يستخدم صلاحياته في غير مكانها. كلهم تقشّفوا، وناضلوا وتحمّلوا أكثر أنواع الحياة صعوبة. أليس هذا إسلاماً في التطبيق وفق جوهر الإسلام لا وفق قشوره؟

أصبح سعي البعض باتجاه موضوعات الثورة الإيرانية والإسلام السياسي

محاولة من قطاع من الشبان لإدامة الحلم والهدف، لكن هذا بدا لآخرين تمديداً مؤقتاً لصورة غير واقعية. كل الشبان من جيلنا في تلك المرحلة سعوا بصورة أو بأخرى إلى الإجابة عن الأسئلة التي يثيرها المأزق الاستراتيجي الذي دخلت فيه المقاومة الفلسطينية والقضية الفلسطينية في لبنان مع عام ١٩٧٩-١٩٨٠.

لقد بدأت الكثير من الأبعاد المحيطة بعالمنا تنهار وتسقط. بدأنا نفقد الزخم الكفاحي والشعبي الكبير الذي ميّز تجربتنا منذ بداياتها وبدأنا نعاني من انهيارات داخلية. وسيبدأ عدد من هؤلاء الشبان فرداً فرداً بترك جنوب لبنان والبحث عن آفاق حياة مختلفة عن كل ما قاموا به منذ بداية التزامهم بالقضية الفلسطينية. هذه نهاية مرحلة.

بدايات مختلفة: التيار الإسلامي ـ تمهيد حزب الله

لقد بدأ السيد محمد حسين فضل الله الزعيم الديني الشيعي يلقي محاضراته المهمة عن الإسلام السياسي وعن الدين من منظور جديد في منطقة الشياح. جاء إلى الجنوب في زيارات عديدة. ذهبت إلى محاضرة له وسمعت حديثه. أفكار الإسلام بدأت تنتقل بسرعة. وقد برز دور السيد فضل اللّه على نحو كبير وانتشر نظراً إلى قدراته الفكرية في ظل المرحلة الجديدة. تميّز السيد بحمله فكراً يميل إلى الانفتاح، ولكنه سيكون الطاقة التي تمدّ حزب الله بالكثير من الفكر في مراحله الأولى. سيطلق عليه لقب الأب الروحي للحزب، على الأقل لمرحلة طويلة في الثمانينيات. مع الثورة الإسلامية في إيران بدأ الانتقال نحو الإسلام يصل إلى كل مكان.

وفي الجنوب بدأنا نتعرّف إلى بدايات شكل جديد للمقاومة الإسلامية الجنوبية التي ستتصدى لإسرائيل، وستكون نواة لحزب الله المتأثر بموضوعات الثورة الإسلامية في إيران. فقد أخذني معين ومروان وأبو الفتح وأدهم عام ١٩٨٠ إلى تعارف ولقاء طويل مع شيخ بلدة جبشيت راغب حرب الذي سيدخل التاريخ بصفته أحد رموز المقاومة في الجنوب وأحد مؤسّسي حزب الله في ما بعد، وستغتاله إسرائيل بواسطة عملاء لها أثناء احتلالها للجنوب عام ١٩٨٤.

الشيخ راغب شخصية متواضعة تحمل أحلاماً كبيرة. بدأنا نتفاعل معه في حوارات عميقة ومفيدة. لقد احترم راغب حرب تجربة الجرمق والسرية الطلابية ورأى فيها شيئاً يصلح لتجربته الجديدة وهو في بداية التعبير عنها، إذ عدّ إسرائيل عدواً يجب قتاله، وخاصة في المناطق اللبنانية المحتلة في الشريط الحدودي، ورأى أن المواجهة واجب إسلامي. هذه بدايات جديدة في فهم الصراع مع إسرائيل مختلفة عن فكر أمل الوطني والمحلي. لهذا سيكون دور راغب حرب أساسياً في المرحلة المقبلة.

بدايات حزب الله برزت بهدوء بين شبان هنا ورجال دين يتحدثون عن فلسطين وإسرائيل والمقاومة. أتنسّم من راغب حرب اثناء أحاديثنا روحاً تذكّرني بما كنا عليه قبل عشر سنوات. إنها موجة جديدة تنطلق لتعبّر عن نفسها في الصراع العربي الإسرائيلي. لقد انتقد الكثير من أعضاء حزب الله حركة أمل والأنظمة العربية ومصر والسادات والسعودية، وانتقدوا أخطاء المقاومة الفلسطينية في الجنوب، وانتقدوا برنامجها السياسي في قبولها لفكرة الدولة الفلسطينية على حدود ١٩٦٧. إنهم ثوريون جدد وفلسطينيون نضالياً لكن بثوب إسلامي جديد. بدأ هذا في الوقت نفسه الذي تحوّلت فيه إسرائيل نحو بيغن وشامير واليمين.

وستكون مفاجأة كبيرة لي أن أرى صورة مازن (أنيس النقاش) في الصحف بعد محاولته اغتيال شاهبور بختيار، آخر رئيس وزراء لشاه إيران عام ١٩٨٠. كان مازن قد ترك فتح وفكرها الوطني العروبي وانضوى في صفوف الثورة الإيرانية وفكر الخميني وولاية الفقيه كما فعل شبان كثيرون آمنوا بفكر الثورة الإسلامية في إيران، ومنهم عماد مغنية الذي عمل في صفوف فتح في السابق. وقد سُجن مازن في باريس لمدة عشر سنوات انتهت بالإفراج عنه عام ١٩٩٠. إن أنيس حلّ المأزق الذي تواجهه الحركة الوطنية على طريقته، من خلال العمل مع الثورة الإيرانية والقيام بعمل إرهابي في دولة أجنبية، بينما غيره ذهب نحو الإسلام السياسي بشقّه الشيعي أو السنّي وفريق ثالث انسحب من الممارسة السياسية وفريق رابع سوف يذهب باتجاه أفكار وسطية وليبرالية بل وطروحات تؤمن بالديموقراطية والحريات أساساً لحلّ المأزق العربي.

لعنة جديدة: السخط الشعبي على المقاومة

لكن انهيار عالمنا ما كان ليكتمل بلا تبلور المشهد السلبي في العلاقة مع أهالي الجنوب. فمنذ أواسط عام ١٩٧٩، قبل تحركنا إلى منطقة النبطية، وقعت اشتباكات مسلحة تعكس بداية اهتزاز الأرض من تحت أقدام الفدائيين والمقاومة ومنظمة التحرير في لبنان في قاعدتها الأساسية.

بلغ التوتر مداه بين حركة أمل من جهة والحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة من جهة أخرى في أكثر من منطقة في الجنوب. فقد هاجمت قوة من فتح والحركة الوطنية اللبنانية ومنظمات أخرى للمقاومة الفلسطينية قرية زفتا الجنوبية الشيعية واعتقلت شباناً من حركة أمل. وقد نتج من الأمر مقتل أحد شبان أمل. وجدت نفسي أدافع عن حق شبان أمل بالحضور والعمل السياسي العلني، فقد تحركت سرية الشهيد سعد التي أقودها إلى البلدة بقرار من مروان وعلي أبو طوق ومعين لمنع الاشتباكات. نجحنا في ذلك لكنني كدت أقتل في إحدى المواجهات الهادفة لمنع الاشتباكات بين الأطراف. كم سيكون ذلك مأساوياً: أن أموت في مواجهة داخلية.

مثّل هذا انعكاساً للصراع على النفوذ، في ظل شعور الحركة الوطنية وقطاع كبير من المقاومة بأن حركة أمل الآن تنمو في الجنوب وتسهم في تراجع الحركة الوطنية وإضعافها.

لكن الذي أسهم في الفراغ في الجنوب هو أيضاً غياب القائد السياسي القادر على ضبط إيقاع الصراع بين أمل ومنافسيها أو بين أمل والحركة الوطنية اللبنانية. إن غياب الإمام موسى الصدر خلال زيارة إلى ليبيا في ٢٥ أغسطس ١٩٧٨ أفقد الطائفة الشيعية ذلك القائد الذي نجح في ضبط مواقفها السياسية. والجدير بالذكر أن صديقي محمد صالح الحسيني الذي تحمّل مسؤولية الملف الثوري بين إيران والفلسطينيين نصح السيد موسى الصدر بعدم الذهاب إلى ليبيا لوجود معلومات تفيد بحصول أمر ما له في حال ذهابه. ذهب السيد ولم يعد.

إن موقف الكتيبة في التصدي للاقتتال في الجنوب عاد علينا بالكثير من الغضب من أطراف في الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية. ولكننا وقفنا موقفاً أخلاقياً ينسجم وتاريخنا وينسجم واحترامنا للتعددية والاختلاف. لقد جعل هذا الموقف

كتيبة الجرمق الطرف الوحيد المقبول للفصل بين حركة أمل من جهة والأطراف الأخرى في الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية، بما فيها حركة فتح. أصبحت السرية الطلابية تغرّد وحدها خارج السرب في الجنوب وفي وضع صعب بين الطرفين.

لم يكد يمر يوم إلا وتأتي وفود من حركة امل لشكرنا على موقفنا المحايد، جاء لزيارتنا في الكتيبة في النبطية الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب الإمام موسى الصدر، وجاء أيضاً داوود سليمان داوود أحد قادة حركة أمل، استمرت زيارات عشرات من الكوادر من أمل للكتيبة لنقاشنا، وقد وجدنا هذا مدخلاً لتهدئة الوضع في الجنوب. شعروا جميعاً بصدق موقفنا وشفافيته وشعرنا بأننا ربما ننجح في إيقاف النزف الداخلي، لكن الموقف كان أكبر منا.

تطور الوضع الى مزيد من التفكك في الجنوب، إذ ستقع الحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٠ بينما نحن في النبطية وفي قلعة الشقيف، وستكون العلاقة بين الأطراف المتعاطفة مع إيران وتلك المتعاطفة مع العراق متوترة في الجنوب. ستقع اشتباكات وأحياناً اغتيالات لعناصر تعمل مع البعث العراقي، وسيزداد التوتر وسينعكس على كل قرية في الجنوب. ففي الساحة اللبنانية الوطنية هناك من أيّد الرئيس العراقي صدام حسين، وخاصة جبهة التحرير العربية وحزب البعث، وهذا بطبيعة الحال انعكس جنوباً على العلاقة مع حركة أمل التي أيّدت إيران ورأت أنها تعيش اعتداءً سافراً من النظام العراقي.

* * *

في مارس ١٩٨١ إذا بمحمد صالح الحسيني مهندس العلاقة بين المقاومة الفلسطينية والثوريين الجدد في إيران يُغتال بمسدّس صامت أثناء قيادته السيارة في بيروت قرب الطريق الجديدة ومنطقة المقاومة. وقد أشير في الاغتيال إلى الاستخبارات العراقية وأنه حصل بتوقيع خطّي من الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين.

عندما اغتيل الحسيني لم يكن عمره يتجاوز ٣٧ سنة. وقد علمت في ما بعد أنه

تحمّل مسؤولية الإشراف على الجانب الخارجي للحرب العراقية الإيرانية وإدارتها في الخارج، وأن هذا ما جعل صدام حسين يريد التخلص منه بأي ثمن.

كان الجو العام في الوسط الفلسطيني واللبناني غير مؤيّد لهجوم صدام على إيران. بل رأينا أن الحرب العراقية الإيرانية التي بدأها صدام حسين ستكون كارثة على الشعبين العراقي والإيراني. لكن هذا لم يمنع التوتر بين أطراف الحركة الوطنية والمقاومة من جهة وحركة أمل من جهة أخرى.

ووفق خالد «في ١٩٨١ تمركزت قوات للحركة الوطنية اللبنانية في مخيّم فلسطيني مهجور وسط النبطية لضرب مواقع لحركة أمل في بلدة حاروف المجاورة. طوّقت من جهتي المقاتلين من الحركة الوطنية وأخرجتهم من المخيّم. فللمخيم المهجور رمزية محددة، وإطلاق النار منه على بلدة لبنانية فيه استعداء للجنوب».

ويضيف خالد: «نشبت في بلدة أنصار الجنوبية مواجهة جديدة بين الحركة الوطنية والمقاومة من جهة وبين حركة أمل من جهة أخرى. فتحركت بقيادة قوة لمنع الاشتباك. وأثناء فض الاشتباك أصيب اثنان من الشبان معي وقربي. بقيت لشهرين أقود قوة من الكتيبة تفصل بين متقاتلين من أمل والحركة الوطنية والمنظمات الفلسطينية».

ويتابع خالد: «ذهبت لرؤية الحاج إسماعيل قائد فتح والقوات المشتركة في الجنوب قائلاً له: لا بد من قوة أخرى بديلة لنا كقوة فصل. لو قتلت الآن فماذا سيقول الكثيرون: قُتل برصاص من؟ أريد أن أعود إلى المواقع الأمامية في النبطية لأقوم بدوري في مواجهة إسرائيل».

رد عليه الحاج إسماعيل: «لا أستطيع، أنتم في كتيبة الجرمق الوحيدون المقبولون لدى كل الأطراف في هذا الوضع الداخلي».

منذ عام ١٩٨١ حتى وقوع الاجتياح الإسرائيلي في يونيو عام ١٩٨٢، ستتحول بعض أهم وحدات كتيبة الجرمق إلى قوات فصل بين أمل وأطراف الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية الأخرى. هذه التطورات بدأت تؤكد أن قاعدتنا الجنوبية اهتزت. لم يعد أحد في الجنوب سعيداً بما آلت إليه الأوضاع. فبسبب عنف الضربات الإسرائيلية وما تتركه من دمار وقتلى وجرحى، وأخطاء المقاومة

الفلسطينية الكثيرة، والظروف الإقليمية، ومع نموّ قوى جديدة في الحرب الأهلية اللبنانية المستمرة في بيروت ولبنان، أصبح الجنوب يريد خلاصاً. لهذا تحولت حركة أمل بوضوح إلى حركة احتجاج كبيرة على الوجود الفلسطيني في الجنوب، وهذا عنى أيضاً مزيداً من الإشكالات.

تساؤلات

وفي هذه التجربة المسلحة الطويلة التي تقوم على حرب الشعب أتساءل: هل يؤدّي حمل الحركات الشعبية للسلاح ودخولها في حرب لا نهاية واضحة لها إلى الدخول في مرحلة التفتّت والاقتتال الدامي بين الفئات التي كانت تمثل جبهة مشتركة في السابق؟ هل العنف يتعمّق عندما تقع هزائم كبرى بحيث يتحول إلى تشرذم واقتتال داخلي وفوضى؟

لقد بدأت غابة البنادق التي نشأت مع بدايات النضال والعمل الفدائي تتحوّل إلى عبء على الأحلام والأهداف التي أرادتها الحركتان الوطنيتان الفلسطينية واللبنانية؟ ويصحّ هنا السؤال: متى يكون السلاح عبئاً على حامليه ومتى يكون عوناً لهم؟ وهل ثقافتنا المقاتلة تتحول إلى ثقافة تقاتل الاختلاف والتنوع في الوقت نفسه؟ أتذكر حديث د. مصطفى شمران إليّ في بنت جبيل عام ١٩٧٧ :

«يا جهاد. . . أنتم نقطة في بحر هائج كبير، لن تنجحوا في تغيير مصير صعب يلاقي فكرتكم هنا في لبنان. تنتظركم أيام صعبة، أتمنى أن تنجحوا في تلافي الأصعب».

لقد بدأ حلمنا، حلم جيلي، يتراجع أمام ضربات عنيفة ومحكمة. مصر عقدت سلاماً مع إسرائيل، والوضع العربي ازداد انقساماً، والحرب الأهلية اللبنانية مستمرّة، وصدام الجنوبيين مع المقاومة هز القاعدة الآمنة للمقاومة. مع كل هذا بدأ الحلم يسقط والفشل الكبير يلف تجربة المقاومة في الجنوب. من كل هذا وضح لي أننا مقبلون على كارثة، والكارثة قد تتحول إلى نكبة جديدة وإلى مجزرة قادة وكوادر ومخيمات وقضية.

الفصل السابع عشر

المغادرة والوداع

بحلول عام ١٩٨١، انتابني شعور ضبابي بشأن الطريق الذي غادرت كل شيء من أجله. فالكثير من انعدام اليقين أحاط بالقضية الفلسطينية آنذاك، التي غاصت إلى حدّ كبير في الحالة اللبنانية وتعقيداتها، كما شُغلت بأثر تعقيدات وديناميات العالمين العربي والإسلامي على ملامحها. فمصر عقدت سلاماً مع إسرائيل عام ١٩٧٩، والعراق تورّط في حرب دامية مع إيران عام ١٩٨٠، والصراع الداخلي بين الفصائل الفلسطينية والحركة الوطنية من جهة وأمل من جهة أخرى قد بدأ يخرج عن أصوله، وبدأت الثورة الإسلامية في إيران منذ عام ١٩٧٩ تعصف بأفكارنا عمّن نكون وعن العالم المحيط. بدأنا نواجه منعطفاً كبيراً يشتّت تيارنا بين موضوعات الإسلام السياسي المتأثر بالثورة الإسلامية وموضوعات الوطنية واليسار كما عرفناها على مدى السنوات.

كل هذا تشابك استمر يتعمّق مع استمرار الحرب الأهلية اللبنانية ومع سعي إسرائيل إلى اجتياح واسع للبنان في ظل حكومة بيغن اليمينية وحلفائه. بدا لي أن جنوب لبنان لم يعد يمثّل قاعدة للانطلاق للحركة الفلسطينية لتحرير فلسطين أو للتوصل إلى إقامة الدولة الفلسطينية. لقد بدأ عالمنا بالانهيار وقاعدتنا الآمنة بالانكسار.

بدأ يتضح أن كل لبنان لا يخوض فقط حربه الأهلية المستمرة منذ عام ١٩٧٥ بل يعيش عدة حروب أهلية في الوقت نفسه، لا بين المسلمين والمسيحيين فقط بل أيضاً بين المسلمين والمسلمين وبين المسيحيين والمسيحيين، وبين تيارات داخل

الفئة نفسها. يكفي على سبيل المثال حرب السيارات المفخخة في تلك الفترة: ففي كل يوم تنفجر سيارة مفخخة لتحصد العشرات في المناطق الإسلامية والمسيحية في بيروت.

الحرب الأهلية استمرت كانعكاس للتدخل الإقليمي، أكان سورياً أم عراقياً أم إيرانياً أم ليبياً أم حتى سوفياتياً وأميركياً، وفوق كل ذلك إسرائيلياً، وتعكس الحرب أيضاً قسوة المتحاربين وقسوة الثقافة التي أنتجتها تلك الحرب ضد الآخر، أكان فئة أم طائفة أم ديناً أم حزباً أم حتى جماعة، وتثير أسئلة كثيرة عن علاقة الطوائف والأغلبيات والأقليات والشيعة والسنّة في العالم العربي والإسلامي. فهي صورة لما يمكن أن تكون عليه الحال في أوضاع وعواصم عربية عديدة في ظل غياب فكر إنساني منفتح ومشروع ديموقراطي متفائل بالمستقبل يسعى باتجاه التنمية والكرامة والحقوق والحريات والمساواة بين الناس.

لقد وجدت إسرائيل في كل هذا أرضية لتوسعة مشروعها ولمحاولة إنهاء ظاهرة هذا الجيل كما عرفناها في ثنايا هذا الكتاب. من هنا بدأت تقرع طبول الحرب، وعينت شارون وزيراً للدفاع وشامير وزيراً للخارجية عام ١٩٨١، وقصفت بيروت بالطائرات الحربية لأول مرة عام ١٩٨١.

بدأت أقول لنفسي ستثور هذه الأرض ضدنا من ثقل وجودنا وحدة الألم الذي يشعر به اللبنانيون بسبب الحرب المفتوحة في الجنوب. لم أكن وحدي الذي بدأت أفكر بهذه الطريقة، فأبو حسن قاسم هو الآخر ظل يكرر هذه المقولة عندما نلتقي، ولكنه يوضح بلا مواربة أنه ملتزم حتى الرمق الأخير، ولو أصبح آخر المحاربين في سبيل فلسطين.

* * *

بعد ست سنوات من الانغماس المتواصل في العمل الفدائي بدأت أتوق إلى التأمل والمراجعة. قررت أن أغادر جنوب لبنان. لقد صدم قراري المفاجئ زوجتي تغريد التي وافقتني وسبقتني إلى هذا الاقتناع منتظرةً قراري. صُدم معين. وحينما أبلغته سكت قليلاً، كأن عالماً قد أغلق أمامه إثر انسحاب أو بدء انسحاب بعض من كوادر الكتيبة الرئيسيين، ومنهم أدهم وربحي ثم رياض وشريف وخالد وهكذا.

قال لي: «لقد رُقّيت منذ يوم إلى نقيب في قوات العاصفة. أعرف أن هذا لا يغيّر شيئاً، لكنه يعكس تقديراً لما قمت به في الجنوب. أتمنى أن تفكر في القرار وأن تعيد النظر فيه».

ظل موقفي ثابتاً ولم تغيّره محاولات الرفاق والأصدقاء لإقناعي بالعودة عنه. تفاديت رؤية الأصدقاء ورؤية أبو حسن قاسم وحمدي ومروان ومعين وعلي مجدداً في بيروت أثناء تلك المرحلة. فكلّ لقاء يحمل آفاق العودة عن قراري. فهم الأكثر قدرة على إقناع الشبان الأساسيين بالبقاء والاستمرار في مواقع مختلفة.

إن قرار الانسحاب صعب، رافقه شعور أكبر بالألم وتأنيب الضمير. فأنا أتخلى عن حلم أعطيته أهم فترات حياتي. انضممت لحركة فتح وأنا في الخامسة عشرة من عمري ثم ذهبت إلى الجنوب وأنا في الحادية والعشرين من العمر، وتركت الجنوب وأنا أقترب من الثامنة والعشرين. سنوات ست في المقاومة والجنوب علمتني مئات الدروس عن الإنسان والحياة، وعن الوطنية والقتال، وعن القيادة وإدارة النفس، وعن الحرب والناس والمجتمعات، وعن السياسة والإسلام، وعن العرب والعروبة والتاريخ والجنوب والطوائف، علمتني تلك السنوات الكثير عن القضية الفلسطينية وعمقها العربي والإنساني. وقد أكسبتني هذه التجربة صلابة وهدوءاً.

بدأت أحزم حقائبي بصعوبة، بينما تقوم تغريد بالترتيبات اللازمة للانتقال، وتقلّ في حوارها معي لما أشعر به من ضيق في نفسي. وتشاء الصدف أن ينتقل معين ويسار اللذان اقترنا حديثاً إلى الشقة التي سبق لنا أن عشنا فيها في بيروت. ودّعت الشبان، تركت الجنوب، البعض تفهّم، والبعض الآخر دُهش واستنكر. في اليوم الأخير جاء معين ويسار، اصطحبانا نحن الثلاثة: تغريد وأنا وحنين ابنتي الأولى التي لم تتجاوز شهرين من العمر إلى المطار. ودّع بعضنا بعضاً وداعاً صامتاً من دون أن نعرف إن كنا سنلتقي ثانية. أخذتنا الطائرة المغادرة إلى مرحلة جديدة من حياتنا.

انتابتني مشاعر غريبة وأنا أشاهد بيروت من السماء مغادراً من دون عودة، ومتسائلاً عما ينتظرني وعما ينتظر القضية الفلسطينية بعد خروجي. أفكر في مصاعب التأقلم مع حياة جديدة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي اختبرتها في السنوات الست الأخيرة.

وبينما في الطائرة أغادر شعرت فجأة بهبّة شوق سريعة إلى حياة القتال وإلى رفاق السلاح ومواقع النضال. تلك التناقضات لازمتني طوال تلك الرحلة من بيروت إلى الكويت، وستلازمني لزمن طويل. أتساءل مع نفسي عن مصير رفاقي الذين تركتهم ورائي. هل سأقبل بعد هذه التجربة الإنسانية والكفاحية أن أكون متفرّجاً بعد أن أمضيت سنوات طويلة صانعاً للحدث؟

أنظر إلى تغريد وأنا في الطائرة فأقول لها: أشعر بضيق كبير، تركت أعزّ شيء ورائي. لا أعرف كيف سأعيش بعيداً عن هذا الحلم؟

تحاول التخفيف عني: «ستخدم قضيتك من موقع آخر».

فأرد: «أنا أترك أصدقائي ليقاتلوا وحدهم وأترك من سقط شهيداً من دون أن أحقق رغبته وأمنيته».

أفكر في المستقبل، لكنني مشدود إلى الماضي وإلى كل شهيد سقط وإلى كل معركة عشتها وإلى كل دقيقة أمضيتها على التلال وفي الأودية بين شبان من جيلي حاولوا واجتهدوا وقاتلوا وقتلوا من أجل فلسطين ومن أجل ردّ الاعتبار إلى أمة جريحة. تذكرت بنت جبيل، وجبل عامل، ومعارك الجنوب والتلال والجبال. شعرت أثناء مغادرتي كأنني أودع شهيداً جديداً، أو أودع أعز صديق لي سقط إلى جانبي. المغادرة كالشعور بالموت. كان الشعور في مكانه فأنا كنت في تلك المغادرة أودع «جهاد» الذي أحببته، كما صادقته، وحاولت أن أصنع من دوره ذلك المقاتل والمكافح من أجل حق سليب ومجتمع تجرّع من سموم النكبة وآلام الشتات وغياب الحقوق الشيء الكثير. كنت أترك ورائي «جهاد» صامتاً متقبلاً متألماً حزيناً ومشتتاً.

قصة جيل

لقد تركت فتح وجناحها العسكري قوات العاصفة، وتركت ورائي ظلي الحقيقي وصديقي مدى الدهر في نفسي: «جهاد». لقد كرّست جزءاً كبيراً من هذا الكتاب لرواية سيرته المقاومة وسيرة الكثير من أصدقائه ورفاقه من خلاله تجارب أساسية لحركة فتح، وبتركيز رئيسي على تلك القوة المكافحة في صفوفها: السرية

الطلابية - كتيبة الجرمق. لم تغادرني هذه السنوات في معانيها ودروسها وعمقها.

وكما يؤكد هذا الكتاب (وفي هذا أهمية تأريخ التجارب العربية المقاومة والتعلم من دروسها وفهمها فهماً إنسانياً وحقيقياً صادقاً) جيلنا رد بطريقته على أزمة العالم العربي وهزيمة ١٩٦٧. لقد أعطى من روحه، حمل جروحه وآماله، سعى وكدّ، سقط واستشهد وجُرح وسُحل وعُذّب ولوحق من أجل أن يعيد حقوقاً سليبة ومن أجل عدالة مسحوقة. انتقل جيلي من حرب إلى حرب ومن موقع صعب إلى آخر أصعب منه من دون أن يحقق آماله التي حركت التزامه.

لقد وقعت على هذا الجيل مسؤولية أخرى ألا وهي إدامة شعلة القضية الفلسطينية والحفاظ عليها في الشتات حيث قاعدتها المتقلبة في ظل حصارها وتراجعها عالمياً وعربياً، وفي هذه المسؤولية نجح جيلي في إدامة الشعلة. فقد أراد قبل كل شيء ألا تتحول فلسطين إلى قضية منسية، لهذا أبقاها حيّة في الضمائر وعلى مدى الأزمان. لم يحقق جيلي حلمه الأكبر والأهم الذي ألهم خياله في تحقيق العدالة في فلسطين، لكنه حمى القضية الفلسطينية من التصفية في ظل تراجعات استراتيجية وانكسارات أساسية واهتزاز الأرض تحت أقدامه. فمنذ عام ١٩٧١ وخروج المقاومة من الأردن ووفاة جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ والقضية الفلسطينية في حصار وانحسار، وهو انحسار يعكس تآكل العالم العربي وموقعه وقضاياه، لهذا أصبح دور المقاومين من أبناء جيلي متركّزاً في الدفاع عن قضية محاصرة وشعب مطارد وعروبة مشتتة.

تركت العمل الفدائي، وأنا أعي جيداً كم احتوى على بعض أفضل شبان العرب وفلسطين ولبنان، وكم احتوى على قادة حقيقيين ماتوا أمام حدة التطويق والإبادة في زمن انحسار العرب وضعف قدراتهم وعلومهم وأنظمتهم وإدارتهم وحرياتهم وحقوقهم وحياتهم، وفي ظل تفكّكهم وتوترهم وتناقضهم مع أنفسهم ومع عصرهم. في هذا قتالنا هو قتال الأقلية المدافعة، كما أكد لي أبو حسن قاسم كلما ضايقته وآلمته التطورات أمام تشتت العرب وتفوّق الآلة والعدد في الجانب الإسرائيلي.

عشت في الوقت نفسه في هذه التجربة عملية المزج بين ما هو ممكن وما هو

غير ممكن، بين الحلم والحقيقة، بين المتوقع وغير المتوقع. عشت تناقض الأفكار وتحول النظريات وانتقال المسلّمات من تحرير كل فلسطين إلى تحرير بعض من فلسطين، ومن عروبة المعركة ووطنيتها إلى إسلامية المعركة، عشت على الحدود مع كل هذه الأفكار في التجربة الحية حيث يجرّب كل شيء وحيث يحسم الواقع بقساوة كل توجّه.

حركة فتح مثّلت لجيلي أكاديمية ومكاناً للعطاء وللتعلم. تعرّفت من خلال فتح إلى القضية الفلسطينية، عشت ثناياها وآلامها من محطة إلى أخرى، تعرّفت إلى المدافعين عنها. وكما كان هناك قبلنا من قاوم وتصدى، فسيكون هناك غيرنا في المستقبل. فالقضية الفلسطينية لن تموت قبل وصولها إلى عدالة إنسانية تريح عشرات الآلاف من الشهداء الذين سقطوا من أجلها.

قد تكون فتح في أصالتها الأولى التي عرفتها عن كثب في التاريخ العربي الحديث هي آخر حركات التحرر الوطنية المستقلة المتصدية للاستعمار على وزن جبهة التحرير الجزائرية في العالم العربي. فالفارق بين الحركات التحررية في العالم العربي، والتجربة التحررية الفلسطينية، نجده في طبيعة التوسّع الاستيطاني وطبيعة إسرائيل ومشروعها الذي واجهته فتح، وفي حجم مصاعب العمق العربي المحيط بفلسطين. وستفقد تلك الحركة الكثير من زخمها في مراحل لاحقة، ولكن قد تجدّد نفسها أو ينبثق منها أو من غيرها من الحركات ما يجدّد الطريق، ولكن حتى ذلك التاريخ عبّرت تلك الحركة عن قوة وجماهيرية وانتشار.

الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ : نهاية عالم

عندما غادرت لبنان، كان مقبلاً على مواجهات أكبر ستهز جيلي وستضعه في فوهة بركان، إذ غزت إسرائيل لبنان بقوات تجاوزت ٧٥ ألف جندي وأكثر من ألف ومئتي دبابة ومئات الطائرات في مواجهة ما لا يزيد على ١٥ ألف مقاتل من فتح وجميع تنظيمات الحركة الفلسطينية والوطنية اللبنانية. وقد حاصرت إسرائيل بيروت عام ١٩٨٢ في حرب استمرت أكثر من ثلاثة شهور. وقد قتل في الاجتياح عشرات الآلاف من الأبرياء وخرجت منظمة التحرير من لبنان. وتُوّج هذا باحتلال إسرائيلي

مباشر لبيروت وبارتكابه مجازر صبرا وشاتيلا التي أودت بحياة ما يقارب ٢٠٠٠ مواطن فلسطيني. مثّلت هذه جزءاً من حصار القضية الفلسطينية وبداية اختفاء عالم كامل بأفراده وسكانه وأزقته ومقاوميه كما وضح في ثنايا هذا الكتاب[١].

أثناء ذلك الاجتياح بدأت المعركة الأولى في ساعات الليل بين قوات الكوماندوس الإسرائيلي والشبان المدافعين عن قلعة الشقيف (بوفورت) من كتيبة الجرمق. قاتل راسم (يعقوب سمور) في قلعة الشقيف مع شبان الكتيبة في معركة تكبّد الإسرائيليون فيها خسائر. استشهد راسم ومعه المقاتلون في القلعة.

ويصف زئيف شيف، المحلل الأمني الإسرائيلي البارز، المفاجأة التي وقعت في قلعة الشقيف في كتابه عن الحرب: عندما أتى بيغن بالمروحية وحطّ في القلعة بعد انتهاء المعركة بساعات ومعه وزير دفاعه أرييل شارون للاحتفال بأخذ القلعة بلا خسائر، استفزّ السلوك الفرح لبيغن وشارون أحد الجنود الإسرائيلين فصرخ: «عمَّ تتحدثون؟ قُتل ستة من رفاقي هنا في هذا الموقع». لم يكن رئيس الأركان رفائيل إيتان قد علم بحجم المعركة التي خاضها راسم ورفاقه إلا قبل دقائق، ولم يكن قد أبلغ بيغن وشارون أن الفلسطينيين في القلعة قاتلوا ببسالة حتى النهاية، وأنهم لم ينسحبوا أمام القوات الإسرائيلية[٢].

هذه الحادثة هزّت مناحيم بيغن الذي كان ينوي أن يتجه إلى مناطق أخرى في الجنوب دخلتها القوات الإسرائيلية بعد أن يحتفل بتحرير القلعة، فقد عرف أن معركته مع الفلسطينيين وأنصار قضيتهم من العرب لن تنتهي في القلعة أو في لبنان.

ولكنّ راسم أيضاً ترك خلفه زوجته آمنة مع طفل صغير بينما هي حامل بطفل آخر. ستكون آمنة محاصرة في بيروت طوال الشهور الثلاثة. إن الثمن الكبير الذي تدفعه أسر الشهداء ما زال كبيراً بأبعاده الاجتماعية والإنسانية والتربوية، بما فيها الضائقة الاقتصادية الكبيرة التي ستمرّ بها كل أسرة شهيد.

---

(١) Rashid Khalide, *Under Siege. P.L.O Decision making during the 1982 war*, New York: Columbia University Press, 1986, p. 43.

(٢) Zeev Schiff and Ehud Yaari, *Israel's Lebanon War*, New York: Simon and Schuster, 1984, pp. 129-131.

في تلك الأحداث، من القلعة وصولاً إلى مواجهات البقاع، ستفقد الكتيبة عدداً من أهم عناصرها: حسن بدر الدين (أبو علي)، والمهندس محمود الرمحي وسامر صدقي طبنجة وبسام تكروري ومحمد علي أبو عاصي وعوض صالح ضرار من فلسطين، ومصطفى سليمان (عبد الكريم) من لبنان، ومحمد أحمد درمان وعبد الكريم الكحلاني من اليمن.

في تلك الحرب نجح علي أبو طوق الذي أصبح قائد سرية الشهيد سعد (قاد حملة تحصينات وإعداد كبيرة في القلعة والنبطية ومحيطها قبل الحرب) في إدارة معركة القلعة والمعارك في منطقة النبطية. ونجح علي في اعتقال الطيار الإسرائيلي الذي أسقطت كتيبة الجرمق طائرته فوق كفردونين في الجنوب. لقد أبقى علي الطيار الإسرائيلي في حمايته إلى أن أوصله إلى بيروت، بينما تتدفق القوات الإسرائيلية لاحتلال كل الجنوب والجبل وصولاً إلى بيروت.

في النبطية جُرح معين قائد الكتيبة جروحاً بالغة، فنُقل إلى صيدا حيث أجريت له عملية جراحية قبل إطباق القوات الإسرائيلية على المدينة، فنقله صديقاه حمدي وعمار، وشريف (مرافق أبو جهاد)، بمساعدة من شبان الجبل والشوف من السرية الطلابية (الجرمق) من العارفين بشعاب المنطقة، عبر جبال لبنان وطرقها الفرعية تحت القصف ليضعوه في المستشفى نفسه حيث ترقد زوجته يسار التي ولدت أول مولود لهما. وقد نجح فصيل من الجرمق في استعادة تلة شرحبيل من القوات الإسرائيلية فوق مدينة صيدا لساعات، لكنّ إسرائيل ستشن هجوماً مضاداً وتعيد احتلال التلة.

أما بلال قائد كتيبة الأوسط (محمود الشريف طاهر)، القائد المتميّز لتلك الكتيبة في الجنوب، فقد خاض حرب ١٩٨٢، كان بلال شجاعاً حتى النهاية، قاتل مع قواته واختفت كل أخباره. دفن في مكان ما في الجنوب، وعلى الأغلب دفنته القوات الإسرائيلية الزاحفة.

أما مروان فقد صودف وجوده، مع بدء الحرب، في دورة عسكرية على مستوى الأركان في موسكو. وعندما عاد من الدورة التي لم يستطع إكمالها، وجد عالماً مختلفاً. هذه المرة عاد إلى البقاع اللبناني، حيث لم تصل القوات

الأسرائيلية، ليساعد رفاقه المحاصرين في بيروت، فبدأ بتجميع ما يستطيع من مقاتلين للتصدي للقوات الإسرائيلية في الجبل. هناك التقى مع أبو الفتح، ضابط عمليات كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) وخاض مواجهات الهدف منها تأمين قتال تراجعي في وجه القوات الإسرائيلية المتدفقة. نجح أبو الفتح في ضمان انسحاب منظّم لعدد من شبان الكتيبة إلى مناطق لم تصلها القوات الإسرائيلية، ثم في البدء بحرب عصابات وعمليات قتالية ضد قوات الاحتلال.

* * *

لم يكن أمراً سهلاً أن يقع كل هذا وأنا خارج لبنان، رفعت الهاتف متصلاً، فوجدت أبو حسن قاسم في منطقة الجامعة العربية (الطريق الجديدة) التي تتعرض كل يوم لغارات الطائرات والقاذفات. فوجئت بأن هاتفه ما زال يعمل. سررت لسماع صوته، أخبرني عن الجميع فرداً فرداً، وعن راسم والقلعة وعن معين وحمدي والبقية. لكنه عبّر عن انزعاجه من جرّاء سرعة اختراق إسرائيل منطقة الجبل حيث وجود سوري كثيف، ومن استقبال جماعات الكتائب والأحرار الجيش الإسرائيلي في مناطقهم. «ما وقع تعبير عن وضع عربي سيّئ وتصرُّف النظام السوري في الجبل معيب مثل حرب ١٩٦٧، لكننا سنقاتل، وستكون في بيروت معركة كبيرة، هناك تصميم على هذا في بيروت».

قلت له: «قد تجدون أنكم في النهاية مضطرون إلى مغادرة بيروت المحاصرة من كل الجهات. يجب أن تكون لديكم خطة لهذا الاحتمال، كما أن سوريا لن تتورط في هذه الحرب إلا بحدود، عليكم أن تدخلوا هذا بحساباتكم».

ردّ أبو حسن، العملي في أفكاره: «سيكون لكل حادث حديث. سنقاتل الآن بكل ما أوتينا من قوة» تلك هي آخر محادثة مع أبو حسن قاسم. لم نتواصل بعد ذلك.

ستحاصَر في بيروت القيادة الفلسطينية التي ستقرر خوض المعركة بقيادة عرفات وأبو جهاد وسعد صايل (أبو الوليد) القائد العسكري المحترف للقوات الفلسطينية، وستكون هذه المعركة أطول حرب في الصراع العربي الإسرائيلي منذ حرب

١٩٤٨، وستسجَّل للمقاتل الفلسطيني اللبناني والعربي المنضوي ضمن مشروع المقاومة بسالة وإرادة.

ستنتهي تلك الحرب بانتقال ياسر عرفات المحاصر وكل القيادة الفلسطينية وآلاف المقاتلين الفلسطينيين من جميع المنظمات الفلسطينية من بيروت المحاصرة، وبينهم حمدي وأبو حسن ومنير شفيق ومعين ومحمود العالول وعلي أبو طوق وبقية الشبان المقاتلين في الكتيبة وعائلاتهم، بعد اتفاق رعته الولايات المتحدة، إلى دول عديدة وإلى مناطق البقاع اللبناني حيث الوجود السوري الكثيف وحيث لم تصل القوات الإسرائيلية. أصبح الانسحاب هو السبيل الوحيد لمنع تدمير ما بقي من بيروت التي عاشت حرباً يومية على مدى ثلاثة شهور متتالية.

توّجت إسرائيل وجودها في بيروت بالسعي لانتخاب رئيس القوات اللبنانية بشير الجميّل رئيساً للبنان، لكن بشير الجميّل لن يصمد كثيراً أمام حدة التغيرات، فقد رفض طلباً إسرائيلياً باتفاق سلام منفصل مع إسرائيل ثم وقع حادث تفجير كبير لمقر الكتائب في بيروت قبل تسلّمه مركز الرئاسة رسمياً أودى بحياته وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر. اتهم الحزب القومي السوري ذو التوجه القومي بحادثة الاغتيال.

صبرا وشاتيلا

بعد خروج منظمة التحرير بأيام من لبنان وبعد اغتيال بشير الجميل، ستقع مجزرة صبرا وشاتيلا في السادس عشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢. فقد نقلت القوات الإسرائيلية قوات سعد حداد وسامي الشدياق بالباصات إلى حدود مخيّم صبرا وشاتيلا وأطلقتهم وقد توجهت أيضاً أطراف من القوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة إلى المخيم. وبرغم الوعد الأميركي بحماية المخيمات الفلسطينية، إلا أن الوعد لم ينفذ، إذ انسحبت القوات الأميركية والفرنسية الدولية التي أشرفت على انسحاب منظمة التحرير من لبنان، بينما اقتحمت القوات الإسرائيلية بيروت الغربية وطوّقت المخيمات. وبعد المجزرة ظهرت ردود فعل عالمية تجاه ما وقع، وسط اتهام شارون بالمسؤولية عن تنفيذها.

وفي المقابل أعلن سعد حداد بعد حرب ١٩٨٢ نفسه حاكماً لمعظم منطقة جنوب لبنان، إذ أنشأ «دولة لبنان الحر»، وعيّن الشدياق نائباً له. لكن ستكون هذه الأحداث الكبيرة بداية نهاية الشدياق وحداد، وبداية بروز خليفة حداد، أنطوان لحد. سيموت حداد عام ١٩٨٤ ويخلفه الجنرال أنطوان لحد.

معتقل أنصار

في الوقت نفسه أقامت إسرائيل معتقلاً كبيراً في الجنوب وضعت فيه الآلاف من أبناء المخيمات الفلسطينية والجنوب ومن المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب الذين اعتقلتهم، من بينهم الكثير من أصدقائي من التنظيم المؤيّد للكتيبة في الجنوب ولفتح وللعمل الفدائي.

أحد هؤلاء صديقنا أبو نضال، وهو من أول مناصري الكتيبة في الجنوب عند قدومها عام ١٩٧٦. أبو نضال في أواخر الأربعينيات وهو من الجنوب من بلدة برج قلاويه.

وكمثال آخر، بدأت خديجة (أم كفاح) بعد اعتقال زوجها الجنوبي محمد، النشط في التنظيم الطلابي المساند لفتح والعامل عن قرب مع السرية الطلابية، بالتحريض على تظاهرات دائمة أمام معتقل أنصار. وقد استمرت بتنظيم الاحتجاج، ما عرّضها للاعتقال في المعسكر ذاته حيث زوجها.

استخبارات إسرائيلية وتحقيق مع يوسف

يمكن فهم الوضع الجديد مع سقوط معظم لبنان في قبضة الاحتلال الإسرائيلي، من خلال قصة صديقي يوسف ابن بنت جبيل وصديق حسان شرارة الذي عمل بنشاط معي ومع السرية الطلابية، في مرحلة بنت جبيل قبل حرب ١٩٧٨. استمر يوسف بنشاطه، لكنه ركز على بناء أسرة بعد حرب ١٩٧٨. ومع وقوع الجنوب كله تحت الاحتلال عام ١٩٨٢، جاءت قوات الاحتلال الإسرائيلي إلى منزله الجديد في إحدى قرى الجنوب التي احتُلت واعتقلته. فقد تذكّره الإسرائيليون من تلك المرحلة وأرادوا تصفية الحساب معه.

حقق معه ضابط إسرائيلي مستخدماً اسم «أبو النور» وهو يجيد العربية (وقد تسلّم مسؤولية بنت جبيل بعد احتلالها من قبل القوات الإسرائيلية عام ١٩٧٨) وكان في الغرفة ضابط إسرائيلي آخر لم يتكلم كلمة واحدة، بوجود عميل لبناني اسمه فوزي الصغير من بنت جبيل وآخر اسمه حيدر دايخ (سيُقتل العميلان بعد ذلك لانكشاف هويتهما على أيدي المقاومة اللبنانية التي برزت بعد ١٩٨٢). استمر التحقيق مع يوسف على مراحل، واحدة منها اعتقاله لمدة خمسة عشر يوماً.

الضابط الإسرائيلي: إذاً أنت مع فتح وتعمل مع كتيبة الجرمق؟

يوسف: تعاونت مع السرية الطلابية، وأفتخر بهذه العلاقة، وخاصة أثناء وجودها في بنت جبيل.

الضابط الإسرائيلي: أنت ملازم في فتح.

يوسف: كلا، لا رتبة عسكرية لي على الإطلاق.

الضابط الإسرائيلي: لكنك تعاونت معهم.

يوسف: نعم. وبصراحة لأن بلدي مهدّد، لأنهم دافعوا عن مدينتي، ولو عادت الظروف نفسها لتعاونت معهم. لم أؤذ أحداً في تعاوني معهم، بل دافعت عن بلدي.

الضابط الإسرائيلي: وماذا عن علاقتك بجهاد ومعين ومروان.

يوسف: علاقة طيبة. كانت علاقتي أساساً بجهاد، وهو المسؤول المباشر عن بنت جبيل. إنها علاقة تقوم على مساعدتهم ودفاعهم عن مدينتي وبلدي.

الضابط الإسرائيلي: لماذا لا تعمل معنا إذاً كما عملت معهم؟

يوسف: أنتم احتلال أجنبي يجب أن تخرجوا من بلدي.

الضابط الإسرائيلي: هم أيضاً احتلال وغرباء وأنت تعاونت معهم، فلماذا لا تتعاون معنا؟

يوسف: لم يكن الفلسطينيون في بنت جبيل والجنوب محتلين. جاؤوا برغبتنا، دافعوا عنّا وعن قرانا وعملنا معهم انطلاقاً من أن ما يربطنا بهم هو القضية ذاتها والدين واللغة والقومية والأحلام. لقد عملوا معنا بإخلاص وحموا بنت جبيل

ومناطق كاملة من اجتياح سعد حداد في ذلك الوقت. أما أنتم فموجودون هنا بالقوة والاحتلال.

سيُطلق سراح يوسف بعد خمسة عشر يوماً متواصلاً من التحقيق. لم يُضرب أو يُعذب طوال مدة التحقيق، ولم تكن هناك أي إساءة جسدية إليه. وسيُفجّر حزب الله مبنى الاستخبارات الإسرائيلية الذي اعتقل فيه يوسف بعد يوم واحد من مغادرته المبنى، وسيكتشف يوسف بعد إطلاق سراحه أنه سيبقى ملاحقاً وأن الإسرائيليين سيحاولون متابعته. لقد أدّى هذا بيوسف إلى الهجرة نهائياً من لبنان إلى أوروبا والاستقرار مع أسرته هناك.

مزيد من القتال

بعد معركة بيروت التي استمرت قرابة ثلاثة شهور، سيحاول مروان وأبو الفتح وعلي أبو طوق إبقاء الحلم وإعادة تفعيله في لبنان من خلال إعادة العمل الفدائي إلى لبنان والمقاومة إلى قاعدتها الآمنة المفقودة، إذ سيقودون عدة عمليات ناجحة ضد خطوط إمداد الاحتلال الإسرائيلي في منطقة الجبل والشوف، لكنهم فعلوا ذلك باسم جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية. وقد تحولت كتيبة الجرمق إلى أحد أعمدة هذا التحرك.

في الجبل سيقع مروان جريحاً في إحدى المواجهات. سيُستشهد من كتيبة الجرمق أبو علي (كمال النعلاوي) الذي أسرته إسرائيل في حرب ١٩٨٢ ثم حفر نفقاً من سجن أنصار وهرب قبل أن يكون مسؤولاً عن عدة تفجيرات ضد باصات الجنود الإسرائيليين تنتهي باستشهاده. وسيكون جزءاً من هذه المقاومة عشرات الشبان من الكتيبة، منهم علي أبو طوق وأبو الفدا ومحمود العالول، وسيبدأ عدد من الشبان والشابات العاملين في تنظيم التيار الطلابي لفتح بمساعدة هذا الجهد. سنجد أحمد يأتي من بيروت متطوّعاً ليشارك في عمليات مسلحة في الجنوب، وسيسقط في هذه المواجهات عدد من عناصر الكتيبة: حاتم الجيوسي (جاسم)، ونادر إسماعيل سمارة، ومحمد سمور (فادي)، وصالح محمد حسن، وجميعهم من فلسطين.

في هذا الإطار ازداد تطويق المقاومة الفلسطينية، فالنظام السوري هو الآخر لا يريد بقاءً للمقاومة الفلسطينية في لبنان، لهذا أحدث انشقاقاً رئيسياً في حركة فتح.

مرة ثانية سيجتمع معين ومروان وعلي أبو طوق ومحمود العالول وعشرات الشبان من الجرمق وبقايا التيار الشبابي اليساري في مدينة طرابلس أيار/مايو ١٩٨٣، ومنهم د. عصمت وأخوه أبو داوود وهما من أبناء طرابلس وقادتها ومن مؤسسي السرية الطلابية، وذلك في مواجهة مجموعات الانشقاق من فتح بقيادة أبو موسى وأبو خالد العملة وأبو صالح المدعومين من سوريا. ستدور معركة تستمر لشهور في طرابلس بقيادة عرفات الذي عاد سراً من تونس بواسطة البحر إلى طرابلس. سيتضامن العديد من الشبان من التنظيم الطلابي في بيروت وطرابلس مع شبان كتيبة الجرمق (السرية الطلابية) المحاصرين في طرابلس. لهذا ستأتيهم الإمدادات وسينجحون في حماية المقاومة الفلسطينية وأنفسهم في طرابلس من التصفية.

لكن ما هو واضح: أصبحت المسافة أبعد عن حدود فلسطين، وأصبح القتال الآن في طرابلس لا في بنت جبيل. لقد بدأت كل المعادلات تتغيّر، لم تعد هناك قاعدة آمنة للانطلاق.

سيكون أبو جهاد إلى جانب عرفات وذلك بعد أن اغتيل الرجل الثالث في هرم القيادة العسكرية في منطقة البقاع العميد سعد صايل (أبو الوليد) قبل الاشتباكات بفترة قصيرة. وستنتهي معركة طرابلس المستمرة طوال صيف ١٩٨٣ بموافقة ياسر عرفات والمقاتلين على الخروج من طرابلس إلى تونس بواسطة سفينة عملاقة تحمل كل المقاتلين وعائلاتهم. بعد طرابلس سينتقل كل منهم إلى شتات جديد في أمكنة مختلفة في العالم العربي.

ربما لهذا تحديداً قرر عرفات أثناء انتقاله في السفينة أن يتوقف في مصر ليقابل الرئيس حسني مبارك. هذه أول مرة يلتقي الرئيس مبارك منذ وقّع السادات الذي اغتيل عام ١٩٨١ على اتفاقات كامب ديفيد ومقاطعة العالم العربي لمصر عام ١٩٧٩. هذه إشارة إلى محاولة عرفات البحث عن طريق جديد بعد بيروت والبقاع وطرابلس.

العالول وأكبر صفقة تبادل أسرى في تاريخ الصراع

أثناء حصار طرابلس سيكون مع محمود العالول ستة أسرى إسرائيليين نجح في أسرهم في منطقة الجبل في عملية واحدة أثناء الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢.

العالول نجح في إخفاء موقع الإسرائيليين الأسرى حتى عن قائديه عرفات وأبو جهاد. أراد أن يفاوض ليصل إلى أفضل الشروط قبل الرحيل الكبير من طرابلس عام ١٩٨٣. وأثناء الصعود على متن السفينة استمرت المفاوضات مع الصليب الأحمر وأدت إلى إطلاق سراح خمسة آلاف سجين فلسطيني ولبناني من سجناء حرب ١٩٨٢ ممن اعتقلوا في معسكر أنصار في جنوب لبنان المحتل، كذلك أطلقت إسرائيل في الصفقة نفسها جميع السجناء المرتبطين بالأعمال العسكرية أو الفدائية القادمين من البحر وعددهم يقارب ستين، إضافة إلى مئة سجين من الأراضي المحتلة من المحكومين أحكاماً مؤبدة. لكنّ محمود الذي أسر بالأساس ثمانية جنود إسرائيليين، كان قد أعطى اثنين من الأسرى للجبهة الشعبية – القيادة العامة التي يقودها أحمد جبريل، والقريبة سياسياً من سوريا، لقاء تهريبهم جميعاً عبر حواجز الجيش السوري في البقاع. قام أحمد جبريل بصفقة تبادل عام ١٩٨٥.

لبنان بعد خروج منظمة التحرير

سيؤكد التاريخ أن خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان في ١٩٨٢ بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان أو من لبنان ككل عام ١٩٨٣ لن ينهي الحرب الأهلية في لبنان، إذ ستتعقّد أكثر وبلا هوادة لتسع سنوات أخرى موقعة الانشقاقات والاقتتال في داخل الصف المسيحي نفسه والصف المسلم نفسه حتى عام ١٩٩١ واتفاق الطائف. وسيجد شباب الكتيبة من اللبنانيين العيش في لبنان مختلفاً عما عرفوه في الماضي. فبعضهم سيفقد حياته اغتيالاً في ظروف صعبة وبعضهم سيُعتقل، بينما سيغادر عدد كبير منهم لبنان لسنوات طوال قبل أن يفكر في العودة. سيكون ذلك إيذاناً بإغلاق الباب على مرحلة وعلى جيل عربي.

إن معركة بيروت وإخراج منظمة التحرير سوف يؤديان إلى بروز مقاومين جدد أكثر تشدداً. وسيأتي مكاننا المقاومون المتديّنون الإسلاميون. أما إسرائيل فستعاود

فتح سجن أنصار لتبدأ مرحلة جديدة من سجن آلاف المقاومين اللبنانيين في ما عُرف بأنصار ٢.

هكذا سيأتي إلى الجنوب بعدنا حزب الله الذي سيخوض حرباً طويلة وحروباً مفصلية ضد إسرائيل، مستفيداً من تجربتنا المقاومة السابقة ومن تجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق وبانياً عليها الجديد. كذلك فإن عدداً من عناصر الكتيبة من الشبان الجنوبيين الذين هم من الشيعة أساساً سيجدون مكاناً رئيسياً لهم في تشكيلات حزب الله وهيئاته القيادية ونضاله.

تاريخ هذا الصراع يؤكد أن كل حرب ستؤسس للتي تليها، وكل عنف سيخلق مقاومين جدداً. فحزب الله مثّل إحدى أهم القوى التي ستبرز بعد حرب ١٩٨٢. لم يكن الحزب سوى مجموعات صغيرة، من خلال المقاومة نجحت في بناء قوة جديدة امتصّت كل الإنجازات التي حسبت إسرائيل أنها حققتها جرّاء غزوها عام ١٩٨٢. في هذا تميّز الحزب وحاز الكثير من التقدير في الشارع اللبناني والعربي.

مزيد من الموت وتشتّت التيار

بعد انسحاب إسرائيل من بعض المناطق اللبنانية وتحصنها في مناطق أخرى ومنذ عام ١٩٨٤ سيكون أبو الفتح (ذياب العلي) عملياً ممثل فتح في لبنان. أما علي أبو طوق، فوجد نفسه بتنسيق مع أبو الفتح محاولاً استعادة بناء القاعدة التي تمكن المقاومة من أن تنطلق منها. عاد علي أبو طوق إلى مخيم شاتيلا في بيروت مع عام ١٩٨٥ وبدأ تحضيراته لاستعادة دور المقاومة. تتذكر رجاء أنه جاءها اتصال وإذا هو من علي أبو طوق. اتفقت على لقاء معه. «في البداية لم أعرفه، هذه أول مرة أرى علي من دون لحيته التي تحيط بوجهه. فوجئت بمنظره، فهو يبدو صغير السن، ويبدو بريئاً في ملامحه. تحدثت إليه، اتفقنا على التواصل، لكن ذلك كان آخر لقاء».

لكنّ التوترات الأمنية الكبيرة بين حركة أمل وسوريا من جهة وفتح من جهة أخرى هدّدت مشروع علي في إعادة بناء تلك القاعدة. كما أن سوريا وحركة أمل بالتحديد لم تكونا لتتقبلا عودة الوجود الفلسطيني المسلح إلى لبنان. حاول أبو

الفتح الذهاب لرؤية علي في مخيم شاتيلا، لكنه وقع في كمين محكم لأحد الأطراف المرتبطة بسوريا، الذي سلّمه لها لاحقاً، حيث سيُسجن لسنوات ست وسيعاني من التعذيب ومن ظروف سيئة، من عام ١٩٨٥ إلى ١٩٩١.

أما علي أبو طوق، فوجد أنه غير قادر على التخلي عن سكان المخيّم في ظل سعي حركة أمل للسيطرة على المخيم. لهذا قرر أن يدافع عن المخيم حتى النهاية.

ستحاصر حركة أمل علي أبو طوق في مخيم شاتيلا في ما سيعرف بحرب المخيمات. سيقرر علي القتال حتى النهاية بشرف وبالتزام، وستكون الصدفة الأليمة أن يتواجه علي أبو طوق مع حركة أمل التي أسهم في حمايتها بنفسه في مرحلة سابقة عندما استهدفتها أطراف الحركة الوطنية والمقاومة. ومن غرائب الصدف أيضاً أن يكون حزب الله قد بدأ يتطور في لبنان ويزداد قوة، فيساعد علي ورفاقه سراً بإرسال ما يستطيع من دعم بعدما حاصرت المخيّم قوات أمل. حركة أمل مثّلت في ذلك الزمن الحزب الأكبر في الطائفه الشيعية، ولم يكن حزب الله ذو الطابع الديني الإسلامي في ذلك الوقت سوى تنظيم سرّي صغير في بداية صعوده.

استمر علي في القتال حتى موته، كان موته مدوّياً، امتدّ عبر ساحات كثيرة وعبر تيارات وجماعات، كان علي اسماً لامعاً، شاباً يمتلك حساً مرهفاً بقضيته، لكنه حمل جرأة كبيرة، وثقة وقدسية في العمل. علي كان قديساً بالنسبة للكثيرين، قرّر أن لا يحيا ليرى بعضاً مما سيحل بقضيّته في ما بعد، قاتل للنهاية ومات كفدائي ملتزم: حاملاً روحه على أجنحة العودة. أحبّ علي فتاة فلسطينية في المخيم ستكون إلى جانبه طوال حرب المخيمات، وستكون معه عندما استشهد ومعه أيضاً لحظة دفنه وحتى سقوط المخيم المدوي.

في شاتيلا اليوم جامع باسم الشهيد علي أبو طوق، الذي دفن في موقع الجامع وإلى جانبه مقبرة جماعية لكل شهداء حرب المخيّمات في مخيّمي صبرا وشاتيلا. استحقّ علي الصامت في كلماته والصاخب في أفعاله أن يكون شخصية رئيسية في رواية « مملكة الغرباء» التي كتبها الياس خوري، الأديب والروائي اللبناني المتميّز في صحيفة النهار اللبنانية. فإلياس خوري هو الآخر لم يكن بعيداً عن السرية الطلابية ودورها وتجربتها.

أما نظير الأوبري البيروتي، أحد مؤسّسي الكتيبة الطلابية وقيادييها، فقد أصيب بمرض أسهم في إبعاده عن الحياة الكفاحية إلى أن وافته المنية. سيكون نظير حاضراً في زواج صديقه مروان ثم في زيارات دائمة له في قبرص.

وسيؤدي سمير الشيخ، الشاب المتخرّج في الجامعة الأميركية، وهو اللبناني البيروتي والقيادي في التيار الطلابي وأحد مؤسّسي السرية، دوراً كبيراً في محاولات إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية، كذلك فإنه نجح في طرح مشروع سياسي يساهم في توحيد الشيعة والسنّة على قضايا رئيسية تصبّ في عصب اختلافهم، وستكون تصفيته في أواسط الثمانينيات صدمة لكل من عرفه. سمير تبنّى موضوعات إسلامية، لكنه وسطي بطبعه. عملية اغتياله على يد الاستخبارات السورية العاملة في لبنان عام ١٩٨٥ أخذت طابعاً وحشياً، وقتلت معه في المنزل زوجته وابنه وابنته. وقد غادر لبنان إلى دول أخرى عدد من الشبان، منهم رمضان بعد ذلك، انطلاقاً من استحالة البقاء في ظل ظروف كهذه. لقد تعمق الانهيار بالنسبة إلى التيار وإلى الشبان الذين أنشأوه وكوّنوه.

وسيُغتال بطريقة مشابهة في الفترة نفسها الدكتور عصمت مراد (من طرابلس)، القائد الطلابي السابق وأحد مؤسسي السرية الطلابية في طرابلس عام ١٩٨٥. وسيُغتال أيضاً أحمد منتصر، الشاب الذي انضم إلى الكتيبة عام ١٩٧٩ وقاتل في كل معاركها، وكذلك أبو الفدا (خالد أبو حرب) الذي نجا من معركة شلعبون عام ١٩٧٨ بأعجوبة. سيستمر الموت في تغييب الأصدقاء ومؤسّسي الكتيبة ومناضليها. وسيُغتال أيضاً هاني كمال في مرحلة لاحقة في الثمانينيات جرّاء قيام مجموعات محسوبة على حسن البنّا (أبو نضال العراق)، بتصفية عناصر قيادية في حركة فتح، وليس واضحاً إن حصل ذلك لحساب الاستخبارات الإسرائيلية. فحتى الآن هناك غموض كبير أحاط بشخصية أبو نضال وسعيه إلى اغتيال الكثير من الشخصيات الفلسطينية. وسيُغتال أيضاً أبو ضرغام (علي عبد الرحمن) الذي رافقنا منذ المراحل الأولى. وأبو ضرغام كان أكبر سناً من معظمنا، لديه أسرة كبيرة تعيش في دمشق، وامتلك خبرات أفادت الكثير منا في بدايات عملنا في الجنوب.

إن التغيّر النوعي في القضية الفلسطينية سوف يقع مع الانتفاضة الفلسطينية التي

ستنفجر عام ١٩٨٧. ستكون تلك انتفاضة لا تنهج العنف المسلح الذي نهجته الحركة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٥، وستخاض من خلال الحجارة والمقاطعة والتظاهر والتجمع والممانعة. ستكون انتفاضة جماهيرية بكل المقاييس، وستُشعر تلك الثورة كلاً من أبو حسن قاسم وحمدي ومروان وبقية الشبان بالأمل والتجديد.

اغتيال حمدي وأبو حسن ومروان

لكنّ الاستخبارات الإسرائيلية ستغتال كلاً من أبو حسن قاسم (محمد بحيص) وحمدي (باسم سلطان التميمي) ومروان الكيالي في انفجار سيارتهم في قبرص أثناء لقائهم السرّي لمساعدة الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٨. سيُحدث موتهم، كما أحدث موت علي أبو طوق، دوياً كبيراً، فهم رموز لجيل، وعرفتهم مدن عربية عدة: عمان وبيروت وفلسطين وتونس والجنوب والأرض المحتلة. والتفجير كان من تدبير الموساد الإسرائيلي الذي راقب منزل مروان (الجديد) في قبرص وانتظر لقاء أبو حسن قاسم وحمدي الرسرّي معه. فحمدي طورد في أماكن كثيرة، وخاصة بعد عدة عمليات مدوية كبيرة في الأرض المحتلة من مركزه في الأردن رداً على استمرار الاحتلال واجتياح إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ ومجازر صبرا وشاتيلا وقد أبعده الأردن بعد تزايد نشاطه من أراضيه.

لقد اكتسبت أعمال أبو حسن قاسم وحمدي ومروان كيالي في تلك المرحلة طابعاً إسلامياً ضمن فتح، إذ أدّوا دوراً في ما عُرف حينها باسم سرايا الجهاد الإسلامي. فقد سارا في طريق جديد للمقاومة منذ حرب ١٩٨٢، ووصل الثلاثي إلى تحقيق اختراقات كبيرة في إسرائيل بالتنسيق مع أبو جهاد المسؤول الأول عن المقاومة في الأرض المحتلة. لقد تجاوز حمدي بمساعدة مروان وأبو حسن تحديداً كل الخطوط الحمر في المنظور الإسرائيلي. وبعد اغتيالهم، سيكون أبو جهاد الهدف الثاني لإسرائيل، إذ ستغتاله بعد ذلك بشهرين في منزله في تونس.

ترك كل من حمدي ومروان وأبو حسن قاسم وراءهم أَسَراً. كان أبو حسن أول من تزوج من الشبان، ثم لحقه حمدي ثم مروان أخيراً.

تحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي

إن المقاومة اللبنانية في الجنوب بقيادة حزب الله وبمشاركة عناصر رئيسية في الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمات لبنانية أخرى طوال عقد الثمانينيات والتسعينيات، سوف تفتح الباب لمقاومة جديدة تتحرك على أرضها.

ولأضرب مثلاً صغيراً هو واحد من مئات الأمثلة عن المقاومة اللبنانية. أعيد القارئ إلى الشاب الصغير «نقولا عبود» الذي استشهد بعد ساعات من موت أبو خالد جورج في جبل صنين عام ١٩٧٦ مقاتلاً مع السرية الطلابية، لكن هذه المرة ستقوم أخته بعملية جريئة مع مجموعة صغيرة من الحزب الشيوعي اللبناني ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان. حوصرت المجموعة، نجحت لولا عبود في تدمير آلية إسرائيلية، استمرت بمواجهة القوة الإسرائيلية حتى استشهادها. والأهم أن نعرف أن لولا عبود وأخاها نقولا هما قريبان مباشران لخالد بشارة الذي سقط دفاعاً عن دير ميماس وكان من أوائل شهداء السرية الطلابية عام ١٩٧٧ في الجنوب، وقريبان مباشران لسهى بشارة التي حاولت اغتيال خليفة سعد حداد الجنرال أنطوان لحد عام ١٩٨٩. إنها مسألة شديدة التداخل لا تنتهي إلا بحلول عادلة. بل حتى الشابة خديجة حرز التي صنعت حدثاً دائماً من الاحتجاجات أمام معسكر أنصار عام ١٩٨٢-١٩٨٣ عادت وفقدت ابنها في حرب ٢٠٠٦ مقاتلاً مع حزب الله.

عام ٢٠٠٠ بعد تحرير الجنوب من القوات الإسرائيلية وانهيار الجدار الأمني على يد حزب اللّه، ستُكتشف أماكن دفن شهداء حرب ١٩٧٨. وقد أعيد دفنهم وتكريمهم في مهرجان كبير، وقد تضمّن التكريم حسان شرارة وأمين العنداري (أبو وجيه)، وزيتون (قاسم بزي) وأبو خالد الشحيمي (أبو خالد) وبشار وبقية الشبان.

وستشترط أم جريس لعودتها الدائمة إلى قريتها المحررة دير ميماس أن ينقل رفات ابنها خالد بشارة الذي سقط دفاعاً عن دير ميماس عام ١٩٧٧.

ما بقي من ذلك الجيل

سيعود محمود العالول إلى نابلس ضمن اتفاقات السلام الموقعة عام ١٩٩٤،

ولكنه سوف يفقد ابنه جهاد ابن الـ ٢٠ عاماً في الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي بدأت عام ٢٠٠٠. لقد وُلد ابن محمود في بيروت في الزمن نفسه الذي وُلدت فيه ابنتي حنين. هذه الشهادة كان يجب أن تكون من نصيب محمود في الحروب التي خاضها، ولكنها لم تصبه. في هذا يتكوّن جيل مقاوم جديد.

أصبح العالول وزيراً في حكومة الوحدة الوطنية، وقبل ذلك محافظاً لمدينة نابلس، وانتُخب عام ٢٠٠٩ في عضوية أعلى هيئة قيادية في حركة فتح: اللجنة المركزية.

أما أبو الفتح (اللواء ذياب العلي) فبعد عمر مليء بالكفاح سيدخل الأراضي الفلسطينية، ثم يصبح منذ عام ٢٠٠٤ حتى كتابة هذا الكتاب قائد قوات الأمن الوطني في السلطة الفلسطينية. أما أبو حديد (العقيد سليمان عمران) فأصبح قائداً لعدة مناطق في الضفة الغربية بعد قيام السلطة الفلسطينية، وأبو رحمة (محمد القاروط) مستشار وزير الحكم المحلي للتنمية الإدارية في السلطة الفلسطينية. عبد الفتاح في الضفة الغربية مع أسرته وشيرين، أما عمّار (اللواء عاطف بدوان) فبقي في فتح وانتقل إلى الضفة الغربية وتوفّي عام ٢٠١١.

شريف انضم إلى مؤسسة دولية مهمة بعد نيله شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، وحسام بنى مكتبة ودار نشر، ومحمد الذي قاتل في بحمدون تخرّج مهندساً وأصبح خبيراً مالياً. نديم رجل أعمال. رياض أنشأ شركه كمبيوتر، ويوسف من بنت جبيل افتتح مصنع منتجات استهلاكية في أوروبا وعاد أخيراً الى الجنوب، وخالد ومعه زوجته بهية افتتحا شركة تعمل في الموانئ خارج لبنان بينما هاجر أدهم الى أفريقيا. وسعود المولى الذي عرفته في فترات البداية من مصياف إلى البرجاوي والمراحل الأولى في الجنوب بات يمثّل تياراً مستقلاً في الوسط الشيْعي بين أمل وحزب الله وأميل إلى الوسطية الليبرالية.

انتقل ربحي إلى أوروبا لسنوات ليعمل منسّقاً في إحدى المؤسسات الدولية، وانتقل بعد ذلك إلى بيروت لعمل خاص. وحسام الذي كان في الكثير من الأحيان ظلاً لمعين، أصبح رجل أعمال متميّزاً في إحدى دول الخليج، وأحمد وهو الجريح الأول الذي شاهدته في بداية الحرب، أصبح أستاذاً جامعياً متميّزاً في

جامعة عالمية، أما يزيد فامتهن العمل الأكاديمي بامتياز، بينما عدنان أبو الهيجا الجريح الذي قاوم الموت لزمن طويل بعد إصابته برصاصات عدّة فأصبح سفيراً لفلسطين. وينطبق الأمر ذاته على شبان بيروت وشاباتها المناصرين للكتيبة، من رمضان ومصباح إلى عبدو ونديم وأمل ورجاء وسامية وآمنة، فكل منهم امتهن عملاً جديداً في التدريس أو الصحافة أو الإعلام. لم أذكر الكثيرين منهم مثلاً من البقاع سامي ورضوان، ومن الجبل ربيع وأبو عفيف والشاعر المغني حاتم ومنير الجبل ووجيه ابن الشهيد أبو وجيه وعشرات الشبان والشابات ممن أفنوا شبابهم في هذا الجهد المنظّم. إن صفحات الكتاب أقل حجماً من أن تغطّي مشاركاتهم والتزامهم، ولكن بعضها يعطي فكرة عمّا حصل.

استمرّ السيد هاني فحص روحاً متميّزة. لقد دفعت التطورات الجسام السيد باتجاه التعمّق في الطرح المنفتح ثقافياً بين المذاهب الإسلامية وبين الشيعة والسنّة وبين الشيعة والشيعة أنفسهم وبين الإسلاميين وغير الإسلاميين. ظل السيّد صوتاً عقلانياً وحيوياً ووطنياً حتى يومنا هذا.

أما عادل عبد المهدي الذي أتى إلى لبنان لمساندة المقاومة في السبعينيات وعمل عن قرب مع السرية الطلابية ومجموعاتها ومع منير شفيق في بدايات التشكيل في أواسط السبعينيات، فقد عاد وغادر باحثاً ليكمل مشروع التغيير في العراق وليكون نائباً لرئيس جمهوريتها بعد تغيير النظام.

مع فقدان معين لأهم الشبان الذين كوّنوا معه ما بقي من العمود الفقري لتجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق، ومع دخول القضية الفلسطينية في نفق جديد بعد احتلال صدام حسين الكويت وتحوّل الوضع الى انقسام عربي واسع النطاق، قرر الاستقالة من حركة فتح وجناحها العسكري. لكن معين بقي في نظر الكثيرين كادراً أساسياً من كادرات فتح وإن كان في موقع الاستقالة.

ومنير شفيق المفكّر الذي أثّر في معظمنا، استمر بطريقه متبنّياً خط المقاومة انطلاقاً من فكر إسلامي جديد آمن به وتفاعل معه. سيستمر في العمل العام مفكراً وكاتباً ومؤلفاً، وسيكون في السنوات القليلة الماضية أميناً عاماً للمؤتمر الإسلامي القومي وهو مستمر اليوم كاتباً ومعلقاً وناشطاً سياسياً مؤمناً بالتغيير العربي الأكبر

وبالثورة وتحرير الأرض. أما محجوب عمر فقد استمر في عمله وعطائه وحلمه الأوسع إلى أن استقر في مصر وأقعده المرض عن القيام بالدور الذي تميز به في مسيرة الكفاح الفلسطيني. تأتي تطورات مصر والعالم العربي الأخيرة والثورات ونجاحها لتريح محجوب في مرضه وتريح الشهداء الذين حلموا منذ سبعينيات القرن العشرين بعالم عربي يثور على القمع والفساد ومصادرة الحريات.

أما أم أحمد التي بلغت الثانية والسبعين من العمر عام ٢٠١١ فبقيت تعيش على ذكرى كلّ من مرّ عبر منزلها من الأحياء والشهداء. ما زال منزلها في مكانه في رأس النبع ومعها ابنتها آمنة القرى. يعجّ منزلها بالزوار. من خلال أم أحمد يتواصل عشرات الشبان من الذي قاتلوا في السرية الطلابية وكتيبة الجرمق.

أم أحمد مستمرة بلا انقطاع في رعاية مقبرة شهداء فلسطين في بيروت. فكل أسبوع وعند كل مناسبة وكل عيد ورمضان تذهب إلى مقبرة فلسطين حيث ابنها أحمد وكل أصدقائه الشهداء وتضع الزهور. ففي المقبرة محمد علي (يوسف إسماعيل)، ومحمد شبارو، وطوني النمس، وجواد أبو الشعر، ومروان كيالي وأيمن البرقاوي، وأبو خالد جورج، ومجاهد الضامن وديب فرح ومحمد شحادة ومحمد أمين حسنين والبقية. وأخيراً انضمّ رفات دلال المغربي التي كانت أم أحمد آخر من التقاها قبل أن تذهب إلى فلسطين في عمليتها المعروفة.

أصبحت أم أحمد القرى في حياتها وقصتها رمزاً لهذا التاريخ، وهي ما زالت حتى الانتهاء من كتابة هذا الكتاب عام ٢٠١١ متطوّعة تعمل بصمت ومؤمنة بأن هذا جزء من ضريبة الاستمرار.

أما صديقي د. حاتم الذي بدأت معه تجربتي في جورج تاون فاستمر رمزاً للالتزام، سيعود الى فلسطين مع عودة السلطة الفلسطينية لتحمّل مسؤولية رئاسة جامعة القدس. لكنه سيموت من جراء المرض في أرض فلسطين، بينما سيموت صديقه وصديقي خالد عبدو إبان الجزء الأخير من الحرب الأهلية اللبنانية على أحد الحواجز.

أما أبو عمر، العميل الإسرائيلي من مارون الراس، الذي وصفت في الكتاب دوره في تلك البلدة، فلا بد من نبذة عمّا وقع له، لما يمثّل هذا الأمر من غرابة في

خضم التجربة. سيكون أبو عمر (موسى فارس) بعد سقوط بنت جبيل والمنطقة الجنوبية في يد إسرائيل عام ١٩٧٨ ممثّلاً للإسرائيليين في المنطقة، إذ سيتحرك في مناطق الجنوب بحرية وبقوة، كاشفاً عن علاقته بإسرائيل ومستفيداً من ذلك. ولكنّ الظروف ستختلف، فعندما يتحرر الجنوب عام ٢٠٠٠ على يد حزب الله، ستتغير المعادلات وسيختفي أبو عمر من الصورة. ولكنه سيحصل على عفو من المقاومة الجديدة المتمثلة في حزب الله، وسيعود إلى مارون الراس هادئاً وتائباً. ولكنّ أبو عمر وزوجته يسعيان إلى الهرب من مارون الراس بسبب القصف الإسرائيلي إبان حرب ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل وسوف يسقطان ضحيتين في القصف الإسرائيلي على بنت جبيل.

حياة جديدة وحوار مع الآخر منذ ١٩٨١

تساءلت بعد أن تركت جنوب لبنان كيف سأعود إلى الحياة الطبيعية وإلى الحياة المدنية بعد سنوات من العسكرية الشاقة؟ لم يكن هذا أمراً سهلاً لمن كان له تاريخي ولمن عاش حياة مثل حياتي. تساؤلات كثيرة حملتها معي. في أيامي الأولى في الكويت بعد هذه التجربة، زرت مع والدي الشيخ سعد العبد الله الصباح، ولي عهد الكويت آنذاك. نظر إليّ: «لا أعرف تفاصيل ما قمت به، أعرف أنك عملت الكثير، لكني سعيد بأنك عدت إلى بلدك الكويت».

* * *

وصلت إلى الولايات المتحدة مع زوجتي وابنتي حنين في آب ١٩٨١ بعدما حصلت على بعثة دراسية من جامعة الكويت للدراسة فيها. بدأت بدراستي العليا في جامعة بوردو في إنديانا، قبل أن أنتقل إلى جامعة تكساس في أوستن للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية. أما تغريد فهي الأخرى انغمست في مشروعها الأعزّ عليها: إكمال تعليمها وصولاً لنيل الدكتوراه. كل شيء بدا جديداً، من الهدوء الى الجامعة إلى المنزل إلى طريقة تمضية الوقت. شعرت بانعدام وزن وكأنني أتعلم المسير من جديد. كل شيء بدا جديداً.

وفي الوقت نفسه الحياة الجديدة سهلة ومختلفة، تحدياتها بسيطة نسبة إلى ما

عشته في السنوات الست الماضية. فإجراء امتحان بعد دراسة ليس كتحرير بلدة أو التصدي لدبابات تريد أن تنسفك نسفاً. اكتشفت أنني يجب أن أعتاد حياة مدنية إنسانية. لم يعد يخيفني أو يقلقني شيء مهما بدا جدياً. فكل شيء قابل للحل ما دام لا يتضمّن موتاً مباشراً كما حصل في تجربتي في لبنان. ربما اكتشفت أنني اكتسبت هدوءاً كبيراً وصبراً غريباً.

في الأسبوع الثاني في جامعة بوردو، التقيت أحد أساتذتي جوزف هاربيرير وهو يهودي الديانة في قسم العلوم السياسية، الذي روى لي قصة تبرز تعقيد الوضع:

«لقد فقدت كل أسرتي في ألمانيا أثناء مذابح اليهود في ألمانيا. هرّبني والداي إلى بريطانيا قبل أن يموتا. كنت طفلاً صغيراً، وُضعت في ملجأ، إلى أن أتت مجموعة عاملة مع الحركة الصهيونية ونقلتني إلى فلسطين. بقيت هناك لسنوات أثناء الحرب، ولكن مع هزيمة النازية في ألمانيا، وصل بعض أقربائي إلى الولايات المتحدة، وعرفوا مكاني، هكذا أصبحت أميركياً. كان من الممكن أن أكون إسرائيلياً، ولكنني الآن أميركي. أقول هذا لك لتعرف كم تلعب الصدفة بمصيرنا وبحياتنا».

بعد انتقالي إلى جامعة تكساس الأميركية، بعد أن أمضيت عاماً ونصف عام في بوردو، بادرني طالب يكبرني سناً بالتحية في مقهى الجامعة. نظرت إلى الطالب ونظر إليّ. سألني من أين أنت، قلت من العالم العربي. قال من أين: قلت من الكويت. قال لي بثقة: أنا من إسرائيل. فجأة سرت في جسدي رعشة كبيرة، تساءلت ربما هو من جيش إسرائيل، ربما أسهم في قتل رفاقي.

ثم قال لي: أنا من مدينة حيفا.

هنا لم أستطع أن أبقى صامتاً: «ولكن أسرتي وجذوري كلها ووالدي بالتحديد جاء من مدينة حيفا التي استوليتم عليها عام ١٩٤٨، أنتم صنعتم كارثة كبرى».

نظر إلي: «أوافقك في جانب، وأختلف في آخر. ولكني مع دولة فلسطينية في أراضي ١٩٦٧، آمل أن تكون أنت مؤمناً بهذا الهدف؟».

أثار الحوار في ذهني أسئلة كثيرة لأجوبة متناقضة. شعرت بأنني أعرف

الإسرائيلي لأني قاتلته في الحرب. فهو أمامي يبدو لي إنساناً عادياً لا يختلف عمّن يجلسون في الفصل.

قلت لنفسي: قد يكون الحوار معه أفضل من تفاديه، وقد يكون هذا الشاب أكثر تفهّماً لو فهم بعض الأمور. قد يكون الحوار طريقة لتخفيف حدّة المواجهة ولحماية من أحبّ؟

وفي الوقت نفسه انتابني شعور آخر أقلقني: لم أشعر بالعداء، لم أشعر بالحقد، كما لم أشعر بالانكسار أمامه. ربما لأنني واجهته وقاتلته وأصبحت أكثر فهماً لكيف يكون في الميدان. فهم يخسرون قتلى ويدفعون جرحى ويبكون ويصرخون مثلنا. شعرت بأنني متساو معه، فقد قتل من شعبي العربي واللبناني والفلسطيني الآلاف ولكنني أيضاً شاركت في ما يحقق الانتقام وفكرة العودة والتحرير، فقد آلمته في كل يوم منذ أن أخذ مني أرضاً وبلاداً وأوطاناً، وقد عرفت على مدى السنوات أن لديه حرصاً على فكرته وجرأة كما أمتلك، فهل نحن صورة مختلفة للآخر؟ هم المضطهدون عبر التاريخ كله ونحن المضطهدون في التاريخ الجديد؟ بعد كل هذا الصراع أجد مزيداً من التميّز بين اليهودية والصهيونية، ثم بين الإسرائيليين على تنوّعهم، والصهيونية بصفتها فكرة تقوم على اضطهاد العرب وأخذ أراضيهم وتشريدهم وجلب مستوطنين يحلون مكانهم؟

بطبيعة الحال سنتحاور أحياناً أنا وهو. سألتقي زوجته وسيلتقي تغريد، سيعرّفني إلى ابنته وهي في السادسة عشرة من عمرها تفكر في حياتها كطفلة وكمراهقة ولا تعرف شيئاً عن التاريخ وعمّا وقع ويقع. لم أطلعه ولم أطلع أحداً على تجربتي في لبنان. فهذه التجربة بقيت طيّ الكتمان إلى يومنا هذا. لم يعرف أي شيء عنها سوى بعض الأصدقاء، ولم يسمعوا مني عنها إلا القليل.

الفصل الثامن عشر

ختام: تقويم وتساؤلات

في هذه التجربة الكبيرة، نضج الطلاب الذين يحملون فكراً قومياً ويسارياً إنسانياً، والذين تجمّعوا من أجل فلسطين رداً على هزيمة ١٩٦٧. تنوّعت خلفياتهم وجنسياتهم وتجاربهم الأولى، بل أغنت تجاربهم في أماكن مختلفة في الأردن أو الضفة الغربية أو غزة أو الكويت أو العراق مسيرتهم الكفاحية التي صاغوها في لبنان وفي بيروت وجنوبه خصوصاً. وقد تخلل تجربتهم المقاومة الكثير من الحوار الفكري الذي انعكس على شخصيتهم الفكرية اليسارية. لقد كوّن الطلاب بنجاح وتميّز تياراً مقاوماً كبيراً من خلال التنظيم الطلابي لفتح في جامعات لبنان وجامعات عربية أخرى في النصف الأول من السبعينيات ثم من خلال إنشاء السرية الطلابية عام ١٩٧٥ ثم كتيبة الجرمق عام ١٩٧٧ والانغماس في مشروع حماية القاعدة الآمنة والسعي إلى نصرة الحقوق الفلسطينية والعربية والرد على اعتداءات إسرائيل. لكن في الوقت نفسه حمل هؤلاء الشبان مشروعاً عربياً يتجاوز التركيز المباشر على فلسطين، انطلقوا من أن الأوضاع العربية السيئة ستغيرها قوى التغيير العربية وذلك من خلال التصدي لإسرائيل وجبروتها أولاً قبل التصدي للأنظمة وجبروتها ثانية.

نحن في هذه التجربة جزء لا يتجزّأ من مشروع شعبي الجذور جوهره تحرير الأرض والعدالة والحرية في العالم العربي. لقد تمركز ونشأ هذا التيار في لبنان بسبب تحول لبنان إلى مركز للفكر والمقاومة والثورة الفلسطينية. لم يكن خطنا على الإطلاق إرهابياً، بل سعى إلى إنضاج وتحقيق تجربة سياسية تعكس السعي إلى تعويض حالة الاهتزاز والضعف المنتشرة في الوسط العربي الرسمي. لم يسع هذا

التيار إلىَ قلب العالم العربي وفق أوضاع ذلك الزمن، بل اجتهد في تعديله ورفده وإصلاحه وجعله أكثر قدرة على التعامل مع نواقصه.

وقد انجرّت هذه المجموعة المقاومة أحياناً إلى صراعات عسكرية مع سوريا وأحياناً إلى الحرب الأهلية اللبنانية، ولكنها في صراعها هذا كانت واضحة في فهمها لطبيعة الصراع الرئيسي في المسألة الوطنية، وهي تحرير الأراضي المحتلة وتحرير فلسطين. فمشروعها مشروع وطني وإنساني ذو عمق اجتماعي وسياسي.

حملت الكتيبة وتيار الشبان مشروعاً، لكنها حملته أساساً داخل جماعة أكبر، هي حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) التي واجهت إسرائيل منذ عام ١٩٦٥ وبعد حرب ١٩٦٧، والتي حملت لواء النضال الفلسطيني طوال تلك المراحل الحساسة. تميّزت تجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق بالانتظام والدقة وسط الكثير من الفوضى والارتجال الذي ساد قطاعاً من الحركة الفلسطينية، كما تميّزت بالاستماع إلى الناس وإلى البسطاء عندما لم يستمع أحد إليهم. تعاملت السرية الطلابية (كتيبة الجرمق) مع الجماهير والناس بصدق وتواضع عندما تعامل الكثيرون باستعلاء انطلاقاً من نظرية الطليعة الحزبية. تميزت التجربة بالإخلاص والمحبة للآخرين بمعزل عن طوائفهم وفئاتهم، إذ حرص المقاومون في هذه التجربة على أرواح من يحيط بهم من مقاتلين وسكان وأهال في ظل احتكام واضح للأخلاق. لقد استندت تجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق إلى إمكانات متواضعة مقارنة بالآلة العسكرية الإسرائيلية الجبارة التي واجهتها في الحرب، إلا أنها عوضت عن ذلك بوضوح الرؤية ودقة الخطة وحسن الخلق وصلابة العزيمة والشجاعة النادرة.

وبرغم سطوة السلاح في ذلك الوقت لم يسجل أن أحداً من الكتيبة حمل سلاحاً خارج نطاق الواجب في الجنوب، أو استخدم ذلك السلاح لنيل مكسب شخصي أو للإساءة إلى أحد. فعندما يغادر الشبان مواقعهم في الجنوب يتركون لباسهم العسكري ويذهبون بلباس مدني.

عبّر السيد هاني فحص عن التجربة وعلاقته الخاصة بالتيار وكتيبة الجرمق بالقول:

«وجدت نفسي في تعاملي مع السرية الطلابية/ كتيبة الجرمق في مكان أصلّي فيه

من دون أن يقول أحد لي لماذا تصلي. وجدت أناساً غير مشغولين بالبحث عن جمهور يصفق لهم، بل بالبحث عن مسلكيات يبحث عنها الجمهور. وجدت أناساً ليس همّهم اختزال الآخر فيهم بل التعامل مع الناس كما هم. وجدت أناساً يكرهون الخطأ لكن لا يكرهون صاحبه. وجدت مجموعة تسعى إلى التغيير من خلال آليات المجتمع لا في مواجهته ورفضه. ووجدت أناساً لم ينحرفوا عن أهدافهم وهم في أصعب المراحل. لقد ظل البعد الإنساني أساسياً في تجربة الكتيبة».

ويستمر السيد هاني فحص في توصيف هذه التجربة، فيضيف:

«لم يكن للجماعة شخص مؤسس، بل ظاهرة فيها تكامل بين عدد من المناضلين، لم يكن قائد الكتيبة ديكتاتوراً بل جزء من كوادر وقياديين لكل منهم دوره وعطاؤه. الهيكلية لم تكن مفروضة بل تلقائية».

«أما يساريتها وماويتها الفكرية، فلم تكن أساسية، بقدر ما كانت رفضاً للنمط السلطوي لليسار الروسي/السوفياتي في العالم. لقد سمح هذا للسرية الطلابية وتيار الشبان بأخذ بعض إيجابيات الفكر الماوي في جانب أساسي مرتبط بتعامل الثوريين الصينيين المنفتح مع المجتمع في زمن الثورة قبل انتصارها. هذا البعد الشرقي والإنساني جعل التيار أقرب إلى نموذج مستقل يسعى إلى التعلم من تجارب الثورات الأخرى من دون أن يكون ملتزماً بعقائدها. إن لاعقائدية التيار ساعدت على نشوء ليبرالية وسطية تتقبّل الآخرين»(*).

مقدمة لسير أخرى

قد يظن البعض أنني قد بالغت في رفع شأن تجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق والتيار الذي أسهم في إنشائهما، ولكنها الحقيقة كما اختبرتها وعشت معها يوماً بيوم من زاويتي من داخل التجربة. لكن في الوقت ذاته لا يمكنني أن أدعي أنها شملت كل شيء، أو أن كل الإخوة والأخوات الذين كانوا جزءاً من التجربة

(*) مقابلة مع السيد هاني فحص عن التجربة، ٢٢ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠٩. بيروت.

ذكرتهم سيرتي الذاتية هذه، لسبب بسيط هو أنهم أكثر من أن يضمّهم كتاب واحد متواضع ككتابي، ولأن العديد منهم عملوا ضمن أطر رديفة للسرية وفي مواقع عسكرية وجماهيرية كثيرة يستحيل عليّ أن أكون فيها جميعاً، وإن كنت سمعت عن بعض ممن اشتهروا بتميّزهم النضالي والقيادي. لقد كتبت سيرتي في التجربة وحاولت قدر المستطاع أن أذكر وقائع وأفكاراً وسلوكيات توضح جوهر هذه التجربة النضالية الفريدة بكليتها ما أمكنني ذلك وبحدود ما سمحت لي مساهمتي ومسؤولياتي باختباره شخصياً.

* * *

إن هذه السيرة الذاتية التي كتبتها، يمكن أن تشكل مدخلاً لكتابة سير أخرى، وتوثيق تجارب ذاتية ونضالية، يمكنها أن تساهم باستخلاص الدروس والعبر، كما يمكن هذه التجارب لو كتبت أن تردم الفجوات التي ربما وجدت في سياق كتابتي عن تجربة السرية الطلابية أو كتيبة الجرمق أو الكتيبة الطلابية مهما تنوّع اسمها. فهي أسماء للتجربة ذاتها صنعها إخوة وأخوات، بإمكانها أن تعزز أهمية كتابة تجاربنا. كما يمكن أن تشكل دافعاً يؤرّخ للتجارب التي سبقتنا منذ انطلاقة حركة فتح في ١٩٦٥.

ولتكن كتابة هذه التجربة بداية كتابة معمّقة ودراسة صادقة لتجارب المقاومين العرب أيضاً إلى يومنا هذا، بل لتكن محاولة للتعرف إلى النتائج التي توصلوا إليها، والظروف التي مروا بها والأخطاء التي وقعوا فيها، وذلك بهدف عدم تكرار الأخطاء نفسها. ففي غياب توثيق التجارب المهمة فإن كثيراً من الظلم والتشويه سينال منها.

نهاية عالم وبداية آخر

سينتهي عالم السرية الطلابية وكتيبة الجرمق وخط الشعب والجماهير الجريئين كما عرفناه في تلك التجربة المميزة وسيبدأ عالم آخر، وستنتهي تجربة جيل اجتهد وتعامل مع جراح الأيام مع انسحاب منظمة التحرير من لبنان إثر الاجتياح الإسرائيلي الكبير عام ١٩٨٢ للبنان. مرت سنوات وعقود بعده، إذ جاءت

الانتفاضة الأولى في نهاية ١٩٨٧ ثم الثانية في نهاية عام ٢٠٠٠ وحرب تحرير الجنوب التي توّجت عام ٢٠٠٠ بانسحاب إسرائيلي كامل من كافة الأراضي اللبنانية، ثم حرب ٢٠٠٦ التي نجح حزب الله فيها بتحرير السيكولوجية الجنوبية من آخر براثن الخوف من إسرائيل، ثم حرب غزة في بداية ٢٠٠٩، وما زالت تلك التجربة التي وُلدت من رحم الستينيات والسبعينيات (تجربة السرية الطلابية التي تطورت ليصبح اسمها كتيبة الجرمق) من أغنى تجارب العمل الوطني العربي واللبناني والفلسطيني في تاريخ الصراع مع إسرائيل. لكن في تاريخ هذا الصراع، أدّت كل حرب إلى حرب أشد فتكاً، وكل عنف أدّى إلى ظهور مقاومين جدد أكثر تنظيماً وأكثر قدرة، بحيث ستبدو كل مواجهة تمهيداً للمواجهة التي تليها.

تحولت عناصر عديدة من هذه التجربة والتجارب الشبيهة في الساحة العربية نحو الفكر الحديث والانفتاح السياسي والإيمان بالديموقراطية والمساواة والحوار، فحملة الفكر اليساري في ذلك الزمن كانوا بامتياز أكثر العرب تعرضاً للفكر الحديث الناتج من تطورات في الغرب أو الشرق في الأبعاد الاجتماعية والتنويرية والثقافية، حيث التركيز الكبير على مبادئ المساواة ودور المرأة وحقوق الإنسان والعدالة والانفتاح على الجديد. إن تجربة اليساريين العرب جعلتهم الأكثر أهلية لفهم الثقافة والحضارة الغربية والتعامل بالمواءمة بينها وبين الحضارة الإسلامية لمصلحة الحداثة.

لهذا تمخض عن التجربة توجّهات نضجت في رحم التجربة لكتاب وكاتبات وأساتذة ومفكرين وباحثين وباحثات ونشطاء وشخصيات ثقافية وصحافية وإعلامية، ينحون المنحى الديموقراطي الليبرالي ويؤمنون بمنهج الحوار والديموقراطية. بل يندر أن نجد مفكراً وكاتباً صحافياً أو ناشطاً ليبرالياً من الجيل الذي ولد في نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات لم يمر لفترة أو لفترات على تجربة السرية الطلابية أو تجارب شبيهة في العمل السياسي في مجمل تجربة الكفاح المسلح الفلسطيني واليسار الوطني اللبناني والعربي.

ولكن عناصر أخرى على قدر كبير من الأهمية من التجربة وجدت طريقها في الثمانينيات والتسعينيات إلى تيارات وحركات أكثر جذرية في الاتجاه الإسلامي، فبينما تحوّل منير شفيق إلى الإسلام، متبنّياً فكراً إسلامياً جديداً، نجد أن بعض

شبان الكتيبة من الشيعة تحولوا في ما بعد إلى عناصر مؤثرة وقيادية في حزب الله، وآخرين تحولوا إلى عناصر مؤثرة في الجهاد الإسلامي وشهداء الأقصى (فتح) بتأثير من حمدي وأبو حسن ومروان حتى استشهادهم.

وستكون الصدفة الأكبر عندما أجد نفسي بعد أكثر من ربع قرن عام ٢٠٠٤ وقد دُعيت للمشاركة في حلقة تلفزيونية على قناة الجزيرة مع الصحافي غسان بن جدو لمناقشة مع أنيس النقاش (مازن) الذي التقيته في معسكر مصياف عام ١٩٧٣، فبينما أصبحت أستاذاً جامعياً في جامعة الكويت ورئيساً مؤسساً للجامعة الأميركية في الكويت، سار أنيس في درب آخر فيه من المفارقات الشيء الكثير. أثناء اللقاء أيّد أنيس أو «مازن» الكثير من العنف الذي تمارسه القاعدة وخصوصاً بن لادن، بينما وقفت على النقيض محذراً من مخاطر هذا الطريق وهذا النمط من العنف على المجتمعات العربية والعالم الإسلامي. أصبح أنيس من المؤثرين في المدرسة الخمينية ومدرسة الثورة الإيرانية، بينما قادتني تجربتي إلى شيء مختلف. تجربته في فتح ثم مع الثورة الإسلامية في إيران قادته إلى فكر آخر، فيما تجربتي في جانبها العسكري كما السياسي فتحت في نفسي أفقاً أكثر قبولاً وفهماً للذات والآخر. فما اختبره كل منا وقام به يمثل نموذجاً للأرضية التي أثرت في التحوّلات الكبرى التي تؤثر اليوم بدورها في ما بقي من تجربة جيلنا. لكن كلينا اتفقنا على أن واقعنا الإنساني والسياسي مأزوم، وإن كنا اختلفنا في طريقة التعامل معه.

لهذا أتت كتابة سيرتي هذه في سياق البحث عما يمكن أن يشكل لإخوتي وأخواتي ولرفاق النضال من تجارب أخرى دروساً مستقاة، أو إعادة لطرح أسئلة مستمدة من رحم هذه التجارب، ولا سيما تجربة السرية وكتيبة الجرمق، وتجارب الطلاب والشباب كقوة أساسية أدّت دوراً حيوياً في مجمل التجارب النضالية العربية والعالمية على السواء.

في التاريخ وحركته

هناك أمور لن تتغير: فالشعب العربي الفلسطيني يعاني احتلالاً واقتلاعاً وتهجيراً، وهذا مصدر رئيسي من مصادر التوتر في العالم العربي، إذ وقع في

فلسطين ظلم كبير تناقلته الأجيال وما زالت، ولهذا أعرف جيداً أن الثورة الفلسطينية لن تموت أو تتوقف وإن تغيرت أشكالها وأساليبها ومضامينها الفكرية والسياسية. هناك معنى لكل من استشهد وناضل مما يدفع الأجيال القادمة إلى مواصلة العمل على استعادة الحقوق الفلسطينية والعربية وإلى الحفاظ على شعلة المسيرة متقدة لاستعادتها. ولو كان نصيبي أن أمضي معهم لكانت حالي حالهم. فنحن لم نكن يوماً طلاب موت، وعاشقين للسلاح، بل كنا طلاب حق وعدل وحرية وسلام.

وكما أصبحت المحرقة التي تعرّض لها اليهود جزءاً من الضمير العالمي وخاصة الغربي، كذلك تحولت القضية الفلسطينية إلى أحد رموز الاضطهاد الذي تعرّض له العالم الثالث والشعوب المستضعفة على أيدي دول قوية كبيرة وحركات غربية التنظيم والإدارة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية والحركة الصهيونية. بل أصبحت القضية الفلسطينية جزءاً من ضمير قطاع كبير من مثقفي العالم والحركات المدنية. إن الفكرة الفلسطينية كانت وما زالت أكبر من الوطنية والإقليمية. فهي تعكس الضمير الإنساني وعذاباته في القرن العشرين وحتى يومنا هذا.

لكن ضريبة الحرب أكبر من أن يفهمها إنسان إلا بعد أن يرى موت أصدقائه وخسارة أفضل الشبان وخسارة الأطفال والنساء والشيوخ من المدنيين. إن التجربة والعذابات التي وقعت هي جزء من تاريخنا. وهي مدخلنا إلى معرفة أنفسنا وأعدائنا، ومدخلنا إلى تعليم أعدائنا ومدخلنا إلى ما قد يكون عليه المستقبل. هذه التضحيات هي جزء من نضوجنا التاريخي، وهي جزء من تفعيلنا لوسائل جديدة في المقاومة والعمل لتحقيق العدالة، وجزء عزيز من تجربتنا التاريخية.

إن المستقبل والصوت الحقيقي لأماني الشهداء الذين سقطوا يجب أن يعني تحقيق مبدأ استعادة الحقوق الفلسطينية والعربية. يجب أن يكون هذا هدفاً أساسياً للمقاومين الفلسطينيين والعرب، وقد تختلف التصورات العقلية والسياسية حول فن الممكن وماهية هذا الممكن. ولكن حق إقامة دولة فلسطينية، والحق العربي في القدس، وفي استعادة الأراضي المحتلة، وإيقاف الاستيطان، وحق العودة للاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم وبيوتهم كمبدأ حقوقي، هي أمور جوهرية لنجاح الحل الإنساني والسياسي.

لقد سعى كل الشهداء والمناضلين إلى وضع المشروع الصهيوني الإسرائيلي في إطاره التاريخي في حدود محددة، بهدف وقف الاستيطان والتوسع وطرد السكان والعودة للأرض. قد يكون هذا حلماً، لكنه حلم جميع من ناضلوا على اختلاف الشعارات التي رفعوها. فقد اكتشفنا بالتجربة أننا لا نستطيع أن نمحو التاريخ الذي وقع مع قيام دولة إسرائيل ١٩٤٨. هنالك وقائع على الأرض، لا سيما وجود أكثر من خمسة ملايين يهودي في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ و١٩٦٧ علينا أن نتعامل معها. فنحن لا نستطيع أن نتجاهل هذا الواقع مثلاً وكأنه لا يوجد شعب إسرائيلي على الجانب الآخر.

حدث تحول في هدف المقاومة في هذه المرحلة التاريخية يسعى لوضع حد للمشروع الإسرائيلي عبر وقف التمدد في الأرض، وكبح عنصرية إسرائيل ومشروعها الصهيوني الذى يسعى لاقتلاع العرب من أراضي ١٩٤٨ وأراضي ١٩٦٧، إن إيقاف المشروع الصهيوني بصورته التي عرفناها الى يومنا هذا يمثل المقدمة المنطقية للتوصل لحل عادل.

في الوقت نفسه فإن تحقيق أماني الشهداء كان ولا يزال ممكناً من خلال بناء بنيان معاصر ومجتمع نام وعادل وإنساني نستطيع من خلاله أن نحقق وجودنا. أراد الشهداء أن يروا علماً عربِّياً فلسطينياً فوق القدس وفوق أي بقعه تحرر من فلسطين، لكن هذا لا يكفي، إذ أرادوا بنياناً سياسياً واجتماعياً وإنسانياً نامياً في فلسطين وفي كل بلاد العرب، يحترم الإنسان ويؤسس للحقوق المدنية والإنسانية الفردية ويقدّس الحريات والمساحة الإنسانية والمساواة بين الناس بما فيها الطريقة الديمقراطية في انتخاب القادة والممثلين.

إن قيمة الأرض من قيمة الإنسان، وقيمة تحرير الأرض متداخلة مع تحرير الإنسان وفك قيوده. الإنسان هو الجوهر. والذين ماتوا فعلوا ذلك من أجل الحقوق والعدالة. هذا ما يجب أن نحققه لهم لنحفظ تاريخهم وذكراهم في كل من فلسطين والدول العربية كافة.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن الفلسطينيين باعوا قضيتهم وتخلوا عن أراضيهم ورحلوا، أو إن اللبنانيين انهزموا أمام تفوق الآلة الحربية والتكنولوجيا، بل على

العكس لقد قاتلوا كأبطال شجعان وكفرسان في أصعب الظروف وأسوئها. قاتلوا بشجاعة وبأس أكبر مما قاتل اليهود ضد الأنظمة التي اضطهدتهم في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومنذ حرب ١٩٦٧ أصبح للقضية الفلسطينية أعمدة أربعة: أراضي ١٩٦٧ المحتلة حيث يجب أن تقوم الدولة الفلسطينية المستقلة، وأراضي ١٩٤٨ حيث حقوق المواطنة والمساواة للفلسطينيين الذين بقوا في الأرض، أما العمود الثالث، فحق العودة للاجئين الفلسطينيين في المنافي والشتات الذين شردتهم نكبتا ١٩٤٨ و١٩٦٧. أما العمود الرابع فهو العالم العربي الأوسع الذي يتفاعل مع القضية الفلسطينية ويرتبط أيضاً بالعالم الإسلامي وأصحاب الضمائر الحية في العالم كله.

بدون حل عادل وشامل يشمل الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين وكل العرب يبقى السلام شبحاً بعيداً. فإسرائيل لن تعيش إلى الأبد في تناقض مع شرق مظلوم. إن أحزمة البؤس والفقر وأحزمة الاقتلاع والحرمان التي تحيط بإسرائيل في غزة والضفة الغربية سوف تبقى تنفجر ما دامت إسرائيل تحتل أراضي عربية، وتحتل القدس وتبني المستوطنات وتضطهد شعوباً عربية أخرى. سيبقى الصراع قائماً ما لم يتحقق حل عادل يروي عطش الناس للعدالة، فإلى متى سيقاتل الإسرائيليون الذين يطمحون إلى حياة جميلة سكان البلاد الأصليين في فلسطين ومحيطها؟

أسئلة من نوع آخر

علمتني التجربة القاسية أن الحالة العربية كانت في الماضي وما زالت تقتات بالشعارات، وأنها مصابة بتناقضات كبيرة بين خطابها العلني وممارستها الحقيقية. إن القدرات العربية هي الأخرى محدودة، وهذه حقيقة راهنة ستتغيّر مع الزمن.

كنت أتساءل طوال هذه التجربة كيف يستطيع المواطن العربي أن يناصر القضية الفلسطينية في أحلك مراحلها وأصعبها، وهو بالكاد يقوى على نصرة نفسه في كتابة مقال أو قول كلمة حق حول أبسط حقوقه. أليس هناك تفاعل وتداخل بين قضية الحرية في فلسطين وقضية الحرية في مجتمعاتنا العربية؟ فكم من مناضل قضى في سجون دول عربية سنوات طويلة، وكم من مقاتل قضى على أيدي جيوش عربيةٍ في

صراعات أغلبها كان يمكن تفاديه ببعض الحكمة وبعض النزاهة؟ لكن الثورات العربية التي انبثقت كالمارد مع عام ٢٠١١ واعدة بالتغيير سينتج عنها بالتأكيد مقدرة العالم العربي على دعم قضية فلسطين، فالحرية للشعوب العربية في مصر وتونس وليبيا وسوريا واليمن والبحرين وسواها من الدول العربية غي الديموقراطية هي أهم رديف للقضية الفلسطينية ونصرتها.

تعلمنا في بداية التجربة أن الموقف العربي في أحسن حالاته لا يغيّر الواقع بل ربما يخفف من بعض آلامه أو يزيدها. لهذا كانت هنالك ضرورة كبرى للشعب العربي الفلسطيني وللشعب اللبناني وللشعوب العربية أن تحوّل استراتيجية المقاومة في اتجاه يقوم على فهم أوضح للقدرات والإمكانات، والظروف السياسية.

في هذا القتال الذي خضناه وفي كل قتال مع إسرائيل كنت أفهم أيضاً مدى جدية الإسرائيليين في القتال من أجل دولتهم، فهم ليسوا جبناء أو مرتزقة وهم ليسوا عصابات لا تؤمن بما تقاتل من أجله، فهم جديون ومحترفون. فسنوات المواجهة هذه علمتني أن أحترمهم. أقلقني هذا الشعور، وكان قد أقلقني أكثر عندما سألت صديقي الملازم ربحي، الذي أوقع الإسرائيليين في كمين هو من أحد أفضل الكمائن العسكرية في التجربة حتى تاريخه في مارون الراس في حرب ١٩٧٨، سألته عن كيفية قتال الإسرائيليين لنا في تلك المعركة تحديداً ،حيث فقدوا كل عناصر التفوق فأجاب: «إنهم مثلنا يا جهاد! صرخوا ونادوا وتألموا، ولكنهم أيضاً كانوا سريعين في التعامل مع الكمين، قاتلوا بشراسة، تحركوا وبدأت مجموعات جديدة منهم تحاول تطويقنا وإسعاف جرحاهم، إنهم مثلنا».

لكن هؤلاء الإسرائيليين الذين تبيّن لي أنهم جديون في دفاعهم عن دولتهم والأرض التي وضعوا أيديهم عليها، تعاملوا مع مشروعهم بغطرسة واضحة وبمغامرات عسكرية فجة، وحروب إجرامية. عسكروا مجتمعهم وضللوه، وأسهموا في تنمية تيارات أكثر مغالاة ورغبة في الاستعمار واضطهاد العرب. فكم من حرب خاضتها إسرائيل ضدنا وهي تحسب أنها الأخيرة، وأنها الحل النهائي لمشكلتها مع الفلسطينيين والعرب، ثم لا تلبث أن تكتشف أن الحرب التي بدأتها ستلد أخرى وأن القضية الفلسطينية لا حل عسكرياً لها. فهل إمكانية التفكير بحل

سياسي عادل وإنساني ممكنة في وعيهم مع ما نراه من صعود للقوى الأكثر تطرفاً في إسرائيل؟

المقاومة وأشكالها

أتساءل هل من وسائل أخرى في المقاومة، وأنا أرى أمام عيني جيلاً جديداً يتكوّن، يبحث عن النواقص في واقعنا فيجد الكثير منها، ويبحث عن الوسائل فلا يعرف غير العنف طريقاً للتعامل. جيل الجهاد الإسلامي وحماس التي تشكلت عام ١٩٨٨، وحزب الله، والانتفاضة الفلسطينية المسلحة عام ٢٠٠٠، أصبح أكبر من أن يتم احتواؤه بلا وسائل جديدة، وحلول مبتكرة، وأمثلة ونماذج تخلق التفاؤل بين الأجيال الشابة.

تجربتي في جنوب لبنان جعلتني أؤمن بالتوازن بين فكرتين: الحياة واستمرارها والمقاومة المسلحة ونجاحها. وأيضاً بين حماية الأفراد والمجتمع وحماية القاعدة الآمنة والمنطلق. ولكن أثناء وجودي تعلمت كم يمثل هذا من صعوبة وتحديات أمام المقاومين كما تؤكد هذه التجربة. وهذا يمثل أحد أهم أبعاد تجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق. فالمقاومة بإمكانها أن تكون حريصة في الحفاظ على حياة الناس وكرامتهم كما حصل معنا، إذ خضنا قتالاً، ولكن دافعنا عن حياة الناس وحقوقهم، سواء كانوا مسيحيين أو يهوداً لبنانيين أو مسلمين، أو تيارات نختلف معها، أو مدنيين عزّلاً، أو نساءً أو رجالاً. موضوع الأخلاق مسألة أساسية في مشروع المقاومة: التواضع، وحقوق الإنسان، ومساعدة الناس، وتمثيل الضعفاء، واحترام الرأي والرأي الآخر، ورفض التجاوزات، وحماية الممتلكات وحدود السلطات.

أتساءل في الوقت نفسه عن دور المقاومة المدنية بكل أشكالها، والتي تشرك كل الناس. فهذه المقاومة أقل تدميراً للإنسان والحياة، وأكثر تفاؤلاً بالمستقبل والبناء. إن العمل على مقاطعة إسرائيل، وإحياء الذاكرة، وتثبيت الهوية، والحقائق على الأرض، والمقاومة بالفن والمسرح والسينما والإعلام، والأغنية والتعبير والكتابة، والتعليم، والثقافة، والمسيرات المنظمة، والإعمار وبناء المؤسسات ودعم الإبداع، وزرع الأشجار وتحدي الموانع والحواجز... هي الشكل الأهم

للمقاومة في المراحل المقبلة. هذه الوسائل يمكن أن تكون مجتمعة مصادر ملهمة لمقاومة مدنية رديفة من نوع آخر أكثر فعالية وشمولية لانطوائه على البناء لا الهدم. ألا يمثل هذا جوهر إبداع شعر محمود درويش وأغنية مرسيل خليفة والرسام المبدع إسماعيل شموط وغسان كنفاني وعشرات المبدعين. في إمكان المقاومة أن تهزم أعداءها في فكرهم وأخلاقهم وسلوكهم ومرحلتهم التاريخية قبل أن تهزمهم في ساحة المعركة.

إن العنف المسلح، على أهميته في كل حركات التحرر وفي الكثير من التجارب وفي تجربتي الشخصية وتجربة السرية الطلابية وكتيبة الجرمق وحركة فتح والفصائل الفلسطينية، يحتوي في الوقت نفسه على نقاط ضعف وسلبيات يمكن أن تكون مدمّرة، بل إن كثيراً منه يحوي أحادية غريبة تجعل كل شيء يختصر من فوهة البندقية مما ينتهي الى تجفيف ينابيع المقاومة الانسانية. علينا أن نعيد قراءة تجربة العنف المسلح في الحركة الفلسطينية واللبنانية المقاومة ونقارنها بتجربة جنوب أفريقيا والهند والحقوق المدنية في أميركا والتغيير في مجتمعات لم تسر في هذا الطريق. لا أريد أن أقترح طريقاً لا يمكن سلوكه أو يبدو خارج المكان والزمان والفضاء، ولكن سنجد في أنماط جديدة للمقاومة ما يساعدنا على تحقيق نتائج أفضل ويسهم في كسب مزيد من الأصدقاء. لقد أدى العنف دوراً أساسياً في الحالة الفلسطينية: في الثلاثينيات، وصولاً إلى عام ١٩٤٨ ثم إلى ثورة ١٩٦٥ وحتى الآن وفي الإمكان القول إن السجل شديد القساوة بين الإيجابيات والسلبيات.

وتؤكد التجربة التاريخية للكفاح المسلح في العالم وفي الواقع العربي أن المقاومة المسلحة غالباً ما تكون بعيدة عن بيئتها، لأن الجماهير تكون في الملاجئ تحصي الدمار وتبكي الشهداء وتدفع الخسائر وتغلق المدارس. أما المقاومة الشعبية غير المسلحة ففي إمكانها أن تشرك الجميع في تحقيق الأهداف نفسها التي تسعى إليها المقاومة المسلحة. إن الذكاء الشعبي والمدني لم يشارك في قضيتنا إلا في مراحل محددة كما حصل في الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧.

وبرغم قوة حزب الله العسكرية فإن لديه وعياً شعبياً وجماهيرياً مدنياً سمح له بهذه المجازفة في حرب ٢٠٠٦ وبعد انتهائها، بينما في الانتفاضة الفلسطينية

المسلحة عام ٢٠٠٠ لم تقع هذه المواءمة بين الحياة والمواجهة على الإطلاق. ويذكر السيد نصر الله تجربة كتيبة الجرمق في أول خطاب للنصر في بنت جبيل بعد تحرير الجنوب اللبناني عام ٢٠٠٠ ويؤكد أن حزب الله بنى على هذه التجربة رغم اختلاف العقيدة.

ومن جهة أخرى، ما من شعب يحمل السلاح ويخوض حرباً طويلة تعتمد العنف المسلح وتستمر جيلاً وراء جيل إلا ويواجه تحديات جمة. السلاح في مراحل محددة يتحول إلى خطر على المقاومين أنفسهم، فمعه السطوة والقوة ومعه إهمال الأبعاد الأخرى الأساسية للتحرر. أسوأ شيء أن يخاف الشعب من مقاوميه.

في التجارب المقاومة يجب أن يتوافر متنفس للخلافات والتنوع، وهذا مناقض للعقلية العسكرية التي ترى كل شيء من زاوية قتالية محضة. كانت تجربة السرية الطلابية/كتيبة الجرمق متقدمة عن غيرها من التجارب في هذا المجال، وذلك من خلال تقبّلها للآراء المعارضة في المجتمع والتيارات المحيطة بها. ولكن الأجواء الجماعية للمقاومين في التجارب الفلسطينية والعربية كثيراً ما حدّت من التنوع والاختلاف بما في ذلك رفض الآراء المعارضة رفضاً مطلقاً، وهذا يعود ويسهم في إضعاف المقاومين وتراجع فكرتهم. هذا لا يعني أن بعضاً من تجربتنا احتوى على روحية أحادية، لكننا كنا نعي أهمية النقد الذاتي وتعايش الآراء والتركيز على الممارسة في المرحلة التي سبقت انهيارنا واختفاء تجربتنا.

علينا أن نجد طرقاً جديدة تسمح للناس والأفراد والمنضوين في تيار سياسي أو حزب أو جماعة بأن يعبّروا عن آرائهم بحرية، وعن مخاوفهم بوضوح، وفي الوقت نفسه أن يكونوا ملتزمين برؤية محددة، وقادرين على الإسهام في تطويرها وتحقيق أهدافها.

تبقى الكفاءة القيادية مسألة رئيسية في مشروع المقاومة، وهذا أمر أكدته تجربة السرية الطلابية التي احتوت على مجموعة متميزة من القدرات الشابة والقيادية. ربما من مشكلات تيارنا المقاوم أنه فقد خلال سنوات التأسيس الاولى منذ عام ١٩٧٥ خيرة شبانه ممن كانوا يظهرون حساً قيادياً عالياً. لكن تيارنا واجه أيضاً واقعاً فلسطينياً ولبنانياً وطنياً تنقصه استراتيجية الطروحات والخطط ويكثر فيه الارتجال.

فمن دون كفاءات لن نصل إلى نتيجة، لا في السياسة، ولا في التنظيم، أو المقاطعة ولا في الحرب، ولا في السلام والبناء.

ولن يكون غريباً أن نرى في غمرة تداخل وتطور المشاريع المقاومة فلسطينياً وعربياً،سواء في حزب الله وفي حماس وفتح وغيرها، أن تتداخل التجربة العلمانية مع الإسلامية لتنتج رؤى جديدة وأساليب جديدة في المقاومة والتغيير. حق للعلمانيين ولكل المختلفين مع طروحات الإسلام السياسي أن يجدوا مساحة لهم في الفكر والتعبير والنضال، وحق للإسلاميين أن يمارسوا كفاحهم وسعيهم. ولكن المستقبل يشير إلى آفاق تتجاوز التصنيف وتعمّق البعد الإنساني الديموقراطي لكل الأطراف بما يخلق أرضاً وسطاً.

وبينما أنتهي من مراجعة النسخة الاخيرة من هذا الكتاب في يناير وفبراير ٢٠١١ اندلعت الثورات العربية، التي تشير الى المقاومة المدنية بكل أشكالها كوسيلة رئيسية للتغيير وتحقيق المطالب. هناك وسائل نضال يجب اكتشافها من خلال تطبيق خلاق لنجاحات الثورات العربية في قيادة التغيير. ثورة فلسطين القادمة ستكون امتداداً للثورات العربية، لكنها ستكتشف طريقها من خلال فهمها للخصوصية الفلسطينية في مواجهة احتلال إجلائي استيطاني وعنصري.

أبدية التجربة

منذ أن تركت جنوب لبنان، بقيت لسنوات طوال أرى أصدقائي في أحلامي، أشعر بهم في خلوتي، أشعر أحياناً بلحظات موتهم بحشرجة السقوط الأخير لكل منهم عندما تمزّق الرصاصات والقذائف أجسادهم. لقد كبرت مع الزمن عمراً وتجربة منذ أن كنت في العشرينيات من عمري، ولكنني أذكرهم الآن جميعاً شباناً في ريعان الشباب. استشهد معظمهم وهم في العشرينيات تاركين بصماتهم في ثنايا الأزقة والصخور والجبال وفي ذاكرة المجتمع والناس الذين عرفوهم.

بقيت تجربتي لي فقط، في وجداني، ولن تصبح سرداً مفتوحاً إلا في هذا الكتاب. فقصة «جهاد» تختصر قصص آلاف الشبان الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والمصريين والسعوديين والكويتيين والعراقيين واليمنيين والعرب وغير

العرب ممن عاشوا تجربته أو سبقوه إلى تجربة شبيهة. ما زال جهاد في جنوب لبنان وربما هو اليوم في مارون الراس عنصر في حزب الله، أو في غزة عنصر في حماس، أو أسير من أسرى فتح أو الجبهة الشعبية في السجون الإسرائيلية، أو مناضل ضد الجدار والاستيطان يتصدى لرصاص الاحتلال، فهو يرمز إلى المقاتل العربي الملتزم الذي تبحث روحه عن خلاص وسلام وعدالة.

في هذه التجربة تركت ورائي احتراماً كبيراً لعظمة المقاتل اللبناني والفلسطيني والعربي، وتركت ورائي أرواح الشبان الكبار في أحلامهم والأنقياء في حياتهم وموتهم. فكل من سقط بجانبي أخذ قطعة من وجداني، وكل من رأيته يسلم روحه إلى الله أخذ معه شيئاً من روحي، في هذه التجربة متّ عشرات المرات وحييت عشرات المرات وسكن كل أصدقائي في أعماق روحي.

ستمر سنوات، سوف يتحرر الجنوب على يد حزب الله عام ٢٠٠٠ عبر مقاومة بطولية طويلة. قررت أن أزور الجنوب بعد أن تحرر. انطلقنا في السيارة في صيف ٢٠٠٢ أنا وتغريد وجاء معنا ابني يزن الذي كان في الثامنة إضافة إلى ابنتي حنين وكان عمرها ٢٢ عاماً وزينة ١٦ عاماً، وقدمت معنا صديقتان للعائلة: د. أروى الشاعر وأختها عالية. لم يكن أحد من أسرتي باستثناء تغريد يعرف تجاربنا إلا في نطاق ضيق. كنت في التاسعة والأربعين من عمري عندما عدت إلى الجنوب، وكنت قد تركت هذا العالم عندما قاربت الثامنة والعشرين. عبرنا في السيارة من بلدة الخيام إلى قلعة الشقيف إلى النبطية وبنت جبيل ومارون الراس ورأس الناقورة وكفر حمام، سرت في الجنوب مكاناً مكاناً باحثاً عن الذكرى مستعيداً ما كان حياً وقائماً فوق الجبال وفي المدن والكهوف.

وقفت في أعلى قلعة الشقيف التي لا تزال شامخة تقف بعزة غريبة رغم كل ما مرّ عليها، تذكرت الرياح والقصف والرعد والموت والقتل والفتك والبرد والضباب وراسم ومروان وحمدي وأبو حسن قاسم وسعد وعلي أبو طوق ومحمد علي وأبو عمر حنا، وبلال (الأوسط)، وجواد أبو الشعر، ونعيم، ودلال المغربي، وأبو علي، وأبو خالد جورج، وحسان شرارة، وبشار، وقاسم بزي، وأبو يقعوب، وأبو وجيه، وأيمن البرقاوي، ومحمد شبارو، وهاني كمال، وأحمد منتصر، وأبو خالد

سريع، وأبو الفدا، وحكيم، ومحمد شحادة وعشرات الشبان الآخرين، فمنهم من كان في القلعة ومنهم من كان في صنين والخيام وبيروت والجبل ينثر دماءه ومبادئه. تذكرت الشباب واحداً واحداً، كل قصتنا شخصت أمامي وكأنني أشاهد شريطها يمر بسرعة الخيال. الصدفة فقط هي التي سمحت لي بالعيش حتى هذه اللحظة لاستذكار هذا التاريخ. لماذا هم وليس أنا؟ سؤال يبقى من غرائب الحرب.

وقفت في أعلى القلعة وأنا أبدو كسائح غريب. جئت إلى القلعة مع أسرتي أشاهد التاريخ، بعد أن مسحت الرياح ذكرانا وقصصنا. ما رأيناه كان لنا، ومهما تحدثنا عنه وصوّرناه فقد حصل لنا في تجربة خط الشعب الذي تبنّيناه في السرية الطلابية وكتيبة الجرمق. كان ذلك الحدث الذي عشناه هو كل الكون بالنسبة إلينا. حرسنا ذلك التاريخ بدمائنا، لكن دماءنا لم تكن كافية، فللتاريخ منطقه.

في بنت جبيل وقفت على تلال مارون الراس وتذكرت أبو خالد، وحسان، وأبو وجيه وبشار، وبلال، ودلال المغربي ومحمد علي ومروان وعشرات برزت وجوههم أمامي من دون أن أفهم سرعة ومضات وجوههم وسرعة اختفائها، وقفت أتساءل تغالب عيني الدموع وأنا أقف في مارون: هل وقع هذا أم كان مجرد حلم لم أفق منه بعد؟ هل وقع كل هذا في حياتي ومعي ساعة بساعة؟ وهل سألتقي يوماً بكل هذه الأرواح البريئة والمتوقدة التي سقطت شابة على الدرب في طريق شائك؟

لقد تلاقت في تلك الجبال والأودية والأزقة كل الأرواح، وظلت تتلاقى وستظل تتلاقى في محبة أبدية معبّرة عن قضية عربية مجروحة وسعي إنساني إلى العدالة وشبان عرب حملوها في أرواحهم بصمت وعزم. أنحني لكل الذين حفروا على جدران قضيتنا وفي عمق وجداني وذاكرتي قصة تستحق أن تروى لأجيال ما زالت تحلم. سلام على أرواحهم الطاهرة.

فهرس الأعلام

- ب -

فهرس الأماكن